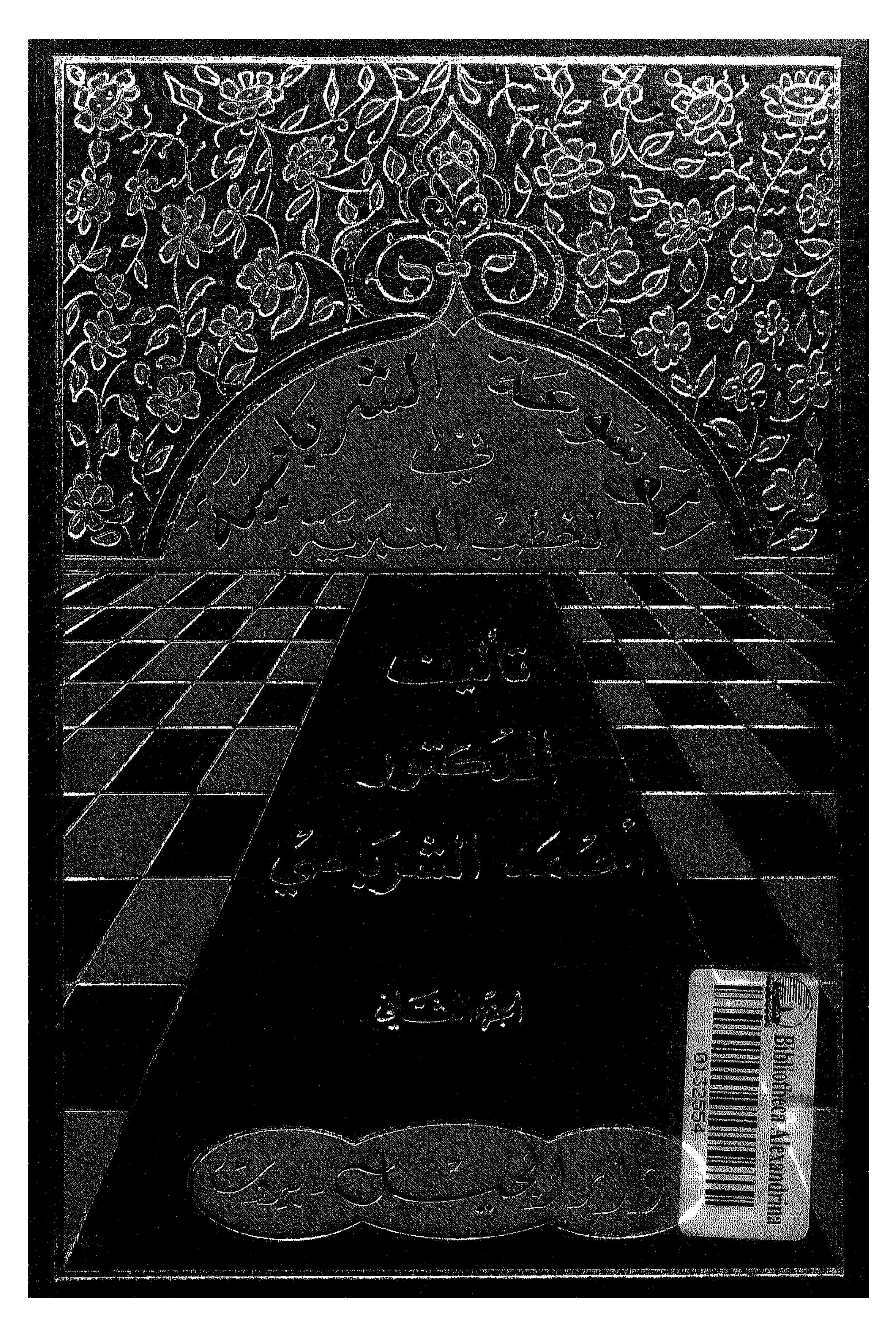

موسوعة الشرباصي في
الخطب المنبرية
تأليف
الدكتور
أحمد الشرباصي
الجزء الثاني
دار الجيل بيروت

الموسوعة الشرباصية
في
الخطب المنبرية

الموسوعة الشرباصية في الخطب المنبرية

الدكتور احمد الشرباصي

المجلد الثاني

دار الجيل
ص. ب ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلى وأسلم على أنبيائه ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد وعلى آله وصحابته ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين .

واستفتح بالذى هو خير « ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير » . « ربنا هيىء لنا من أمرنا رشداً » .

مقدمة

إن خطبة الجمعة هي العظة الأسبوعية العامة التي يتلاقى على سماعها أبناء الإسلام ، وإن شئت تعبير العصر فقل إنها الصحيفة الأسبوعية الإسلامية الناطقة التي يستمع فيها المسلمون إلى كلمة الله فيما يهمهم من شئون الدين وشئون الدنيا ، وهذه الخطبة تأتي في يوم الجمعة العظيم الجليل الذي ورد في شأنه وفضله من الأحاديث والآثار ما ورد ، وحسبنا قول رسولنا صلوات الله وسلامه عليه : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة » . وتأتي خطبة الجمعة قبل الصلاة ولعل ذلك لتكون إيقاظاً لمشاعر التدين في النفوس فتقبل على الصلاة بخشوع واعتبار ، وليسمعها الناس في هدوء واصطبار لأن بعدها واجب الصلاة ، وقد ورد في شأن الاستماع إلى الخطبة والاندماج فيها والتأثر بها والتأدب معها ما لا مزيد عليه ، حتى عدها فريق من الفقهاء كجزء من الصلاة ، والرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي يقول : « إذا قلت لصاحبك والامام يخطب يوم الجمعة : انصت فقد لغوت » .

ولا عجب فخطبة الجمعة يراد منها التفقيه في الإسلام ،والحديث يقول : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » ، وهي تذكير بالله وتحبيب في ثوابه ، وتخويف من عقابه ، والله يقول « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ويقول : « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » وهي محاولة لإيقاظ القلوب التي تظل طيلة الأسبوع راتعة جامحة ، فهي بحاجة إلى إحياء وتقوية وجلاء وتصفية ، وما أنفع الكلم الطيب في تحريك الأفئدة السليمة : « يثبت الله

الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » .

وانطلاقاً من مكانة خطبة الجمعة بين شعائر الإسلام الكبرى أقـــدم للقارىء الكريم الجزء الثانى من « الموسوعة الشرباصية فى الخطب المنبرية » مشتملا على مائة خطبة وعلى المنهج الذى أخرجت عليه سابقه الجزء الأول من هذه الموسوعة .

والله تعالى أسأل أن ينفع به وأن يجزى أستاذنا المؤلف عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

دكتور / عبد الستار حسين زموط
المدرس بكلية اللغة العربية — جامعة الأزهر
بالقاهرة

نعمة الرضى[1]

الحمد لله عز وجل ، هو مصدر النعم وواسع الكرم : « إن الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، لا رب غيره ، ولا معبود سواه : « بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أخلص لربه وجهه وقلبه وعقله ، فأوسع الله له عطاءه وفضله « ولسوف يعطيك ربك فترضى » . فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله بيته ، وأهل صحبته ، وأتباع ملته : « رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

سيظل الحديث عن السعادة والشقاء باقياً ما دام فى الدنيا حياة وأحياء ، ولقد اختلف الناس فى تحديد السعادة اختلافاً مبيناً ، فنهم من زعم أنها المال ، ومنهم من زعم أنها الجاه ، ومنهم من زعم أنها كثرة الأهل والأنصار: ولكن يوجد فى الناس من يملك المال الكثير ولا يحس بالسعادة ، وهناك الذى ينال من الجاه ما ينال ثم لا يسعد ، وقد يكون الشخص بين عشرات من أهله وأقاربه وأنصاره ، ومع ذلك يشعر بالضيق والملل ، أو بالألم والقلق بينما قد يعيش إنسان آخر وحيداً فريداً ومع ذلك يحس بالسعادة والسرور . . . ونلاحظ أن كثيراً من الناس يشكون من دنياهم ، ويضيقون بحياتهم ، ويعتبرون أنفسهم فى شقاء ، وذلك لأنهم لم يتجملوا بالنعمة الكبرى وهى نعمة الرضى ، ولو أنهم عرفوا الرضى وألفوه لذاقوا حلاوة السعادة وطعم

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٤ من ربيع الآخر سنة ١٣٧٨ هـ الموافق ١٧ أكتوبر سنة ١٩٥٨ م .

الهناء ، لأن الرضى يكون نتيجة للتوكل على الله ، والثقة به ، واستمداد المعونة منه ، ومن ربط أسبابه بأسباب ربه فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، واعتصم بإيمانه بمالك الملك سبحانه : وللايمان المطمئن الراضى حلاوة تفوق كل حلاوة ، وعذوبة دونها كل عذوبة ، والرسول يصور لنا طريق هذا الإيمان حين يقول : « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولا » .

والرضى بالله يستلزم محبته والخوف منه ، والالتجاء إليه والاعتماد عليه والرضى بالرسول يستلزم الحب له والاهتداء بهديه والاقتداء بسنته والتشبه به فى كفاحه ونضاله ، وأقواله وأعماله ؛ والرضى بالدين يستلزم الخضوع لأحكامه والاستجابة لتعاليمه بمـــا فيها من حوافز التطهر والتعبد والتقوى والاستقامة على صراط الفضيلة والعدالة والإنصاف ، وإذا حقق أبناء الإسلام كل هذا فقد « رضى الله عنهم ورضوا عنه » ، « ورضوان من الله أكبر » ، وإذا تحلت النفس بالرضى الواثق والإيمان الموقن ، فقد عزت فى العاجلة ، وسعدت فى الآجلة : « يا أيتها النفس المطمئنة إرجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » .

إن أناساً فى هذه الحياة يصيبهم سعار الحرص والجشع ، ويستبد بهم طغيان الشره ، فهم يطمعون ولا يقنعون ، وهم يجمعون ولا يوزعون ، وهم يأكلون كما تأكل البهائم ، ويشربون كما تشرب الهيم ، ومع ذلك يظلون فى قلق وجزع ، وضيق وهلع ، لأنهم أضاعوا نعمة الرضى التى توجـــد طمأنينة القلب وتحقق راحة السكينة ، وتنشر ستار الأمان ، وتذكر بأن الله وحده هو صاحب الأمر أولا وأخيراً ، فيجب أن نتلقى عنه ما يمن به من خير وبر ، وأن نحمده ونمجده ، حتى يسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة ، وفى مقدمتها نعمة الشكران والاطمئنان ، وقد جاء فى بعض الآثار كما ينقل

ابن القيم : أنا الله ، لا إله إلا أنا ، قدرت التقادير ، ودبرت التدابير ، وأحكمت الصنع ، فمن رضى فله منى حتى يلقانى ، ومن سخط فله السخط منى حتى يلقانى » .

وفى بعض الآثار أن موسى صلى الله عليه وسلم سأل ربه عز وجل : ما يدنى من رضاك ؟ فقال : إن رضاى فى رضاك بقضائى ! وفى الحديث : « من سعادة ابن آدم استخارة الله عز وجل ، ومن سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله ، ومن شقاوة ابن آدم سخطه بما قضى الله ، ومن شقاوة ابن آدم تركه استخارة الله » .

وليس الرضى كما يظن كثير من الناس تواكلا فى الحيـــاة ، أو تكاسلا عن العمل ، أو تغافلا عن السعى ، أو تجاهلا للواجبات : بل إن الرضى حق الرضى هو الإقدام بفهم ، والعمل بعزم ، والتصرف بحزم ، والاحتمال لمتاعب عبء الطريق ، والصبر على متاعب الحياة ، والرضى بما يسوقه الله ، مع حسن الاستخدام لما ساقه من هبات وخيرات فى هذه الحياة .

ومن هنا كان الرضى لا ينافى الشعور بالتعب أو الإحساس بالألم ، وهذا سيد الإنسانية محمد كان أفضل الراضين الشاكرين ، ومع ذلك أحس لوعة الأسى والحزن حينما فقد ابنه الوحيد إبراهيم فقال : « يحزن القلب ، وتدمع العين ، ولا نقول إلا ما يرضى الرب » . فهو قد حزن ولكنه احتمل وهو قد تألم ولكنه لم يقل ولم يفعل إلا ما يرضى ربه جل جلاله ؛ والرجل السوى العاقل قد يرضى بما يؤلمه ما دام فى ذلك شرفه أو فائدته . . . ألا يرضى المريض بالدواء الشاق وهو يكره مرارته ؟ ألا يرضى المؤمن بصوم اليوم الطويل الحار وهو مجلبة للظمأ والجوع ؟ ألا يرضى المؤمن بفريضة الجهاد وهو يعلم ما فيها من أخطار ومتاعب ؟ ! . . .

والإنسان المؤمن إذا لم يستطع أن يبلغ درجة الرضى الموقن ، والتقبل المطمئن ، كان عليه أن يتحمل ما يساق إليه ، وأن يصر عليه ، بهمة من لا يشكو ولا يصخب ، وبمظهر من يصبر ولا يغضب ، والرسول يقول : إن استطعت أن تعمل بالرضى مع اليقين فاقبل ، فإن لم تستطع فإن فى الصبر على ما تكره النفس خيراً كثيراً » . ولقد كتب عمر الفاروق إلى أبى موسى الأشعرى يقول له : « أما بعد ، فإن الخير كله فى الرضى ، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر » . وكم من أشياء يكرهها الإنسان ويحسبها ضرراً أو شراً فإذا هى تفضى إلى خير ونفع « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون» ، « فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً . ولا يغيبن عن ذهن المسلم أن الله قد يؤدب عباده ويهذبهم ، ويمحص معادنهم ، ويعجم أعوادهم ، بألوان من الاختبار والابتلاء ، كما يفعلون فى الجندية — ولله المثل الأعلى — فهم يدربون الجنود على الأعمال الشاقة والتمارين العنيفة والتجارب القاسية لا لذات التجارب ، بل لاختبار الهمم وابتلاء العزائم. وإعداد الجنود ليوم الهول وساعة الإقدام ، ومن هنا جاء فى الأثر : « إذا أحب الله عبداً ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، فإن رضى اصطفاه » . . .

والمؤمن إذا نزل به لون من ألوان الابتلاء لا يتداعى بنيانه ، ولا يضعف إيمانه ، ولا يركن إلى الخمود والاستسلام ، بل يحتمل ويصبر ، ويعزم ويقدم ، مواصلا السعى والعمل ، فما لا يدرك اليوم يدرك غداً ، والله مع الصابرين الذين لا يملون ولا يسأمون ، بل يثابرون ويصابرون ، واثقين من الوصول إلى ما يأملون يوماً من الأيام : « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون والواثقون بالله الراضون عنه لا يزلزلهم شىء من الناس ما دام إسلامهم محفوظاً ويقينهم باقياً . ولقد قال عمر بن الخطاب يوماً لزوجته عاتكة وقد غضب

عليها : والله لأسوأنك ! . فقالت له : أتستطيع أن تصرفنى عن الإسلام بعد إذ هدانى الله إليه ؟ قال : لا . قالت : فأى شئ تسوؤنى به إذن ؟ ! . .

وهذا هو ابن مسعود يترجم عن النفس الراضية ، الشاكرة الصابرة . فيقول : « الفقر والغنى مطيتان ما أبالى أيهما ركبت ، إن كان الفقر فإن فيه الصبر ، وإن كان الغنى فإن فيه البذل » .

والإنسان إذا عمر نفسه بالرضى ، وحض صدره بالطمأنينة ، استقبل الحياة باستجابة وترحيب ، وبشر وسرور ، لا يثيره دواعى الضيق فيتسخط أو يتشكى ، أو يرهب الماضى أو يتهيب إلى خرأ ويخاف المستقبل ، بل يقول قوله ذلك الرجل وقد بلغ السبعين : « لست أهاب غدى ، فقد أبليت أمسى ، وإنى أحب يومى » .

أما أولئك الذين ضعفوا وهانوا ، فرضوا بالمذلة والمسكنة ، أو خضعوا لغير الله ، وعبدوا ما سواه من مال وجاه ، أو ركنوا إلى العجز والكسل ، فأولئك ليسوا من الرضى فى شئ ، فإن الرضى فى الإسلام أن تكون عزيزاً بين الخلق لا تذل إلا لله ، غنيا ترى غناك استغناء عن الناس وفقراً أمام الله ، حرا ترى حريتك فى إسائك للضيم كيفما كان مع تشرفك بالعبودية لله .

ومما زادنى شرفاً وتيهاً وكدت بإخمصى أطأ الثريا
دخولى تحت قولك يا عبادى وأن صيرت أحمد لى نبياً !

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . فلنحارب هذا القلق الناشىء الإسراف فى الهوى والطمع ، ولنعمر دنيانا بالرضى والاطمئنان ولنحص نفوسنا بعصمة اليقين والإيمان ، ولنتذكر على الدوام أنه قيل ليحيى بن معاذ :

متى يبلغ العبد إلى مقام الرضى ؟ فقال : إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ربه فيقول : إن أعطيتنى قبلت ، وإن منعتنى رضيت ، وإن تركتنى عبدت ، وإن دعوتنى أجبت ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم اللهم اجعلنا راضين مرضيين ، اللهم اجعلنا من الذين يرضون بك وبرسولك وبدينك ، ويأتون كل بهتان وكفران ، ويصبرون على الطاعة والعبادة ، ولا يصبرون على الذلة والمهانة ، ويصبرون فى ميدان العمل والجهاد ، ولا يصبرون على الاستعباد ! . . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . . .

خلـق الثبات(١)

الحمد لله عز وجل ، بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير. أشهد أن لا إله إلا الله ، يراقب ويحاسب ، ويثيب ويعاقب ، وإلى الله تصير الأمور ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، هو إمام العابدين الثابتين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، طوبى لهم وحسن مآب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن شخصية الإنسان لا تتأكد ولا تتوطد دون أخلاق ، لأن مكارم الأخلاق هي زمام الحياة الفاضلة ، وشعار الأحياء الشرفاء ولذلك قال سيد الخلق محمد صلوات الله وسلامه عليه : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وكان يدعو ربه فيقول : « اللهم كما حسنت خلقي ، فحسن خلقي ، اللهم جنبني منكرات الأخلاق ، اللهم أهدني لأحسن الأخلاق ، ولا يهدي لأحسنها إلا أنت » ، وفي طليعة الأخلاق العالية السامية يأتي خلق الثبات ، والثبات استقرار واطمئنان ، ورسوخ حسي ونفسي ، وقوة مادية ومعنوية ، ودوام على ما يلزم الإنسان أن يستمسك به ويجد فيه ، ومواطن هذا الثبات كثيرة متعـــددة ، بعضها مطوي مستور ، وبعضها ظاهر منشور ، فهناك الثبات في العقيدة يهتدي إليها الإنسان بوعي وبصيرة ، فيحيا عليها ، ويفنى في سبيلها ولا يتنكر لها ، ولا يفرط في حقوقها ، وهذا الثبات على العقيدة والمبدأ هو أكرم ألوان الثبات وأكثرها احتياجاً إلى التضحية والبذل ، وهناك الثبات في التفكير يأتي برزانة وحكمة ، حتى لا يختلط الحق بالباطل ،

---

(١) ألقيت بمسجد التليفزيون في يوم الجمعة ١٥ شوال سنة ١٣٨٨ هـ الموافق ٣ يناير سنة ١٩٦٩ م .

أو يتداخل الظلام فى النور ، وهناك الثبات فى الكلمة يرسلها صاحبها فى موطنها قويمة رشيدة لا تؤخذ عليه ولا تسىء إليه ، وهناك الثبات فى الحس أو البدن ، حيث لا يضطرب ولا يتزلزل كما يحدث من الرعد يد الجبان ، وبهذه الألوان من الثبات يعلو قدر الإنسان وتشرف به هذه الحياة ، ولقد من الله تبارك وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بنعمة الثبات والاطمئنان ، فقال له عز من قائل : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك » وقال له : « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا » . وكذلك من الله جل جلاله على المؤمنين بنعمة الثبات فى حواسهم ونفوسهم فقال : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فأضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » . وأرشد الله عباده إلى الطريق السوى النقى الذى يتحقق به الثبات ، وهو الإقبال على الله ، والاعتصام بهداه ، والاعتزاز بحماه ، ولذلك قال : « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم : وأوضح لنـــا أن الدوام على ذكر الله والعمل بما يرضاه هو المفتاح إلى الاستقرار والاطمئنان فقال : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

وإذا كان الله عز وجل قد أمر الأخيار من عباده بالثبات فى مواطن الشدة والهول ، فقال لهم : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » فإنه قد حذرهم أن يميلوا إلى الفزع أو الاضطراب أو يقبلوا الدنية أو الهوان ، فقال لهم : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » . كما حذرهم الفرار من التبعات والواجبات ، وأعلمهم أن صدق التوكل

عليه ، مع صدق الإيمان به ، مع صدق البذل لكل مجهود فى سبيله ، خير وأولى من الحرص على الحياة والتهرب من الواجب ، فقال : « قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل » وقال : « قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم » .

ولقد كانت غزوة أحد من الغزوات الإسلامية المجيدة درساً بليغاً عميقاً فى الإرشاد إلى أن الثبات الملتزم هو طريق الفوز والعزة ، وأن الاضطراب أو التردد هو سبب الهزيمة والفشل ، فالرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول للرماة وقد كلفهم حراسة ظهر الجيش المؤمن من فوق الجبل : « إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا نهزم القوم ، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم » ولو أنهم فعلوا ما أمرهم به وثبتوا عليه لما كان ما كان مما صار عظة وعبرة فى كل زمان ، وحينما اشتد الأمر يومئذ بسبب المخالفة والخروج على الثبات فى الطاعة لم ينقذ الموقف بفضل الله إلا الاعتصام بخلق الثبات ، فقد أشاع الكافرون بين المسلمين أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قتل ، ففزع لذلك ضعفاء ، ولكن أهل الثبات والإيمان والاطمئنان قطعوا الطريق على الضعف والخذلان ، فاندفع منهم من يقول : يا قوم ، إن كان محمد قد قتل ، فإن رب محمد لم يقتل فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد صلى الله عليه وسلم . واندفع الثابتون الأوفياء يجاهدون بلا يأس أو قنوط ، وزكى الله جل جلاله ثباتهم ووفاءهم ، وعاب الخذلان والاضطراب فقال : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزى الله الشاكرين » . وهؤلاء الثابتون الأوفياء فى مواطن النضال والكفاح هم أيضاً الذين زانهم ربهم بثبات الرأى وثبات القول ، وثبات التصرف ، فقال عنهم : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا

وفى الآخرة ، ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » . ولقد حرص رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يعمق جذور الثبات فى نفوس المؤمنين عقب الدرس الأليم الذى تلقوه فى أحد ، فخرج فى اليوم التالى لغزوة أحد يتعقب الأعداء فى صحبة جنوده الأوفياء ، وهو يقول لهم : « لا ينطلقن معى إلا من شهد القتال بالأمس » وكأنه يريد بذلك ألا يتطرق إليهم ضعف أو وهن مهما كان الابتلاء ، ولذلك استحقوا أن يقول الله جل جلاله فى شأنهم : « الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ، الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن الحياة عقيدة وجهاد ، وإن طريق الأخيار عمل وثبات ، وأفضل الطاعات مداومة الجهد فى سائر الأوقات ، وطريق الطاعة طويل لابد له من ثبات واستقرار ، وطريق الحرية والكرامة طويل لابد له من ثبات واستقرار ، وطريق الأبطال المحقق للآمال بكريم النضال طويل لابد له من ثبات واستقرار ، فلندرع بخلق الثبات فى تفكيرنا وفى تصرفنا وفى نضالنا وفى أقوالنا وأعمالنا ، « يا أيها الذين آمنوا أصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

القـوة الفاضـلة[1]

الحمد لله عز وجل ، هو بديع السموات والأرض ، وله القوة جميعاً ، وهو على كل شيء قدير . أشهد أن لا إله إلا الله ، يحب الأقوياء الشرفاء ، ويبغض الضعفاء الأخساء « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، نبي الرحمة ومنبع الحكمة ، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

يقول بعض الذين لا يتابعون الحقائق إن ميزة التفكير المعاصر أنه آمن بالقوة ، وفسح لها طريقها ، فأبلغته ما يتمتع به من مدنية وحضارة ، ومع أن القوة التى يتحدث عنها هؤلاء قوة مادية صماء ، تشبع البطن ولا تمتع الروح ، وتطغى فى البشرية جوانب الحيوان ، وتضعف فيها جوانب الإنسان ، فإن التفكير المعاصر ليس أول من اهتدى إلى الإيمان بالقوة ، بل هو مسبوق فى ذلك بعصور ودهور ، وقد سبقه من هو أعمق منه فكراً ، وأبعد نظراً ، وأطيب أثراً وثمراً ، لأنه آمن بالقوة العاقلة العادلة الفاضلة ، التى تسمو بشدتها ، وتحنو برقتها ؛ وهذا السابق هو الإسلام العظيم الذى يقول رسوله الكريم محمد عليه الصلاة والتسليم : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير . احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أنى فعلت كذا لكان كذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء الله فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان » .

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٢٠ من المحرم سنة ١٣٨٥ هـ الموافق ٢١ مايو سنة ١٩٦٥ م .

ولنلاحظ أولا وقبل كل شيء أن سيد البشرية محمداً لم يفاضل بين مطلق قوى ومطلق ضعيف ، بل فاضل بين مؤمن قوى ومؤمن ضعيف ، وذلك لأن الإيمان هو الذى يعطى القوة عقلها رعدلها وفضلها ، والإيمان يتحقق باجتماع ثلاثة أشياء هى التصديق بالجنان ، والإقرار باللسان ، والأداء للأركان ، ومتى اعتقد الإنسان حقاً ، ونطق صدقاً ، وأدى واجباً ، وعمل صالحاً ، فقد صار من خيرة الأقوياء .

وبعض الناس يظنون أن المراد من القوة فى هذا الحديث النبوى هى قوة البدن ، مع أن إطلاق القوة هنا يشمل قوة البدن والعقل والروح والعمل، ويشمل القوة الحسية والقوة المعنوية ، بل لعل القوة المعنوية أهم فى نظر الإسلام من القوة الحسية . ولذلك يقول سيد الخلق محمد صلوات الله وسلامه عليه : « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » . والصرعة هو الرجل الموفور القوة البدنية الذى يصرع غيره من الرجال ، وهذا معناه أن قوة الأخلاق المؤدية إلى ضبط النفس وثباتها أعلى مكانة من صلابة الأعضاء ؛ والإسلام مع هذا قد دعا إلى ألوان القوة الملائمة كلها ، فدعا إلى قوة البدن حين قال الرسول : إن لبدنك عليك حقاً » . ودعا إلى قوة العقل فقال القرآن : « وقل زدنى علماً » ، ودعا إلى قوة الهمة بقول الرسول : « إن الله يحب معالى الأمور ويكره سفسافها » ، ودعا إلى قوة الجماعة حين قال القرآن : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ، ودعا إلى قوة الكفاح والجهاد بقول القرآن « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » ودعا إلى قوة الأخلاق بقول الرسول : « ليس الغنى عن كثرة العرض « أى المال ، ولكن الغنى غنى النفس » ولن تغنى النفس حقاً إلا إذا استعصمت بمكارم الأخلاق .

ولو تتبعنا مواطن استعمال القرآن لمادة القوة لوجدنا فيها رموزاً إلى اجتماع طرفى الشدة والرحمة فى هذه القوة ، فالقرآن يصف الله جل جلاله بقوله : « إن ربك هو القوى العزيز » وهذا الإله القوى من أوضح صفاته أنه الرحمن الرحيم « نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم » ، والقرآن يصف جبريل بأنه« شديدالقوى » وجبريل هو الروح الأمين وهو سفير الرحمن إلى المرسلين ، والقرآن يقول عن النبى طالوت : « وزاده بسطة فى العلم والجسم » فهناك إذن قوتان بدنية وعقلية ، والقرآن يقول عن شيخ الأنبياء : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » .

ثم يقول الحديث : « وفى كل خير » أى أن كلا من المؤمن القوى والمؤمن الضعيف فيه خير ، ولكن مع اختلاف المراتب والدرجات ، وليس فى هذا الكلام تحريض على أن يغتر القوى بقوته ، أو يقف الضعيف عند ضعفه ، بل فيه توجيه للمؤمنين الأقوياء بأن يزدادوا من الخير وأن يستكثروا من الفضل وأن يواصلوا المسير فى طريق القوة والعزة بكل الوسائل والأسباب التى تزيد فى القوة المادية والمعنوية يوماً بعد يوم ، ومرحلة فى إثر مرحلة وفيه تحريض للضعيف على التخلص من ضعفه ، ليلحق بركب الموقنين الأشداء : « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » . ومن هنا قال الحديث بعد ذلك « احرص على ما ينفعك » والحرص هو شدة الإرادة للشئ » ، وكان هـذا حث على أن يكون الإنسان قوى الإرادة وطيد العزيمة فى تحصيل ما ينفعه ويصلح شأنه ، سواء كان هذا الشئ النافع دينياً أو دنيوياً ، مادياً أو معنوياً فالقرآن يقول : « وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين » . وقد يظن ظان أن الإنسان إذا خدم غيره بشئ فإن هذا الشئ لا يكون نافعاً لمن فعله ، مع أنه فى الحقيقة ينفع من أخذه بتحقيق

مصلحة له ، وينفع من فعله بإثابة الله له ، أو بحسن أحدوثته بين الناس ، أو شعوره بالغبطة لصنع الجميل ، أو لأن الفعل الحسن سيقابل بمثله ، والقرآن يقول : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » ؟ .

ثم قال الحديث : « واستعن بالله ولا تعجز » أى أطلب المعاونة من مصدر العون كله وهو الله جل جلاله : « إياك نعبد وإياك نستعين » : وهذا حث قوى على الجد فى العمل ، والعزيمة فى الرشد ، والاجتهاد فى الخير ، مع استشعار الرجاء والتدرع بالأمل ، وعدم الركون إلى العجز أو الضعف ، والرسول يقول : « إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس ، فإذا غلبك أمر فقل حسبى الله ونعم الوكيل » والكيس هو العقل ، أى لا يرضى لك الله أن تقعد مستكيناً عاجزاً ، بل يدعوك إلى استخدام عقلك وبذل جهدك ، وأنت فى الغالب ستصل ، فإن شاءت لك الأقدار حيناً شيئاً من الابتلاء فلا تيأس ولا تقنط ، بل قل فى إيمان ويقين : حسبى الله ونعم الوكيل. وفى ضوء هذا نفهم قول الحديث : « وإن أصابك شئ فلا تقل لو أنى فعلت كذا لكان كذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء الله فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان » . وعمل الشيطان هو إثارته الندم والحسرة فى نفس الإنسان ، وتحريكه عوامل اليأس عنده حتى يقطع خطواته عن متابعة السعى ومعاودة المحاولة ، ومن عمله هنا أيضاً فتحه أبواب التعليلات والتقديرات الوهمية التى لا تغنى ولا تفيد ، ولا تغير مما مضى وانقضى شيئاً ، بل تجعل طعم الهزيمة مراً قاسياً ، فيظل صاحبها يتحسر فى تهدم ويقول : لو كنت فعلت كذا لكان كذا ، ولو لم أفعل كذا لم يكن كذا . مع أن الواجب عليه حينئذ أن يتدبر موقفه ، ويسترد عزيمته ، وينطلق إلى محاولة أخرى ، محصناً

بكل معانى الثقة فى الله والاعتماد عليه ، ولذلك يقول الرسول : « من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : دينكم دين القوة النظيفة الشريفة العفيفة . إنه قوة فى الاعتقاد يمثلها الإيمان ، وقوة فى الحرص على ما ينفع ، وقوة فى الاستعانة بالله ومقاومة العجز ، وقوة عند الهزيمة أو الفشل ، وقوة فى التخليص من أوهام العجز والاستسلام ، وقوة فى محاربة الشيطان فلنكن أقوياء ولنكن فى قوتنا شرفاء ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل واتقوا الذى أنتم به مؤمنون . . .

الاعجاب بالنفس[1]

الحمد لله عز وجل، هو وحده علام الغيوب المطلع على سرائر النفوس والقلوب أحمده سبحانه وأشهد أن لا الله الا الله ، البصير بخفايا الطويات وسرائر النيات : وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، الذى أدب وهذب ، وعلم وقوم ، فكان إمام المصلحين ، فعليه من ربه الصلاة والسلام ، وعلى آله وذريته ، وصحبه وعشيرته ، والسائرين على طريقته ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

أعرف إنساناً له كثير من الطاقات والهبات ، فهو أديب مفكر ، وهو غزير الإنتاج كثير الكتب ، وهو ذو شهرة طيبة بين قومه ، ولكن عيبه الوبيل أنه كثير الحديث عن نفسه ، متصل الثناء على كتبه ، مسرف فى التزكية لشخصه ، فكتابه الفلانى فى زعمه لا مثيل له فى العالم ، وعمله الفلانى لا يقدر عليه غيره من أبناء البشر ، وهو من وراء ذلك يظلم نفسه بنفسه ، ويحمل الناس على كراهيته والضيق والفرار من مجلسه ، حتى يستريحوا من حديثه عن تزكيته لنفسه ، وثنائه على بطولاته ، وترديده لأمجاده ؛ وقد قرأت فى حديث الحسن هذه العبارة : « اللهم إنى أعوذ بك من جنون العمل » أى من الإعجاب به ، والمباهاة بمكانته ولفت الأنظار إليه ، وكثرة الثناء عليه ، لأن الإسراف فى ذلك يؤدى إلى ما يشبه الهوس أو الجنون ، والجنون فنون ، فهناك جنون العقل ، وجنون الهوى وجنون الحديث عن النفوس ، وعبارة الحديث : « اللهم إنى أعوذ بك من جنون العمل » عبارة جليلة عميقة

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٢٣ شوال سنة ١٣٩٤ هـ الموافق ٨ نوفمبر سنة ١٩٧٤ م .

المدلول تذكرنا بعبارة أخرى جاءت فى حديث الحسن أيضاً ، وهى تقول : « لو أصاب ابن آدم فى كل شئ جن » أى أدى به الإعجاب بنفسه إلى ما يشبه الجنون ، فيكون سبباً فى الجناية على نفسه وهو يحسب أنه يحسن إليها صنعاً ويبنى لها مجداً ، وكم من مهالك لنفسه وهو يظن أنه إلى طريق النجاة يسير .

وتزكية النفس — وهى مدحها والثناء عليها — آفة من آفات العباد إذا اشتطت وزادت عن الحد المعقول ، وجاءت بلا سبب مقبول : ولذلك حمل القرآن الكريم على هذه الآفة ، وحذرنا التعرض لها والوقوع فيها ، فقال الحق تبارك وتعالى : « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » . أى لا تمدحوها ولا تثنوا عليها ، فإن الله المطلع على الضمائر المحيط بالسرائر ، بكل عليم بكل شئ ، وحافظ لكل شئ ، وهو خبير بمن يصدق فى أعماله وأحواله ، ومن يرائى أو يصانع : « إنه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » . ويعود القرآن المجيد إلى التعريض بأهل السوء المزكين لأنفسهم الآثمة ، فيقول : « ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا » . والله جل جلاله ينهى رسوله فى طليعة بعثته عن الإعجاب بالعمل أو الاعتزاز بالمجهود ، أو الظن أن ما قدمه فى سبيل ربه ضخم كبير كثير يسوغ الافتخار به ، فيقول له : « ولا تمنن تستكثر » أى لا تجعل عملك يعظم فى عينك فتحسبه كثيراً فى جنب الله ، بل واصل العمل متواضعاً متجنب الزهو به والخيلاء : « فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب » .

وتقبل السنة النبوية المطهرة من وراء القرآن المجيد ، لتعلم أنصارها العمل فى صمت ، وإخلاص النية لله فى هذا العمل . وابتغاء وجه الله به ، فهو

المعطى ، وهو المحصى ، وهو المجازى ، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملا ، فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « لا تزكوا أنفسكم إن الله أعلم بأهل البر منكم » ويقول : « إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك نفسك » أى احذر أن تصيبك هذه الآفات كما أصابت سواك ، والزم إصلاح نفسك وتعميرها بمكارم الأخلاق ، كما ورد قوله : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » . وليس معنى هذا أن يضيع الإنسان حقه ، أو يترك المطالبة بما يستأهله أو يثبت له ، أو يسمح لغيره بالعدوان عليه والهضم له ، فإن ذلك مذلة وهوان ، والمذلة والإيمان لا يجتمعان ، والحق جل جلاله يقول فى صفة عباده المؤمنين : « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » ويبيح للمهضوم أن يطلب حقه ، وأن يدفع الظلم والغبن عن نفسه ، ويحذر الطاغين المتزيدين المتطاولين فيقول : « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ، ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم » .

والإنسانية تشكو مر الشكوى من القوالين المسرفين ، الذين يصدعون رءوس العباد على الدوام بأحاديثهم عن أنفسهم ، وتغنيهم ببطولاتهم ومحامدهم وإسرافهم فى هذا المجال إسرافاً معيباً مخجلا ، يذكرنا بحديث الحسن العميق الدلالة : « اللهم إنى أعوذ بك من جنون العمل » . وإذا كان أدب الإسلام لا يرتضى للإنسان أن يشوه صورته أمام الناس بكثرة تزكيته لنفسه ، واتصال حديثه عنها بالحق أو بالباطل ، فإنه إلى جوار هذا يستنكر ذلك الخلق الذميم الآخر ، وهو إسراف الإنسان فى مدحه لغيره دون موجب ، اللهم إلا أن يكون النفاق أو الرياء أو الطمع فى مال أو جاه ، ومن هنا أرشدنا معلم البشرية سيدنا رسول الله إلى أن نلقى هؤلاء الكذابين المسرفين فى المديح والثناء

بالقمع والقطع والمنع والازدراء ، فقال : «احثوا فى وجوه المداحين التراب » . وقال لمن أسرف فى مدح إنسان أمامه : « قطعت عنق صاحبك ». وأرشد النبي كل مسلم إلى أن يتبصر فى ثنائه على غيره ، وأن يحتاط فى مدحه له : حتى لا يتعرض للكذب أو الافتراء أو المبالغة فقال عليه الصلاة والسلام: « إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة ، فليقل : أحسب فلاناً ، والله حسيبه ، ولا أزكى على الله أحداً ــ أحسبه كذا وكذا ، إن كان يعلم ذلك » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

من الآفات الضارية المستشرية فى مجتمعنا كثرة الحديث عن النفس ، والإسراف فى تزكية الذات ، مع أن اللائق بالإنسان هو أن يتهم نفسه دائماً حتى لا تفتر أو تتكبر ، ولقد قيل للسيدة عائشة رضى الله عنها : متى يكون الرجل مسيئاً ؟ . فقالت : إذا ظن أنه محسن ، فما أجدرنا بأن نقتصد فى أقوالنا ، وأن نزيد فى أعمالنا . وأن نتذكر قول ربنا : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

الناس بين المـدح والقـدح[1]

الحمد لله تبارك وتعالى ، له دعوة الحق وكلمة الصدق : « ومن أصدق من الله قيلا » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يحق الحق بكلماته ، يمحق الباطل بآياته ، إن الباطل كان زهوقاً ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله . الناطق بالحكمة ، الهادى للأمة ، فعليه من ربه الصلاة والسلام ، وعلى آله وذريته ، وأنصاره وصحابته ، والقائمين بأمر دعوته ، « فأولئك تحروا رشداً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

من الحقائق التى يجب أن ترسخ فى العقول والقلوب أن الناس إما مادح ، أو قادح ، أو ناصح ، وخير الثلاثة هو الأخير . والمدح سلاح خطير ينحرف به صاحبه فيخرب ويدمر ، . وفى المجتمع أناس كالعلق ، يمدحون كل الناس ، ويجملون لهم العيوب ، ويقلبون سيئاتهم إلى حسنات . ليخدعوهم عن أنفسهم ، ويغرروهم بذواتهم ، وينالوا منهم ما يريدون ، وبذلك المديح الغاش الكاذب ، تضيع حقوق ، وتتميع شخصيات ، وأخطر هؤلاء المداحين الضالين المضلين أولئك الذين يتصلون بالكبراء ، أو يكونون بطانة وحاشية للعظماء ، لأنهم يحملون لهم القبائح ، ويحسنون لهم الأخطاء ، ويجعلون أمامهم الحق باطلا ، والباطل حقاً ، وبذلك يتعود الكبراء كلمات الثناء والإطراء ، فيخيل إليهم أنهم معصومون من الزلل ، أو أنهم مخلوقون من طينة أخرى أزكى من طينة الناس ، ولو أنصف هؤلاء الكبراء لفعلوا كما فعل خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه ، حينما تولى الخلافة ، فقد أحضر عمرو بن مهاجر ، وكان رجلا فقيهاً بصيراً داعية ،

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ١٧ من ذى القعدة سنة ١٣٩٢ هـ الموافق ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٧٢ م .

وأمره بأن يلازمه ، وقال له : « يا عمرو ، إذا رأيتنى قد ملت عن الحق ، فضع يدك فى تلابيبى ، ثم هزنى ، ثم قل لى : ماذا تصنع ؟ » .

وهذا هو سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام يبين خطر المدح الكاذب والثناء المسرف ، فيقول : « إياكم والمدح والتمادح فإنه الذبح » ، ويحذرنا من أولئك المداحين الذين يتخذون المدح عادة وصناعة وتجارة ، بلا صدق أو اتصاف ، فيقول : « إذا رأيتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب » . ولقد سمع صلوات الله وسلامه عليه رجلا يسرف ويبالغ فى مدح آخر ، فقال له : « قطعت ظهر الرجل » . وهذا لا يمنع من تقدير العاملين وشكر المناضلين والثناء على الفاضلين ، لأن الإنصاف خلق من أخلاق الإسلام ، وبهذا الإنصاف يكون التنافس على الخير ، والتسابق فى مجال البر ، ولذلك أثنى رسول الله على صحابته بما هم أهله ، فوصف أبا بكر أنه الصديق ، وعمر بأنه الفاروق ، وعثمان بأنه ذو النورين ، وعلى بأنه باب مدينة العلم ، وأبو عبيدة بأنه أمين الأمة ، وهكذا .

وأما « القادح » فهو ذلك الخسيس اللئيم الذى يفتح دائماً فمه عن لسان قذر وضيع ، يطعن به ذات اليمين وذات الشمال ، فهو يذم دائماً ، ويفترى دائماً ، ويتوقح دائماً ، وفى المجتمع مع الأسف أناس أنذال ، يمثلون بألسنتهم العقارب أو الحيات أو الكلاب العاوية باستمرار ، فهم يعيشون وراء بذاءة كلامهم ، ووقاحة منطقهم ، يقرضون الأعراض والحرمات ، ويتطاولون على الكرام واللئام من الناس بلا استثناء ، حتى يرهبهم الكثير من الخلق ، ويتفادوا الالتقاء بهم والتعرض لهم ، وصلوات الله وسلامه على رسوله حين قال : « إن شر الخلق من اتقاه الناس خشية لسانه » . ولقد صور القرآن المجيد شأن هؤلاء القادحين الجارحين القاضمين المتبجحين بصورة منكرة ، فقال للمسلمين فى شأن المنافقين المجرمين : « فإذا ذهب الخوف سلقوكم

بألسنة حداد » أي إذا اطمأنوا وتمكنوا طعنوكم بألسنة كالحديد من شراستها وبذاءتها . كما صور القرآن أولئك القارضين لأعراض الناس ، القادحين فى أشخاص سواهم ، تلك الصورة المنفردة المذكرة فقال : « ولا يغيب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه » . وهذا هو رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يقول : « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ، ولا الفاحش ولا الباذئ » ويقول : « يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يدخل الإيمان قلبه ، ولا تتبعوا عورات الناس لتفضحوهم ، فإن تتبع عورات الناس تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته فضحه ولو فى جوف بيته » . ويقول : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » .

وهذا لا يمنع أن يؤدى الإنسان لأخيه واجب التحذير من خطأ أو انحراف وواجب التذكير بما يجب أن يكون عليه بأسلوب الحكيم ، ولقد قال بعض السلف : « إذا كتمت عيب أخيك عنه فقد خنته ، وإذا واجهته به فقد بهته (أي واجهته بالأذى فآلمته) وإذا ذكرته لغيره فقد اغتبته ، ولكن عرّض به واجعله فى جملة الحديث » . وما أحوجنا إلى أناس يراجعون المخطئين فى لباقة وبراعة ، ليحملوهم على الخير ، ويصدوهم عن الشر ، وما أحوج حكامنا وكبراءنا إلى هذا الصنف الكريم من الناس حتى يحيط بهم أهل الخير والرشاد ، والرسول يقول : « ما بعث الله من نبي ، ولا استخلف من خليفة ، إلا كانت له بطانتان (حاشيتان) بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه فالمعصوم من عصم الله تعالى » أي صاحب التوفيق هو من لا يأخذ برأى أهل السوء ، ويستعين بأهل الحق والخير .

و « الناصح » هو خير هؤلاء الثلاثة ، لأنه يخلص فى توجيهه وتشجيعه وتحذيره ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدين النصيحة » ، والقرآن الحكيم يعلمنا أن تبادل النصح الخالص الصادق الأمين هو طريق

النجاة والفلاح ، فيقول : « والعصر إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » . ولقد كان النبي صلوات الله وسلامه عليه يبايع كل فرد يدخل الإسلام على أن ينصح لكل مسلم ، ويقول : « إذا استنصح أحدكم أخاه فلينصحه » ولا عجب فالمؤمن أخو المؤمن ، والمؤمن مرآة أخيه ، والنصيحة الصادقة لون من ألوان التعاون والمحمود الذى يطالب القرآن القائل : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب » . وهذا التناصح هو هو الصبغة الأساسية التى طالب بها القرآن أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، حيث قال : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

« الناس إما مادح ، أو قادح ، أو ناصح ، وخير الثلاثة الأخير » . قول أردده وأؤكده ، وأعيده وأوطده ، فلينظر كل منا أن يكون من هؤلاء الثلاثة : امعة تضيع ذاته وشخصيته فى مدح لكل من هب ودب بلا صدق ولا إخلاص ، أم هو صاحب لسان كالمبرد يؤذى به عباد الله فيكون كالحية الرقطاء ، أم هو معتصم بحبل الله ، داع إلى صراط الله ، ناطق بكلمة الخير ابتغاء وجه الله ؟ . وعلى الله قصد السبيل ، ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين ، أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

مصـــدر العـــزة[١]

الحمد لله عز وجل ، هو خالق الخلق . وواهب الرزق ، « وخلق كل شئ فقدره تقديراً » أشهد أن لا إله إلا الله ، هو صاحب الأمر ، ومصدر البر « ألاله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، اعتصم بحبل ربه ، واستضاء بنور كتابه ، فكان خير المرشدين وزينة المفلحين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحابته ، وحزبه وجماعته ، ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

لا تخافوا ، فلن أحدثكم عن الوفاء والفداء ، ولا عن الاستشهاد والشهداء فلقد أظن أنكم مللتم هذا اللون من الحديث ، وكأننا قد رضينا بالواقع ، على الرغم من احتلال الدار وضياع الثأر وثقل العار ، وكأننا قد ألفنا أن توطأ الوجوه والأعناق بالنعال والأقدام . ولكني سأحدثكم عن آية من كتاب ربكم المجيد ، في سورة فاطر ، تقول : من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ، إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه ، والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ، ومكر أولئك هو يبور » . إن الآية تتكون من خمسة مقاطع كل مقطع منها فيه عظة وبلاغ لقوم يعقلون . المقطع الأول يقول : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً » . والعزة هي الرفعة والمنعة والاستعلاء وفي الكلمة أيضاً معنى القوة والشدة ، والعزيز هو الغالب لسواه ، ولقد كان جبابرة المشركين يخافون إذا دخلوا في الإسلام أن تزول عنهم زعامتهم وقيادتهم

---

[١] ألقيت بمسجد التليفزيون في يوم الجمعة ٢ من ذى القعدة سنة ١٣٩٢ هـ الموافق ٣١ يناير سنة ١٩٧٢ م .

لغيرهم ، ولذلك حاولوا الاعتزاز بالعناد والكفران ، فأفهمهم القرآن أن العزة الحقيقية لا تكون إلا من الله ، لأنه هو الذى خلق كل شئ ، وأعطى كل شئ ، وإليه يرد كل شئ ، فمن أراد أن ينال العزة فليطلبها من مصدرها ومنبعها ، ومالكها وواهبها ، ومن كان يحب أن يصير عزيزاً فى الدنيا والآخرة ، فليلزم طاعة الله ، حتى يشمله برضاه وهداه ، وبذلك يصبح عزيزاً ، لأن الله جل جلاله هو مالك الدنيا والآخرة ، وله العزة جميعاً : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير » .

وإذا أيقن الإنسان أن العزة لله وحده ، أنف أن يخضع لغير الله ، أو يذل أمام سواه » فلا يتضعضع أمام فقر ، ولا يهون أمام قهر ، بل لعلنا نسمعه نردد قول الشاعر الرامز الواعظ .

أيدركنى ضيم وأنت ذخيرتى ... وأظلم فى الدنيا وأنت نصيرى
عار على راعى الحمى وهو قادر ... إذا ضاع فى البيدا عقال بعير

ولقد يتعزز الإنسان بقوة البدن فيأتيه المرض فيهده هدا ، ولقد يتعزز بالمال ، فإذا المال غول قاتل وشيطان ماثل ، ولقد يتعزز بالنسب والحسب ، فيأتيه الضياع من كل مكان ، لقد يتعزز بالعلم ويفتر به فلا نريده العلم إلا انحرافا وضلالا ، ولقد يتعزز بالمنصب والجاه فتدور عليه الدوائر فيصبح أذل من الكلاب ؛ أما الاعتزاز بالله فباق دائم ، يهون معه كل عسير ، ولذلك قال القرآن : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » . ولا تناقض بين كون العزة لله وحده ، وكونها للرسول وللمؤمنين ، لأن الله هو العزيز فى الحقيقة والواقع ، وكل عز سوى عزه فهو فيض من عزته ، والعزة كانت للرسول بواسطة قربه من الله العزيز ، والعزة للمؤمنين كانت بواسطة أتباعهم للمعتز بالله سيدنا رسول الله ، ولذلك يقول

القرآن : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً ، الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيتبعون عندهم العزة ، فإن العزة لله جميعاً » . وصلوات الله وسلامه على رسوله حين قال : « كل عز ليس بالله فهو ذل » وقال : « اطلبوا الحوائج بعزة النفوس فإن الأمور تجرى بالمقادير » . وقال : من أعطى الذلة من نفسه طائعاً غير مكره فليس منا » . والحديث عن العزة مفصل مبسوط فى كتاب « أخلاق القرآن » .

إليه يصعد الكلم الطيب ،ولقد قال السابقون إن الكلام الطيب هنا هو التوحيد أو الذكر أو التلاوة أو الد ' ء أو النصيحة أو العلم أن نقول إن الكلم الطيب هو كل ما وافق القرآن والسنة ، وكل ما كان حقاً متجرداً لوجه الحق ، وما فيه إخلاص وإرادة خير للمسلمين وكل ما كان دالا على هدى ، أو محذراً من ردى ، أو داعياً إلى خير ، أو آمراً بمعروف ، أو ناهياً عن منكر . والتمسك بالكلام الطيب هو أول خطوة نحو اكتساب العزة من الله ، وانظر كيف يخبرنا أن الكلم الطيب كأنه شئ أعطى قوة الصعود بنفسه إلى مكان الرضى والقبول ، ولا عجب فالنطق بالكلمة الطيبة منة عظيمة من الله على الإنسان ، ولذلك يقول القرآن : « وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد » ، ولقدتستطيع الكلمة الطيبة أن تحقق خيراً كثيراً ، أو تمنع شراً مستطيراً ، ومن هنا قال رسول الله : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » ، ولقد جاء فى السنة أن العبد إذا قال : سبحان الله وبحمده ، الحمد لله ، لا إله إلا الله ، والله أكبر تبارك الله ، أخذهن ملك ، فجعلهن تحت جناحيه ، ثم صعد بهن إلى السماء ، فلا يمر بهن على جمع من الملائكة ، إلا استغفروا لقائلهن ، حتى يحيى بهن وجه الرحمن .

« والعمل الصالح يرفعه » وهذه هى الخطوة الثانية نحو اكتساب العزة من الله ، والعمل الصالح هو العمل المستقيم النافع ، وقمة هذا العمل هو

أداء الفرائض ، لأن الحديث القدسى يخبرنا بأنه ليس فى التقرب إلى الله أفضل من تنفيذ ما افترضه الله على عبده[١] ولننظر جيداً كيف جعل القرآن الكلام الطيب يصعد بنفسه ، والعمل الصالح يرتفع برفع سواه ، وليس ذلك استخفافاً بشأن العمل ، وإنما هو تمجيد لقيمة الكلمة الطيبة ، كى لا يستخف الناس بشأنها ، والإنسان الحيوان فى العمل ، ولكنه يتميز أول ما يتميز بالنطق والكلام ، والعمل الصالح فى الإسلام ، يبدأ بكلمة لابد فيها هى كلمة التوحيد : لا إله إلا الله محمد رسول الله فكأن أساس العمل أو مقدمته هو الكلمة الطيبة . ولنتذكر هنا أن القرآن فى هذه الآية — كما فى غيرها — يحثنا على الرفعة والصعود والتسامى . فالعزة التى يحدثنا عنها رفعة ، والكلم الطيب يصعد ، والصعود سمو ورفعة ، والعمل الصالح تعلو به إرادة الله ، والعلو رفعة ، فكأن شأن أبناء الإسلام أن يكونوا على الدوام فى رفعة وصعود واعتلاء .

« والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد » أى الذين يقترفون الآثام ويكتسبونها ويتوسعون فيها بمكرهم ووقاحتهم ، لهم عذاب مؤلم موجع ، وهذه هى الصورة المقابلة لصورة الفائزين أصحاب الكلم الطيب والعمل الصالح والسيئات تشمل السيء من القول والسيء من العمل ، فكأن السيئات هنا هى النقيض المعارض للكلم الطيب والعمل الصالح .

« ومكر أولئك هو يبور » أى يفسد ويبطل ، وبذلك لا يثمر ولا ينفع ، بل ويظهر الله زيف الماكرين الآثمين لأصحاب البصائر والعقول ، لو ستروه لأنه ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله — ولو بعد حين — على صفحات وجهه ، وفلتات لسانه ، ولفظة « يبور » لها دلالتها المصورة المعبرة فى العاقبة الوخيمة التى يصير إليها أهل الإجرام والفساد ، وهكذا عدل الجزاء : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

---

(١) راجع « أدب الأحاديث القدسية » للمؤلف .

أين الأخلاق ؟[١]

الحمد لله عز وجل ، هو القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب على كل جارحة بما ارتكبت ، وهو علام الغيوب ، أشهد أن لا إله إلا الله ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خشى ربه ، وخاف ذنبه ، فكان زين المتقين ، وإمام العابدين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، أولئك هم خير البرية .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

نشرت إحدى الصحف[٢] أن طالبين من طلاب جامعة القاهرة اشتريا عدداً من الشطائر « السندويتشات » من بائع كفيف يبيع هذه الشطائر داخل فناء الجامعة ، وقدما إليه قطعتى نقود من فئة خمسة قروش ، ولما تحسس الكفيف القطعتين بأصابعه عرف أنهما مزيفتان ، فأخذ ينادى بأعلى صوته على الطالبين اللذين قد اختفيا ، فأبلغ الكفيف الشرطة لبحث الأمر والتحقيق فيه ! .

يا لضيعة الأخلاق وموت الضمير فى عصر يسمونه عصر المدنية والنور . إن تزييف النقود عمل إجرامى يحرمه الشرع والقانون والعقل ، لأنه أولا كسب للمال عن طريق السحت والباطل ، والرسول يقول : « كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به » ولأنه غش ثانياً والرسول يقول : « من غشنا فليس منا » . وصك النقود عمل من اختصاص الدولة ، فلا يجوز لفرد

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٧ من رجب سنة ١٣٨١ هـ الموافق ١٥ ديسمبر سنة ١٩٦١ م .

(٢) جريدة الأخبار يوم ١٩٦١/١٢/٨ م .

أو أفراد أن يقدموا على صكها ولو كانت سليمة ، لأن هذا يؤدى إلى اختلال الأوضاع ، وفساد الاقتصاد ، وتعدد العملات ، مما يؤدى إلى ضياع الحقوق ، واضطراب الأحوال ، فكيف لو كانت مزيفة ؟ . إن الجريمة حينئذ تكون مضاعفة أو مركبة .

وهذه الجريمة التى وقعت من طالبين فى الجامعة وصلا إلى المرحلة الأخيرة من الثقافة والتعليم ، تذكرنا بضرورة التربية الدينية والروحية لهؤلاء الشباب ، إذ لا يكفى أبداً أن نشحن أذهانهم بالعلوم والمعارف المادية أو النظرية ، دون أن نعمر صدورهم وقلوبهم بالإيمان ومراقبة الله الذى يطلع على السرائر والضمائر ، والذى يعلم السر وأخفى ، والذى يحيط بما دق وجل : « وأسروا قولكم أو أجهروا به إنه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » . ولو كان لهذين الطالبين دين يردعهما أو ضمير يزعهما ، أو أخلاق تعصمهما ، أو مراقبة لله تقودهما ، لارتجفت أصابعهما ارتجاف الخوف والخشية حينما وسوس لهما الشيطان بارتكاب هذه الجريمة . . . والحق أننا فى حاجة إلى مزيد من الأخلاق مع مزيد مع العلم ، بل نحن فى حاجة إلى مزيد من الأخلاق قبل أن نكون فى حاجة إلى مزيد من العلم ، فإن قليلا من العلم مع أخلاق قد يكون أجدى وأرقى من عمل لا يصد صاحبه عن خنا ، ولا يمنعه من إثم ، ونحن فى حاجة ماسة إلى الذين يؤمنون الإيمان العميق الصادق بمثل قول ربهم جل جلاله : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » . ولله در الذى قال :

إذا ما خلوت الدهر يوماً، فلاتقل: خلوت ، ولكن قل : على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب

ثم نتساءل : على من احتال هذا الطالبان ؟ لقد احتالا مع عميق الأسى وبليغ الأسف على شاب مكفوف يكسب قوته بالجهد والعرق والتعب ،

ولو أنهما احتالا على مبصر قوى لقلنا إنها جريمة تقع ، ويألف الناس السماع عنها ما بين حين وحين ، ولكن احتيال هذين الطالبين على مكفوف ، وفى هذا المبلغ التافه وهو خمسة قروش ، فيه شناعة وبشاعة ، فقد كان هـذا المكفوف محتاجاً منهما إلى الرعاية لا إلى الغش ، وإلى المعاونة لا إلى الاحتيال ، وإلى التقدير لا إلى السرقة منه والنهب لحاجته وماله ، ولكن كيف يفهم الطالبان هذا دون ضمير يذكر ويردع ، ودين يحفظ ويمنع ؟ ! .

ولقد كان فى عمل الطالبين استخفاف بالمكفوف وسخرية منه وهضم لحقه وليس هذا من أدب الإسلام ، ولا خلق المسلم فى شىء .

وهذا هو القرآن يمجد شأن المكفوف ويرفع قدره ، فيعاتب الله تعالى نبيه ، لأنه أعرض قليلا من الوقت عن الاستماع إلى رجل مكفوف سعى إليه ليسترشده ويسأله ، وأفتتح القرآن العتاب سورة من سوره فقال : «عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى ، كلا إنها تذكرة » ! . ولقد كان والرسول بعد ذلك كلما لقى ابن أم مكتوم الذى تحدثت عنه السورة يقول له : مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى » ثم يقول له : هل لك من حاجة نقضيها ؟ . . ثم استخلفه على المدينة ثلاث عشرة مرة فى أثناء خروجه إلى الغزوات . ولقد رفع الحديث القدسى من شأن المكفوف فقال : « إذا أخذت كريمتى عبدى فى الدنيا (أى عينيه) لم يكن له جزاء عندى إلا الجنة » . ومن صيانة الإسلام لحقوق المكفوف أن نجد الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « ترك السلام على الضرر خيانة » . لأن ترك السلام فى تلك الحالة يدل على سوء استغلال أو سوء انتهاز لكف البصر عند الكفيف ، بأنه لا يرى أحداً ، بينما كان كف البصر هذا جديراً أن نقدر أثره ، فلا نتكل عليه فى تجاهل

الكفيف أو التغافل عنه والتعلل أو الاستخفاف به ، بل كان يجب أن يدعونا أكثر من غيره إلى احترام صاحبه ومراعاة شعوره ، وعدم تذكيره بالنقص الحسي الذى أصيب به فى حياته حينما حرمته الأقدار نعمة الإبصار . .

وماذا يكون شعور المكفوف حينما يعلم أن هذا المبصر قد استغل كف بصره وانتهز عدم الرؤية منه ، فخانه وأهمله ومر به مرور اللئام على الكرام ؟ إن نفسه ستتألم أشد الألم من ذلك ، وفى الغالب سيعبر عن هذا الألم بعنف وشدة ، لأنه مطعون ومجروح ومهان ، ولو أنه كتم هذا الألم ولم يظهره ، فإن نفسه ستظل فى ثورة عارمة من الداخل ، ويكون السبب فى هذه الثورة هو الخائن الذى ترك السلام عليه ، فضيع بذلك حقاً كان عليه أن يؤديه . .

والحكم على ترك السلام على الضرير بأنه خيانة لا يعنى التحذير من ترك السلام عليه فقط ، وإنما هو — كما جاء بكتاب فى عالم المكفوفين[1] — « ضرب مثل لخطورة إهمال المبصر حق المكفوف ، فتركك السلام على المكفوف خيانة فى نصر الإسلام ، وتركك لإرشاده وأنت ترى حيرته خيانة ، وعدم تحذيره مما سيقع فيه خيانة ، وعدم السؤال عنه عند غيبته خيانة ، وعدم عيادتك له وهو مريض خيانة وعدم نصحك له وأنت تراه معرضاً للخطأ خيانة ، وعدم معاونته فيما يحتاج فيه إلى المعاونة خيانة ، وهكذا » .

لقد قال أحد الباحثين الاجتماعيين : لو لم يكن هناك دين لوجب على الناس أن يصنعوا لهم ديناً يخضعون له ويخشعون أمام توجيهه . قال الباحث ذلك، وقد كفانا الله عز وجل مئونة البحث عن هذا الدين أو الصناعة له ، فامتن علينا بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ليقودنا إلى خير دين ويهدينا إلى أسلم طريق : هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره

---

(١) للمؤلف .

المشركون » وامتن علينا بكتابه المجيد الذى يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وجعله لنا الدواء والشفاء : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً » « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » وامتن علينا بهذا الإسلام العظيم الحنيف المرشد إلى ما فيه صلاح الدنيا والآخرة : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » وامتن علينا بأحكامه العاصمة من الزلل والهاوية إلى الصلاح والإصلاح : « أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » . فهل آن الأوان لكى نغرس أصول هذا الدين وقواعده وتعاليمه فى صدور هذه البراعم الناشئة من أبنائنا وشبابنا ، حتى يعتصموا بالأخلاق الفاضلة والسلوك الكريم ، ويبتعدوا عن رذائل الأعمال والأقوال ؟ .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : ليس هناك رقابة أدق أو أشمل من الله ، وليست هناك سلطة تعصم وتحفظ أقوى من سلطة الخوف من الله ، وليس هناك وازع كوازع الإيمان بأن الإنسان مجزى على عمله حتماً ، فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليه : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ، ولا يظلم ربك أحداً » وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

اين الحيـــاء ؟[1]

أحمد الله عز وجل ، لا يحمد على المكروه سواه ، « له الحمد فى الأولى والآخرة ، وله الحكم ، وإليه رجعون » ، وأشهد أن لا إله لا الله ، يكرم بالنعمة ويؤدب بالنقمة ، ويجمع بآية العذاب بآية الرحمة : « نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابى هو العذاب الأليم » ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، كان أشد حياء من العذراء ، وأشد غيرة على الحرمات من الكتيبة الخرساء ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، وأصحابه الذين اتقوا ربهم ففازوا فوزاً كبيراً ، وأتباعه الذين اجنبوا السيئات والمنكرات فأثابهم ربهم رضواناً عظيماً : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ، وإلى الله المصير » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

يظهر أننا قوم لا نستحى ؛ ومن حقكم ألا تصدقونى حتى أقيم لكم الدليل ، فنحن نقول عن أنفسنا : إننا عرب ، وإننا مسلمون ؛ والعروبة الكريمة من أول صفاتها الغيرة على الأعراض ، والحرص على الشرف ، وصيانة الحرمات ، وتفضيل النار على العار ، ومن أمثلة العرب الموروثة قولهم : المنية و الدنية ؛ وقولهم : تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها ! . . . والإسلام من أول تعاليمه أنه يحرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ويبعد أهله عن مواطن الزلل والانحراف ، ويسد المسالك التى قد تؤدى إلى رذيلة أو تقضى على فضيلة ، ويحرص على أن يكون أهله أصحاب طهارة فى الحس

---

[1] القيت فى يوم الجمعة ٤ صفر سـنة ١٣٧٧ هـ الموافق ٣٠ اغسطس سنة ١٩٥٧ م .

والنفس « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » ، وأن يبتعدوا ما استطاعوا عن مواطن الشبهات وأسباب الخطيئات ، ورسولهم يقول : « الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن واقع الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيـــه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه » ! . . هذه هى العروبة ، وهذا هو الإسلام ، فهل وفينا لها أو حفظنا جلالها ؟ وما موقفنا منهما ؟ .

لقد أردنا مثلا أن نشترك فى مهرجان من مهرجانات الشباب فى بلد من البلاد الأجنبية يخالفنا فى العقيدة والعادات ونظام الحياة ، وكان الواجب علينا أن ندقق فى اختيار شبابنا الموفدين إلى هذا المهرجان العالمى ، بحيث يكونون نماذج فى الاستقامة والأخلاق والمهارة وأن ندقق كل التدقيق فى مراقبتهم والإشراف عليهم والحيلولة بينهم وبين ما يسىء إلى أخلاقهم أو ينال من دينهم وكرامتهم ، وأن نجعلهم يعرضون هناك أمام أنظار الناس من مختلف الجنسيات ألواناً من بطولاتهم القومية ، أو مواهبهم العقلية ، أو عبقرياتهم الفنية ، أو يعرضون مشاهد من فروسية العروبة أو فروسية الإسلام ، أو مواقف من جهادنا الطويل المرير ، أو صفحات مشرقة من تاريخنا الجليل العظيم ، أو غير ذلك من أمور تشرفنا وترفع رءوسنا كريمة بين العالمين . . .

ولكننا لم نفعل هذا ، بل حرص المشرفون الموجهون لوفدنا إلى هـــذا المهرجان على أن يكون هذا الوفد مشتملا على عدد كبير من طالبات المدارس والمعاهد المختلفة ، وعلى عدد من الراقصات والممثلات المحترفات ، ومعهن عدد من الفتيان والطلاب والرجال والممثلين ، وهيأ الوفد العربى الشرقى المسلم ما سيعرضه ، فإذا هو لا يكاد يخرج عن الرقص والتمثيل واللهو والعبث واللعب التافه ؛ فهذه رقصات شرقية من طالبات المعهد الفلانى ، وهذا

رقصات « باليه » من طالبات المعهد الفلانى ، وهذه رقصات لهز البطون وهز الأرداف من الراقصة الفاتنة فلانة ، وهذا عرض تمثيلى غنائى موسيقى راقص عنوانه : « يا ليل يا عين » ، ولست أدرى إلى متى سنظل ننادى هذا الليل المسكين المظلم ، وننادى هذه العين الباكية الحزينة ، ومتى ننادى بدلها قائلين : يارب ، يا قوة ، يا حياة ، يا مجد ، يا دين ، يا أخلاق ، يا مروءة العرب ، يا عزة الإسلام ؟ متى متى يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ؟ ومع ما أقاموا حول هذا العرض التمثيلى يا ليل يا عين من طبل وزمر ودعاية ، وأنفقوا فيه من وقت وجهد ومال مجموع من عرق الشعب ، فقد توالت الأنباء بأن هذا العرض قد فشل فشلا ذريعاً فاضحاً ، فلا أرضى قومنا الشيطان ، ولا أبقوا لأنفسهم رضا الرحمن: « وخسر هنالك المبطلون »!.

وكان مما أعده وفدنا العربى المسلم لهذا المهرجان عرض ما يزيد عن عشرين زياً نسائياً ، وبطبيعة الحال قد عرضت هذه الأزياء فتيات فيهن جمال الصبا وسحر الشرق وفتنة الشباب ، فازدادت الأزياء بهن روعة وجاذبية ، وازدادت أجسادهن بالأزياء البراقة اللامعة فتنة وسحراً ، وبطبيعة الحال المألوفة كان فى الأزياء ما يكشف الأذرع والسيقان ، والأكتاف ، والأفخاذ والصدور والظهور ، والخصور والنحور ، وما إلى ذلك والمشاهدون لهذه الأجسام الفاتنة من طالباتنا وفتياتنا هم آلاف من شبان أجانب ، عيونهم نهمة ، وغرائزهم ملتهبة ، ورغباتهم متقدة ، ورباطهم الخلقى غير وثيق ، والرقيب مفقود ؛ وقد غاب القط — كما تقول العامة — فللفأر أن يلعب كما يشاء ، وإذا نام راعى الغنم عنها سطت عليها الذئاب .

هل جاءكم يا أبناء الإسلام ويا أحفاد العرب أن أعظم ما نال الإعجاب من وفدنا فى هذا المهرجان هو كما نشروا رقصات هز البطن والرقصات الشرقية التى قدمتها تلك الراقصة المشهورة ؟ . . وهل قرأتم ما نشروه عن

فضيحة الطالبة التى رقصت أمام الشبان الروس الحمر فى إحدى المحطات العامة ؟ . . وهل قرأتم ما اعتذروا به عن هذا العمل ؟ . إنهم اعتذروا بأن الفتاة قد رقصت فعلا ولكنها لم ترقص بقميص النوم كما نشر بل رقصت رقصة « باليه » أى أنها رقصت رقصاً مؤدباً مهذباً ، فهو إذن فى زعمهم وحسب دفاعهم « رقص شرعى مباح لا غبار عليه » . . . ألا يذكرنا هذا بالشاعر الذى يتحدث عن ظلم الفوضى والظلم المنظم فيقول :

قد كان فينا الظلم فوضى فهذبت ‌ ‌ ‌ ‌ حواشيه حتى صـار ظلماً منظماً

أو ذلك الشاعر الشريد الذى أرادوا أن يوظفوه فوظفوه بلا عمل معين له ، فتحدث عن التشرد الأهلى والتشرد النظامى فقال :

بالأمس كنت مشرداً أهلياً ‌ ‌ ‌ ‌ واليوم صرت مشرداً رسمياً ! !

وتتحدث الصحف يوماً بعد يوم عن هذا المهرجان فتذكر أشياء وأشياء ، وترمز إلى أمور وأمور ، ويتحدث القادمون من هناك عن أشياء ويهتمون بأشياء ولعل ما خفى ولم ينشر أعظم وأخطر ، والسامعون يسمعون ويتألمون ويتساءلون : أنحن حقاً عرب نعرف شهامة العرب ؟ . أنحن حقاً مسلمون نأخذ أنفسنا بآداب الإسلام الذى يقول قرآنه : « قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن » ويقول : « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » ؟ والذى يأمر بأن لا تسافر امرأة إلا مع محرم ، والذى يقول رسوله : «لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان » ؟ . . فإما أن نلتزم حدود الله وأحكام الإسلام ما دمنا ننتسب إليه ، وإما أن نقولها واضحة صريحة واضحة فإننا لسنا أهلا لهذا الإسلام ! . .

وإذا كان المسئولون عن هذه التصرفات يستوجبون المؤاخذة والتأديب ،

فإننا فى الوقت نفسه نتساءل عن هؤلاء الآباء والأمهات الذين تركوا بناتهم الآنسات العذارى يسافرن فى رحلة طويلة بعيدة غير مأمونة كهذه الرحلة . . . أين دينهم ، وأين غيرتهم على أعراضهم ، وأين حرصهم على بناتهم ؟ . . أليسوا بالمسلمين ؟ أفيرضى الإسلام عن ذلك ؟ . . أليسوا عرباً ؟ أتسمح شهامة العرب بذلك ؟ . . أفتونى يا قوم فإنه يبدو أننا قد أصبحنا فى فتنة صار الحليم فيها حيران . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . لقد كان ما حدث وما قيل وما نشر حول هذه المأساة كافياً لإثارة العبر وإسالة العبرات ، واللبيب من اتعظ بغيره واعتبر بما حدث لسواه ، إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد فخذوا حذركم ، وتدبروا أمركم ، واتقوا الله فى عروبتكم وإسلامكم وأعراضكم ، فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد .

ياضيعة الحياء (١)

الحمد لله عز وجل ، يمهل ولا يهمل ، ويراقب ولا يغفل ، ويعاقب ولا يظلم : « نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عـــذابى هو العذاب الأليم » . أشهد أن لا إله إلا الله ، وعد أهل الصلاح والتقوى بالخير والنعيم ، وتوعد أهل الفساد والفجور بسوء المصير : « يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله دعا إلى خير الشرائع ، وحارب الرذائل وسد الذرائع ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وأصحابه المتقين المهتدين ، وأتباعه المستقيمين الصابرين ، « إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إذا هانت حرمات الدين على أمة من الأمم ضاعت فيها الأخلاق ، وإذا ضاعت فيها الأخلاق فقدت أهم شئ يعصمها من الخنا ويمنعها من الفجور وهو الحياء ، وإذا فقدت الحياء فودع منها وقل عليها العفاء ! . وإذا كان الحكماء يقولون : إنما تحيا الأمم بالأخلاق ، فإن عمادالأخلاق الفاضلة هو الحياء ، ولذلك قال مؤدب الإنسانية محمد صلوات الله عليه : « لكل دين خلق ، وخلق الإسلام الحياء » وقال : « الحياء من الإيمان » ، وقال : « الحياء والإيمان قرنا جميعاً ، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر » ! . وقال : « الحياء خير كله » وقال : « الحياء لا يأتى إلا بخير » وأنبأنا أن من لا يستحى لا يبالى فى إتيان المنكرات أو القبائح لوماً أو عتاباً ، بل يعب من الرذائل والفضائح كما يشاء .

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ١٣ من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ٣ يناير سنة ١٩٥٨ م .

ولذلك علم النبي أتباعه أن يستحوا من الله ، وأن يستحوا من رسوله ، وأن يستحوا من الناس ، وأن يستحوا من أنفسهم ، وأن يكون حياؤهم هذا مبعداً لهم عن المآثم والخطايا ، منفراً لهم من كل ما يخدش العفة أو يعيب الشرف أو يفتح الباب لمنكر من المنكرات ، وأن يجعلهم يخجلون إذا سمعوا الكلمة النابية ، أو رأوا الصورة الجارحة ، أو اطلعوا على عورة من العورات ، وإمامهم في هذا وسيدهم هو نبيهم الذى كان أشد الناس حياء ، وكان من حيائه لا يثبت بصره فى وجه أحد ، وكان — كما روت الأحاديث — أشد حياء من العذراء فى خدرها .

ويظهر أن حياءنا قد قل أو انعدم ، ولذلك صار يقال فينا إننا لا نخجل مما يخدش الفضيلة ، ويجرى على المعصية ، ويدفع إلى الفجور ، فقد نشرت صحيفة يومية مشهورة[١] فى صدر صفحاتها عنواناً جاء فيه : « الصور العارية صور فنية تنمى الذوق ولا تنافى الآداب » وتحت هذا العنوان أخبرتنا الصحيفة أن أحد المحققين قد قرر أن « الصور العارية ليس فيها إخلال بالآداب وإنما هى صور فنية تنمى الوعى والذوق الفنى عند الجمهور . . . وأمر بحفظ التحقيق مع شابين ضبطهما رجال مكتب الآداب يبيعان صور نساء عاريات لطلبة مدارس الحى » ! ! .. وقد ذكرت الصحيفة اسم المحقق وحددت مكان الحادث وموضع التحقيق ، ونحن لا يعنينا إلا الموضوع ، ولا علاقة لنا بالشخصيات . . .

يقع هذا بعد أن ضج الناس من بلاء هذه الصور الفاجرة ، وانطلقت الأصوات المؤمنة تحذر وتنذر ، وكتب الأزهر إلى المسئولين ينصح ويوجه ، وقيل إن هؤلاء المسئولين قد استجابوا فمنعوا البلاء وأنصفوا الحياء ، وإذا بهذا الخبر الغريب يأتى فيعطى صفة الإباحة والجواز والمشروعية لهذا الفجور

(١) الأهرام فى يوم الأربعاء أول يناير سنة ١٩٥٨ م .

العريان ، ومصيبتنا أيها الناس تتجمع فى طائفة من المبادئ واللوائح المتخلفة عن عهود الاحتلال والضلال ، والتى تصادم الدين وتتنكر للشريعة فى صراحة وعلانية ، وحسبكم دليلا على ذلك أن بعض هذه المبادئ لا تعتبر الزنى جريمة يؤاخذ عليها ما دام برضا الطرفين ! ! ..

لقد قيل : ويا سوء ما قيل : — إن هذه الصور لا تخل بالآداب ، فهل هذا صحيح ؟ . . صور نساء عاريات فاجرات فى أوضاع جنسية قذرة تثير الشيوخ مع الشباب وتحرضهم على الفسق والإثم ، ثم يقال إنها لا تخل بالآداب ؟ . وأى آداب هذه ؟ . أآداب الرحمن أم آداب الشيطان ؟ . . أم يكون هذا القول على معنى أن الآداب غير موجودة حتى يوجد بها إخلال ، إذ لا يمكن الإخلال بالشئ المعدوم ؟ . . ويقولون إنها صور « تنمى الوعى » . . الله ! . . الله ! . . نعم أنها تنمى وعى الشهوة ويقظة الإثم وقوة الفجور وبطش الحيوان المفترس الكامن فى جسم الإنسان ، فخبرونا يا بنى آدم ، هل تربى هذه الصور الوعى الوطنى أو القومى أو العربى أو الشرقى أو الإسلامى ؟ ! . . ويقولون إنها صور « تربى الذوق » فأى ذوق هذا الذى يتربى على أجساد النساء ولحوم البغايا وعورات المومسات ، ولا يرتع إلا فى مراتع الإثم والفاحشة والبهتان ؟ ! . .

ثم لمن تباع هذه الصور العارية الفاضحة المثيرة ؟ . . إنها لا تباع لشيوخ كبار فى العمر ليس لهن فى النساء إربة أو طلب ، ولا تباع لأزواج تستثار بها قواهم الجنسية على أسوأ الفروض وأقذر التقديرات ، بل تباع لطلاب المدارس كما نشرت الصحف . . تباع للشباب الفائر المائر وفيه الساذج وفيه الغوى والفاجر . . فلطفاً بالشباب يا قتلة الشباب ، ورحمة بالأخلاق

يا هادمى الأخلاق ، وإلا فقولوا إذن إنه لا مانع من بيع صور عارية للرجال بأوضاعهم المثيرة وأعضائهم التناسلية ، وتباع هذه الصور لطالبات المدارس حتى يتمتعن بالفجور كما يتمتع الطلاب ، وليأت بعد ذلك الطوفان ! .

ألم تسمعوا ما أذيع على الملايين من أن مدرسة للفنون التى يسمونها جميلة تستأجر نساء عاريات ليقفن مجردات أمام الطلبة حتى يرسموهن ، وتأخذ كل امرأة فى مقابل ذلك عشرين قرشاً عن كل ساعة تعرض فيها لحمها كما ولدته أمها ، وإذا أراد بعض الطلبة أن يأخذ هذه المرأة التى يسمونها « النموذج » إلى بيته دفع لها ثلاثين قرشاً عن كل ساعة يقضيها معها فى البيت عارية متجردة ، وأنتم تعرفون بطبيعة الحال لماذا زيدت هذه القروش العشرة ؛ وقياساً على قاعدة الطوفان فى إشاعة الفجور يتساءل الشياطين : لماذا إذن لا نفتح مدارس لطالبات الفنون الجميلة ، ونقدم لهن وأمام أبصارهن شباناً ورجالا عراة كما ولدتهم أمهاتهم حتى تقوم الفتيات بتصويرهم لتنمية وعيهن وذوقهن ؟ . ولماذا إذن لا يباح للطالبة أن تأخذ « النموذج » الرجل معها إلى بيتها وتعطيه ثلاثين قرشاً أيضاً عن كل ساعة تقضيها معه وهو مجرد من ثيابه ؟ . . أليس الأمر كله فناً ؟ . . أليس هذا تنمية للذوق كما يقولون ؟ . . اخجلوا يا ناس ، انكسفوا يا خلق ، استحيوا يا بنى آدم ! ! . . ألا لعنة الله على الفن إن كان سيهدم الدين ، ولعنة الله على الفنانين إن كانوا سيصيرون فاجرين ، ولعنة الله على كل من يروج للفن الوضيع أو يناصر الفجور الرقيع ، ألا لعنة الله على الظالمين . . .

ليت هذا الفجور لم يكن ، وليته إذ كان لم يعلن ، بل كتموه وستروه ، وليتهم إذ لم يكتموه ولم يستروه نشروه فى نطاق ضيق ، وليتهم إذ نشروه

على نطاق واسع لم ينشروه فى الشوارع والبيوت ، وعلى أسماع الرجال والنساء ، والفتيان والفتيات ، والمراهقين والمراهقات ! ! ..

وخبرونى من هى تلك الفتاة التى تقبل لنفسها أن تكون نموذجاً لمجموعة متلاقية ، ثم لأفراد متعاقبين كل على حدته ؟ . . أو تقبل الحرة العفيفة ذلك ؟ أو يقبل رجل شريف نظيف لإحدى نسائه ذلك ؟ فكيف تقبلون لغيركم ما تأبونه لأنفسكم وأهليكم ؟ .

وهل يستطيع حر كريم أن يتصور — فضلا عن أن يقبل أن يتصور ابنته الطالبة بمدرســة الفنون الجميلة التى يقترحها الخبثاء وقد عادت من الخارج ومعها نموذج رجل ، لكى يتعرى معها فى (صومعة) فنها داخل البيت لمدة ساعة أو ساعات حتى ترسمه ! !

لله در من قال : إن الذين اختشوا قد ماتوا ! ! ..

إن البلاء قد عم وطم ، وهو لا يعالج بضبط هذه الصور أو تلك ، أو إطالة التحقيق فى شأنها ، ثم الانتهاء إلى هذه النتيجة المؤسفة ، وهو أيضاً لا يعالج بتأليف اللجان وعقد الاجتماعات وتشقيق الأحاديث . . إن الحق أبلج والباطل لجلج ، وإن الحلال بين والحرام بين ، وإنما يحتاج الأمر إلى الضرب على أيدى هؤلاء العابثين بأخلاق الأمة وآدابها ومقومات شخصيتها ، وإلا فيا سوء المصير ؛ والله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ؛ والقرآن لابد له — لكى يؤدب ويردع — من قادر ينفذ أحكامه ويفرض تعاليمه ، ولابد للحق من قوة ودولة ، ولابد للفضيلة من منعة وصولة ، فالغوث الغوث يا ولاة الأمور ، والنجدة النجدة يا هادى الطريق ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . يا رواد المساجد ، يا بقايا الخير فى حنايا المجتمع الصاخب ، يا أحفاد المسلمين الأوائل . . صونوا أنفسكم

وأولادكم وأسركم من هذا البلاء ما استطعتم ، وابذلوا ما وسعكم لتطهير مجتمعكم من هذا البلاء ، واطلبوا إلى كل مسئول أن يؤدى واجبه فى هـــذا التطهير ، حتى لا تشملنا اللعنة التى شملت السابقين من الفاجرين : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . . .

فجـور على الشـاطىء[1]

أحمد الله عز وجل ، كتب للصالحين المصلحين كريم الأجر وخالد الثواب ، وتوعد الضالين المضلين بسوء الخاتمة وأليم العقاب : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . وأشهد أن لا إله إلا الله ، حد الحدود وأوضح المعالم ، ونفر من الخبائث وحرض على المكارم « لقد أنزلنا آيات مبينات ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، أخرج قومه من حماة الرذيلة والتحلل والفساد إلى درجات الفضيلة والعفة والرشاد ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الفضلاء ، وأصحابه الأتقياء ، وأتباعه أولى الطهارة والنقاء : « إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يظهر أننا نريد أن نثبت للناس أننا أهل العجائب والغرائب ، وأننا نستطيع أن نسبق أهل البدع الأثيمة والفضائح المنكرة ، ومن حقكم ألا تصدقونى حتى أقيم لكم الدليل . فمنذ ثلاثين سنة تقريباً كان الشاب من شبابنا يصعب عليه أن يتصور جسم المرأة أو يصفه من تحت ثيابها ، لأنها كانت محجبة مخدرة ، ثم أردنا أن نتمدين ونتطور ، أو أن نكون كأوربا ، فنادى منادون بسفور المرأة ، فرفعت المرأة الحجاب عن وجهها ، ثم عن رأسها ، ثم عن ذراعيها وساقيها ، ثم عن صدرها وظهرها ، ثم لبست « مايوه » البحر ، فتجردت من ثيابها ومن بقية حيائها معاً ، وأصبح الشاب خبيراً بجسم المرأة ، عليماً بمفاتنه ومحاسنه ، وظاهره وباطنه ، ومن لا يعرف

---

(١) لم يذكر المؤلف رحمة الله تاريخا لهذه الخطبة .

ذلك من الشباب اليوم فهو فى عرف المتمدنين المتطورين بقية من بقايا الرجعية والجمود والبعد عن الحياة ؛ كما أن الفتاة صارت عليمة بجسم الشاب ومفاتنه لأنه لحقها أو سبقها فى كشف العورات والتجرد من الثياب ، وصار ذلك العرى الفاضح أمراً شائعاً ذائعاً فى المصايف وما شابهها ، وبعد أن كان التقاة المحافظون بالأمس يعترضون على سفور وجه المرأة وينتظرون من ورائه شروراً ، مع أن بعض الفقهاء قد أباحه ، أصبحنا لا نجد من يعترض على تجرد الرجال والنساء من ثياب الحس وثياب الحياء على الشاطئ ، وأصبح من المألوف أن تقام على الشواطئ مواخير فيها من الإثم والفجور والتحلل وشيطانية المنكر ما لا سبيل إلى تصويره أو إحصائه . وكأنما أحس القوم المتجردون هناك أن ما وصلوا إليه لا يكفى فى عالم التجديد والتطور ، فأرادوا أن يجددوا أو يتقدموا ، لكى يفعلوا ذلك لابد لهم أن يقوضوا من الدين والأخلاق ويهدموا ؛ فهناك فى أحد شواطئنا حيث يختلط الجاهل بالنابل ، وتمتزج الذئاب بالشياه ، وتصطدم أجسام الفتيات العاريات الفاتنات بأجسام الفتيان العراة الغاوين ، أجرى انتخاب لملك «جمال الشاطئ» ، وقد قام بعملية الانتخاب — كما نشرت بعض الصحف — مجموعة من الفتيات المصريات المحسوبات على مصر العربية الإسلامية ، فجعلن يسرن وراء الشبان هنا وهناك ويتتبعن حركاتهم وسكناتهم ، وهيئات وقوفهم وجلوسهم ، ويدرسن أجسامهم وأحجامهم ، وألوانهم وأوزانهم ، ومقدار فتنتهم ومبلغ روعتهم ، حتى انتهت الفتيات — بعد دراسة وتتبع ، وبعد جولات ونظرات ومقارنات ، وبعد وقت حرصن على أن يمتد ويطول — إلى اختيار شاب جميل عملاق قوى أسمر ، وانتخبوه ملكاً لجمال الشاطئ ! ! .. وأحاطت الفتيات بالشاب فى حرص ونهم ، وجعلن يسألنه عن الحب وعمن يحب وعن السمار والبياض ! !

يحدث هذا — يا ناس ، يا عالم ، يا بنى آدم — فى بلد عربى مسلم ، ينص

دستوره على أن احترام الآداب الاجتماعية العامة واجب على المصريين ، وتنشره صحيفة سيارة واسعة الانتشار ، ويقرأه ولاة ورعايا ، وآباء وأمهات ومربون ومربيات ، وكأنه شيء مألوف لا يستحق الالتفات أو التعليق ؛ ويحدث هذا فى الوقت الذى ينشغل فيه العالم بالصاروخ الروسى والصاروخ الأمريكى ، وبالأساطيل المختلفة فى البحر والجو ، وبالضحايا فى الجزائر والمهازل الاستعمارية فى عمان ، وبلقمة العيش التى تبلبل الخواطر وتسيل عرق الحياه !! ..

ويكتب فى نقد هذه المهزلة دكتور كبير ، درس فى مصر وفى الخارج ، وألحد زمناً كما أعترف ، ثم عاد إلى رحاب الدين والإيمان ، وذاق حلو الحياة ومرها ، واختلط بأوساط الرجال وأوساط النساء ، وعرف الطبقة المترفة التى يسمونها « الهاى لايف » والطبقة الكادحة التى يسمونها « الرابيش لايف » . . .

وقد وصف الدكتور هذه المهزلة بأنها وجودية حمقاء وعبث فاجر ، ذكر أنه لا يكاد يصدق أن هذا قد حدث فى بلدنا فقال : « لا أصدق أن تصاب الأنوثة الكريمة بتلك المحنة القاسية ، لتضع نفسها موضع المقدرين لجمال فتى مفتون بحمرته أو سمرته ، أو بعرضه وطوله » ! . . يقول هـذا دكتور مثقف مدنى مطربش فيلسوف ، درس فى الشرق والغرب ، وشك وألحد ، ثم أيقن وآمن ، ولو قال هذا رجل معمم من رجال الدين لقال له المجرمون المتحللون هذه رجعية ، هذا جمود ؛ أتريدون العودة بنا وبالمرأة إلى ظلمات القرون الوسطى يا بقايا الماضى البغيض ؟ ! . .

ويعلم الله ويعلم الحق ويعلم العقلاء فى كل جيل أن الدعوة إلى الحشمة والعفة والحياء وستر عورات النساء ليست رجعية ولا جموداً ، وإنما هى شريعة الله الذى يحب التوابين ويحب المتطهرين ، « صبغة الله ، ومن أحسن

من الله صبغة ؟ ونحن له عابدون » . . وإذا طاوعنا هؤلاء على ضلالهم فماذا نصنع فى أمر الجليل سبحانه : « يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ، وكان الله غفوراً رحيماً » ؟ . . وماذا نصنع فى قوله جل جلاله : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إن إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن . . . » ؟ . . . وماذا نصنع فيما ينسبه الرواة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنه سأل ابنته فاطمة : أى شئ خير للمرأة ؟ فأجابت : ألا ترى رجلا وألا يراها رجل ؟ . . وماذا نصنع فيما يرويه الرواة من أن أسماء بنت أبى بكر دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق (تشف عن بعض جسمها) فأعرض عنها وقال لها : يا أسماء ، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا (وأشار إلى وجهه وكفه صلى الله عليه وسلم) ؟ ! . .

أتريدون الحق أيها الناس ؟ . . إنه لا يشجع المرأة على هذا العرى وذاك الفجور إلا رجل فاجر يريد أن يجد الطرق إلى شهواته وملذاته سهلة ميسرة ، أو رجل مخنث لا يحس بغيرة ، ولا يقيم للعرض وزناً ، وإذا صار الرجل مخنثاً والعياذ بالله — لم يضره أن يعيث الناس فى حرماته . . . وهؤلاء المتحللون لم يكفهم أن يجيز الإسلام للمرأة أن تتعلم ، وأن تتاجر ، وأن تمتلك ، وأن تخرج عند الحاجة ، وأن تكشف وجهها وكفيها إذا لم توجد الفتنة ، بل حرصوا على تجريد المرأة من مقومات الحصانة والعفة والحياء . فحرضوها على هذه المناكر والمساخر . وشجعوها على هذا التحلل والتجرد ، وسلخوها من ثياب الصيانة والفضيلة كما يسلخ الجزار جلد الحيوان ، ولم لا يفعلون وقد أخذوا يبشرون فى الأودية العربية المسلمة بالوجودية التى تقول للانسان : اعمل ما شئت . ولا تخجل من إيتان ما تحب مهما كان ، ولا تحتكم إلى

العقائد أو التقاليد أو العادات ؛ بل احتكم إلى صوت نفسك وعقلك . . . ومعنى هذا أن من أراد أن يكون سكيراً فليفعل ، ومن أراد أن يتحلل من الدين والأخلاق فليفعل ، ومن أراد أن يكون متفسخ الرجولية فليفعل ، ومن أراد أن يكون ديوثاً فليفعل ! ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . اذكروا أن فرنسا كان لهـــا فى الحرب العالمية الأخيرة جيش فى البر ، وأسطول فى البحر ، وأسطول فى الهواء ، وكان لها حصن « ماجينو » الجبار ، ولكنها ركعت أمام الغازى ، وذلت أمام الفاتح خازية مستخزية ، لأنه لم تكن هناك أخلاق تثبت الأقدام ولا أعراض مصونة تحرض على المقاومة ، ولا عقيدة تدعو إلى الشهادة . . واذكروا أن ربكم قد أنذر — ولا يزال إنذاره قائماً — فقال : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناهاتدميراً » فليحرس الآباء أبناءهم وليأخذوهم من أول الطريق بالتأديب والتهذيب ، وتعويدهم الحشمة والصيانة والحياء . وليربوهم على الدين والأخلاق والتعفف ولتصن الأمهات بناتهن ، وليطبعن على الفضيلة والعفة والتصون والحياء : ربوا البنات على الفضيلة . . . ، فليس لنا أمام هذا الطوفان إلا أن نتواصى بالتقوى والابتعاد ما استطعنا عن مواطن الفساد ؛ وليذكر ولاة الأمور أن تبعتهم فى هذا الميدان كبيرة ، والله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

وقـاحة التحـلل[1]

الحمد لله عز وجل ، هو المنتقم الجبار ، العزيز القهار : « إن بطش ربك لشديد ، إنه هو يبدئ ويعيد ، وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد ، فعال لما يريد » . أشهد ألا إله إلا الله ، يهذب بالجزاء والحساب ، ويؤدب بالعقاب والعذاب : « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ، إنا من المجرمين منتقمون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كان أولى الأولياء لمن استمسك بالهدى والرشاد ، وكان أعدى الأعداء لمن ركب متن الغواية والفساد ؛ فعليه من ربه الصلاة والسلام ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون » ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لا أدرى والله كيف أتحدث إليكم ، أو أتكلم معكم . . . إنه ليضيق صدرى ولا ينطلق لسانى ، فقد طفح الكيل ، وزاد الويل ، واشتد الميل ، وقد ضاع الحق الغريب ، وتبجح الباطل الفاجر ، واستطال أهل الفاحشة بآثامهم ، وتفرعنوا بإجرامهم ، وغشيتنا فتن متلاحقة كقطع الليل المظلم ، يتبع بعضها بعضاً ، واقترب منا وعيد الله الشديد الذى يقول : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » . والذى يقول : « يوم نبطش البطشة الكبرى ، إنا منتقمون » .

كنا بالأمس القريب نضج من الصور العارية التى تباع فى الشوارع ، ومن عرض أجسام النساء أمام الشباب فى بعض المدارس باسم الفن الرقيع ، ومن رقص الطالبات فى الحفلات هنا وهناك ؛ ولكن الأمر لم يقف عنـــد

---

[1] القيت فى يوم الجمعة ٢٠ من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ١٠ يناير سنة ١٩٥٨ م .

هذا البلاء ، بل زاد وازداد ، واتسع الخرق على الراقع ، فهذه مجلة أسبوعية مشهورة[1] تصدر عدداً ممتازاً من أعدادها ، وتوزعه فى كل مكان ، فتقرأه النساء والرجال والصغار والكبار ، والطلاب والطالبات ، والمسلمون وغير المسلمين ، وأغلب ما فى هذا العدد دعوات للانحلال الخلقى والتحلل من الفضيلة والتعرى من التماسك الدينى ، ولكن الذى لم يكن يخطر على بال أن تخصص المجلة صفحتين كاملتين من صفحاتها الطويلة العريضة لموضوع جعلت عنوانه : « ملكات الإغراء وتجربة الزواج من أربعة رجال فى وقت واحد » ، وطرزت المجلة هاتين الصفحتين بما يزيد عن عشر صور لنساء فاتنات ساحرات ، كلهن إغراء بالفسق والفاحشة ، وتحت العنوان السابق ذكرت المجلة أن طائفة من الممثلات فى مصر وفى الخارج قد سئلن هذا السؤال : هل توافقين على زواج المرأة بأكثر من رجل واحد ؟ . . ثم ذكرت المجلة أن ممثلات الخارج اختلفن ، فنهم من أيدت الفكرة ومنهن من عارضتها ، وأما فى مصر — البلد الإسلامى ، بلد الأزهر — فقد قالت إحدى النساء : إننى أوافق على زواج المرأة برجلين وثلاثة وأربعة رجال فى وقت واحد ، ولو على سبيل التجربة ! . وقالت ثانية : أعتقد أن كل امرأة يجب أن تتزوج من ثلاثة رجال على الأقل ، ولما استقبحت إحدى الممثلات هذه الجريمة الوقحة وذكرت أن الأديان جميعاً تحرم هذا ، والذوق نفسه يحرم هذا ، لم تتركها المجلة ، لأن رأيها لم يعجبها ، فوصفت هذه الممثلة بوصف يسيئها ويؤلمها ! ! . . وأعجب العجب أن ممثلة أجنبية يشيعون عنها أنها ابنة غير شرعية قد قالت : أنا شخصياً أترك هذه المسألة لرجال الدين لأنها من اختصاصهم ! ! . .

أسمعتم ووعيتم ؟ . . أهذا تصرف الإنسان أم تصرف الحيوان ؟ . أهـذا ارتفاع بمستوى البشرية أم نزول بها إلى درك الكلاب والتيوس ؟ . أهذه

(١) مجلة آخر ساعة العدد ١٢١١ ، بتاريخ ١٩٥٨ م ص ١٨ ، ١٩ .

مدنية أم دعارة وفجور ؟ . أهذه حرية رأى أم تحريض على الرذائل والفواحش ؟ . . إن الأمر خطر مما تظنون ومما تحسبون ، وإن عواقب هذا الموضوع لا تقف عند نشره إو إذاعته بالصورة الفاضحة التى أذيع بها . . . إن القوم على درجة كبيرة من الذكاء ، فهم يجعلون هذا الموضوع أشبه « بالطعم » الذى تلقيه للأسماك حتى تتجمع حوله وتتناول منه ، وهم يجعلون ما نشروه أشبه بطرقة على باب مغلق مسدود ، ثم يوالون الطرقات أثناء الفرص والغفلات ، حتى ينفتح الباب أو ينكسر ، ثم يكون من بعد ذلك ما يكون مما يريدون وينتظرون . . . فهم يبدأون فى الموضوع على أنه مجرد سؤال من حقك أن تجيب عليه بلا أو نعم ، وهم يقدمون أثناء ذلك رجلا ويؤخرون أخرى ، ثم يتسللون بعد ذلك ويتابعون الخطوات ، ويتوسعون فى الدعوة للرذيلة والفحش والفسق ، وبعد مرحلة التساؤل ، تأتى مرحلة البحث ، فمرحلة الاستنتاج والتقرير ، فمرحلة الحكم والفصل فى الموضوع ، ولا يبعد أن يتقدم متقدم مخبول بعد حين من الزمن — باقتراح لاستصدار تشريع يبيح تعدد الأزواج الرجال للمرأة الواحدة ! ! .

وبعد هذا قد تسأل الشاب : ابن من أنت ؟ . فيجيبك قائلا : أنا إبراهيم ابن محمد وعلى وخليل وإسماعيل ! . . . أى أنه فى هذه الحال سيكون ابناً لأربعة رجال ! ! . . فحدثونى بربكم : أى رجل عنده شرف يقبل أن يكون شريكاً لرجل آخر فى زوجة له ؟ . . أو يكون شريكاً لآخر ،فى ولد ينسب إليهما ؟ . . وأى ولد يقبل أن يقال عنه إن له أكثر من أب واحد ؟ ! .

إن الحيوانات نفسها تغار على إناثها وتقاتل من أجلها ، وتغار على أبنائها وتحتضنها وتدافع عنها ، فهل يراد للانسانية العاقلة الشريفة النظيفة الطاهرة أن تكون أخس شأناً من هذه الحيوانات ؟ . . وماذا وراء هذا التحطيم لدين المسلمين وأخلاق المسلمين وحرمات المسلمين وإشاعة الفواحش فى مجتمع

المسلمين ؟ . ما المراد من هذا التبجح الذى يحض على الدعارة وتجارة الرقيق ، ويعد دعوة مفضوحة لعودة البغاء ؟ . . أليس هذا فساداً للمجتمع وتحريضاً على الإثم وإخلالا بعقائد الناس وإخلالا بالآداب العامة ؟ ألا يستحق هـــذا الفجور حساباً وعقاباً ؟ . . لقد أصبح المسلم يخاف على نفسه وعلى زوجته وبناته ، وقريباته ، وأصبح يدفع البلاء عن بيته وحماه دفعاً ، وأصبح يحاول الابتعاد عن نار الإجرام بكل ما استطاع ، وليته يستطيع ! . . فهل من معين ؟ .

يا ولاة الأمور ، يا رئيس مجلس الأمة ، يا وزير الإرشاد ، يا وزير التربية ، يا وزير الشئون ، يا وزير الأوقاف ، يا شيخ الأزهر ، يا علماء البلد ، المدد المدد ! . . الحقونا يا ناس ، اتقوا الله فينا . . . اتقوا الله فى نسائنا وبناتنا وأولادنا . . . أعينونا بقوة ، وصونوا لنا ديننا وأخلاقنا وحرمات بيوتنا وأعراض نسائنا ومستقبل أبنائنا ، وأحمونا من هذا الفجور السافر الذى يلاحقنا فى كل مكان ، وبكل لسان ، وبشتى الألوان ، باسم الحرية ، وباسم المدنية ، وباسم الحضارة ، وباسم التجديد ، واذكروا معنا قول الحق جل جلاله : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ، وأنكم إلينا لا ترجعون » ! ؟ . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الصحف مشغولة بالسياسة وما اتصل بها ، إن المجلات مشغولة بالصور العارية والقصص الماجنة وفضائح البيوت والعائلات ، وليس لصوت الإسلام من منبر أو مجال إلا فى رحاب المسجد ، وها قد عرفتم ما يراد بأخلاقكم وحرماتكم ، فاحذروا ثم أحذروا ، وخذوا الطريق على هذا الطوفان الخبيث بكل ما استطعتم ، فكلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم مؤمنون .

خذوا الطريق على الرذيلة[1]

الحمد لله عز وجل ، يحصى القليل والكثير ، ويحاسب على الفتيل والقطمير ، « وهو الذى يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار » . . . وأشهد أن لا إله إلا الله ، لا ثواب كثوابه ، ولا عقاب كعقابه : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » . . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جمله ربه بالحياء والإيمان ، وزانه بالتقوى ومكارم الأخلاق ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى الطاهرين من آله ، والمهتدين من صحابته ورجاله ، والمقتدين بأعماله وأقواله « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

طالعتنا الصحف أخيراً بأنباء أذاعتها أكبر شركات الأخبار فى العالم ، تشير إلى تحقيقات تجرى فى « انجلترا » بسبب انتشار الرذيلة فيها ، وشيوع الانحراف الجنسى فى نواحيها ، وتخبرنا بأن كثيراً من الفتيات والممرضات ينتشرن فى « لندن » عاصمة انجلترا ليقترفن فاحشة الزنى ، وأن أغلب النساء قد وقعن فى هذه الرذيلة . . . يحدث هذا فى « انجلترا » المتعلمة المثقفة المتحضرة ، ذات الجامعات والمعاهد ، التى يختلط فيها الرجال بالنساء ، التى تقول إن تثقيف الجنسين واختلاطهما أثناء التعليم وأثناء العمل مما يؤدى إلى تهذيب الغرائز وتلطيف المشاعر ، ويقضى على الشهوات الجنسية والرغبات الجسدية . . . وها قد تثقفت انجلترا ما تثقفت ، وتعلمت ما تعلمت ،

---

[1] ألقيت فى يوم الجمعة ٣٠ من ربيع الثانى سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٥٧ م .

وأخذت بنظام الاختلاط ما أخذت ، ومع ذلك انتشرت فيها الرذيلة ، وضجت بالشكوى من ذيوع الفاحشة بين نسائها ورجالها — وتألفت اللجان لبحث المشكلة ، وجرت التحقيقات والبحث هنا وهناك ، والناس الآن فى انتظار النتيجة التى سيصل إليها هؤلاء من وراء ذلك التحقيق . . .

ولو استقام تفكير هؤلاء وشعورهم لوصلوا إلى النتيجة القديمة الباقية الدائمة وهى أن الرجل رجل والمرأة امرأة ، وأنهما قطبان يتجاذبان حين يقتربان ، وما بالذات لا يتخلف كما يقول العلماء ، وقد أكدت الطبائع وقررت الشرائع أن شهوة الجنس والفرج هى أغلب الشهوات على الإنسان ، وأطغاها على سلطان العقل حينما ينحرف طريقها ، أو حينما تهيج وتثور ، ولذلك نفر الدين من دواعيها ومثيراتها ومهيجاتها كالنظر الدائم والعارم والاختلاط الواسع ، والتبرج الفاحش ، والخلوة ، وكشف العورة ، وما إلى ذلك ، وقد أشار الرسول نفسه — فى الحديث المتفق عليه — إلى خطر هذه الناحية فقال : « ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء » .

والمحير للعقول والألباب هو أننا نسمع هذا من قديم ونفهمه المرة بعد المرة ثم نخالفه فى أعمالنا وتصرفاتنا ، فهذه صحفنا تطالعنا بهذا العنوان الطويل : « لاعقوبة إذا لف شاب ذراعه حول فتاة وسار معها فى الطريق العام » ! . وجاء تحت هذا العنوان أن العمل المذكور لم يعتبر جريمة لأن « الجمهور اعتاد مشاهدة هذه المناظر ، وأصبحت مألوفة لديه ، وليس فيها ما يخدش الحياء » ! . . يا عجبا كل العجب ، إنهم يتحدثون عن الحياء ! . . الحياء عليه رحمة الله ، ورحمه الله رحمة واسعة ، وأين هو الحياء فى دنيا الناس اليوم يا بنى آدم ؟ . . . لقد صار الحياء بضاعة قديمة كاسدة من مخلفات الآباء والأجداد ، وصار الناس يستحون من الحياء ، ويخجلون من كلمة الحياء ، ويلومون من كان عنده حياء ، ويعيبون من يدعو إلى الحياء وأصبح الشخص

المتمدن يغضب ويحتج إذا وصفه آخر بأنه ذو حياء ، وما دام الحيـــاء قد ذهب وودع فسيرتكب الأشرار كل رذيلة وكل موبقة وهم آمنون أن سيئاتهم لن تخدش الحياء ولن تخل بالحياء ، لأنه غير موجود ، وقد قال سيد الوجود محمد صلوات الله عليه : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت » ! . . أى أنه إذا لم يكن فى الشخص حياء رادع وازع فإنه يقدم على كل فاحشة ويأتى كل مصيبة بلا تردد ، لأنه كما يقول الناس قد خلع برقع الحياء . . .

ولو كان فى الناس حياء من حياء الإسلام والمسلمين لتحرزوا من القبائح والمنكرات ولتباعدوا عن حماها ، ولغضبوا حين يرون منكراً ولو كان فاعله ممن لا يستحون ولا يخجلون ، لأن الحياة الطيبة الطاهرة ليست ملكاً للأفراد وحدهم ، بل هى من حق المجتمع الإسلامى القويم ، عليه أن يحرسها ويصونها ويذود عنها ولأن كل فرد فى هذا المجتمع الإسلامى الكريم مأمور بأن يكون صاحب حياء ، لأن الحياء شطر الإيمان ، وبأن يكون حياؤه من النوع القائم على النفس بالمحاسبة والمراقبة ، العاصم للشخص من أن يرتع كما ترتع السائمة فى الشهوات والملذات ! ! . . وهذا رسول الله يقول لصحابته : استحيوا من الله حق الحياء . قالوا يا رسول الله ، إنا نستحيي والحمد لله ، قال : ليس ذاك ، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى (كالسمع والبصر واللسان) ، والبطن وما حوى (كالطعام والفرج) ، ولتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء » ! . . ولقد كان رسول الله أشد الناس حياء ، وكان أشد حياء من العذراء فى خدرها ، وكان من حيائه لا يثبت بصره فى وجه أحد . . .

وهم يقولون إن تطويق شاب لفتاة فى الطريق العام ليس فيه جريمة ،

لأنه صار من المناظر المألوفة عند الناس . . . وليت شعرى : عند من صار هذا مألوفاً ؟ ! ! أعند المسلمين المتقين العقلاء أم عند المتحللين المتفسخين الرقعاء ؟ . . وليت شعرى . . . من هذا المسلم الذى يقبل لنفسه أن يفعل هذا فى وسط إسلامى له كرامة ؟ . . أيقبل مسلم عنده بقية من دين أو حيـــاء أن يطوق أمه أو أخته أو زوجته أو بنته على أنظار الناس ويسير بها فى الطريق العام ؟ . . إنما يفعل ذلك شخص لا يراعي شعور الناس ولا يحرص على كرامة الفتاة التى معه ، وهى فى الغالب إما خليلة أو رفيقة ! . . وهل ألفة الشئ القذر أو المنكر تعتبر من أسباب إباحته والسكوت عليه أيها الناس ؟ . . هل نبيح النفاق مثلا لأنه صار مألوفاً ؟ . . هل نبيح السرقة بمختلف أساليبها لأنها صارت مألوفة ؟ . . هل نبيح شرب الخمر لأنه صار مألوفاً ؟ . . هل نبيح الخيانة الزوجية لأنها صارت مألوفة ؟ . . أفتونى أيها الناس فقد ضاعت معالم الطريق ! .

ألم يأتكم أن هذا العذر الغريب كان حجة الضالين من القدماء فى تفحشهم وإتيانهم السيئات ؟ . . يقول القرآن : « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا . . . والله أمرنا بها ، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله مالا تعلمون » فهم قد احتجوا على جواز الفاحشة بأنها كانت معروفة مألوفة لآبائهم وافتروا على الله فادعوا أنه أمرهم بها ، وهذا كذاب صراح ، ولذلك رد عليهم فقال : « قل إن الله لا يأمر بالفحشاء . . » ثم نرى الله يقول فى الآية التالية : « قل أمر ربى بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين ، كما بدأكم تعودون » .

والقرآن يشتد فى الإنكار على الذين يتابعون سابقيهم فى العادات المنكرة والتقاليد الأثيمة ، فيقول : « « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ، قل

أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ».
ويقول : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا .
أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » ؟ . والإسلام يحارب الفاحشة
فى أى مكان وبأى لون ، والفاحشة هى كل شئ جاوز قدره ، ولا تكون
إلا فى القبيح ، وقيل إن الفاحشة هى كل ما ينفر منه الطبع السليم ويستنكره
العقل السليم ، وقد حمل القرآن الكريم حملة قوية على الفاحشة والفحشاء فى
عدة مواضع منه ، وحسبنا قوله : « قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها
وما بطن » وقوله : « ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن » .

وقوله : « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء .

وقصة هذا الفتى الذى طوق الفتاة بذراعه تذكرنا بقصة قريبة العهد ،
موضوعها أن بعض الشبان تعرضوا لفتاة فى الطريق العام بألفاظ قذرة
وعبارات جارحة ، ولما عرضت القضية قيل إنه لا جريمة هناك ولا عقوبة .
أتدرون لماذا ؟ . . لأن الفتاة لم تشتك ولم تطالب بالعقوبة ، مع أنها لم تشتك
فى الغالب خوفاً على سمعتها ، أو تخلصاً من متاعب الشكوى والتحقيق
والمقاضاة . . . والحمد لله فقد تدارك رئيس النيابة الأمر ، وعارض فى
نتيجة القضية ، قائلا إن مكافحة الجريمة من واجبات المجتمع لا من واجبات
الأفراد ، وفى الحديث : « إذا خفيت الخطيئة لا تضر إلا صاحبها ، وإذا
ظهرت فلم تغير ضرت العامة » ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إذكروا أن بعض الباحثين الأمريكيين يقررون أخيراً نسبة الإقبال على
الزواج فى أمريكا قد انخفضت بشكل مخيف ، لأن الرجل أصبح غير مرتاح
إلى هذه الحرية الواسعة التى تمرح فيها المرأة ، ولأنه يستطيع قضاء لذته عن

طريق غير طريق الزواج بسهولة ، وأذكروا أن أحد الذين اشتركوا مع قاسم أمين فى دعوته كتب يلعن كل امرأة متبرجة تجشم ولا تتفرغ لبيت الزوجية ولتربية أطفالها ، ويقول إن قاسم أمين لو عاد ورأى هذا التبرج لنادى بالعودة إلى الحجاب ، واذكروا أن أخلاقنا وأخلاق أبنائنا ودعائم مجتمعنا مهددة بالويل والثبور إذا لم تأخذ الأيدى القادرة على هذه الفواحش طريقها ، وإذا لم يحاول كل منا قدر استطاعته ألا يكون شريكاً فى إشاعة الفحشاء بين المسلمين : « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . . .

عقـوبة الاعـدام[1]

الحمد لله عز وجل ، وهو بديع السموات والأرض ، «ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، حد الحـدود وأوضح المعالم « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أفضل من عبد خالقه والتزم طريقه ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، والمهتدين بفعاله ومقاله : « وإن للمتقين لحسن مآب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد ابتلى مجتمعنا بطائفة من المتحللين الذين لا يغارون على دين ، ولا ينطوون على عقيدة ، وقد جعلوا كل همهم أن يبثوا التحلل والتخلص من التعاليم الدينية والقيم والروحية والأحكام الإلهية ، وقد نظم هؤلاء أخيراً ما يشبه الهجوم العام ضد تعاليم الإسلام ومبادئ الشريعة ، فهذا فريق منهم يدعو إلى الخروج على ما أمر الله فيما يتعلق بشئون الأسرة المسلمة من زواج وطلاق وحضانة وقوامة للرجل على المرأة ، وهذا فريق ثان يبث الشكوك والإلحادية والريب المصطنعة فى المعتقدات الدينية ، وهذا فريق ثالث ينشر مفتريات الشيوعيين ضد العقيدة والدين من غير أن يفندها أو يرد عليها ، متظاهراً بأنه غير راض عنها ، وهو فى الواقع يسبب العصف بإيمان القراء عن طريق النشر الواسع لهذه المفتريات . . . ثم هذا فريق آخر أيضاً ينظم حملة للمطالبة بإلغاء عقوبة الإعدام ، مع جريان البشرية الرشيدة منذ بدايتها على المماثلة فى العقاب ، وكما تدين تدان . . .

---

[1] ألقيت فى يوم الجمعة ١١ من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٩ هـ الموافق ١١ من ديسمبر سنة ١٩٥٩ م .

ويلوح أن هؤلاء لا يعارضون عقوبة الإعدام لأنهم أرحم من سواهم ، أو لأنهم مؤمنون فى سرائرهم بما يقولون ، بل لعلهم يعارضونها لأنها تربطنا بنظام من نظم الدين ، وحكم من أحكامه ، وهم يريدون أن يتحللوا من القيود والحدود ، لكى ينطلقوا على وجوههم كما يشاءون . . .

يقولون مثلا إن عقوبة الإعدام عقوبة قاسية مؤلمة ، لأنها إزهاق للروح الإنسانية وقضاء عليها ؛ فلماذا لا يتذكر هؤلاء تلك القسوة البالغة التى قساها القاتل حين أزهق حياة المقتول « عمداً مع سبق الإصرار » ؟ . ولماذا لا يتذكرون الفرق الواسع بين الحالتين ففى عقوبة الإعدام للقاتل جزاء معه عذره القوى الناهض ، لأنها عقوبة تأديب وزجر ، ولكن قسوة القاتل على المقتول ليس معها مبرر محترم . فكيف يقال للجزاء العادل إنه قسوة ، ولا يقال للاعتداء الآثم إنه طغيان يستحق صارم العقاب ؟ . . والقاتل حين أقدم على جريمته ، ولوث يديه بدم النفس الزكية المعصومة التى أزهقها قد حكم على نفسه بهدر دمه وضياع حرمته . فلما ذا نحاول أن نسترجع عصمة زاهقة لشخص سفاح عاث فى الأرض فساداً ، وارتكب الجريمة التى عدها الله كأنها قتل للناس جميعاً ، فقال : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » . فإذا أراد القاتل من المجتمع أن يكون به رحيماً ، فذلك فى الواقع ليس فى يد المجتمع بقدر ما هو فى يد ذلك المجرم ، فليرحم القاتل غيره ، قبل أن يطالب غيره برحمته . . .

ويقول هؤلاء فيما يقولون : كيف نعدم القاتل وإعدامه على حريته الشخصية وحياته الخاصة المملوكة له ؟ . . وهذا ضلال فى القول وإفك مبين ، فحياة الإنسان ليست ملكاً خاصاً له ، بل هى ملك لله الذى أبدعها وبرأها وأحياها ، فلله كل ما فى السموات والأرض ، والحياة البشرية وديعة عند الإنسان لا يملك هو ولا غيره من الناس أن يتصرف فيها ، ولذلك يقول

الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « الإنسان بنيان الله ، ملعون من هدم بنيانه » . . والله سبحانه واهب الحياة ومبدعها هو الذى شرع القصاص ، وأمر تقبل القاتل ، فقال جل جلاله فى محكم تنزيله : « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » وقال أيضاً : « ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً (أى حقاً فى القصاص) فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً » ، وواهب الحياة ومبدعها هو الذى يحكم بسلبها واستردادها من صاحبها حين يعتدى على حياة شخص آخر عصم الله دمه وصان حياته ، والإسلام العظيم قد عنى عناية كبيرة بصيانة الدماء والتحذير من الاعتداء عليها بقصد إزهاق النفوس والأرواح : فقال تعالى : « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق » وقال الرسول : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » وقال : « لا يزال العبد فى فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً » وقال : « لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم » .

كما أن المجتمع والدولة لها حق فى حياة المواطن ، ولذلك يؤاخذ المجتمع الشخص الذى يحاول إزهاق حياته بالانتحار ، والدولة فى أوقات الحروب تدفع بالمواطن إلى أداء واجبه فى الميدان ولو أدى ذلك إلى موته فى المعركة ، ولا يستطيع الفرد أن يمتنع عن أداء هذا الواجب ولو رأى الموت بعينيه ، وهذه هى الدول شرقاً وغرباً تحكم بالإعدام على من تثبت خيانته العظمى للوطن ، فماذا يكون مصير هؤلاء الخونة الآثمين إذا أخذنا برأى هؤلاء فألغينا عقوبة الإعدام من القانون ؟ . .

ويعترض هؤلاء أيضاً على عقوبة الإعدام بأنها عقوبة إذا نفذناها لم نستطع تغييرها إذا ثبت لنا بعد تنفيذها أنها كانت خطأ ، ويجاب عن ذلك بأن الشارع حينما شرع عقوبة القصاص فى النفس قد حاطها بكل الحوافظ الداخلة فى طاقة البشر ، لتكون الأدلة متوافرة على استحقاق الشخص للقتل

قصاصاً ، بحيث لا توجد شبهة فى الموضوع ، فإذا وجدت هذه الشبهة انتقل الأمر من الإعدام إلى ما يليه من عقوبة ، والرسول صلوات الله عليه يقول : « ادرأوا الحدود بالشبهات » ويقول أيضاً : « ادفعوا الحدود عن عباد الله ما وجدتم لها مدفعاً ، ويقول خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز : « ادرأوا الحدود ما استطعتم فى كل شبهة ، فإن الوالى إذا أخطأ فى العفو خير من أن يتعدى فى العقوبة » .

ولنفرض أننا ألغينا عقوبة الإعدام أيها الناس . . . ألا يؤدى ذلك إلى اجتراء الكثيرين جداً على ارتكاب جريمة القتل ما داموا يعلمون أن حبل المشنقة قد تقطع ، وليس فى انتظارهم هناك ، . . . ألا يؤدى ذلك أيضاً إلى مضاعفة حوادث الأخذ بالثأر ، وهى تلك الحوادث المرعبة المفجعة التى تهدم الأسر وتخرب البيوت ، وتنشر الأهوال والكوارث ؟ . . وإذا كنا نقاسى الأمرين من حوادث الأخذ بالثأر مع وجود عقوبة الإعدام للقاتل فما يكون المصير والحال لو ألغينا هذه العقوبة ؟ . . ألا يكون ذلك تحريضاً على الإكثار من تلك الفواجع الأليمة ؟ . .

ومن الغريب أن هناك أمماً غريبة يقلدها هؤلاء ويتابعونها كحذو الفعل بالفعل ، ومع ذلك نجد هذه الأمم قد قررت إلغاء عقوبة الإعدام فيما مضى ، ثم استبان لها بالتجربة الدامغة أن وجودها لازم فاعادتها كما كانت . فهذه إيطاليا مثلا ألغت عقوبة الإعدام سنة ١٨٨٩ ، ثم عادت إليها سنة ١٩٢٦ فى الجرائم السياسية ، ثم عادت إليها سنة ١٩٣٠ فى جرائم القتل الداعية للتشديد فى العقوبة . . . ومن الدول التى ألغت هذه العقوبة وعادت إليها ألمانيا والنمسا وأسبانيا ، فهل عرف هؤلاء المقلدون تلك الحقائق ؟ ولماذا

لا يقلدون هنا ؟ . . . ألئن الإسلام الحنيف قد جعل قتل القاتل حكماً من أحكامه ؟ ألئن القرآن المجيد يقرر شرعة القصاص فى محكم آياته . . . « أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ؟ ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن للايمان غربة فى زحمة الإلحاد، وإن للحق غيبة فى ظلام الباطل ، ومن واجب الأخيار الذين ظلوا أوفياء لدينهم وربهم أن يتعرفوا طريقهم فى الحياة ، وأن يبشروا بكلمة الهداية بين أهل الضلال ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . . .

العقوبة اختصـــاص الدولة

الحمد لله عز وجل ، جعل العاقبة للمتقين ، وكتب المذلة للفاسقين : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » . أشهد أن لا إله إلا الله ، رسم المعالم للانسان ، ويسر أمامه طريق الإيمان : « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، حكم فعدل ، وأدب فقوّم ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وذريته ، وصحبه وأتباعه وجماعته ، « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد أقبل الإسلام يحمل لواء الدعوة إلى الوحدة البشرية والأخوة الإنسانية ، والتواصل بين الناس بالأرحام المشتركة بين بنى آدم ، فهم من أب واحد وأم واحدة ، يقول القرآن الكريم : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً » ، فإذا انضم إلى هذه الأخوة الإنسانية أخوة فى العقيدة أو الوطن قويت الروابط بين الأفراد وتوثقت ، واستوجبت مزيداً من العناية والرعاية ، ووجب على الفرد الذى يحمل بين جنبيه نفساً بشرية أن يصون النفس البشرية التى تماثلها ، فلا يعتدى عليها ليرهقها أو يزهقها ، لأن الإنسان بناء الله فلا يمسه سواه ، بغير حق ولذلك كان للنفس البشرية حرمتها ومكانتها فى الإسلام بسبب ما فيها من معنى الإنسانية الذى كرمه الله وشرفه ، ومما يرمز إلى ذلك أن جنازة

لرجل غير مسلم مرت على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان جالساً فنهض لها ، فقال له الصحابة إن الميت غير مسلم ، ، فأجابهم النبي قائلا : أليست نفساً ؟ ! . .

والمشاهد أن كل أمة تتكون من أفراد كثيرين ، تتعدد منازعهم ومشاربهم وتختلف أهواؤهم ومطالبهم ، وتكثر خصوماتهم على شئون الحياة ، فلو تركوا وشأنهم ، لتضاربت آراؤهم ووجهاتهم ، ولصارت حياتهم معركة تتطاحن فيها الأهواء وتتناثر الأشلاء ، فلابد لكل أمة من دولة وحكومة ، ولابدلها من وازع وقانون ، ولابد لها من ولاة أمر يكونون أصحاب الحل والعقد ، ويكون من هؤلاء الولاة قضاة مختصون يفقهون تطبيق القانون ، ويعينون لكل جريمة عقوبتها بالحق والعدل ويصدرون حكمهم بعد التحرى والبحث والفصل ، ومنهم منفذون مختصون يقومون بتنفيذ هذه الأحكام باسم الأمة . .

ومن طبيعة المجتمع أن تحدث فيه بعض الجرائم ، وهذه الجرائم لابد من مقاومتها وعقاب أصحابها ، ولكن بيد الدولة المهيمنة على شئون المجتمع المسئولة عن أمنه واستقراره ، لا بيد الأفراد الذين لا يحسنون فصلا فى قضية ولا يملكون أهلية أو اختصاصاً فى توقيع عقوبة ، والإسلام يقرر مثلا أن القصاص واجب : « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » ، ولكن الذى يتولى إثبات القصاص هو ولى الأمر الحاكم ، وهو الذى ينفذه أو يشرف على تنفيذه بعد التمكين منه ، ولا يجوز لصاحب الثأر أن يأخذ ثأره بيده دون إذن الحاكم ، لأن فى هذا فساداً وتخريباً ، ولو أن الإسلام ترك كل فرد يأخذ ما يراه أو يظنه حقاً له — وبخاصة فى الدماء — لكانت هناك الطامة الكبرى ، ولعادت الجاهلية بفجورها وشرورها ، وطغيانها وبهتانها ، لأن الطرف فى الخصومة لا يستبين الرشد فى خطواته وتصرفاته لو جعل نفسه حاكماً ، ولذلك اشترط الإسلام أن يفصل فى الخصومات من

لا يد له فيها ، واشترط فى القاضى صفات وأخلاقاً تجعله بمعزل عن التهم والظنون .

فأولئك الذين يندفعون فى حمق وجهالة فيعتدون على غيرهم ، لأن خطأ حدث ، أو لأن جريمة وقعت ، ويقيمون من أنفسهم حكاماً ومنذرين بغير حق ، أولئك خارجون على النظام ، مخالفون للدين والشريعة ، يعرضون أنفسهم بهمجيتهم لغضب الله والناس ، وصرامة القانون والعقوبة ؛ ومن فرط الجهالة والحماقة أن يندفع متهور أثيم إلى الاعتداء على من ظنه خصما له ، فيقبل أهل المعتدى أو جيرانه ليشتركوا فى هذا العدوان بلا تعقل أو تبصر ، كشأن أهل الجاهلية حين كانوا يرددون : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » فهم يؤيدون قريبهم ولو كان ظالماً باغياً ، وقد جاء الإسلام فهذب هـــذا الشعار وأصلح معناه على لسان الرسول حين أفهم المسلم أن ينصر أخاه إذا كان ظالماً بأن يرده عن ظلمه لا أن يعاونه فيه ، ولا شك أن رد الظـــالم عن ظلمه فيه مناصرة له ، إذ سينجو بذلك من الزلل والعقاب ، وسيهتدى به إلى سواء السبيل .

ويزداد الأمر سوءاً وبلاء وهمجية حين تدفع الثورة الحمقاء ، والغضب المجنون بعض الناس إلى التوسع فى الاعتداء حتى يشمل غير الخصم من صحبته أو قرابته ، فبأى دين أم بأية ملة يجوز هذا الطغيان ، والله تعالى يقول : « كل نفس بما كسبت رهينة » ؟ . ولقد روى التاريخ أن زياد بن أبيه طلب أحد خصومه ليعذبه فهرب منه ، فقبض زياد على شقيق ذلك الهارب وسجنه وقال له : لن أطلق سراحك حتى يأتينى أخوك . فقال له الرجل : لوجئتك بكتاب من أمير المؤمنين يأمرك بإطلاق سراحى ، أكنت تطلق سراحى ، قال زياد : نعم فأنا عبد أمير المؤمنين وخادمه ، قال الرجل : فأنا آتيك بكتاب من العزيز الحميد ، وهو خير منى ومنك ومن أمير المؤمنين ، وأقيم

لك عليه شاهدين من الأنبياء هما موسى وإبراهيم عليهما السلام . يقول الله تعالى : « أم لم ينبأ بما فى صحف موسى ، وإبراهيم الذى وفى ، ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للانسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » . فارتدع زياد وقال : اطلقوا سراحه ، فإنه رجل قد لقنه الله محبته ! . .

بل لقد طلب الله تبارك وتعالى من نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسد الباب على التوسع فى الاقتصاص والانتقام ، حتى مع ألد الأعداء ، فقد قتـــل المشركون حمزة يوم أحد ، وحمزه هو عم الرسول وساعده وسيد الشهداء ، ومثل المشركون بجثته وجثث غيره تمثيلا شنيعاً ، فقال الرسول وأصحابه : لئن أظفرنا الله بالمشركين لنفعلن بهم ولنفعلن (يريدون التوسع) فنزل قوله تعالى : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » ثم نهى الإسلام عن التمثيل بجثث الإنسان والحيوان حتى قال الرسول : « إياكم والمثلة ولو أنها بالكلب العقور » .

وماذا يكون الحال فى المجتمع إذا استباح كل إنسان لنفسه أن يأخذ حقه بيده ، ويقتص من المذنب بنفسه ، ويجعل ذاته خصما وحكماً فى آن واحد ؟ . ألا ينقلب المجتمع بهذه الفوضى إلى غابة يتهارش فيها أهلوها تهارش الذئاب والسباع ، أو إلى محيط تنهش فيه الأسماك الكبيرة الأسماك الصغيرة دون عدالة أو إنصاف ؟ . وأين تذهب إذن فائدة القانون ، وهيبة الدولة ، والخضوع لما شرعه الله عز وجل من حدود وقيود ؟ . ألا يؤدى ذلك إلى تعدد جريمة القتل التى كانت أول جريمة على وجه الأرض ، وكانت أبشع جريمة فى نظر الدين والقانون والعقل ، واعتبرها الحق تبارك وتعالى جناية على الإنسانية كلها فقال : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما

قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » كما عدها الرسول هدماً لما شيده الله تعالى فقال : « الإنسان بنيان الله ملعون من هدم بنيانه » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن نبي هذه الأمة يقول : « ليس الشديد بالصرعة (أى القوى الذى يغلب من يصارعه) إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » . وكم من جرائم وكوارث حدثت بسبب الاستجابة لهذا الغضب الأرعن الأحمق ، فلنتعود التعقل والتريث والإنصاف ، ولنحارب فى أنفسنا الإندفاع والطيش والتسرع ، حتى نكون أهلا للحياة فى مجتمع نظيف منظم ، يعرف كل واحد فيه واجبه فيؤديه ، فى إتقان وإحسان ، وحقه فيطالب به فى حكمة وانتظام ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . . .

الخمر أم الخبائث[1]

الحمد لله عز وجل ، هو الطيب الذى لا يقبل إلا طيباً : « والله يحب المتطهرين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يهدى العباد إلى خير الدنيا والآخرة ، ويسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة : « والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيماً » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، نبي الصالحين وإمام المصلحين ، فعليه صلوات ربه وسلامه ، وعلى ذريته وآله ، وأصحابه ورجاله ، ومن سار على منهجه ومنواله : « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

أذاعت كبرى شركات الأنباء خبراً لعل الكثيرين لم يقفوا عنده ولم يحفلوا به ، مع أن له قيمته ودلالته ، وهو أن سكان قرية هندية وضعوا قانوناً للقضاء على الخمر ، وهو يقضى على شارب الخمر بحلق نصف شاربه ، ثم يركبونه حماراً ، ويطوفون به فى أزقة القرية وحواريها ، لإعلان فضيحته والسخرية به ، ثم يغرمونه خمس عشرة روبية بعد كل هذه الفضيحة[2] ، ومنذ قليل نشرت جريدة « برافدا » الروسية أن غرامة ستوقع على كل من يضبط مخموراً أو مقامراً[3] ، ومنذ حين نشرت الصحف أن أكثر من ستين فى المئة من الطيارين الأمريكيين يشكون اضطرابات عصبية بسبب الإفراط فى المسكرات ، والإسراف فى لعب القمار ، وبسبب الانحرافات الجنسية[4] ! ! . .

ذكرتنا هذه الأنباء بعلة مستعصية من عللنا ، وهى علة انتشار الخمور

---

(١) ألقيت بمسجد الرفاعى يوم الجمعة ١٤ صفر سنة ١٣٧٨ هـ الموافق ٢٩ أغسطس سنة ١٩٥٨ م .
(٢) جريدة الأهرام ٢٨ أغسطس ١٩٥٨ م .
(٣) جريدة الشعب ٢٨ يوليه ١٩٥٨ م .
(٤) جريدة الشعب ١١ مايو ١٩٥٨ م .

فى بلادنا ، واعتياد الكثيرين من المتحللين والمترفين لتناولها جهراً أو سراً ، وتلطخ الكثير من الحفلات والسهرات فى الأفراح والملاهى والأندية الليلية الخبيثة بالخمر على اختلاف الأنواع والألوان ؛ وهناك مع الأسف من يصرح بأن المخدرات كالحشيش والأفيون هى التى يجب أن تقاوم وتحارب وتبذل فى محاربتها الجهود وتجند الجنود ، وأما الخمر فلا خوف منها ولا خطورة فيها ، بل هناك من يقترح محاربة المخدرات بنشر شرب الخمر أو شرب نوع منها ، ومن أعجب العجب أن بعض هؤلاء يفترون على الله الكذب وهم يعلمون فيقولون إن الخمر لم يحرمها القرآن ، مع أن ربكم وخالقكم هو الذى يقول : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

والخمر أيها الناس — بمختلف أنواعها المسكرة المذهبة للرشد والعقل — حرام حرام ، بنص القرآن والسنة والإجماع ولو لم يحرمها الدين لحرمها العقل ، وإنما حرمها الإسلام لما فيها من أخطار وأضرار ، وقد أراد من وراء تحريمها حفظ الأموال لأنها تتبدد فيها بسعة وجنون ، وحفظ الأجسام لأن الخمر تهدمها وتقوضها وتصيبها بوبيل الأمراض والعلل ، وحفظ العقول لأنها تذهب بها وتسبب لمدمنها الضلال والخبال ، وحفظ الأعراض لأن من سكر انفلت منه القياد فكان حيواناً أو كالحيوان ، ولقد رووا أن عجوزاً من الأعراب جلست إلى فتيان يشربون نبيذاً لهم ، فسقوها قدحاً فطابت نفسها وتبسمت ، ثم سقوها قدحاً ثانياً فاحمر وجهها وضحكت ، فسقوها قدحاً ثالثاً فقالت : خبرونى عن نساءكم ، أيشربن من هذا الشراب ؟ . قالوا نعم : فقالت : زنين ورب الكعبة ! . .

ومن لؤم الذين يشربون الخمور جهاراً أو من وراء ستار أنهم يخادعون الله وهو خادعهم ، فيوهمون الناس أن الأصناف التى يشربونها اليوم ليست

من الأصناف التي حرمها الإسلام ، لأن الإسلام لم يذكر تحريم « الوسكى والكونياك والشمبانيا » إذ لم تكن هذه الأسماء موجودة ، مع أن رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام يحدثنا عن هذا الاحتيال الذى وقع بعد عهده بأجيال فيقول : « « ليشربن أناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها » . ثم وضع لنا قاعدة التحريم فى هذا الباب فقال فى الحديث الصحيح المتفق عليه : « كل شراب أسكر فهو حـــرام » . ومن لؤمهم كذلك أن يقولوا إن « النبيذ » حلال وقد أباحه بعض الفقهاء ، ولكن النبيذ المذكور فى كتب السيرة الإسلامية أيها الناس هو نقيع التمر أو الزبيب الذى لا إسكار فيه ، فهو مثل « الخشاف » المعروف اليوم ، وعن أنس قال : سقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدحي هذا الشراب كله : العسل والنبيذ والماء واللبن . فهل يعقل أن يشرب نبي الطاهرين المطهرين شراباً مسكراً أو فيـــه شبهة إسكار ؟ . ومن لؤمهم أيضاً أنهم يتعللون فى شربها بأنها دواء لمرض أو علاج لعلة ، وهذا مكر يمكرونه بين الناس فأكثرهم يشربونها للسكر والإدمان ، وعلماء الطب لم يدعوا حالة من حالات المرض يستعمل فيها دواء مسكر إلا أوجدوا لها دواء آخر ليس مسكراً ، ومع هذا فقد سئل الرسول عن التداوى بالخمر فأجاب : إنها داء وليست بدواء ! . . .

ولما كانت الخمر بهذه الدرجة الخطيرة الخسيسة حذر منها الرسول فقال فيما ينسب إليه : « اجتنبوا الخمر ، فإنه والله لا يجتمع والإيمان أبداً إلا يوشك أحدهما أن يخرج صاحبه » . ولا عجب فالخمر أهم الخبائث ومفتاح الشرور وباب البلايا ، ولقد روت بعض كتب السنة أن رجلا استدرجته امرأة فاجرة ، وغلقت عليه الأبواب ، وكأنها أرهبته حين خيرته بين أمور ثلاثة : أن يشرب كأساً من خمر كان عندها ، أو يقتل غلاماً كان معها ، أو يزنى بها ، وكأنما أراد الرجل أن يختار فى ظنه أخف الأمور ، فشرب من الخمر ،

فلما دارت برأسه زين له الشيطان أن يواقع المرأة فأقدم على ذلك ، وكأنما خاف من الغلام أو ضاق به فقتله . فكانت الخمر كما رأيتم سبباً فى شر عظيم وبلاء مستطير . ولذلك لا يشرب الخمر إلا من ضل ضلاله وساء حاله ، وكأن هذا سبب فى أن السنة النبوية تخبرنا بأن شارب الخمر كان يجلد أربعين ، وكان الجلد بالنعال . . . نعم بالنعال ، لأن المرء الذى أهدر آدميته وأذهب عقله لا يستحق إلا الحذاء ، وشتان بين إنسان يحافظ على عقله وكرامته وبين حشرة تأبى إلا إهلاك نفسها وسواها :

إن عادت العقرب عدنا لهـــا بالنعل ، والنعل لهـــا أنسب !

وهناك من يرى أن مقاومة الخمر ومهاجمتها لون من الرجعية والجمود ، لأن الخمر قد ذاعت وانتشرت ، وأصبح من العبث الوقوف فى وجهها ، وهذا منطق غريب مقتضاه أن النار إذا زادت فى الاشتعال تركناها حتى تأتى على الأخضر واليابس ، وما هكذا كان المصلحون ولا الذين يغارون على الفضائل والأخلاق ، فهذا عمر بن الخطاب نراه حينما شاهد أن عدد الذين ينحرفون فيشربون الخمر قد زاد عما كان عليه فى عهد النبوة فيضاعف حد الشارب فيزيده من أربعين جلدة إلى ثمانين ، لأن التوسع فى الذنب يستلزم التشدد فى العقاب . . .

إن الله جل جلاله قد خلق لنا الحلو اللذيذ الطيب الحلال الطاهر من ألوان الشراب ، فخلق اللبن الذى يخرجه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ، وخلق العسل الذى يخرجه من بطون النحل شراباً مختلفاً ألوانه فيه شفاء للناس ، وخلق الماء العذب الفرات الذى يروى ويمتع ، وخلق عصير الفواكه وما أكثرها وأكثر منافعها . . . ولقد كان النبى صلوات الله عليه يدخل بستان « بيرحاء » لأبى طلحة بجوار المسجد النبوى ويشرب من ماء فيه طيب كأنه يحبه ويتلذذ به ، وكان الماء العذب يجلب للنبى من عين

تسمى « بيوت السقيا » على يومين من المدينة ، وقيل إنها قرية بين مكة والمدينة فأين هذا الهدى من ولوع الإنسان بإفساد الصالح وتعويج المستقيم وتعقيد السهل ؟ . . كان الطعام لسد الجوعة فجعله الإنسان للتخمة والبطنة ، فتعددت ألوان الأكل ، فكثرت الأمراض وتضاعفت العلل ، وكان الشراب للري ودفع الظمأ فاصطنع الإنسان ألواناً منه لقتل العقل وإثارة الشهوة ، وكانت الثياب لستر العورة ، فجعلها الرجل للزينة الكاذبة والفخر الزائد ، وجعلتها المرأة مصايد للشيطان ، فأي شقاء جره الإنسان على نفسه بسبب هذا الانحراف وذلك الاسراف ؟ ! .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . قد تكونون ممن لا يشربون الخمر ولا يدمنونها ، وقد تكونون ممثلين لبقايا الخير فى هذا المجتمع الصاخب ، ولكنكم قد تختلطون بمن يسكرون أو يدمنون ، ومن واجبكم النصح لهم والإخلاص فى تذكيرهم ، وقد تكون لكم ذرية ناشئة تتوزعها مناكب الحياة الآن ، فمن واجبكم أن ترعوها حق رعايتها حتى لا تصبح من ضحايا المسكرات والمخدرات ، وأنتم أعضاء فى مجتمع يلزمكم التعاون على تطهيره ، حتى لا يعمنا الله بعذابه ونقمته ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

اياك والاعتـــذار(١)

الحمد لله عز وجل ، يحصى القليل والكثير ، ويحاسب على الفتيل والقطمير : « وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » . أشهد أن لا إله إلا الله إليه المرجع والمآب ، وهو سريع الحساب : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون : يا ويلتنا مالهذا الكتاب لا يغادر صغيره ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من راقب ربه ، وخاف حسابه ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه الموقنين ، وأتباعه المتقين : « إن المتقين فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

من الحكم المقررة المشهورة بين العقلاء أن الوقاية خير من العلاج ، لأن الوقاية فيها صيانة وحصانة ، وفيها تباعد عن الخلل والعلل ، فيظل الشيء المصون المحوط بالوقاية سليما قويماً ، ولكن العلاج يكون مع شيء قد تطرق إليه فساد أو اعتلال ، وقد يفشل العلاج وقد ينجح ، وعند نجاحه يترك من ورائه أثراً يدل عليه ، فليس الشيء السليم كالشيء المكسور الذى جبرنا كسره برباط أو لحام أو سبب . . . ومن هنا يظهر أن وقاية المرء نفسه من وجوه الانحراف والضلال خير وأفضل بكثير من تعرضه لها ووقوعه فيها ، ثم عودته إلى محاولة التخلص منها أو التنزه عنها ، بالاعتذار أو الاستغفار أو غيرهما من الوسائل ؛ ولذلك رأينا معلم الإنسانية ومهذب البشرية محمدا

---

(١) القيت فى يوم الجمعة ٢١ من رجب سنة ١٣٧٨ هـ الموافق ٣٠ يناير سنة ١٩٥٩ م .

صلوات الله وسلامه عليه يقول : « إياك وما يعتذر منه » وفى رواية : « إياك وكل أمر يعتذر منه » . فهو يدعو إلى أن يحرص ما استطاع على الابتعاد عن كل أمر يشينه ويدفعه إلى الاعتذار ، ومن لطائف الإشارات أن القرآن الكريم ذكر مادة الاعتذار أكثر من عشر مرات ، وفى أغلبها نجد أن هـذا الاعتذار منسوب إلى الكافرين أو الظالمين أو المطرودين من رحمة الله ، وكأن هذا إيحاء مستور بأن الاعتذار موطن قد يتعرض فيه الإنسان للمقت أو الحرمان .

وبعض الناس من حمقهم وسوء سلوكهم لا يدركون أن تكرار المعاذير معناه تكرار الأخطاء التى تدعو إلى هذه المعاذير ، فأنت ترى هذا البعض وتراه يصر على إتيان الفواحش والسيئات ثم قوله « المسيح كريم » يصدمك لأنه غير منتظم فى سيره ثم يعتذر إليك ، وقد يطأ حذاءك النظيف بأرض حذائه الوسخة لأنه لا يتبصر ما أمامه ثم يعتذر إليك ، وقد يبصق أو يتمخط فى مواجهتك ثم يعتذر إليك ، وقد يصب فوق المارة ماء نظيفاً وغير نظيف ثم يعتذر إليهم ، وقد يصفع شخصاً من خلفه ثم يعتذر إليه بأنه حسبه صديقاً يشبهه وقد تعود المزاح معه ، وتتردد منه كلمات « آسف » أعتذر ، معلهش » وأشباهها بلغتنا أو بلغة دخيلة علينا ، كأن هذه الألفاظ قد صارت جواز المرور إلى الخطأ والزلل ، فلا يتحرج الإنسان من تكرار الخطأ والزلل ، ما دام عنده المنقذ الميسور وهو الاعتذار . . .

ولو قدر الخاطىء أو المذنب موقفه بعد خطئه ، وأحس إحساس الرجل صاحب الكرامة والشرف وهو يقول : سحبت كلمتى النابية ، واعتذر عن الخطأ الذى ارتكبته ، أو ما شابه ذلك ، ، لأدرك هول ما سيتعرض له إذا تساهل فى أمر الخطأ فلم يبال بالوقوع فيه ، ولم يحرص على الابتعاد عنه ، لأنه إذا كان حساساً كريماً فسيشعر فى حالة الاعتذار بأنه حين خطئه قد

تنكر لإنسانيته وبشريته القويمة ، وهو بالاعتذار يحاول رد الاعتبار إلى ذاته حتى يرجع إنساناً ، ويعود بشراً سوياً كما كان . . .

وليس معنى هذا أن الإنسان محفوظ من العيب ، أو معصوم من الخطأ ؛ فالكمال لله وحده ، وليس معنى هذا أيضاً أن الإنسان إذا زل أو أخطأ لا يعتذر . . . بل المعنى هو أن نحاول ما استطعنا الابتعاد عما يسبب الاعتذار من هفوات وزلات ، لأن موقف الاعتذار وخيم أليم ، والذين لا يحسون بوجعه وألمه لا يحسون بشيء ، وإذا حدث برغم حذرنا وحرصنا أننا وقعنا فيما يستوجب الاعتذار كان علينا أن نسارع إليه لنمحو به ما اقترب أيدينا ، وكان علينا أن نعتبر ما وقع من خطأ كان جهالة منا ننزع عنها بسرعة ، ولا نفكر في العودة إليها . ولذلك يقول القرآن الكريم : « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب عليهم الله وكان الله عليماً حكيماً » . وكثير من الناس يستهينون بطائفة من الأخطاء والهفوات ، فيأتونها مكررين لها معتبرين إياها من الصغائر الخفيفة التي ليست بذات بال ، فيفتحون على أنفسهم أبواباً من الانحراف والضلال تؤدي بهم إلى أسوأ حال ، وكم من شيء يحسبه الإنسان هيناً وهو عند الله عظيم ، والإنسان إذا أصر على هذه الهفوات الهينة وواصل إتيانها بلغت به مبلغ الكبائر المهلكة ومن هنا جاء في حديث رسول الله عليه صلوات الله : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه » . وقال الإمام علي : « أشد الذنوب ما استهان به صاحبه .

وفي رواية : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد فجاء ذا بعود ، وذا بعود حتى حملوا ما أنضجوا خبزهم ، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه » .

ويجب علينا أن نتذكر هنا أن مقام الاعتذار محفوف بالشك والارتياب لأن الاعتذار قد يكون كاذباً مخادعاً ، ورب مستغفر من أمر بلسانه وهو مصر على إتيانه فى قلبه وجنانه ، وقد يقابل بالظن والتكذيب ولقد اعتذر معتذر إلى الخليفة المهدى ، فقطع المهدى عليه اعتذاره قائلا : « قد عذرتك غير معتذر ، إن المعاذير يشوبها الكذب » . وقال الشاعر :

إذا كان العــذر ليس ببين فإن اطراح العذر خير من العذر

وذكر الميدانى فى مجمع الأمثال » أن الذى قال هذا هو ابراهيم النخعى حين جاءه رجل يعتذر إليه ! . . بل ذهب البعض إلى أن الاعتذار كالذنب لأنه تبع له لاحق به ناشئٌ عنه ، فقال : « ما اعتذر مذنب إلا ازداد ذنباً » ! . . ولا شك أن فى هذا لوناً من المبالغة والتشدد ، لأن الله غفور رحيم ، ولأن الحسنات يذهبن السيئات ، ونحن مأمورون فى الإسلام بأن يقبل عذر المعتذر وأن نعفو عنه ، وقد علمنا الحديث الشريف أن من لا يقبل عذر المعتذر يعرض نفسه لغضب ربه ، وكما يحرص المرء على أن يغفر له ربه ما قدمت يداه يجب أن يتقبل عذر المعتذر الصادق متابعة لهدى الله : « وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم ،والله غفور رحيم » !.. وفى الحديث: « المعترف بالذنب كمن لا ذنب له » وفيه : « الاعتراف يهدم الاقتراف » !

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن الكلمة النبوية الرائعة : « إياك وما يعتذر منه » شعار نبيل للأحرار الفضلاء الذين يريد منهم نبيهم أن يكونوا متصونين محافظين ، يجنبون أنفسهم مواطن الزلل ليوفروا على أنفسهم خجل الاعتذار ، وهذا هو هدى الإسلام الأصيل ، فالله يقول لنبيه : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك » والحديث يقول : « قل آمنت بالله ثم استقم » والاستقامة اعتدال على الطريق المستقيم ، واقامة على السير فيه ، والله يهدى العاملين ، واتقوا الله الذى أنتم مؤمنون ..

السخرية من رجال الدين[١]

الحمد لله عز وجل ، دعا إلى الحق وأمر بالصدق ، ومن أصدق من الله قيلا ؟ . أشهد أن لا إله إلا الله ، لعن أهل الإفك والبهتان ، وأجزل الثواب لمن اعتصم بالإيمان ، والله لا يهدى القوم الفاسقين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، المبعوث ليتمم مكارم الأخلاق ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه « أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

هناك ظاهرة مؤسفة نجدها فى أغلب المسرحيات والتمثيليات والأفلام التى تقدم عن طريق المسرح والشاشة وبقية وسائل الإعلام ، وهى إظهار شخصية رجل الدين بصورة هزلية مضحكة ، سواء أكان واعظاً أو مدرساً أم مأذوناً ، وأغلب الأمور التى ينسبونها إلى هذه الشخصية غير صحيحة وغير مطابقة للواقع ، فهم مثلا يظهرون شخصية « المأذون » وهو يرطن بكلمات أجنبية ، وهو يتقعر فى نطقه باللغة العربية ، وهو يتحدث عن أنواع الخمور والمسكرات كأنه لها مدمن وبها خبير ، وهو يحملق بعينيه فى مفاتن النساء كأنه حليف الرذيلة ، وهذه الصورة لا تطابق واقع الذين يقومون بوظيفة « المأذونية » . ومثل هذا يقال فى الصور الهازلة الساخرة التى يعطونها عن رجل الدين أو مدرس الدين واللغة العربية ، وأساس التشويه الذى يحرصون عليه فى هذه الشخصية هو إظهارها على أنها شخصية منافقة تظهر غير ما تبطن وتردد كلمات الدين وهى لا تعمل بها ، وهى فى الوقت نفسه تتقعر فى

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٢٣ من صفر سنة ١٣٨٤ هـ الموافق ٣ يولية سنة ١٩٦٤ م .

كلامها وألفاظها ، وهم بهذا التشويه لا يريدون الإضحاك والتنكيت فقط ، بل يريدون إظهار الرسالة الدينية التى يرمز إليها هؤلاء فى مظهر السخرية والاستهزاء ، فهم فى الواقع لا يشوهون أشخاصاً ولا يهدمون أفراداً ، وإنما يشوهون القيم والمبادئ التى تخطر بالبال عند مشاهدة هؤلاء الذين جعلوهم موضع التفكه والتندر ، فلمصلحة من هذا ؟ وما الهدف من ورائه أيها الناس وقد تعارف الخلق فى الغرب والشرق على احترام رجل الدين ، لا لذاته أو شخصه ، بل للمعانى الدينية والقيم الروحية التى يمثلها ويرمز إليها ؟ .

ولقد عاونت هذه السخرية الأثيمة الوقحة على استفحال جريمة أخرى أشنع وأفظع ، هى جريمة الاستخفاف بمدرس الدين ومدرس اللغة العربية ، فالتلاميذ فى مختلف المراحل الدراسية يتطلعون إلى مدرسى الدين واللغة من خلال الصور المضحكة التى تعودوا رؤيتها لهذه الشخصيات فى الأفلام والمسرحيات والتمثيليات ، ولذلك يطلق التلاميذ عليهم أسماء مضحكة مثيرة ، ويستخفون بدروسهم ولا يستفيدون الفائدة المرجوة منهم ، مع أن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « ثلاثة لا يستخف بهم إلا منافق : ذو الشيبة فى الإسلام ، وذو العلم ، وإمام مقسط » أى عادل ؛ ويقول أيضاً : « ليس من أمتى من لم يجل كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا » أى يعرف له حرمته ومكانته وجلال الدين الذى يمثله ويدعو إليه . ولقد جرت أمة محمد الرشيدة الواعية منذ كانت على احترام الدين وأهله ، فهذا خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز كان يجل الأئمة والشيوخ والعلماء ، ويقول عمن علمه الدين : « لأن يكون لى مجلس من شيخى عبيد الله أحب إلى من الدنيا وما فيها » . ولقد قال الرشيد ليحيى بن أكثم : ما أنبل المراتب ؟ قال : ما أنت فيه يا أمير المؤمنين ، فلا أحد أجل منك . فقال الرشيد : بل أجل منى رجل يعلم فى حلقة ويقول : قال رسول الله ، لأن اسمه مقترن باسم رسول

الله صلى الله عليه وسلم لا يموت أبداً ، ونحن نموت ونفنى ، والعلماء باقون ما بقى الدهر . وهذا هو المأمون يروى عنه أنه كان إذا حضر مجلس الفقهاء لبس ملابسهم إعزازاً لشأن العلم وإجلالا لمكانة أهله ، ولقد أحضر لولديه عالماً يعلمهما الدين والعربية ، فكان الولدان يتسابقان إلى تقديم النعل إلى شيخهما ، حتى كان يقتسمان تقديم النعل ، ولما علم المأمون بذلك سر منه ، وسأل الشيخ يوماً بقوله : من أعز الناس ؟ . فقال له : أنت يا أمير المؤمنين . فقال المأمون : بل أعز الناس من إذا نهض تقاتل على تقديم نعله إليه وليـا عهد المسلمين .

لا يراد من هذا الكلام أبداً أن رجال الدين معصومون من الخطأ ، أو أنهم منزهون عن العيب ، أو أنهم فوق النقد والمراجعة ، كلا ، فهم بشر كسائر البشر ، ولكن مهاجمتهم من زاوية المعانى الدينية التى يمثلونها تؤدى إلى احتقار هذه المعانى والاستخفاف بها ، ولو فرضنا أن هذه المفترضات التى ينسبونها إليهم حقائق لما كان من الخير أن نجسمها هذا التجسيم ، أو نلفت الأنظار إليها هذا اللفت ، فكيف وأغلبها غير صحيح ؟ وهناك من رجال الإصلاح الاجتماعى من ينادون بكتمان العيوب والعورات وعدم تجسيمها أمام الأنظار المختلفة حتى لا توجد الجرأة والوقاحة ، وحتى لا يتجارأ الباقون على اقتحام الآثام وارتكاب الفضائح ، وهذا قريب من هدى الإسلام حينما نراه يصد أتباعه عن تسقط العيوب وتتبع العورات وذكر السيئات ، فيقول سيد الأنام محمد عليه الصلاة والسلام : « يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تتبعوا عورات الناس ، فمن تتبع عوراتهم تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته فضحه ولو فى عقر بيته » . ويقول أيضاً فى هذا المجال : « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » . ولعل القرآن الكريم

يشير إلى مثل هذا حين يقول : « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

ولسنا ندرى لماذا تقتصر السخرية على رجال الدين الإسلامى فقط ، ولماذا لا يعمد أهل الأديان الأخرى إلى السخرية ممن يمثلون دينهم ؟ أيكون معنى هذا أن أولئك العابثين يعتقدون أن الإسلام وحده هو الذى يستحق رجاله السخرية والازدراء ، وأن سواه من الأديان يستحق الإجلال والاحترام أفيجوز فى شرعكم أو يرضيكم يا أبناء الإسلام ويا أتباع محمد عليه الصـــلاة والسلام أن يفوز مدرس الموسيقى مثلا بالاحترام والتعظيم ، ويبوء مدرس القرآن أو الدين أو لغة القرآن بالسخرية والاستهزاء ؟ . ثم ما ذنب اللغة العربية حتى يسخروا منها هذه السخرية ، ويتندروا برجالها كل هذا التندر ؟ أهم يريدون الإضحاك فقط أم أن ذلك يؤدى إلى الاستهانة بلغة القرآن والاستخفاف بالعروبة والتطاول على القومية العربية ؟ . إن من واجبنا أن نوقر اللغة العربية ، وأن يترهب فريق منا فى خدمتها ، فقد روى أن رجلا لحن أمام النبى فقال لصحابته : « أرشدوا أخاكم فقد ضل » فجعل الخطأ فى اللغة ضلالا يحتاج إلى إرشاد وتوجيه ، والإمام الشافعى يقول : « وعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما يبلغه جهده » فكأنه جعل تعلم العربية فرضاً واجباً فى الدين والإمام الثعالبى يقول : « من أحب الله تعالى أحب رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن أحب الرسول العربى أحب العرب ، ومن أحب العرب أحب العربية التى نزل بها أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب ، ومن أحب العربية عنى بها وثابر عليها وصرف همته إليها » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

يجب أن تعود للدين حرمته ، ولعالم الدين كرامته ، وللشعب إيمانه

وعقيدته ، ويجب أن تتطهر وسائل الأعلام والتوجيه من كل ما يحقر الدين في نفوس الناس ، أو يشوه قيمه وتعاليمه أمام الناظرين والسامعين ، ونحن لا يهمنا الأشخاص فإنهم زائلون ، وفيهم المخطئ والمعيب ، ولكن يهمنا أولا وقبل كل شيء احترام الدين وتوقير العقيدة ، وإلا ساءت الظنون وذهبت في التفسير كل مذهب ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

غربة العلماء[1]

الحمد لله عز وجل ، هو علام الغيوب ومحيي القلوب : « إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، « الرحمن علم القرآن » خلق الإنسان ، علمه البيان » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، قائد الأنبياء وإمام العلماء ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآ له ، وصحبه ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله « فأولئك هم الفائزون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . .

فى الخطبة الماضية كنت أحدثكم عن البحر والبحرية فى تاريخ المسلمين ، بمناسبة الاحتفال بأعياد البحرية ، وذلك جرياً على طريقتنا وهى الحرص على وصل الدين بالمجتمع ، لأن الدين يجب أن يكون للحياة ، وأن يكون مؤثراً وموجهاً للأحياء ، ولقد لقينى كثيرون عند ذلك وحمدوا هذا المسلك ، وطالبوا بالمزيد منه ، فذكرنى هذا بمن حمل حملة معوجة على علماء الدين بلا موجب ، ووصفهم بأنهم يدسون أنوفهم فى كل شئ ، وأنه كلما تم إصلاح أو جاء عمل من أعمال الخير ، ذهبوا يقولون إن الإسلام قد سبق إلى هذا أو أمر به ، ويتكلفون إيراد الشواهد والأدلة من القرآن والحديث ، ويفسرونها كما يشاءون ، ويسرفون فى التأويل والتجريح ؛ وزاد هذا المتهجم عن حده إذ لم يجد من يرده فطالب من علماء الدين أن يعتزلوا ويسكتوا . . .

يا عجبا كل العجب ، ويا حيرة علماء الإسلام بين قوم يضيقون بالإسلام

---

[1] القيت فى يوم الجمعة ٢١ ربيع الأول سنة ١٣٨١ هـ الموافق اول سبتمبر سنة ١٩٦١ م .

وكأنهم يتمنون أن يفتحوا أعينهم ذات صباح فلا يجدوا له ظلا ولا لواء ، وخاب ما يحسبون : « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » . . . لقد تحير علماء الإسلام مع هؤلاء الناس ، إن جاهدوا البدع وقاوموا المآتم ، واستنكروا التبرج الفاضح والاختلاط المعيب ، وشرب الخمور ولعب القمار ، والتهتك في المظهر والحديث والكتابة ، اتهمهم المتحللون بأنهم رجعيون متخلفون يعيشون في القرون الوسطى ، ولا يحسون بالحياة المتجددة والمجتمعات المتطورة ، وطالبوهم بأن يكونوا عصريين تقدميين ؛ حتى تهور متهور ، بل ضل ضال فطالب بتطوير الدين وتجديد مبادئه وقواعده ، لأن كل شيء في الحياة قد تطور وتغير ، فيجب في زعمه أن يتغير الدين ، مع أن الله تبارك وتعالى يقول : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ويقول الرسول : « من أحدث في ديننا هذا ما ليس منه فهورد » أي مردود عليه ومعاقب به ، وإن حاول عالم الإسلام أن يصل الحياة بهذا الدين ، وأن يؤيد طيباتها وحسناتها بما فيه من نصوص حكيمة وشواهد قويمة اتهموه بأنه يتكلف ويتأول ، ويسرف في التخريج ، ويحاول أن يدس أنفه في كل شيء . . .

فماذا يفعل عالم الدين إذن أيها المتحللون ؟ . إنه لا يعجبكم إن حافظ وقاوم ، ولا يعجبكم إن أيد ووافق ، فماذا تريدونه أن يفعل ؟ أيسكت فلا يتكلم أبداً ، إنه إن فعل فستقولون عنه إنه رجل سلبي مهمل لا ينطق ولا يبين ، أيعارض كل شيء سواء كان جميلا أم قبيحاً ؟ . . إنه إن فعل فسيقولون عنه إنه جامد معوق للحياة . . . أيؤيد كل شيء سواء كان حقاً أم باطلا ؟ . . إنه إن فعل فستقولون عنه إنه ذيل ذليل وتابع مهين . فماذا يفعل عالم الدين ؟ . .

وهناك من يقول : إننا لا نريد أن نعود إلى ماضي الإسلام لنستشهد منه

بشواهد ، أو نستدل منه بمواقف ، مع أن رئيس الجمهورية خطب منـــذ قليل عن القرارات الاشتراكية فأحسن حين استشهد بالماضى المجيد ، وقال إن الإسلام أول دين اشتراكى ، وإن محمداً عليه الصلاة والسلام هو الذى أنشأ أول مجتمع اشتراكى ؛ فماذا يقول هؤلاء المضللون فى هذا الاستشهاد ؟ . أو كلما استعرضنا مبدأ من مبادئنا أومثلا من مثلنا ، أو صفحة من تاريخنا قالوا إن هذه رجعية ؟ فهل يكون الاعتزاز من القيم بالقديم الثابت والمبادئ والعقائد رجعية مذمومة ؟ . . أننكر وجود الله جل جلاله مثلا لأنه قديم لا أول له أننكر شخصية محمد لأنه مضى على وفاته أكثر من ألف عام ؟ ألا نفتخر بأجدادنا العرب والمسلمين ؟ ألا نعتز بعروبتنا التى ورثناها من عهد بعيد أيتفق هذا مع العقل والمنطق ؟ أيتفق هذا مع روح الإسلام وتعاليمه أيتفق هذا مع الاتجاه القومى العربى الذى يستلزم أن نثير فى الأمة حوافز العزة أو الكرامة بعرض صفحات من تاريخها وتذكيرها بأمجادها وتحديثها عن أبطالها ومبادئها ومواريثها الدينية والروحية والأدبية والاجتماعية ؟ . . قولوا لنا أيها الناس ؟ ! . .

واستغل هؤلاء المحرفون إشارة عابرة جاءت فى خطبة سياسية عن تصرف فردى غير موفق من بعض المنتسبين إلى العلماء ، فأخذوا يعممون النقد والتجريح لعلماء الإسلام ، ويتهمونهم بأنهم يتخذون نصوص الدين كالعجينة يحورونها كما يشاءون ، وأنه لم يوجد فيهم من نطق بصدق أو دافع عن حق أو قال كلمة فيها جرأة وشجاعة ، فهل هذا صحيح أيها الناس ؟ . إن تاريخ العلماء ملئ بأنباء مئات ومئات ممن جاهروا برأيهم فى صراحة وثبات ، ولا أريد أن أعود بكم إلى الوراء طويلا أو إلى الماضى البعيد بل حسبنا أن نتذكر أن الحرب العالمية الثانية كانت مشتعلة ، وكانت بلادنا يومئذ خاضعة لحكم الإنجليز يستبدون بها ويسخرونها من أجل الحرب التى لا دخل لها فيها ،

ومع ذلك وقف شيخ للأزهر فوق منبره يقول إن هذه الحرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل ، وقامت قيامة الإنجليز يومئذ بسبب هذه العبارة الجريئة ، وهذا شيخ آخر يريده رجال القصر الملكى الطاغى على الخضوع لرأى معين فيأبى ، فيهددونه فيقول : أيمنعنى هذا التهديد من التردد بين بيتى و المسجد ؟ فيقولون : فى الظاهر : لا ، فيقول : إذن فهو لا يضيرنى ! . وهذا شيخ ثالث كان يطالب بحقوق الأزهر الضائعة وأمواله المبددة فقيل له إن الدولة تحرص الآن على الاقتصاد بينما كان الملك الطاغية حينئذ يبعثر الأموال بلاحساب هنا وهناك فى أوربا .

فقال الشيخ معرضا كيف يكون تقتير وإسراف هناك ؟ وهذا شيخ رابع عارض حكاماً لهم شأنهم وقال لهم : إنى لا أقبل أن تنقص حقوق الأزهر وأنا شيخ له ، فإما أن تزيد وإما أن أترك منصبى : وما هى إلا أيام حتى ترك منصبه عزيز النفس موفور الكرامة . . . ومن قبل هؤلاء بقليل كان هناك الشيخ حسن الطويل الذى ذهب لمقابلة الخديوى وعليه عباءة فأراده رجال التشريفات على أن يخلع العباءة فرفض وقال : أنا ألقى بها ربى فكيف لا أقابل بها الخديوى ، ولما أراد الخديوى أن يزور مدرسة دار العلوم والشيخ الطويل يدرس فيها وكان لا يعنى بملابسه ، أشار عليه ناظر المدرسة أن يلبس ملابس حسنة ، فأرسل إليه الشيخ كسوة جديدة وقال لمن حملها : قل للناظر إن كان الخديوى يريد الثياب الجديدة فهذه هى الثياب ، وإن كان يريد مقابلتى أنا فلا دخل للثياب فى الأمر ! ! . . إلى غير ذلك من المواقف والأمثال .

قد يقال إن هناك من علماء الدين أو من المنتسبين إليهم من حرف أو بدل ونحن لا ننكر ذلك ، بل نتألم له أعمق الألم قبل هؤلاء المتباكين بدموع التماسيح ، ولكننا نقول إن هؤلاء قلة وبجوارهم كثيرون ممن جاهدوا وناضلوا

ونطقوا بالحق وتعرضوا للعنت والإرهاق ، وكل مجموعة كبيرة يوجد فيها جانب غير طيب مهما كانت ممتازة ، فإذا كان هناك بضعة نفر قصروا أو حوروا فهناك مئات ومئات نصحوا وصارحوا ، فكيف نعمم الحكم هكذا بلا تخصيص أو استثناء ؟ أيكون المراد من وراء ذلك هو تهوين شأن علماء الدين فى نظر الناس حتى إذا هانت كرامتهم هانت تبعاً لذلك مكانة التعاليم التى يدعون إليها وهى تعاليم القرآن وهدى النبوة ؟ . ألا ساء ما يصنعون ! .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . إن العلماء يحسون بغربة قاتلة ، فقد كان العلماء فى الماضى يلقون احتراماً وتوقيراً ، فكان الواحد منهم يعتز بمكانته ويحرص على رسالته ، لأنه بين قوم يؤيدونه ويشدون أزره ، ثم فقد العلماء احترامهم الأدبى وتقديرهم المادى ، فانفرط العقد وقل الجهد وإذا كان العلماء يتحملون جانباً من التبعة فى ذلك فإن الذين دأبوا على تحقير العلماء وتهوين شأنهم يتولون كبر هذا الإثم ويبوءون بتبعته ، ولكى يعتدل الأمر ويستقيم الطريق يجب على المجتمع أن يحفظ لعلماء الدين كرامتهم وحرمتهم كما يجب على العلماء أن يقدروا احترام المجتمع لهم ويعتزوا بمبادئهم ، ويبذلوا جهودهم لأداء رسالتهم فى استقامة وإخلاص ، وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

القــرآن مادبة الله[1]

الحمد لله عز وجل ، « يدبر الأمر يفصل الآيات ، لعلكم بلقاء ربكم توقنون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، أنزل لعباده قرآنه ، ففصل فيه الأحكام ، وبين به الحلال والحرام ، وجعله حبله المتين ونوره المبين : « وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، اتخذ القرآن لنفسه سراجاً ، ولقومه شرعة ومنهاجاً ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، وصحبه ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله : « أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يقولون إن الحديث إذا أعيد وتكرر أصبح مملولا تكرهه الأسماع وتسأمه النفوس ، والشاعر يشير إلى مثل ذلك حين يقول :

أمور بدأناها وسوف نعيدها دواليك ، واللحن المكرر يسأم !

ولكن هذا السأم يأتى فيما لا يحب الإنسان أو فيما لا يريد ، وأما إذا أحب الإنسان موضوع الحديث فإنه يتمنى إعادته وتكراره إلى ما شاء الله ، وأظن أنه لا يوجد أحب إلى المسلم وأعز عليه فى دنياه من قرآن ربه ودستور دينه ، فالحديث عنه إذن لن يمل ولن يهون مهما تكرر وأعيد ، بل سيكون كالرحيق المصفى الذى يشرب منه المرء نهلا وعللا ، فيزداد حباً وطلباً : « وما أحلى مذاق الشهد وهو مكرر » ! . . .

إى والله ، إنه لجميل وحبيب وواجب أن نتحدث ونتحدث حتى

---

[1] ألقيت فى يوم الجمعة ٢ ربيع الثانى سنة ١٣٧٧ هـ الموافق أول نوفمبر سنة ١٩٥٧ م .

ولو قال عنا الجهلاء : إن هؤلاء بالقرآن مجانين . . . فإنه القرآن ، نور المفكر ، وبشرى السعيد ، وسلوى الحزين ، وهداية الحائر . . . القرآن الذى يقول فيه الرسول : « إن هذا القرآن مأدبة الله ، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم » ، ويقول : « يقول الله تعالى : من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وفضل كلام الله تعالى على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » ويقول ابن مسعود : « إذا أردتم العلم فانثروا القرآن ، فإن فيه علم الأولين والآخرين » ، ويقول الفضيل بن عياض : « حامل القرآن حامل راية الإسلام » ! . . .

وإذا كنت قد حدثتكم من قبل لتتبرعوا لتحفيظ القرآن الكريم وقد فعلتم مشكورين فإنى أحدثكم الآن عن واجب الأفراد والجماعات ، والشعوب والحكومات نحو القرآن حتى نثبت دعائم هذا التنزيل المجيد ، وحتى نرضى ربنا عن طريق العناية بكتابه ، فإنه المحور الذى يجب أن تدور حوله حياتنا ، والأساس الذى يلزم أن ينهض عليه بناؤها ومجتمعنا ، والمصدر الذى ينبغى أن ينبعث منه إشعاعنا ، وإذا كان الله سبحانه وتعالى يقول : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » فإن من أسباب حفظه ووسائل بقائه أن ننشره فى المصاحف ، وأن نحفظه فى القلوب ، وأن نردده فى المجامع والخلوات ، وأن نفسره للملأ وللأفراد ، وأن نواظب على دراسته وتفهمه ، وأن نتحمل بآدابه وتعاليمه وأن نخضع لأوامره وأحكامه . . ولقد نذكر أو نتذكر هنا أن الإذاعات المختلفة تذيع القرآن فى كل مكان ، وأن المحطات الإسلامية وغير الإسلامية تبثه هنا وهناك ؛ ولكن هذا ليس عناية خالصة مخلصة بالقرآن ، بل لأكثرهم فى ذلك مآرب أخرى ؛ والمهم هو أن نحفظ نحن المسلمين هذا القرآن ، وأن نعتز به ونتفهمه ونتأدب بأدبه ونتقيد بحكمه ،

والمهم هو أن نفهم كتاب الله ونفسره كما أراد الله لنا أن نفهمه وأن نفسره ، لا أن نقول فيه بحسب الأهواء والرغبات ، أو نخضعه لشتى المآرب والشهوات . . .

والواقع المؤسف أننا قد هجرنا مائدة القرآن فى أغلب أوقاتنا وأغلب حالاتنا منذ أمد بعيد ، وكنا فى عهد قريب نكتفى بترديده وتحفيظه لأولادنا والمكفوفين فينا ، ثم لحقت الكارثة حتى بهذا الترديد وهذا التحفيظ ، فأصبح أكثرنا لا يعنى بترديد القرآن وترتيله حسب نظام متبع أو ميقات معلوم ، وأصبح تحفيظ القرآن فى محنة قاسية ، حتى تعرضت جمعياته ومدارسه للهوان أو للضياع ، وهذه المدارس محتاجة أولا إلى إسعاف عاجل من الدولة ومن الأغنياء والقادرين ، ثم تحتاج بعد ذلك إلى تثبيت حصين وتدعيم موصول ورقابة أمينة شاملة ، ثم تحتاج مع هذا إلى أن تكون فى موطن العناية والرعاية والتكريم ، فلا تظل تعتمد فى سيرها وأداء رسالتها على الإعانة أو الصدقة أو التبرع ، بل يجب أن يكون لها مصادر معلومة وموارد كافية ، حتى لا يقال إن تثبيت القرآن فى أمة القرآن لا يتحقق إلا عن طريق التسول والشحاذة . . . فتكون تلك فضيحة ليس وراءها فضيحة ! . .

والعناية بالقرآن فى أقطار المسلمين هو واجب الدولة أولا من الناحية الأساسية الفعلية ، ولكن هذه العناية بالقرآن ليست بعد هذا مقصورة على الدولة أو العلماء أو أعضاء الجمعيات أو الأزهر أو وزارات المعارف والتربية بل إن العناية بالقرآن — بمعناها الشامل — هى واجب كل مسلم ، وكل موحد ، وكل فرد من أهل القبلة ، وكل إنسان يقول لا إله إلا الله ، وكل تابع من أتباع محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فيسأل كل مسلم منا نفسه فى حساب دقيق وإخلاص عميق : ماذا يعى من القرآن ؟ وماذا يحفظ الذين معه

فى الأسرة أو العمل من القرآن ؟ وما الروابط التى تربطه بخدمة القرآن ؟ وماذا قدم من معونة مادية أو أدبية لنشر القرآن أو تحفيظه ؟ وما مبلغ التزامه لآداب القرآن وخضوعه لأحكام القرآن ؟ ! . .

لقد كان من عادة المسلمين شيوخهم وشبابهم أن يحملوا المصاحف فى جيوبهم غالباً ، وأن يقرأوا جوانب منه فى خلواتهم أو فترات راحتهم أو أثناء ركوبهم القطارات أو السيارات أو العربات الأخرى ، وقد تعطلت هذه العادة أو كادت ، وأصبح الشاب المسلم يخجل أن يحمل هذا المصحف ، أو أن يقرأ فيه أمام الناس ، لأنه يعتقد أنهم سيصفونه بالرجعية وضيق الأفق والجمود ... فماذا يكون المقصد من وراء هذا الإهمال للقرآن ؟ وماذا تكون النتيجة القريبة أو البعيدة لهذا الإغفال ؟ . . هجرنا أولا أوامر القرآن ، ثم نسينا حفظه ، ثم أهملنا تحفيظه ، ثم نظرنا إليه نظرة السخرية والاستخفاف . . . فماذا وراء ذلك ؟ . . أنريد أن يصدق علينا حكم القرآن : « وقال الرسول : يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً » ؟ . . أنريد أن نعلن الحرب على الله وأن نجاهره بالعدوان ؟ . . أنريد أن نضيع القرآن الذى وعد الله بحفظه ؟ أيقول خالقنا : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ونقول نحن : « إنا له لمضيعون » وكبرت كلمة تخرج من الأفواه ؟ ! . .

فلنربع على أنفسنا ، ولنتذكر واجبنا نحو كتاب ربنا وأساس ديننا وعماد حياتنا ، ولنتذكر أن هذا الكتاب الإلهى المجيد الخالد لم تزده الأيام ، إلا تأييداً وتصديقاً ، ولا عجب فهو كتاب من خلق الخلق وقدر الأمر ، وهو القائل : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . ليبحث كل منا عن مكان المصحف من قلبه وعقله ، ومن يده وبصره وبيته ، ومن أيدى أهله وأسرته ، ومن أيدى الناس حوله ... وليعلم كل منا أنه مسئول أمام القرآن ، وأن عليه واجباً نحو هذا القرآن ، فليحاسب كل منا نفسه ، وليقم بواجبه فى هـــذا الباب ، والله يهدى العاملين ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

العلم فى نظر القرآن[1]

الحمد لله تبارك وتعالى ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، « الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الذى قال له ربه « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » . فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله ينابيع الحكمة ، وأصحابه الشاكرين للنعمة ، وأتباعه المستحقين للرحمة : « إن رحمة الله قريب من المحسنين ».

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

نحن نتواصي منذ حين بأن نبنى مجتمع العلم والإيمان ، ومن ذا الذى يضيق بالعلم أو يعرض عنه ، اللهم إلا أن كان من أهل الجهالة والضلالة ومن ذا الذى لا يحب الإيمان ولا يريد اليقين ، اللهم إلا أن كان من أهل الإلحاد والكفران ؟ . ولكنا مع هذا لم نتفق على المراد بالعلم ، فهل كثرة المعلومات أيا كانت تحقق معنى العلم المطلوب ؟ كم من أناس يعرفون الكثير الغزير من المعلومات التى لا تنفع ولا تفيد ، بل تدمر وتبيد ، والذى يعرف فنون الاحتيال والخداع ، ووسائل الغدر والمكر ، وألوان الاستمتاع بالشهوات والملذات ، هل يعد عالماً فى عرف الفضلاء أو الشرفاء ؟ والذى يتجسس حتى يحيط علماً بأسرار البيوت والعائلات ، وخبايا الأفراد، والجماعات ، هل يكون عالماً فى شرعة الأمناء ؟ والذى يحصل العلوم والمعارف المادية ، ثم لا يكون لديه رصيد من حياة الروح واستقامة الأخلاق هل يكون

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٢٥ من ربيع الآخر سنة ١٣٩٤ هـ الموافق ١٧ مايوو سنة ١٩٧٤ م .

عالماً فى نظر الأتقياء ؟ . إن للإسلام العظيم منهجاً فى تحديد العلم وتوجيهه ، فالقرآن رشدنا أولا إلى أن العلم فى أساسه وأصله من فيض الله وعطائه ، فالقرآن الكريم يقول : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » . ويقول : « اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . ومهما بلغ الإنسان من العلم فعلم الله أكبر وأعظم . وفوق كل ذى علم عليم ، والقرآن المجيد يخبرنا بأن الله « قد أحاط بكل شىء علما » . « ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء » ، « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

والقرآن لا يكتفى بمدح العلم أو التنويه بشأنه ، بل يأمر به ويدعو إليه : « وقل رب زدنى علماً » ، ويرشد الإنسان إلى أن يكون مؤدباً حين يطلب العلم ، متواضعاً فى طلبه ، وهذا موسى لا يتكبر عن طلب العلم من عبد الله الصالح ، مع أن موسى نبى ورسول : « قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً » وإذا كان القرآن قد أمر بطلب العلم والأدب فى طلبه ، فقد أمر العلماء بنشر العلم وبثه وهدد الذين يكتمون شيئاً من هذا العلم : « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » وأوجب الأمانة فى نقل العلم وعدم التحريف فيه أو التضليل على أهله فيقول : « ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » . وأوجب حسن الاختيار للعلم النافع فى الدين أو الدنيا ، ولذلك تحدث عن عباد الله قائلا : « فبشر عباد ، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » ويقول « وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه » ، ويقول فيهم : « والذين هم عن اللغو معرضون » . ويندد بالذين يتعلمون علوماً تسىء إليهم ولا تفيدهم

فيقول : « ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق » أى لا نصيب له من الخير ولذلك حذر من الجدل العقيم والمراء الباطل ، فقال : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد » أى متجبرعات متفرغ للفساد ، وقال عن بعض المجرمين : « وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب » . وقد طالب القرآن الكريم بأن يؤخذ العلم من أهل الخبرة والاختصاص : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » ، « ولو ردوه إلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » أعمال الطب والعلاج تحتاج إلى طبيب متخصص ، وأعمال البناء والتعمير تحتــاج إلى مهندس متخصص ، وأعمال القضاء والفصل فى الخصومات تحتاج إلى قانونى متخصص ، والعجيب فى دنيانا أننا نعرف احترام التخصص فى كثير من المجالات ، ولكننا فى مجال الدين لا نعرف احتراماً للتخصيص ، فالإفتاء فى الدين كلأ مباح لكل راغب ، فكل من هب ودب يرون لأنفسهم الحق فى تفسير القرآن كما يشاءون ، وفى تصور الدين كما يريدون وفى القذف بالفتاوى كما يحبون ، مع أن الدراسات الدينية واسعة وعميقة ، ويحتاج إلى صبر وجلد ، والقرآن الكريم نفسه قد رمز إلى ما يشبه التخصص فى الدين والفقه حين قال : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » . وليس معنى هذا أننا نزعم وجود فئة فى مجتمع الإسلام لها سلطة وساطة أو حرفة كهنوت أو نزعة احتكار للحديث فى الحدين ، بل معناه أننا محتاجون دائماً وأبداً إلى مجموعة من العلماء تتخصص فى الدراسات الإسلامية كى تكون خبيرة بصيرة قديرة على بحث الموضوعات واستخلاص الأدلة وأخذ الأحكام من النصوص ، حتى لا يتطاول على الافتاء فى الدين من لا يعرفون فرائض الوضوء حسب التعبير الشعبى المشهور .

وأخيراً يدعو القرآن إلى التنزه عن الهوى فى العلم ، والتجرد للحق والحقيقة ، ولذلك يقول : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض » ويقول : « ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذن لمن الظالمين » . وهكذا يجب أن نبحث عن الحق ، وأن نتمسك به ، وأن ندعو إليه ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

لقد تواصينا بأن نجعل العلم إحدى دعامتين لبناء مجتمعنا ، فلنعرف المراد بالعلم أولا ، ولنستمده من مصادره النقية الطاهرة ثانياً ، ولنطلب من العلم ما نحتاج إليه فى ديننا ثالثاً ، ولنستكمل ما تحتاج إليه من علم ينفعنا فى دنيانا رابعاً ، ولننطلق بعد ذلك فى طريق التنفيذ والتطبيق ، حتى لا نظل موصومين بتلك التهمة العميقة الجذور ، وهى أننا أمة لا تحسن غير الكلام ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق مخلصين يستجب لكم .

ادركوا القــرآن[1]

« الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً » ، فعلم به من الجهالة ، وهدى به من الضلالة : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، ينعم على المؤمنين وينتقم من الظالمين : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا » . . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أقام دولة القرآن بعزائم الإيمان ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الصالحين وأصحابه الموقنين ، وأتباعه المتقين : « إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هل جاءكم أو مرّ ببالكم أن كتاب ربكم فى خطر ، وأن القرآن الكريم فى محنة ؟ . . هل أحست آذانكم أن قرآن بارئكم يناجيكم ويناديكم ويستنجد بكم ، ويطلب منكم العناية والمعونة يا أمة القرآن ويا أهم القرآن ؟ . . . القرآن المنزل من لدن الحق ومن حول العرش ، الذى تكلم به قيوم السموات والأرض ، وهبط به أكرم سفير للرحمن وهو جبريل عليه السلام ، وتلقته أطهر أذن وهى أذن محمد ﷺ ، واهتدت به خير أمة أخرجت للناس وهى أمة اليقين والإيمان ، وانبثق فى جوانب الدنيا نوراً مبيناً وماء معيناً ، انقشعت به ظلمات ، وتفجرت منه ينابيع للهدى والحكمة . . . القرآن الذى

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة أول ربيع الثانى سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ٢٥ اكتوبر سنة ١٩٥٧ م .

جعله الله دستوراً للحكم ، وقانوناً وازعاً للنفس ، ومؤدباً يصف الحكمة ويقص الأنبياء ويفصل الآيات ، وديواناً حافظاً للغة ، وبياناً معجزاً بلفظه ومعناه ، وحكمه وعلمه : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هـذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » . . . « أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها » ؟ .

لقد كان القرآن الكريم فى المجتمع الإسلامى السليم عماد الحياة ، وشعار البيت ، وأساس التعليم ، وسمير الفرد ، وشغل الجماعة ، وكان رعاة المسلمين وهداتهم يجعلون فى طليعة واجباتهم العناية بالقرآن وتحفيظه ونشره بين الجميع وكانت أمة محمد كلها تتعاون بكل ما استطاعت على إجلال شأن القرآن وإحلاله قمة التكريم والتقدير ، ولا عجب فقد عرفوا أن رسولهم قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » ، وقال : « وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » وقال : « إن الذى ليس فى جوفه شئ من القرآن كالبيت الخرب » . . . وكان حفاظ القرآن فى الأمة يعدون بالآلاف ، وكان المسلم يرى من واجبه أن يبدأ نهاره بتلاوة جانب من القرآن ، وكثيراً ما كان يختم لياته بجانب آخر ، ثم دارت الدوائر على المسلمين ، وأصابتهم النكبات فى نفوسهم وعزائمهم ، فأخذوا يعرضون عن القرآن شيئاً فشيئاً ، ويهملون حفظه وتحفيظه رويداً رويداً ، وتعاونت أسباب وعوامل على ضعف العناية بأمر القرآن حفظاً ونشراً ، فقد ضعف إقبال الناشئة على التعليم فى الأزهر الذى يشترط نظامه على طلابه حفظ القرآن ، وإنما ضعف الإقبال على الأزهر لأن المجتمع يهضم حقوق خريجيه ولا يفسح لهم المجال المناسب ، ولأن بريق التعليم المدنى مع التماع مستقبله

مما يشوق ويجذب ، وضعف الإقبال على مدارس تحفيظ القرآن بسبب المجانية الشائعة فى المدارس المدنية ، وضعف الإقبال على حفظ القرآن فى بعض الجهات بسبب إلغاء النظام القاضى بإعفاء الحافظ للقرآن من الخدمة فى الجندية وإن كانت الجندية أمراً واجباً على كل قادر من المسلمين وزاد الأمر خطورة تلك المذاهب الإلحادية الهدامة التى أخذت تتفشى الطواعين الخبيثة أو الحميات الخطيرة ، وكان من نتائجها الأليمة الاستخفاف بالدين، والتطاول على الإسلام، والاستهانة بشأن القرآن ، فأصيب أمر تحفيظه بما أصيب به من إهمال قتال وتضييع شنيع ! . .

هل جاءكم يا بنى آدم أن أهل الخير فينا استطاعوا منذ عهد قريب أن ينشئوا بيننا أربعة آلاف مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم بجهودهم وتبرعاتهم وأريحيتهم الإسلامية العالية ، وهل جاءكم أن هذه المدارس كانت تدوى فى أرجاء الوادى بأصوات القارئين والمقرئين كأنها خلايا نحل قرآنية لا تكف عن ترتيل القرآن المجيد ، وهل جاءكم أن هذه المدارس خرجت آلاف الحفاظ من أبناء المسلمين ؟ . . ثم هل جاءكم أخيراً أن هذه المدارس اليوم فى فقر وبؤس وضنك شديد ، وأن الدهر قد أخنى عليها فقات التبرعات ، وجفت الأيدى من الخيرات ، وتعرضت دور التحفيظ للأزمات والنكبات وانصرف عنها الكثير من الطلاب أفيرضيكم يا أبناء الإسلام ويا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام أن تغلق هذه الدور فى حياتكم أو على أيديكم ؟ وبأى وجه نتلقى حكم التاريخ أو نلقى وجه الله يوم الدين ؟ . . وكيف نرضى هذا التضييع لتحفيظ القرآن مع أننا لو أنفقنا عليه ما ننفقه على جانب من حفلات اللهو والفجور ، أو النفاق والرياء . لبقى حفظ القرآن شائعاً ذائعاً . .

لقد كدنا ننسى القرآن وننسى سماعه ؛ نعم هو يذاع كل يوم فى المذياع ،

ولكن ماعدد الأسرالتى تفتح الراديو ليستمع أفرادها إلى كتاب الله ؟ وما عدد المستمعين الذين يصغون إلى تلاوته بالنسبة إلى الذين يستمعون « مطبات فى الهواء » و « ساعة لقلبك » ، وتمثيليات الجريمة ، وأغانى الخلاعة والمجون ؟ . أليس من المخجل أن نسمع الأطفال فى كل مكان يحفظون أغنية « يا أمة القمر ع الباب » وغيرها من الأغنيات المبتذلة وهم لا يحفظون سورة الفاتحة من القرآن ؟ .

إن أعداء الإسلام وأعداءكم الذين يلحدون فى آيات الله ويصدون عن دين الله يريدون أن نهمل حفظ القرآن ونضيعه ، حتى يخفت هذا الصوت المذكر بالله وحقوقه ، الداعى إلى الفضيلة وطريقها ، المنفر من الرذيلة وأسبابها ، وبذلك يستطيعون أن يسرحوا فى الوادى الأمين يخلطون ذئابه بظبائه ، ويأتون فى أنديتهم المناكر ، ويفعلون ما يشاءون أو ما يشاء الشيطان.. يريدون أن نهمل القرآن حتى تضيع اللغة العربية الفصحى التى حفظها وأبقاها هذا القرآن المجيد ، وحتى تسود اللغة العامية ، وبضياع الفصحى وذيوع العامية لا تبقى لنا شخصية ولا قومية ، فهل تتفق هذه المحاولة الأثيمة مع ما تثبته الدولة الآن فى الأذهان من معانى القومية العربية المؤمنة ؟ . .

وفى طوفان الباطل كان لابد لنا أن نسمع صوتاً من أصوات الحق والخير ، فهذه جريدة « الشعب » المصرية حياها الله بما تستحق من تحية ، نراها قد التفتت إلى هذا الموضوع ، وعنيت به ، وكتبت عنه ، وفتحت بابها لجمع التبرعات لمدارس المحافظة على القرآن الكريم ، ومن الخير أن نوجه إليها ونحن فى بيت من بيوت الله ، نتحدث عن كتاب الله ، التقدير والشكران على مجهودها ، فقد قال النبي : لم يشكر الله من لم يشكر الناس . . فحيا الله جريدة الشعب ، وشكر الله لجريدة الشعب ، وضاعف الله مجهودها ، وأثاب

الله المهتمين بهذا الموضوع فيها ، ووفق الله الباقين للاقتداء بجريدة « الشعب » فى العناية بتحفيظ القرآن وجمع التبرعات لمدارسه ، إذ من العجيب ألا نعنى بذلك الموضوع الإلهى الجليل ، ولو كان الموضوع يدور حول تكريم عظيم من عظماء الجاه والمال ، أو لتملق سلطان مقتدر لسارعنا إلى العناية والاهتمام . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن القائمين على أمر هذه المدارس القرآنية يسعون إليكم اليوم يطلبون منكم باسم القرآن ، ويريدون منكم قرضاً لكتاب الرحمن ، فهل أنتم فاعلون ؟ . . إن القليل إلى القليل كثير ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وفينا من يطيق التبرع بالقرش ، ومن يطيق التبرع بالقروش ، ومن يطيق التبرع بالجنيهات ، ولا حد لأقل التبرع كما لا حد لأكثره ، فلنندفع اليوم عن أنفسنا معرة التضييع للقرآن بدفع ما نستطيع لتظل مدارس تحفيظ القرآن تجاهد فى الميدان . . . وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ...

رسالة القرآن[1]

الحمد لله عز وجل ، شرع الإسلام صبغته ، وجعل القرآن مأدبته : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر» ؟ . أشهد أن لا إله إلا الله ، العز كل العز فى التمسك بأسبابه ، والهدى كل الهدى فى نور كتابه : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جعل القرآن دواءه وشفاءه ، واتخذ من نبعه غذاءه وضياءه ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الخائفين يوم حسابهم ، وأصحابه الموقنين بصدق كتابهم ، وأتباعه الذين انتفعوا بهدى ربهم : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

نحن الآن فى الأيام الأولى من رمضان ، موسم الطاعة الذى يقبل على المسلمين كل عام ليغربلوا حواسهم ونفوسهم ، فيبقوا على الصالح النافع لها ، ويطردوا عنها الرواسب الضارة والفضلات الفاسدة ؛ ورمضان هو شهر القرآن : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » . ولقد ينسى القرآن خلال العام ناسون ، وقد يعرض عنه معرضون ، فإذا تجلى رمضان بنسماته ونفحاته ذكر المسلمين بأنه شهر القرآن والترتيل ، وشهر النظر فى كتاب الله العلى لأعلى تلاوة وتدبراً وفهماً ، ولقد أقبل رمضان ونحن نسمع أو نقرأ أحاديث شتى عن القرآن ورسالته ، وإعجازه وبلاغته ، وصلته بالكون والعلم والحياة ، وقصد العليم الخبير من وضعه بين أيدى عباده ، ولكنا نلاحظ أن كثيراً من هذه الأحاديث يتسم بالغلو فى

---

[1] ألقيت بمسجد الأزهر فى يوم الجمعة ٤ رمضان سنة ١٣٧٨ هـ الموافق ١٣ مارس سنة ١٩٥٩ م .

أحكامه ، والغلو فى الأحكام عيب من عيوبنا ، لأنه يدل على النظر إلى الموضوع من زاوية واحدة ، فصاحبه لا يرى إلا من هذه الزاوية ويحكم بالنسبة إليها ، وأما بقية الجوانب فلا يقيم لها الاعتبار اللازم ، مع أن استعراض كافة الجوانب فى البحث أمر لابد منه لإصدار الحكم العادل القويم ، فهذا قائل يؤكد أن القرآن كتاب علم ، قد تحدث عن كل صغيرة وكبيرة من مسائل العلوم الطبيعية والكونية والمادية ، وهذا غلو وإسراف ، وتحميل للقرآن ما لا يريد الله أن يحمله إياه ، وهذا قائل يزعم أن القرآن لا علاقة له بالعلم ، لأنه كتاب دين وبلاغة وبيان فقط ولا صلة له بالعلوم ، وهذا غلو أيضاً ، فيه ظلم للقرآن وإجحاف . . .

والحكم المعتدل القاصد هنا هو أن القرآن دين وعلم وبلاغة ؛ ولكل قاعدة من هذه القواعد الثلاث نصيبها فيه ؛ والواقع أن المائدة القرآنية حافلة بألوان من المطاعم الروحية والعقلية والبيانية التى ترضى مختلف الرغبات والمطامح ، ولكن هذه المائدة تحتاج لتعطى ما عندها إلى بصر نافذ عند الجلوس إليها ، وذوق سليم عند التناول منها ، والقرآن كالكنز المنطوى على أنواع النفائس والجواهر ، فهو يمد الساعى إليه المستفتح لأبوابه بما يتطلبه ويرتجيه ، فمن أراد تشريعاً وجده ، ومن ابتغى علماً أو قصصاً أو عبرا فاز بما يكفيه ويرضيه . ولعل هذا هو السر الذى يجعل اللبيب الحصيف إذا تلا الآية القرآنية أدرك لها معنى وتأثيراً ، فإذا عاود تلاوتها تكشفت له عن معنى جديد وهكذا ، حتى لقد روى عن أحد أعلام هذه الأمة أنه قضى ليلة يكرر آية فى تهجده ، وفى كل مرة يظهر له فيها معنى جديد ، ويتبدى له منها مذاق خاص ، ولم تر البشرية فى قديمها وحديثها كتاباً تلتقى عليه أفهام الخاصة والعامة ، ويرتوى منه كل امرئ بما يناسبه ويتطلبه ويطيقه

مثل هذا الكتاب الذى سيظل نور الله فى الدنيا حتى تزول ، وسيبقى خالداً فى الأرض إلى أن تدول ! . . « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

ولكن الله جل جلاله أعطى كل لون من مقاصد القرآن حقه وقدره ، لأن كل شىء عنده بقدر « وكل شىء عنده بمقدار » ، وهذا الكتاب المجيد قد نزل أولا ليكون هداية ونوراً ، « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » ، « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » ، وهو ثانياً كلام الله المبين ، الذى نزل به الروح الأمين ، على قلب سيد المرسلين ، قرآناً عربياً غير ذى عوج ، معجزاً فى مختلف الأزمان والعصور وهو ثالثاً يضم قدراً كافياً من أصول العلوم وقواعد المعارف ، وحسبنا فى عناية هذا الكتاب بناحية العلم أن الآيات الأولى منه نزولا تمجد هذا العلم وتشيد به : « اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » . فبدأ نزول القرآن بكلمة « اقرأ » والقراءة أوسع أبواب العلم ، ثم ذكر خلق الإنسان وبدأه من علق — أى دم متجمد — وهذا لفت للبصائر إلى أطوار الإنسان عند التكوين لكى تتأمل وتبحث فتعرف وتعلم . ثم انتقل إلى ذكر التعليم فى تصريح ، وأن الله القادر هو الذى علم الإنسان ما يجهل . ونتنقل فى رياض القرآن المزهرة المثمرة فنجد فى أرجائها الشواهد المتناثرة على حديث العلم فى القرآن ، سواء ما تعلق منه بالحياة الإنسانية وهى أرقى أنواع الحيوات فى الأرض . كقوله : « فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ، إنه على رجعة لقادر » . أو ما تعلق بالأرض وحركتها كقوله : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب » أو ما تعلق بالآفاق العليا كقوله : « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ،

والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغى لهـا أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » .

ولكنه ليس من المعقول ولا من المقبول أن يستطرد القرآن فى حديث العلم فيذكر سائر التفاصيل فى العلوم والسنن الكونية والظواهر الطبيعية ، وإلا كان ذلك تعطيلا للعقل البشرى عن البحث والتأمل والاستنباط ، مع أن الإسلام قائم على تحريك هذا العقل وتمجيده إذا بحث واستقام تفكيره ، ومن هنا جاءت آيات الدعوة إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض : « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » ، « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض » ، « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض » « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها » ، « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » .

وكثير من الآيات الكونية والعلمية فى القرآن تميل إلى التعميم وتترك التفصيل والتحديد ، لينشط العقل بعد إرشاده وتوجيهه فيستخرج ويستنبط ، فالقرآن مثلا يقول : « أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها » فأشار إلى بناء السماء وإغطاش الليل وإخراج الضحى ودحو الأرض وإرساء الجبال ، ولكن كيف ؟ ولم ؟ . ترك التفاصيل لمجهود العقل . والقرآن يقول : « وأرسلنا الرياح لواقح » ولكن كيف ؟ . ترك هذا لمجهود العقل ، « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ويقول : « والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع » ولكن كيف ؟ فليبحث العقل سنريهم آياتنا . . .

وموقف القرآن من العلم يفسره القرآن نفسه ، فإنه فى موطن يخبرنا بأن

ما بلغناه من العلم ضئيل قليل : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ثم يرشدنا فى موطن ثان إلى أن الله هو المعلم الأكبر : فتجب الاستعانه به « وعلمك ما لم تكن تعلم » ، ثم يحرض على طلب المزيد من العلم والتبحر فيه : « وقل رب زدنى علماً » فماذا يراد بعد ذلك من عناية القرآن بالعلم ؟ ! .

على أن القرآن مع هذا ليس كتاباً علمياً مدرسياً بالمعنى المفهوم لنا اليوم ، بل هو كتاب عقيدة وهداية ، وهو تقويم للنفس وتشريع للدولة وتنظيم للمجتمع ، ولا يضره أن يترك التفاصيل ما دام قد ذكر الأصول لأن هذا هو الميسور المعقول : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » ولو أنه ذكر التفاصيل وهى كثيرة وضخمة لما كان هناك سهولة أو تيسير .

ويحسن أن نلاحظ أن النظريات العلمية عرضة للتغيير والتبديل ، ولا ترتفع النظريات العلمية إلى مستوى الحقائق العلمية المسلمة الثبوت التى لا ريب فيها إلا بعد مراحل من التمحيص والتعديل ، وأما القرآن فهو كلام الله جل جلاله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » ولذلك يجب علينا أن نحترس ونحن نفسر آياته المتعلقة بالعلم ، فلا نسارع بإخضاع هذه الآيات لنظرية معينة لم تثبت ثبوتاً متيقناً منه ، فقد تتغير النظرية أو تتبدل . ولقد ظل علماء الجغرافيا أجيالا يقولون إن الأرض منبعجة من الوسط ومدببة قليلا من الطرفين ، ولكن العلماء عادوا أخيراً بعد إطلاق الصواريخ يقولون إنه أمكن تحديد الأرض بعد الخروج من دائرتها ، وأنها ليست تامة التكوير ، بل هى تشبه الكمثرى .

والمهم أنه لا توجد حقيقة علمية مسلمة يخالفها القرآن الكريم ، وما يوهم بالخلاف بين الدين الصحيح والعلم الحق إنما يكون اختلافاً بين دين وخبط جاهل يسمى باطلا باسم العلم ، أو بين علم صحيح وتخريف ضال يسمى زوراً باسم الدين .

ومن العجيب أن الجدال يدور ويثور حول موضوع العلم فى القرآن ، ويتحدثون عن هذا فيطيلون الحديث ما بين إثبات ونفى ، ويتركون الحديث عن الغرض الهام للقرآن وهو أن يكون كتاب توحيد وهداية وتشريع وأخلاق وكان هناك من يريد أن يشغل الأمة الإسلامية عن مقاصد القرآن الأساسية ببحوث لفظية ومحاولات نظرية وجهود كلامية ، ونحن نريد هذا القرآن ليرشدنا إلى سبيل الحق ، وليعدل النفس البشرية على طريق الاستقامة بعد أن يطهرها ويعمرها بمقومات الحياة الفاضلة ، ونريده لكى ننفذ أحكامه ونطبق تعاليمه . والملاحظ أنه فى الفترات المظلمة التى تخللت تاريخ الأمة الإسلامية كان الطغاة من الحكام والبغاة من المتجبرين عليها يعملون لكى ينصرف العلماء المفسرون إلى تشقيق الكلام الطويل عن بلاغة القرآن اللفظية وعن نحوه وصرفه وفلسفته بدل أن يشغلوا أنفسهم بدعوة الناس إلى العمل بما فى هذا القرآن والتقيد بقيوده والخضوع لحدوده .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .. فلنتذكر أن الأساس فى القرآن أنه كتاب دين واعتقاد ، ومصدر هداية وتشريع ، ويلى ذلك أنه كتاب علم ومعرفة وتثقيف ، ويكمل ذلك ويجمله أنه كتاب معجز بليغ لا يأتيه البـــاطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، فلنقبل على مائدة القرآن نأخذ منها ضياء لقلوبنا ، وشفاء لصدورنا ، وغذاء لعقولنا ، ورائداً لحياتنا ، ففيه دستور الحياة ، وفيه العصمة والنجاة : « ذلك الكتاب لا ريب فيـــه هدى للمتقين » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

القرآن أساس التعليم[1]

الحمد لله ، نزل القرآن شفاء للمؤمنين ، وجعله نوراً وضياء للمهتدين :
« فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ، إنه لقرآن كريم ، فى كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، ضمنت كتابك خلاصة الحكم ، وأتممت فيه بصائر الأمم ، « ما فرطنا فى الكتاب من شئ ثم إلى ربهم يحشرون » . ونشهد أن سيدنا و مولانا محمداً عبدك ورسولك ، لم يقرأ ولم يكتب ، ولكنه علم الأوائل والأواخر ، وغرس أصول المكارم والمفاخر ، « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه ؛ « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن موضوع اليوم خطير جليل ، ولكنى سأوجز فيه القول وأجمله ، لأنى منذر ومحذر ، وطويل الكلام ينسى بعضه بعضاً ، وإيقاظ القلوب أو قرع الأسماع يحتاج إلى الصراحة والإيجاع ، لا إلى الإكثار والإشباع . . .
إن لكل دعوة فى الوجود أساساً تنهض عليه ، ومصدراً ترجع إليه ، وينبوعاً تستمد منه ، وقد جعل الخلاق العليم للاسلام الحنيف أساساً وعماداً هو القرآن ، وأبان عن ذلك حين قال سبحانه : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من

---

[1] ألقيت فى يوم الجمعة ٢٥ رمضان سنة ١٣٧٠ هـ ٢٩ يونيه ١٩٥١ م.

الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم » . وقد صنع الله كتابه على عينه ، ووضع فيه مكنون سره وكنوز أمره ، فجعله كتاب الثقافة العامة بما فيه من قصص وتاريخ وأخلاق وعلوم كونية وطبيعية ، وجعله منهل الدين والملة بما فيه من تقنين حكيم وتشريع قويم ، فى العبادات والمعاملات والحدود ، وجعله كتاب العربية الأعلى الذى يحفظ شبابها ويصون كيانها ما دامت السموات والأرض ، ولولاه لبادت العربية كما بادت سواها من اللغات ، وجعله كتاب الأدب والبلاغة بما فيه من بيان وإعجاز وإيجاز ، وتقدير وتأثير ، ومعنى هذا أن القرآن الكريم يجمع أصول التربية والتعليم ، ويضمن لحافظه ودارسه العاكف عليه والمستمد منه فقهاً فى الدين وتبصرة فى الدنيا ونوراً فى العقل والثقافة ، ولذلك حرض المصطفى عليه صلوات الله على تعلمه وتعليمه فقال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » . وقال : « وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » . وروى عن ربه فى الحديث القدسى قوله : « من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وفضل كلام الله تعالى على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » . وشوه صورة الذى لا يحفظ شيئاً من القرآن فقال : « إن الذى ليس فى جوفه شئ من القرآن كالبيت الخرب » .

ولقد أدرك المسلمون الأوائل منزلة القرآن السامية ومكانته العالية ، فاتخذوه أساساً لتربيتهم وتعليمهم ، يتلقاه الأبناء عن الآباء منذ أول الطريق ، ثم يعكفون عليه دارسين مستنبطين مطبقين ، ثم يستخرجون منه بسببه ما يتيسر لهم من آداب وعلوم وفنون ، وظلوا على ذلك أزماناً طويلة سعدوا فيها وعزوا خلالها ، ووصلوا عن طريق القرآن والتعلق به إلى الكثير ، حتى

لو نظرنا إلى العلوم العربية والإسلامية التى تعددت وتفرغت وتضخمت لوجدناها ثمرات أنبتتها روضة القرآن الكريم ، ثم مرت بالمسلمين فتن ومحن شغلتهم عن قرآنهم ، وحالت بينهم وبين تربية ربهم ، وأخذوا يستعيرون أنماطاً فى التربية والتعليم من هنا وهناك . ومن أسف وعجب أنهم لا يستعيرون إلا عن أعدائهم والمتربصين الدوائر بهم ، ولا يأخذون إلا أخذ الجهول الذى لا يدرى ما ينفع وما يسوء ، حتى أصبحت الثقافة فى الأمة الإسلامية الممزقة الأوصال المبعثرة الأشلاء خليطاً من فضلات ، ومزيجاً غريباً من استعارات :

فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة مشكلة الألوان مختلفات ! !

واليوم نشهد فى الأمة بوادر نهضة واسعة النطاق لتعميم التعليم ، وجعله كالماء والهواء والغذاء ، وهناك مشروعات تعليمية عامة تأخذ طريقها إلى التنفيذ الملزم والشمول التام ، والإسلام الحنيف أول من يرحب بالوثبة الواسعة فى محاربة الجهل أينما كان ، وغرس العلم فى عقل كل إنسان لأن الإسلام هو الذى جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، ولكننا لا نريد أبداً أن تكون هذه المشروعات مستعارة من الخارج ، ولا نرضى أبداً أن تكون مبنية على أساس مادى مدنى بعيد عن الدين ، ونطلب بأن يكون أساس التعليم للمسلمين هو القرآن ، ولا مانع أبداً أن يضاف إلى الأساس روافد وسواند تسعى فى ركابه وتعمل لغايته ، وإلا فالويل كل الويل لأمة تؤمن بربها وتعتقد فى دينها ثم تجعل كتابها الأقدس نسياً منسياً فى التعليم ، أو ذيلا من الذيول بين المواد والعلوم . . « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى » .

يا أتباع محمد عليه السلام ...

إن القرآن الكريم فى خطر ، فقد أخذ حفاظه فى التقلص والانقراض ، وأغلقت كتاتيبه فى القرى بسبب تعميم التعليم فى المدارس ، وسدت السبل الموصلة إلى مدارس تحفيظه حتى باتت مهددة بالزوال ، وإن استمر الأمر على ذلك لا قدر الله فسيطوى علم القرآن من البلاد ، ويومئذ يفرح أعداء الإسلام ، لأنهم يعرفون أن حياة المسلمين معقودة ببقاء هذا الكتاب ونشره فى الآفاق ، وهم يبذلون الجهود والأموال سراً وعلانية باحتيال لئيم ومكر عجيب لتحقق تلك النكبة ، فطالبوا ولاة أموركم فوراً — كل حسب استطاعته — بأن يكون كتاب الله هو الأساس فى التعليم ، لأنه تقويم للسان وتثقيف للجنان وتثبيت للايمان وفيض من الرحمن ؛ وعودا إلى مصاحفكم من جديد لتسامروها حافظين متدبرين ، وخذوا أولادكم بحفظ ما يمكن حفظه من القرآن الكريم ، وإلا فقد حقت علينا اللعنة وسوء القرار ، فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

القرآن أســاس الثقافة[1]

الحمد لله عز وجل ، هو « الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان » أشهد أن لا إله إلا الله ، فضل الإنسان بالعقل والعلم ، ليقر له بالفضل والطاعة « واتقوا الله ويعلمكم الله ، والله بكل شئ عليم » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، بعثه ربه إلى الناس « يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » . فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

« الثقافة » كلمة تدل على الفهم والحذق والذكاء ، ومعناها فى العرف الحاضر أن يكون للانسان ملكة ومعارف يستطيع بها أن يدرك الحقائق فى دقة وتفصيل ، وأن يشارك فى أمور الحياة بوعى وبصيرة . ولكل أمة من الأمم فى ثقافتها أصل وركيزة ، فهى تمضى فى طريق ثقافتها وعلمها مرتبطة على الدوام بالمنبع الفكرى الذى تستمد منه وتصدر عنه ؛ وأساس الثقافة عنـــد الأمة المسلمة المؤمنة هو كتاب الله العلى الأعلى الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » ، « تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون » . ومن لوازم هذه الأمة الأساسية أن يكون القرآن الكريم هو أساس الثقافة ، ونقطة البدء فى المعرفة ، ومصدر الانطلاق إلى غايات العلم القريبة والبعيدة ، لأن القرآن هو مأدبة الله ،

---

[1] ألقيت فى يوم الجمعة ٢٨ من المحرم سنة ١٣٨٨ هـ الموافق ٢٦ من ابريل سنة ١٩٦٨ م .

وكتابه الذى يعلم ويقوم ، ويهدى ويرشد ، تتغير الشرائع وهو لا يتغير ، وتتبدل الأنظمة وهو ثابت لا يتحول : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »، ولأن فيه أصول الثقافة ، ومنابع العلم وروافد المعركة ، بشهادة رب العالمين وهو أصدق القائلين « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » ، « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » ، « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » .

والقرآن الكريم يعنى بفروع الثقافة المختلفة ، فهو يعنى بالثقافة العقلية ، فيحدثنا عن التشريع والتاريخ ومشاهد الطبيعة وما وراء الطبيعة ، ويستثير العقل للنظر والتأمل والاستنباط والإدراك والاعتبار ، وينوه بمكانة العقل المؤدى إلى دقة الفهم وصدق العلم ، حتى قال : « تلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » . وهو يعنى بالثقافة النفسية ، فيتحدث عن القلوب والمشاعر ، وعن الأهواء والشهوات ، وعن دقائق النفوس وأعوازها وطرق تهذيبها ، فيقول : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ويقول : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » ، وهو يتحدث عن الثقافة المادية التى تيسر مطالب الحياة ومصالح البشر ، فيذكر ما أنعم الله به على الإنسان من نعم خافية وبادية ، ويقول : « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » ويدعو الإنسان إلى تحصيل هذه المنافع عن طريق أسبابها ووسائلها فيقول : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » . والقرآن مع ذلك قد تحدث عن العقائد والعبادات والمعاملات والأفراد والأسرة والمجتمع والأخلاق والسلوك ومختلف العلاقات بين الناس : « يدبر الأمر ، يفصل الآيات ، لعلكم بلقاء ربكم توقنون » .

ونحن نجد عند مراجعة العوامل التى أدت إلى نشأة العلوم الإسلامية والعربية أن هذه العلوم نشأت فى الغالب بسبب القرآن ، ولخدمة القرآن ، ومن القرآن أيضاً ، فعلوم اللغة قد وصفها المسلمون ، وعنوا بأسفارها ليفهموا عن طريقها معانى القرآن ، والنحو قد وضعوه ليتجنبوا بالتزام قواعده اللحن فى القرآن ، والتفسير قد نشأ ليعدد وجوه الإعجاز والتشريع فى القرآن ، والحديث قد صار علماً ليحفظ سنة الرسول التى تعتبر مذكرة تفسيرية للقرآن ، والفقه قد نشأ ليستمد الأحكام أولا وقبل كل شئ من القرآن ، ونستطيع أن نتابع استعراض البقية من هذه العلوم لنعرف عند التدبر أن القرآن كان دافعاً إلى وجودها ، وكان مدداً وسنداً لأهليها ، وهذه العلوم هى مجموعة المعارف التى تتكون منها ثقافة الأمة ، فكأن القرآن الكريم كان الينبوع الذى تفجرت عنه مباشرة أو بطريق غير مباشر هذه المعارف[1] . وما زال هذا الكتاب الإلهى — وسيظل أبد الدهر — القاعدة الأساسية لانبثاق الثقافة المؤمنة الربانية التى تصل أسبابها بأسباب الله قيوم السموات والأرض ، ومن أوجب الواجبات على الأمة المؤمنة أن تعى هذه الحقيقة الكبرى ، وأن تحرص على رعايتها وصيانتها ، وإلا تعرضت للذوبان والخسران .

والعجيب أن القرآن الكريم قد حث أقوى الحث على المعرفة ، وحرض أشد التحريض على طلب العلم والتوسع فيه إلى أبعد مدى مستطاع ، فهو أولا يذكرنا ببداية الإنسان الخالية من المعرفة ، ويرشدنا إلى الوسائل التى ينبغى استخدامها فى التعلم فيقول : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » ، ثم يذكرنا بأن القدر الذى نحصل عليه من العلم أولا قليل ضئيل ، لا يجوز معه اعتزاز به ولا اغترار فيه ، ولا اقتصار عليه ، فيقول : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » وهو لا يريد منا أن نكتفى بهذا القليل ، ولا أن نجمد عليه ، بل

(١) من كتابى « محاضرات الثلاثاء » ص ١٠ طبعة ١٩٥٢ م .

يدعونا إلى تلمس المزيد منه والمزيد ، ويعلمنا أن نستعين الله جل جلاله فى أن يهبنا من أسباب التوفيق ما يجعلنا أهلا لسلوك السبل المؤدية إلى هذا المزيد ، فيقول : « وقل رب زدنى علماً » ، وأمرنا بدخول البابين الأساسيين للتعلم والثقافة ، وهما القراءة والكتابة بالقلم ، فيقول للمثل الأعلى من خلقه وهو القدوة الواجب اتباعها من عباده ، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم ،يقول له : « اقرأ باسم ربك الذى خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . ويسلك الإنسان الفاضل طرق العلم ، فيتوسع فيه ويتبحر ، وينال من فضل الله ما ينال فيقدر ذلك ، ويحسن الانتفاع به ، ويشكر ربه عليه قولا وعملا ، ويشير القرآن إلى ذلك فيقول : « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما » ، ثم تأتى نتيجة العلم الصحيح الواسع والثقافة الفسيحة البصيرة ، فتكون خشية واستقامة ، وصلاحا وإصلاحاً ، ونفعاً وانتفاعاً ، وهداية ووقاية : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » . ثم تكون الرفعة والسمو فى الحياة إلى أعلى المراتب عن طريق العلم : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

لقد قال سيدنا وسيدكم وسيد الناس أجمعين محمد رسول الله عليه صلوات الله وسلامه « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » وقال : « إن الذى ليس فى جوفه شئ من القرآن كالبيت الخرب » وقال : « القرآن مأدبة الله فى الأرض فخذوا من مأدبته ما استطعتم » ، وذلك تستوجب منا أن يكون القرآن أساس علمنا وثقافتنا نبدأ به ، وندور حوله ، وننطلق من لدنه إلى أوسع مجالات العلم والبحث والمعرفة ، ثم نعود إليه ، لنجعله الإمام والزمام ، فنظل على طريق الأمان والسلام ، « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

لغـــة القـــرآن[1]

الحمد لله عز وجل ، أنزل كتابه جلاء للعقول وضياء للبصائر : « نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، أراد لعباده السيادة والقيادة : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، إمام الفصحاء وشيخ البلغاء ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الناطقين بالحكمة والصواب ، وأصحابه الهادين إلى طرق الرشاد ، وأتباعه « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ونحن نشاهد أن القرآن المجيد قد كرر القول وأعاد الحديث ، فيما يستحق التكرار والإعادة ، فهو قد عرض قصص الأنبياء والمرسلين فى أكثر من موطن ، وكرر قوله تعالى « فبأى آلاء ربكما تكذبان » نحو ثلاثين مرة ، وقوله : « فكيف كان عذابي ونذر » عدة مرات ، هو قد فعل ذلك لتأكيد العظة وترسيخ المعنى ، ونريد أن نهتدى بهدى القرآن فى هذا الباب ، فنؤكد الحديث عن وجوب العناية بلغة القرآن ، اللغة التى كادت تضيع بين قوم ينسبون أنفسهم إلى الإسلام دين القرآن ، وإلى العروبة التى نزل بلغتها هـــذا القرآن « قرآناً عربياً غير ذى عوج لعلهم يتقون » . فقد كتب صحفى مشهور[2] يسخر من رجل قرأ كثيراً بالعربية حتى تأثر لسانه بها ، فصار يتحدث حديثاً أغلبه فصيح وأقله عامى ، وجعل الصحفى يحمل على هذا الأديب ، لأن كلاماً

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٩ صفر سنة ١٣٧٩ هـ ١٤ اغسطس ١٩٥٩ م .

(٢) انظر جريدة الاخبار (نحو النور) يوم الاثنين ١٩٥٩/٨/١٠ م .

له جاء فيه ألفاظ لم يفهمها سامعوه مع أنهم مثقفون يحملون شهادات جامعية ، فهذا طبيب لم يفهم كلمة : « وفى غضون هذه المدة » ، وهذا آخر لم يفهم كلمة « حينما أتثاءب » .

ونحن نتذكر أن الرسول صلوات الله عليه قد نهى فعلا عن التعقر والتشدق ، وعن التفيهق والتبظع فى الكلام ، وأنه قال : « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ، وأن نخاطبهم على قدر عقولهم » . ولكن كتابة الصحفى كان يبدو فيها روح السخرية بالرجل الذى أحب لغته وتأثر بها وحافظ عليها ، ونسى هذا الصحفى أو تناسى أن يستنهض همم الجاهلين بلغة وطنهم ودينهم ، لكى يتعلموا فيها ما يكفى لفهمهم الأسلوب الفصيح المتوسط . .

إن الإسلام يوجب على أبنائه أن يتعلموا العربية ما استطاعوا ، لأنها لغة قرآنهم ، ولغة نبيهم ، ولغة أجدادهم وأسلافهم الذين نشروا الإسلام ، ولأنها لغة أهل الجنة يوم القيامة كما أخبرنا الرسول ، ولا يستطيع المسلم أن يدرك بلاغة القرآن وطلاوته إلا إذا فقه العربية ، واللغة من أقوى عوامل الوحدة ، فلابد للمسلمين من لغة مشتركة تلم شتاتهم وتجمع كلمتهم ، لأن الله تبارك وتعالى أراد المؤمنين أمة واحدة ، وجعلهم إخوة ، ودعاهم إلى التعارف والتآلف ، ولا يتيسر هذا إلا بلغة واحدة ، ولا يمكن أن تكون هذه اللغة غير العربية الفصحى التى نزل بها أعظم كتاب على أكرم رسول . . ولقد قال الباحثون إن الاتحاد لا يتم ولا يكمل بين الأمة إلا إذا كان لها لغة واحدة ، وطالما تمنت أمم أن تكون لها هذه اللغة الموحدة ، وكأن الله تبارك وتعالى قد أراد أن يجمع عباده المؤمنين على لغة واحدة وهى اللغة التى اختار لها أن ينزل بها خير كلام فى الوجود ، وهو القرآن المجيد ، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس ، إن الرب واحد ، والأب واحد ،

وإن الدين واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي [١] » .

ونحن نتلاقى بإخوة أشقاء لنا من أطراف العالم العربي ، فنجد لكل طرف لهجة عامية خاصة به لا نكاد نعرفها أو نفهمها ، ويعسر علينا التفاهم مع هؤلاء الأشقاء بلهجتهم أو لهجتنا ، فإذا فزعنا إلى اللغة العربية الفصحى واستخدمناها في الحديث سهل علينا التفاهم . . وما أعظم حكمة الإسلام حين ضمن لأسماع المسلمين أن تصغى أينما كانت لخطبة الجمعة التي تلقى باللغة العربية الفصحى في كل أسبوع ، وأن تسمع كلمات الأذان الإسلامي باللغة العربية الفصحى تتردد في الأسماع كل يوم خمس مرات داعية إلى الصلاة ، تتردد كلمات هذا الآذان خمس مرات أخرى كل يوم في الإقامة عند الشروع في الصلاة ، ثم يسمع المصلون صوت الإمام في الصلاة الجهرية ثلاث مرات كل يوم وهو يردد فاتحة الكتاب وجانباً من آياته باللغة العربية الفصحى ، وملايين الشفاه المؤمنة تستجيب لربها وتردد كل يوم على انفراد أو على اجتماع آيات القرآن العربي البليغ ، ويأمرنا الحق تبارك وتعالى بالانتباه والإصغاء لكتابه إذا ترددت على الآذان كلماته : « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون » . . أليس هذا كله حملا من الله عز وجل لنا على ربطنا المستمر الدائم باللغة العربية الفصحى لغة القرآن حتى تكون جامعة لنا على منهج واحد في الحياة والتفكير والتعبير ؟ ! . .

ونحن نستعرض أحوال الأوربيين فنجد لهم عناية كبرى بلغاتهم والمحافظة عليها ونشرها بين أبنائهم وخارج أوطانهم ، وهذه هي اللغة الإنجليزية مثلا تغمر أكثر من نصف العالم ، والإنجليزي يفاخر بهذه اللغة ، ويتحدث بها فصيحة نقية ، حتى أنه لا تكاد توجد لغة عامية بين الإنجليز كعاميتنا ، وذلك

---

(١) الوحي المحمدي لرشيد رضا ص ٢٣١ .

من عنايتهم بتجويد لغتهم ونفى الدخيل عنها ، ومن عنايتهم بنشر الثقافة ، فكلما اتسع نطاق الثقافة وتأصلت شاعت معها اللغة الفصحى وقلت معها العامية ، والأمة الضعيفة فى ثقافتها تشيع فيها اللهجات العامية ، لأن لغة الثقافة واحدة موحدة لا تتعدد ولا تتشعب . . . ومن المضحك المبكى أنه ما زال بيننا فريق من المصابين بمركب النقص ، فهم يفنون فى غيرهم ، ولا يعنون بحفظ شخصيتهم القومية أو الاعتزاز بكرامتهم الوطنية ، فتراهم يلوون ألسنتهم بلغة غيرهم من الأجانب كالفرنسية والإنجليزية ، ولو أنهم لووها بهذه اللغات مع إجادتهم للغتهم العربية القرآنية لما كان هناك بأس ، فإن تعلم اللغات أمر يندب إليه الإسلام وقد جاء فى الأثر الإسلامى : « من تعلم لغة قوم أمن مكرهم ». ولكنهم يلوون ألسنتهم بهذه اللغات الأجنبية عنهم وهم بلغة وطنهم ودينهم جاهلون ، وتراهم يبالغون فى الحرص على النطق بالكلمات الافرنجية فى دقة وضبط ، يراعون مخارج حروفها ونغمة صوتها وهيئة التلفظ بها ، وإذا سمعوا شخصاً ينحرف — ولو قليلا — فى نطق كلمة أجنبية ، فلم يعطش مثلا الجيم من كلمة « أوكسجين » أو لم يضغط على الباء من كلمة « بليز » هاجوا وماجوا ، وشنعوا على الخطأ وطالبوا بالتصحيح ، ولكنهم هم أنفسهم وغيرهم قد يتكلمون بالعربية فيخطئون فيها الأخطاء الفظيعة الشنيعة ، دون أن يتحرك منهم ساكن لحرمة هذه اللغة العربية الإسلامية الرفيعة ، وقد يخطئون أخطاء شنيعة فظيعة فى آيات القرآن ، فإذا راجعهم مراجع استنكروا هذه المراجعة ، وقالوا إنهم ليسوا خلفاء سيبويه ، أو ليسوا أساتذة لغة عربية ، أو ليسوا من علماء الأزهر . . فلم تغارون إذن أيها الناقصون هذه الغيرة المسرفة على لغة الإنجليز والفرنسيس ، ولا تغارون بعض هذه الغيرة على لغة آبائكم وأجدادكم ، ولغة قوميتكم وعقيدتكم ؟ ألا شاهت الوجوه ، وذلت الأعناق ، ولا يرغم الله ، إلا هذه المعاطس إن شاء الله ! ! . .

إن قوماً يكيدون للاسلام والعروبة يبذلون جهودهم الأثيمة لنشر العامية وضياع الفصحى ، حتى تنمى معالم القومية الصحيحة ، وحتى تنقطع صلة المسلمين بقرآنهم العربى المبين ، وإن طوفان العامية اليوم غامر كاسر ، يطاردنا فى الأحاديث العادية ، وفى الإذاعة المتغلغلة ، وفى ساحات الدروس بالمدارس والمعاهد ، وأما الفصحى فياحسرة عليها ، وهى لغة القرآن وقوام العروبة وعز العرب . . . لقد صارت أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وأصبحت غريبة لا تجد لها جنوداً أو أنصاراً ، وأمام هذا يجب علينا أن نشجع كل سبب يؤدى إلى نصرة الفصحى وإذاعتها ، لا أن نسخر منها أو من أهليها ، ولو أن الفصحى سادت بيننا وتحكمت فينا لجاز لنا عندها أن نقول : خففوا من غلواء هذه الفصحى ، وأقوى سبب يحفظ الفصحى ويصونها وينشرها هو حفظ القرآن الكريم أو ترديد النظر فيه وتحريك اللسان .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . يجب على كل مسلم منا أن يتعلم ما يستطيع من لغة دينه وقرآنه وهى العربية ، وأن يحرك لسانه كل يوم بجانب من سور القرآن أو آياته ، ليعوده بهذا البيان العربى الإلهى المشرق الجوانب ، وأن يحرص على مطالعة ما يستطيع من أحاديث الرسول ، وأن يطالع الممتع المفيد من كتب الأدب العربى والبيان السليم ، حتى يغرس فى صدره الألفة لهذه اللغة العظيمة ذات الأسرار والأعاجيب ، ويجب على كل مسلم منا أن يعلم أبناءه لغة دينه وقرآنه ، وأن يبدأ بها قبل أن يطغى عليها سواها من لغات الأجانب أو رطانات الأعاجم أو فساد اللهجات ، والله يهدى إلى صراط مستقيم .

أدركوا لغة القــرآن[1]

الحمد لله عز وجل ، جعل أمة الإسلام خير الأمم ، وزكاها من العالمين بالعلم والعمل : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » . أشهد أن لا إله إلا الله « الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علم البيان » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أوتى جوامع الكلم وصوادق الحكم ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

خفق قلب أمتنا هذا الأسبوع خفقات حارة ملتهبة حينما استقبلت بطلة الجزائر « جميلة » لأن الأمة تذكرت وهى تستقبلها ما نالها من تعذيب مرير على أيدى الطغاة البغاة المجرمين من أبناء فرنسا ، الذين احتلوا الجزائر أكثر من مئة وثلاثين عاماً بقوة الحديد والنار ، ليمتصوا دماءها ، ويزهقوا روحها العربية والإسلامية ، ويستغلوا خيراتها ، ويزعموا كاذبين أنها قطعة من بلادهم ، لا يقبلون المساومة فيها أو الرحيل عنها ، ولقد رأيت فتاة الجزائر « جميلة » وهى تخطب فى قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة[2] ، ولم تستغرق خطبتها سوى دقائق معدودة ، أتدرون السبب فى ذلك ؟ .إنها لا تعرف – وهى الفتاة العربية الحرة الأصيلة – كيف تخطب باللغة العربية ، والسبب فى ذلك هو فرنسا البغى الأثيمة اللعينة التى حاولت بكل وسيلة دنيئة

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ١٣ جمادى الأولى سنة ١٣٨٢ هـ ١٢ أكتوبر سنة ١٩٦٢ م .

(٢) يوم الأربعاء ١٠ أكتوبر سنة ١٩٦٢ م .

أن تميت اللغة العربية فى الجزائر ، لأنها اللغة القومية ، ولأنها لغة العروبة ، ولأنها لغة القرآن ، كما حاولت بكل وسيلة أن تزهق روح الإسلام فى الجزائر ، لأن الإسلام هو الدين الإلهى الحنيف الذى يدعو إلى الحرية والعزة والكرامة وإباء الضيم ، والمجاهدة للدخلاء غير المسلمين حتى تكون لا لهم سيادة أو كلمة على أبناء الإسلام : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » .

وقفت « جميلة » لتتكلم فى ذلك الحفل الحاشد ، فاستقبلت من جمهور الحاضرين بعاصفة من التصفيق الشديد والهتاف المدوى وبدأت كلامها بالعربية فى صعوبة ، وما كادت تبدأ كلامها بقولها : « بسم الله الرحمن الرحيم » حتى زادت عاصفة التصفيق وتضاعفت شدتها من الجمهور المسلم المؤمن الذى تنطوى صدوره على فطرة الإيمان ونزعة التدين ، حتى ولو أهمل فريق منه شعائر دينه وتعاليم شريعته ، وكأن كلمة « بسم الله الرحمن الرحيم » التى بدأت بها فتاة الجزائر كانت شرارة كهربية هزت السامعين ، وذكرتهم أنهم يجتمعون مع المتكلمة فى أكثر من رابط ، على رأس هذه الروابط يأتى رابط الدين وعادت « جميلة » لتقول : « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » فازدادت عاصفة التصفيق والتهليل علواً وسمواً ، واستمرت طويلا . وخيل للجمهور أن فتاة الجزائر المناضلة ستنطلق فى حديثها إلى أشقائها وشقيقاتها باللغة العربية المبينة التى نزل بها القرآن ، وتحدث بها محمد ، وتحدث بها العرب خلال القرون والأجيال ، وتحدث بها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها . وصار لنا بها أدب جليل وتراث فكرى عظيم[١] ، وإذا الفتاة تعتذر فى خجل لعجزها عن التكلم باللغة العربية ، لأن الاستعمار الفرنسى لم يهىء لها الجو الذى تتكلم فيه لغة وطنها ودينها ، ثم تكلمت بالفرنسية دقائق معدودة ، وخيم على الجمهور

(١) راجع مزيدا من الكلام عن هذا الموضوع فى كتاب « وسائل تقدم المسلمين » ص ١٢٨ .

صمت رهيب ، إذ لم يتوقع ولم يفهم ، ولم يقطع هذا الصمت إلا أصوات تقول : « نريد الترجمة » . .

وانتهت الخطبة وأنا أحس فى قلبى بمس أليم كمس الخنجر المسموم ، لما صنعه بغى الفرنسيين فى الجزائر حتى أضاعوا معالم قوميتها ولغة عروبتها ، ولولا جمعية العلماء الجزائريين المسلمين بالجزائر ، ولولا مدارسها العربية الإسلامية التى جاهدت ما جاهدت حتى فتحتها وأنفقت عليها لما بقى للعربية ولا للاسلام أثر هناك ، وتذكرت حفلا أقمناه باسم الجزائر منذ قرابة سبع سنوات فى دار المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين ووقف فيه شاب جزائرى يخطب فحاول أولا أن يتكلم بالعربية ولم يكد ينطق ببعض الجمل فى صعوبة حتى انفجر باكياً ، وقال لمستمعيه : اعذرونى لأنى لا أستطيع الكلام باللغة العربية ، وهذه جناية الاستعمار وجناية فرنسا علينا وأخذ يتم حديثه بالفرنسية فحزنت يومها حزناً شديداً ، لأنها لو كانت اللغة الأردية أو الفارسية أو الأندونيسية لخف الأمر وهان ، فإن هذه لغات شرقية وشقيقة ، ولو كانت الانجليزية لما جلت الكارثة بهذه الصورة ، ولكنها الفرنسية لغة الأمة الداعرة التى أذاقت الجزائر الهول والبلاء ، وألوان العنت والشقاء ؛ وكأن فرنسا أرادت أن تسخر من أبناء الجزائر فطبعت ألسنتهم على لغتها ، حتى إذا قالوا : لقد استقللنا وتحررنا ، أخرجت لهم فرنسا اللئيمة لسانها ساخرة وقالت : وكيف تقولون إنكم تحررتم أو استقللتم ، وهذه ألسنتكم ما زالت مقيدة بقيود لغتنا ، حتى أنكم تبدون وكأنكم فرنسيون ؟ !

ألا ما أعظم التبعة الملقاة فى أعناق العرب والمسلمين عامة ، وأعناق أبناء الجزائر الأشقاء خاصة ، أمام هذا الأمر الخطير ، فقد كانت الجزائر دولة

عربية إسلامية حرة ، تتجلى فى أنحائها صبغة العروبة وروح الإسلام ، ثم جاءها الاحتلال البغيض ، وما أشد وطأته وأثقل مصيبته ، ثم قامت الثورة ، وبذل فيها أبناء الجزائر الأبطال ما بذلوا ، وصبروا فى ميدانها ما صبروا ، وقدموا فى ساحة التضحية والفداء ما يقرب من مليون ونصف مليون من الشهداء ، ثم نالوا الحرية والاستقلال بعد سبع سنوات عجاف ، وهذا الاستقلال له تبعاته وواجباته ، وله ثمنه ومنزلة ، وهو يصبح عديم القيمة عقيم الثمر إذا لم نطرد الاستعمار الأجنبى الأثيم من الدواوين والألسنة وموائد الطعام ومجالات التعليم والثقافة ، وكل ناحية من نواحى الحياة ، إذ لا يكفى أبداً أن أطهر بلادى من الجندى الدخيل ، بل يجب أن أطهر لسانى من سيطرة لغته ، وأطهر ثقافتى من سيطرة ثقافته ، وأن أبنى من جديد مجتمعاً عربياً إسلامياً ، تسوده العروبة بلغتها وتقاليدها ، ويقوده الإسلام العظيم بهديه وتعاليمه .

إن الخبر الوحيد الذى يعزينا أمام هذا الواقع الوجيع الأليم الذى سببه الاستعمار الفرنسى خلال سنوات الاحتلال الطويلة الوبيلة ، هو أن الجزائر الشقيقة الحبيبة الغالية قد طلبت من الجمهورية العربية المتحدة ثلاثة آلاف متخرج من علماء الجامع الأزهر الشريف لتعليم اللغة العربية ونشر التعاليم الإسلامية فى ربوع الجزائر الحرة ، ولا شك أننا نتمنى من هؤلاء العلماء أن يكونوا الرواد الأمناء الذين ينبثون فى كل مكان ، ويسلكوا كل شعب وواد ، ليطاردوا الكلمة الفرنسية الأجنبية ، ويغرسوا الكلمة العربية الأصيلة ويتناولوا كل لسان جزائرى ليحصنوه بلغة القرآن وهدى الإسلام .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

اذكروا جيداً أن لغتكم جزء من دينكم ؛ لأنها لغة قرآنكم ونبيكم وتاريخكم وفى سيادتها سيادة لعقيدتكم ومبادئكم . فاحرصوا عليها فى كل مكان يناسبه الحرص عليها ، وذودوا عنها عدوان المعتدين وسهام الدخلاء ؛ واعلموا أن أن الأمة لا شخصية لها بدون لغتها ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

فى مؤتمر الأدباء[١]

الحمد لله عز وجل ، أكرم الإنسان بالعقل والجنان ، وأيده باللسان والبيان : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم » . أشهد أن لا إله إلا الله ، كتب البقاء للحق والخير ، « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جاهد فى سبيل ربه بقوله وعمله ، ولسانه وسنانه ، فكتب الله له العزة والقيادة ، والرفعة والسيادة : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » . فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، وصحبه ورجاله ، والمهتدين بمقاله وفعاله ، أولئك « يرجون تجارة لن تبور » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

أنا عائد إليكم من مؤتمر الأدباء العرب الذى انعقدت جلساته فى الكويت حيث اجتمع نحو مائتين من أدباء هذه الأمة العربية وكتابها ومفكريها وأصحاب الرأى والبيان فيها ، ليتدارسوا شئون القلم والكلم ، وأمور الأدب والكتب ، ولا شك أن هذه أمور لها مكانتها ومنزلتها فى نظر الإسلام . فإن أول ما نزل كتاب ربنا جل جلاله فيه تمجيد للقلم وهو وسيلة العلم والأدب . وفيه أمر بالقراءة وهى مفتاح التفكير والتعبير : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » . ويعود القرآن فيقسم بحرف الكلمة وهو « النون » وبالقلم وهو الذى

---

(١) الجمعة ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٨ هـ ٢ يناير سنة ١٩٥٩ م

يخط به الكتاب ما ينشئون وبما يسيطرون أى ما يكتبون ، فيقول : « ن والقلم وما يسطرون » ويعود فيذكر نعمة الله الكبرى على الإنسان بتعليمه البيـــان وهو التعبير عما فى الضمير فيقول : « الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان » . وكذلك أخبرنا قرآن ربنا وحديث نبينا أن لخالقنا ومبدعنا قلماً ولوحاً محفوظاً ، ومجد الرسول الأدب والبيان حين قال : «إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة » وقال : « المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه » . فعناية الأمة بأدبها وكتابتها عناية يباركها الإسلام ويرتضيها رسوله عليه الصلاة والسلام . . .

وكان الموضوع الرئيسى للمؤتمر هو البطولة فى الأدب ، وظللنا تسعة أيام فى جلسات موصولة صباح مساء ، نستعرض نماذج البطولات والعبقريات فى أدب هذه الأمة العربية ذات التاريخ الطويل فى مختلف العصور ، وعلى الرغم من اصطباغ المؤتمر بالصبغة القومية الواضحة ، ووجود غير مسلمين فيه فإن موضوعه لم يتيسر له التخلص من روح الإسلام ، لأنك لا تستطيع أبداً أن تفصم العروة الوثقى التى أوجدتها يد الله تبارك وتعالى بين العروبة والإسلام ، فالعروبة وعاء هذا الإسلام ، والإسلام روح هذه العروبة ؛ ولذلك كانت أكثر البطولات التى استشهد بها الباحثون والمتحدثون فى المؤتمر بطولات إسلامية زكتها اليد الإلهية وطهرتها الروح الدينية ، وإن لم يعن أغلب المتحدثين بتجلية هذه الناحية ، ولو أننا سمينا ديناً من الأديان بأنه دين البطولة والبطولات لكان أحق الأديان بهذه التسمية دين الإسلام ، لأنه دين قد جاء ليصنع البطولات ، أو يهذب البطولات ، فالعمالقة من أبنائه الذين كانوا جبارين فى الجاهلية من أمثال عمر وخالد وأبى سفيان قد هذب الإسلام بطولتهم وأحسن توجيهها ، واستخدم طاقاتهم ومواهبهم فى ميادين الخير والبر ، فازدادوا تألقاً والتماعاً ، وكذلك « الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » كما يقول الرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم .

وكذلك صنع الإسلام بطولات وبطولات . . . أليس من البطولة كل البطولة أن يخرج الإسلام من رعاة الشاء والغنم هداة الشعوب وقادة الأمم ؟.. ومن القبائل المتفاخرة المتنافرة المتناحرة أمة واحدة موقنة شاكرة ، ومن عبدة الأصنام والأوثان مؤمنين موحدين خاشعين للرحمن ؟ . . أليس مما يعلو على البطولات كلها أن نسمع رسول الصلاح والإصلاح محمداً يتحدى قوى الشرك والبغى ، وهو فى قلة من أتباعه وأنصاره ، فيقول : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه » ؟ . . . أليس من أرفع ألوان البطولات أن نسمع الشيخ البكاء الوقور أبا بكر الصديق يتحدى المتمردين من المرتدين فيهتف : « والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه حتى يؤدوه » ؟ . وهكذا نستطيع أن نمضى فنذكر مئات من ألوان البطولات التى تخرجت فى مدرسة الدين الحنيف الذى أخرج الناس من الظلمات إلى النور . . .

ومن أجل هذا قلنا للقوم هناك : إذا كنتم تؤدون حق الوطن فتنفتحون الساعات فى الحديث عن القومية والتأييد لها فلا تنسوا أن تجعلوا بجوار هـــذه الساعات ساعة أو ساعات للحديث عن الإسلام عقيدة هذا الجمع الكبير الهائل من أبناء العرب الذين يكافحون من أجل قوميتهم ووطنيتهم ، وليس بيسير عندهم أن يهون عليهم دينهم الذى ارتضاه لهم ربهم وخالقهم ، وإذا كنتم تبذلون جهوداً ضخمة لمحاربة الشعوبية الأثيمة والانحراف عن القومية السليمة ، فابذلوا جهوداً مثلها لمحاربة الإلحاد والزندقة ، لأن الذين لا دين لهم ولا إيمان عندهم لن تكون لهم قومية صحيحة ، ولن يغاروا غيرة صادقة على ديار أو أوطان . . . وأخشى ما يخشاه الإنسان أن يسرف مسرفون فى التعصب

للنزعة القومية والاقتصار عليها ، نارين العقيدة وراءهم ظهرياً ، فيأتى يوم يتعصب فيه متعصبون أو يسرف مسرفون فى وجهتهم الدينية ، ناسين القومية أو متجاهلين لها ، فتصير الحرب سجالا بين الفريقين ، ويستغل ذلك أعداء الإسلام والعروبة معاً ، فإذا رأى هؤلاء الأعداء أن القومية العربية قد اشتد ساعدها ضربوها باسم الإسلام ، وإذا اشتدت سواعد الوجهة الإسلامية ضربوها بالقومية العربية ، فتخسر النزعة القومية وتخسر الوجهة الإسلامية ، ولو أننا أحسنا التوفيق بين الإسلام والعروبة كما يجب أن يكون ، لسارا معاً فى موكب واحد تحفه المهابة والجلال ، وتتضاعف منه الخيرات والثمرات .

وقد لاحظنا أن عدداً كبيراً من المتحدثين فى المؤتمر لا يحافظون على الضبط اللغوى أو النحوى فى الكلام ، ويبدو أن هذا ناشئ عن عدم التمرس بأسباب لغة القرآن ، وعدم الاستمداد الكافى من ينابيع الأدب العربى الصميم الذى أشرق وتضوأ تحت لواء الإسلام ، ولعل ملكاتهم وألسنتهم قد نالها الانحراف لأنهم طعموا من آداب غربية أو قراءات سطحية لا تسمن ولا تغنى من جوع ، كما لاحظنا أن الذين نشأوا نشأة تعليمية موصولة الأسباب بالقرآن الكريم هم أقل الأدباء والخطباء لحناً وأكثرهم رعاية لقواعد العربية ، وكأن الله عز وجل قد أودع فى قرآنه من أسرار تقويم اللسان وتصحيح البيان وتجويد اللغة ما يعمل عمل السحر العجيب فى تهذيب النطق والملكة البيانية وضبطها عند صاحبها . ومن الواجب علينا قومياً وإسلامياً أن نعنى العناية الوافية بلغة القرآن وأدب العرب الذى صفاه ونقاه روح الإسلام ، لأن هذا من أول شرائط القومية ، فالباحثون فى القوميات يذهبون إلى أن اللغة هى أقوى الروابط والدعائم للقومية . والعناية بلغة العرب طريق لحسن الفهم عن القرآن العربى المبين

الذى تردد فى خلد الزمان آيات بينات ، محكمات معجزات : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . هذه خواطر عاجل عن موضوع له جلاله وخطورته ، وإذا كان لنا أن نأخذ منه عبرة ، فهى أن نؤدب أولادنا بأدب الإسلام وتربية الإسلام من أول الطريق ، فلنقوم ألسنتهم ولنصحح لغتهم ولنضبط تفكيرهم وتعبيرهم بالاغتراف من منهل القرآن وكثرة الترتيل له فإنه المعجم الأدبى اللغوى الإلهى الذى تستقيم به الألسنة وتعتدل الأفكار ولنضف إلى ذلك زاداً من أدب الرسول ومن الآثار الأدبية المزكاة بنور الإسلام خلال العصور التى ازدهرت بروعة البيان مع جلال الإيمان ولنمكنهم من مطالعة السير ، والتاريخ الإسلامى ليتعرفوا إلى بطولات فيها عروبة ومعها إسلام وفيها قوة ومعها إيمان ، وفيها عبقرية ومعها هداية ربانية لنجمع بين أدب وعقيدة ، وبين قومية ودين ، والله يهدى العاملين واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

امتحـان للأمة[1]

الحمد لله عز وجل ، تقدست أسماؤه ، وتعالت كبرياؤه : « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، أنزل القرآن ضياء لخلقه وتبياناً لحقه : « ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، اعتز بعزة الإيمان ، واهتدى بهدى القرآن : « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » . فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الثابتين فى يقينهم ، وأصحابه الأوفياء لإيمانهم ، وأتباعه الناصرين لدينهم : « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

تتعرض الأمة العربية المؤمنة فى هذه الآونة الفاصلة من تاريخها لتجربة شديدة قاسية ، سببها أعداؤها وادعياؤها والدخلاء عليها ، فأخذوا يحاولون صدع بنيانها ، وإزهاق إيمانها ، وزلزلة كيانها ، فهم يكيدون لها بالليـــل والنهار ، وهم يعوقون نهضتها بالجهر والإسرار ، ولم يكتف أعداء هذه الأمة ببلاء واحد ، بل صوبوا إليها سهام كيدهم ورماح لؤمهم ، حتى تكسرت النصال على النصال ، فالاستعمار بخبثه وحيله ، والإلحاد بقتامه وإجرامه ، والشيوعية بكفرها وفجورها ، والخارجون على وحدة الأمة بأهوائهم ونزواتهم ، وأذناب أعدائها بوضاعتهم وآثامهم ؛ كل هذه البلايا تواجه الأمة محاولة قص أجنحتها وعرقلة سعيها وصدها عن أهدافها ، ولكنها تمضى بعون

---

(١) الجمعة ١١ من رمضان سنة ١٣٧٨ هـ ٢٠ مارس ١٩٥٩ م .

الله تشق طريقها بين المصاعب والمتاعب ، موقنة بأن الليل وراءه نهار وأن الإيمان يعقبه انتصار ، « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ».

ولعل أشد الأخطار التى تتعرض لها الأمة أن يشذ عن طريقها نفر من المنتسبين إليها المحسوبين عليها ، فينالون من وحدتها ، ويفتحون الأبواب لنفوذ أعدائها إلى كيانها ، والداء إذا انبعث من الداخل وحاول التمكن من الأعماق كان أدهى وأنكى من علة تهاجم من الخارج فتجد أمامها حوافز الدفاع والمقاومة . . . ومن ذا الذى كان يتصور أو يعقل أن يتردد فى وطن العروبة وعلى مسمع أمة الإسلام هتاف يقول : « لا عروبة ولا إسلام » ؟ ! .. كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً . . . إنها كلمة تطعن نصفها الأول جموع العرب الذين يؤمنون بأنهم سلالة العروبة المؤمنة التى صنعت الأمجاد وزانت التاريخ ، وكان لها رصيدها الطويل العريض من المفاخر والمآثر ، إنه نصفها الثانى المسلمين ، الذين يحيون بالإسلام ، ويعيشون عليه ، ويضحون فى سبيله ، وكل منهم يهتف :

ولست أبالى حين أقتل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى

وإذا قال الذين يكفرون بدينهم وقوميتهم : « لا عروبة ولا إسلام » فماذا يبقى ؟ . . . أتبقى الشيوعية التى تقول إن الدين خرافة ، والتى تلغى كيان الفرد وتستعبده للدولة ، والتى تتخذ من الشعب أحجاراً لهرم ضخم تتربع على قمته الدولة فى استبداد وجبروت ؟ ! . . وماذا ينقم هؤلاء من العروبة ؟ أينقمون منها أنها وريث الناس فى عصورها المزهرة المؤمنة المواريث الضخمة السامية من مكارم الخصال ومحامد الفعال ، وأنها كانت وعاء الإسلام فحملت أمانته وأدت رسالته ونشرت أضواءه فى العالمين ؟ . . وماذا ينتقم هؤلاء من الإسلام دين الحرية والعدالة والمساواة ؟ . أينقمون منه أنه قرر وحدة الجنس

البشرى فقال : يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء » ؟ أم ينقمون منه أنه سوى بين الناس ولم يقدم أحداً على أحد إلا بالعمل الصالح فقال : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ؟ أم ينقمون منه أنه جمع الأمة على كلمة سواء فقال : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » ؟ أم ينقمون منه أنه نزه الدين عن الاستغلال والاحتيال فقال : « ألا لله الدين الخالص »؟ أم ينقمون منه أنه حرر المستضعفين من بغى الأكاسرة والقياصرة ، وأطلق الجموع التى كانت تكبل بالسلاسل لتحقق للجبابرة شهواتهم وللطغاة مآربهم ، وقال قولته السائرة : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ؟ !

وهذا القرآن المجيد الذى سرت الأنباء بأنهم مزقوه وأحرقوه ، أى ذنب جناه ؟ وماذا غاظهم من نوره وهداه ؟ . . أغاظهم أنه قرآن كريم « فى كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين » ؟ أم غاظهم أنه كتاب يدعو الناس إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ؟ . أفحسبوا أنهم يقضون عليه بما فعلوا ؟ ألا ساء ما يحسبون ، « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » والله متم نوره ولو كره الكافرون » ... إنهم حين يمزقون القرآن يحاولون أن يمزقوا الإسلام ويقضوا على المسلمين ليحققوا مأرباً للاستعمارى المشهور « غلادستون » رئيس وزراء انجلترا منذ عشرات من السنين حين وقف فى مجلس العموم البريطانى صائحاً : « لن نستقر أبداً فى مستعمراتنا بالبلاد الإسلامية إلا إذا قضينا على أمرين : أولهما القرآن وثانيهما الكعبة » ! ! . .

وهذا التفريق للكلمة والتمزيق للشمل . . أليس إجراماً فى حق الأمة التى

لا تسلم ولا تأمن إلا بالوحدة والجماعة ؟ أليس محاربة لله الذى يقول : « إنما المؤمنون إخوة » ويقول : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » ومحاربة لرسوله الذى يقول : « يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ إلى النار » ويقول : « من فارق الجماعة ثم مات مات ميتة جاهلية » ؟ . . والشعوبية التى تحقر العرب وتصغر شأنهم وتنكر فضائلهم ، ما مدى قربها من الإسلام ؟ إنها تصغر العرب وهذا يقتضى تصغير لغتهم وهى لغة القرآن الذى أنزله الله عربياً غير ذى عوج ، وتحقير العرب يقتضى الأعلام من سادات العرب الذين استجابوا لله والرسول ، وبذلوا فى سبيل العقيدة وتحرير العالم النفوس والنفائس وتحقير العرب يقتضى تكذيب الصادق الأمين والتطاول عليه لأنه النبى العربى الذى يقول : « إذا ذل العرب ذل الإسلام » ويقول : « أحبوا العرب لثلاث لأنى عربى ، ولأن القرآن عربى ، ولأن لسان أهل الجنة عربى » . . .

ولكن رب ضارة نافعة أيها الناس « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » فقد ظهرت الاستهانة بالدين ، وشغلت المسلمين عن عقيدتهم شواغل مختلفة ، ثم صرح لؤم الملحدين عن طويته ، واستعلن المبطلون بباطلهم ، وتوقح المفسدون فى ضلالهم ، فإذا القرآن يمزق ، وإذا المجرمون يرددون : « الدين خرافة ، والقرآن كاذب » ، فكان من جراء ذلك أن ثارت الأمة ، وظهرت منها الغضبة لله ولقرآنه ودينه ، حتى الذين لم نعرفهم بتدين سابق غضبوا وثاروا ، ولعل هذا من عجيب صنع الله لدينه ، فقد كشف انسا ما يضمره الإلحاد الأثيم والكفران اللئيم من خبايا وطوايا ، فأدرك الجميع مبلغ الخطر الذى يتهددهم ، وعرفوا أنه لابد من وقفة حازمة ترد على الأمة وحدتها ، وعلى العقيدة كرامتها ، وتضرب على أيدى الذين يثيرون الفتنة

عزم وصرامة ، وتثبت دعائم القومية بسنادها القوى المتين من الإيمان واليقين ، « ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » ؟ !

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . الغمرات ثم ينجلينا ، وتأتى الأحداث وتمضى ويبقى الرجال كما هم ، فلنعتصم بوحدتنا ، ولنستمسك بعقيدتنا ، ولنقف فى وجوه أعدائنا ، والله معنا ومن ورائنا : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون» . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم . . .

محمد سيدنا(١)

الحمد لله عز وجل « يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » أشهد أن لا إله إلا الله ، هو قيوم السموات والأرض : « قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كان عبد الله ونبيه ، وحبيبه وصفيه ، وكان خير القانتين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله : « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

تلقيت من بعض الإخوة الذين يصلون معنا رجاءين متناقضين ، فأحدهما يلاحظ أنني أصف النبي عليه الصلاة والسلام بوصف « سيدنا » حيث أقول دائماً . . . أشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ويقول الرجاء أن السيد هو الله تعالى ، ويرجو أن لا أذكر وصف السيادة ، وأن أكتفي بوصف النبوة أو الرسالة ، والرجاء الثاني يلاحظ أنني أقول بعد مقدمة كل خطبة : « يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام » ولا أذكر وصف السيادة ، ويرجو أن أذكر هذا الوصف فى كل مرة أذكر فيها رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام .

طالعت الرجاءين وتأملت فيهما طويلا ، وتحيرت بينهما زمناً ، ثم قلت : حقاً إن رضا الناس غاية لا تدرك ، واختلاف وجهات النظر يؤدى إلى تباين الآراء وتعدد الأفكار ؛ فمع أن الأمر فى طرفيه لا يتعدى دائرة الجواز

---

(١) الجمعة ١٤ رمضان سنة ١٣٨٢ هـ ٨ فبراير سنة ١٩٦٢ م .

والإباحة ، ومع أننى أتوسط فى الأمر فأذكر وصف السيادة تارة وأتركه تارة ، فإنى لم أرض الأول ولا الثانى ، ومن ثم احتاج الأمر إلى شئ من البيان ، فكلمة « السيد » لها عدة معان أهمها ثلاثة : الأول أنها تكون وصفاً لله تعالى إذا أطلقت دون إضافة أو قيده ومن هنا قال الرسول فى بعض أحاديثه : « السيد الله » ، والثانى بمعنى الرجل الذى يسود قومه ، أى يسبقهم ويترأس عليهم بالعلم أو الكرم أو الصلاح وعمل الخير ، ولذلك قيل إن السيد هو المتولى للسواد ، أى الجماعة الكثيرة ، ولما كان من شرط المتولى للجماعة أن يكون مهذب النفس قيل لكل من كان فاضلا فى نفسه : إنه سيد[1] ؛ ومن هذا القبيل وصف القرآن الكريم ليحيي بن زكريا بأنه كان « سيداً وحصوراً أو نبياً من الصالحين » . قال المفسرون إنه كان سيداً بالعلم والعبادة ، وبذلك صار رئيساً للمؤمنين . والمعنى الثالث للسيد هو الزوج ، ومن هذا القبيل قول القرآن الكريم فى قصة يوسف وزليخا : « وألفيا سيدها لدى الباب » أى زوجها[2] . ومنه أيضاً ما جاء فى حديث عائشة حين سألتها امرأة عن الخضاب ، فقالت عائشة : «كان سيدى رسول الله ﷺ يكره ريحه » أى زوجى ، وكذلك قالت أم الدرداء : « حدثنى سيدى أبو الدرداء » أى زوجى .

وفى وصف القرآن ليحيي بأنه كان « سيداً » ما يدل على جواز تسمية الإنسان سيداً ، كما يجوز أن يسمى عزيزاً وكريماً ، ولقد قال الرسول للأنصار : « قوموا إلى سيدكم » ، يعنى كبير الأنصار سعد بن معاذ ، وفى الصحيحين أن الرسول قال عن الحسن « إن ابنى هذا سيد ، ولعل الله يصلح بين فئتين عظيمتين من المسلمين » . ولقد قيل لرسول الله : من السيد ؟ : فقال : يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام ،

---

(١) فى تفسير الطبرى : « السيد مأخوذ من سواد الشخص فقيل سيد القوم بمعنى مالك السواد الأعظم وهو الشخص الذى يجب طاعته لمالكه ، هذا اذا استعمل مضافا أو مقيدا وأما اذا أطلق فلا ينبغى الا لله » ج ١ ص ٤٣٧ .

(٢) فى تفسير المنار « اى وجدا زوجها عند الباب ، وكان النساء فى مصر يلقبن الزوج بالسيد ، واستمر هذا الى زماننا » ج ١٢ ص ٢٨٦ .

قالوا : فما فى أمتك من سيد ؟ : قال : « بلى ، من آتاه الله مالا ، ورزق سماحة ، فأدى شكره ، وقلت شكايته فى الناس » . بل قال الرسول : « كل ابن آدم سيد ، فالرجل سيد أهل بيته ، والمرأة سيدة أهل بيتها »[1] . وقال صلوات الله وسلامه عليه عن نفسه « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » . وقد قال هذا إخباراً عما أكرمه الله به من الفضل والشرف ، وتحدثا بنعمة الله عليه ، ولذلك قال : « ولا فخر » أى إن هذه الفضيلة كرامة لم ينلها بقوة شخصه ، بل بفضل ربه ، فليس له أن يفتخر بها ، ولله الحمد والمنة .

ولكن القرآن الكريم مع هذا قد ذكر رسول الله عليه صلوات الله باسمه المجرد أكثر من مرة فقال : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » ، وقال : « ما كان محمداً أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » ، وقال : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » . فلو تابع الإنسان أسلوب القرآن فذكر رسول الله باسمه مجرداً فى مواطن ملائمة لم يكن مرتكباً خطيئة أو جريمة ، كأن يقول مثلا : « محمد مصلح الإنسانية ، محمد هادى البشرية ، محمد الذى حرر الإنسان ، محمد الذى ثبت دعائم الإيمان ، محمد خير من يسعى على قدم » إلخ .

وينبغى أن نتذكر أن الصيغة الواردة فى الأذان هى : « أشهد أن محمداً رسول الله » والفقهاء ينهون عن قول المؤذن : « أشهد أن سيدنا محمداً رسول الله » كما لا ينبغى أن يقول المؤذن : أشهد أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله . وكذلك الصيغة الواردة فى التشهد أو « التحيات » تقول : اللهم صلى على محمد ، وعلى آل محمد . . إلخ ، وجمهرة الفقهاء على أنه يكره الإيتان بكلمة « سيدنا » عند الأذان أو الإقامة أو التشهد ، وإن كان وصف السيادة للرسول مباحاً ، لأننا هنا نتقيد بالصيغة الواردة ، والطاعة خير من الأدب

---

(١) وفى حديث قيس بن عاصم : « اتقوا الله وسودوا اكبركم » . وفى الحديث : « لا تقولوا للمنافق سيد ، فانه ان كان سيدكم وهو منافق فحالكم دون حاله ، والله لا يرضى لكم ذلك » .

كما يقولون ، ولقد ورد فى الحديث أن رجلا قال لرسول الله : «أنت سيد قريش » . فقال : « السيد الله » ، أى هو الذى تحق له السيادة الكلية المطلقة ، وكأن النبي كره أن يحمد فى وجهه ، وأحب التواضع ، ومعنى هذا أن تسويد النبي أمر مباح مندوب فى غير العبارات الشرعية الواردة فى العبادة ككلمات الأذان والإقامة والتشهد ، وأن ذكر النبي بصفات أخرى غير صفة التسويد أمر جائز ، إذ ليس ذكر هذه الصفة فرضاً أو واجباً أو سنة مأثورة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام .

إن نبينا هوسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو سيد الأولين والآخرين، وهو سيد ولدآدم ولا فخر ، وإن نبينا هو محمد الأمين الذى ملأ كل مكان ، واستغنى عن النعوت والأوصاف ، فلا حرج علينا إذا سودناه وزكينا أوصافه كما زكاها الله عز وجل ، فإنه المستحق لكل تشريف وتعظيم ، ولا إثم إذا جاء اسمه الكريم متلألئاً وحده كما يتلألأ البدر لا يحتاج إلى سند يقويه أو حلية تزكيه : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً».

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ليتنا نشغل أنفسنا بالأصول قبل الفروع ، وبالواجبات قبل المندوبات ، وليتنا نثنى على رسول الله خير الثناء ، ونسوده أفضل التسويد بأن نتبع هديه ، ونلتزم شريعته ، وننفذ ما دعا إليه ، فلوفعلنا ذلك لكان ثناؤنا على رسولنا ثناء عملياً مذكوراً مشكوراً ، ولأحسسنا عظمة محمد على وجهها سواء ذكرنا وصف السيادة مع اسمه أم ملأنا باسمه وحده أفواهنا وآذاننا، فكان له أعمق التأثير فى القلوب والعقول ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

الرسول كما يصوره القرآن[١]

الحمد لله الموجد من العدم ، البارىء للنسم ، الرازق للأفراد والأمم ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين . وأشهد أن لا إله إلا الله ، هو صاحب الفضل والآمر بالعدل ، وهو أحكم الحاكمين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، صنعه الله على عينه ، وأيده بلطفه وعونه ، فكان خير المصلحين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وذريته ، التابعين من أهل صحبته ، والسالكين طريقهم فى نور هديه وسنته : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

ما زلنا على مقربة من ذكرى مولد الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، والحديث عن رسول الله لا يمل مهما طال أو تكرر : « وما أحلى مذاق الشهد وهو مكرر » . والذكرى تدبر واعتبار ، وهى لا تثمر ثمرتها ، ولا تحقق فائدتها ، إلا إذا أوجدت فى نفس الإنسان تأثيراً يدفع به إلى هدى ، أو يصده عن خنا ، ولذلك يقول القرآن : « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » ويقول : « فذكر إن نفعت الذكرى سيذكر من يخشى ، ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى ، ثم لا يموت فيها ولا يحيى » . والحديث عن رسول الله قد ملأ الدنيا وشغل الناس منذ حمل أعباء الرسالة إلى ما شاء الله ، وحق له ذلك فإنه الحديث عن البطولة فى أسمى معانيها ، وعن القدوة فى أطهر مجاليها : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر

---

(١) الجمعة ١٤ ربيع الآخر سنة ١٣٩٢ هـ ٢٨ أبريل ١٩٧٢ م .

الله كثيراً » . وإذا كانت هناك ألوان أو أشكال من الحديث عن الرسول ، فإن خير الحديث عنه هو ما نطق به كتاب الله وتنزيله المجيد ، لأنه أصدق الحديث ، ومن أصدق من الله قيلا ، ومن أصدق من الله حديثاً ، ولقد رسم القرآن الكريم للرسول العظيم صورة باهرة رائعة ، ينبغي أن يشغلنا استعراضها والتمعن فيها مرات بعد مرات ، وهذه الصورة للشخصية المحمدية تقوم فى أصولها على خمسة عناصر ، هى التشريف ، والتكليف ، والربط بين التشريف والتكليف ، والتذكير بالبشرية وعدم القدرة أمام قدرة الله عز وجل والمعاينة أو المحاسبة ، وفى كل عنصر من هذه العناصر عبرة وعظة لأولى الألباب .

ولذلك يجب المؤمن أن يبدئ ويعين ، وأن يؤكد ويوطد ، الصورة الجليلة النبيلة ، العظيمة الكريمة ، التى رسمها كتاب الله العلى الأعلى لشخصية رسول الله عليه الصلاة والسلام .

إن القرآن الكريم فيما يتعلق بتشريف الرسول وتكريمه ، قد ذكر آيات كثيرة رفعت شأن الرسول إلى أعلى عليين ، وجعلته خير الخلق أجمعين ، وأقرب الناس إلى رب العالمين ، فقال فيما قال : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » وقال يخاطب الرسول « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » وقال : وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى » ، وقال : « وإنك لعلى خلق عظيم » ، بل زاد القرآن نبى القرآن تكريماً وتوقيراً وتشريفاً ، حينما أخبرنا بأن طاعة الرسول من طاعة الله : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، وأن متابعته ومحبته من محبة الله : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » وأن مبايعته من مبايعة الله : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم » وأن حكمه من حكم الله : « فلا وربك يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » . وكأن القرآن قد أراد بذلك

— والله أعلم بمراده — أن يقول إن منصب الرسالة قليل عظيم ، فلابد أن يكون صاحبه مصنوعاً على عين ربه ، مزدانا بالفضائل التى تؤهله ليكون القدوة الحسنى والمثل الأعلى لعباد الله فى مجال الخير والصلاح .

وقد يظن غافل أو جاهل أن هذا التشريف الإلهى للنبي لون من ألوان المحاباة أو التدليل ، ولكنا حينما نستعرض العنصر الثانى عن عناصر الشخصية المحمدية كما يصورها القرآن نجد أن هذا التشريف يقابله أثقال وأحمال وأعباء كالجبال من التكاليف والمسئوليات ، والتبعات والواجبات ، لأن العظائم كفؤها العظاء ، فالله تبارك وتعالى قد ألقى على كاهل رسوله من ألوان التكاليف ما لم يحمله غيره ، ولا تستطيع العصبة أولى القوة أن تنهض به . فبعد قليـــل من إسناد النبوة إلى رسول الله ، ، يقبل عليه سفير الرحمن ليتلو عليه قول ربه : « يا أيها المدثر ، قم فانذر وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » ، وبعد قليل يعود إليه ليطالبه بتكاليف خاصة لا يكلف بها عامة الناس ، وما أجلها من تكاليف . يقول له : « يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو نقضى منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ، إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ، ان ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قليلا إن لك فى النهار سبحاً طويلا ، واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ، رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكثيراً » ، ثم تتوالى الأوامر والتكاليف : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » ، «قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة » ، « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ، ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير » ، « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه . . ».

ثم يأتى العنصر الثالث ، وهو الربط أو الجمع فى مقام واحد بين التشريف والتكليف ، حتى لا ينسى الإنسان واجب التكليف وهو فى غمرة التشريف ، حتى يتذكر الإنسان وهو يتعب فى النهوض بالتكليف أن هناك عوضاً ومقابلا فيه تكريم وتشريف ، وهذه مثلا سورة الضحى تتضمن أولا طائفة من وجوه التشريف ثم تعقبها طائفة من وجوه التكليف : « والضحى والليل إذا سجا ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث ، ومثل هذا يقال عن سورة الإنشراح : « ألم نشرح لك صدرك . . » .

ويقبل العنصر الرابع ، وهو تذكر الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه أمام الله بشر ، وأنه لا إرادة له أمام إرادة الله : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد . . » . « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » « ليس عليك هداهم » « ليس لك من الأمر شىء » فالرسول الذى لا تستطيع هاماتنا مهما ارتفعت أن تبلغ مواطئ قدميه ، هو هو نفسه الذى يقف أمام جلال ربه خاشعاً خاضعاً خائفاً ، لا يحس إلا بروح العبودية لخالقه ومولاه ، حتى لا يكون هناك معبود سوى الله .

ثم تختم الصورة المحمدية كما رسمها القرآن المجيد بعنصر المعاتبة : « يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك » ، « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » ، « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » وكان المراد من ذلك هو أن نتذكر بوضوح وجلاء أن

شرعة الحساب شاملة للجميع وأن الحساب يترتب عليه الجزاء ، والجزاء إما ثواب أو عقاب « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : هذه صورة نبيكم كما صورها قرآن ربكم ، وهى صورة يجب أن نتدبرها دائماً ، وأن نستهديها دائماً ، فنعرف بتكريم الله لنا ، وننهض بما فرضه الله علينا ، ونحسن الجمع بين التشريف والتكليف ، ونتذكر أن المعبود واحد . وأن الله سيحاسبنا على ما قدمت أيدينا « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » .

ألوان النفس[1]

الحمد لله عز وجل ، برأ الفطرة وجلى العبرة : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » . أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، أظهر آياته فى أصناف مخلوقاته : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جاء بهدى ربه فزكى النفوس وطهر القلوب ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

حينما تتعرض الأمم والشعوب للنكبات تزلزلها وتبلبلها ، يكون من الواجب على أفرادها أن يعودوا إلى أنفسهم ليتبينوا مواضع أقدامهم ومواقع خطواتهم ، لأنهم يكونون حينئذ فى أشد الحاجة إلى عملية تجديد أو بناء جديد ، حتى تعود نفوسهم لبنات صالحة لإقامة صرح الأمة المشيد، ولذلك يقول الحق جلّ جلاله : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ويقول رسول الله عليه صلوات الله وسلامه . « عليك بنفسك » ولو رجعنا إلى كتاب ربنا لوجدناه يحدثنا عن خمسة أنواع من النفوس ، فهو يحدثنا عن النفس الأمارة بالسوء ، والنفس المسولة للشر ، والنفس الموسوسة بالإثم ، والنفس اللوامة على التقصير والنفس المطمئنة بالرضى واليقين ، فالنفس الأمارة بالسوء هى التى تدعو صاحبها إلى

---

(١) الجمعة ١١ رجب سنة ١٣٩٣ . ١٠ اغسطس سنة ١٩٧٣ م .

ارتكاب الذنوب والسيئات ، وتحرضه على الانحراف والفجور ، وتدفع به إلى مهادى الضلال والخبال وكلمة « أمارة » صيغة مبالغة من الأمر وفيها يقول التنزيل: « وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى » .

والنفس المسولة هى التى تزين القبيح فتعرضه فى صـــورة الجميل ، وتسوغ أهواءها بمكر وبراعة ، فترسم الشر وكأنه خير ، وتقيم الدليل بعد الدليل على أن شهواتها معقولة مقبولة لأنه يقال : سولت له نفسه كذا تسويلا زينته وحببته إليه ليفعله أو يقوله ، وسول له كذا : زينه وحببه إليه ليفعله وفى هذه النفس يقول التنزيل المجيد فى سورة يوسف : « قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » أى بل زينت لكم أنفسكم أمراً ، والتسويل هو تقدير معنى فى النفس مع الطمع فى إتمامه ، وكأنه أمنية للنفس تطلبها فيزينها الشيطان لها ويقول فى سورة محمد: « إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم » والنفس الموسوسة هى التى تهمس إلى صاحبها بالصوت الخفى الذى يكاد يسمع من الأعماق ، لتذكره بخواطر الإثم ومشاعر المنكر ، وفيها يقول القرآن الحكيم فى سورة ق : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » . والنفس اللوامة ، كلمة اللوامة صيغة مبالغة من اللوم بمعنى العذل والتأنيب والمراجعـــة ، وفيها يقول القرآن الكريم : « ولا أقسم بالنفس اللوامة » وهى التى تلوم صاحبها لوماً شديداً موصولا ، على ارتكاب الشر أو التقصير فى الخير ، وتندم على ما فات وتحاسب عليه ، والإمام الحسن البصرى يقول : « إن المؤمن ما تراه إلا يلوم نفسه : ما أردت بكلمتى ؟ ما أردت بحديث نفسى ، وإن الفاجر يمضى قدما لا يحاسب نفسه » . فالنفس اللوامة إذن نفس متيقظة خائفة حذرة ، تتلفت حولها ، وتتدبر أمرها ، وتسائل ذاتها فى الحين . أين أنا من الطريق .

ثم تأتى النفس المطمئنة ، تأتى فى الذروة وعلى القمة ، والطمأنينة هى السكون بعد الانزعاج ، واليقين بلا ارتياب ، والرسوخ بلا اضطراب ، لأنها نفس آمنت بالله ، واعتصمت بحبل الله ، ولجأت إلى حمى الله ، ومن كان كذلك فقد استوى على صراط مستقيم : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » . وهذه النفس المطمئنة المؤمنة الموقنة الراضية بالله ، والراضية عن الله ، يناديها ربها أكرم نداء ، ويدعوها ألطف دعاءه ويستقدمها إلى أعظم أمل وأحلى رجاء ، فيقول لها فى تنزيله : « يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » . ومتى يناديها هذا النداء الحاو الجميل النبيل ؟ إنه يناديها به عند الهول الأكبر وفى وقف الكرب الأعظم ، ومن ثنايا الرعب المزلزل الذى يصوره صوت الحق جل جلاله بقوله : « كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً ، وجاء ربك والملك صفاً صفاً ، وجىء يومئذ بجهنم ، يومئذ يتذكر الإنسان وانى له الذكرى ، يقول يا ليتنى قدمت لحياتى ، فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد » . ومن خلال تلك الأهوال الثقال ينبعث ذلك الصوت الإلهى الرحيم العظيم ، « على مسمع النفس الواثقة بربها ، المعتزة بدينها ، الحريصة على قيمتها ، الراضية بقدرها : « يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » .

هذه خمسة أصناف من النفوس ذكرها كتاب الحق ودستور الصدق ، وكل صنف منها له طعم وله مذاق ، ولا شك أن شر هذه النفوس هى تلك النفس الأمارة بالسوء ، الداعية إلى الضلال المحرضة لصاحبها على الانحراف والاعتساف ، ولا شك أن خير تلك النفوس هى تلك النفس المطمئنة الموقنة الثابتة الراضية ، وبينهما مراحل ومنازل ودرجات ، فالإنسان الغافل الضـــال حينما تدركه الرحمة بعد طول شقاء ، ينازع نفسه ويقاومها لينقلها من منبت

السوء إلى منبت الخير قدر طاعته ، فهو ينقلها من منزلة الأمر بالسوء إلى أخف منها ، وهى منزلة التسويل بالشر ، ثم يعود إلى منزلة أخف ، وهى منزلة الوسوسة بالإثم يعود فيزكى هذه النفس ، ويوقظ فيها صوت الضمير ، فإذا هى نفس لوامة ، تفكر وتتدبر ، وتعتبر فتنزجر ، ثم تبلغ القمة ، فإذا هى النفس المطمئنة التى لا تزلزلها الأهوال ولا الشدائد الثقال ، بل تأخذ لها مثلها الأعلى ممن ثبت فى أحرج المواقف . وهو رسول الله : « ألا تنصروه فقد نصره الله : إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم » .

هذه نفوس خمس : نفس أمارة بالسوء ، ونفس مسولة للشر ، ونفس موسوسة بالإثم ، ونفس لوامة على التقصير ، ونفس مطمئنة رضوان الله العلى القدير ، فليت كل واحد منا يسأل ذاته : أين نفسى بين تلك النفوس ؟ وفى طريق تسير ؟ أهى فى المقدمة أم المؤخرة ؟ أهى تتقدم أم تتأخر ؟ أهى تعلو أم تسفل ؟ أهى صالحة للاستقامة أم أنها فقدت الأمل والرجاء ؟ .

لقد كان سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام يضرب لنا القدوة فى الحرص على إصلاح النفس ، فيدعو ربه قائلا : « اللهم اجعل فى نفسى نوراً » ويستعين بالله من انحراف النفس ، فيقول : « اللهم إنا نعوذ بك من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا » . ويقول : « وأعوذ بك من نفس لا تشبع » فإذا كان هذا هو شأن رحمة الله للعالمين ، فماذا يكون شأننا نحن الراتعين فى الضلال المبين ؟

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

« عليكم أنفسكم » . هذا ميدان جهاد لا يحتاج إلى جيش ، ولا إلى دبابات أو طائرات ، ولكنه يحتاج إلى همة وعزيمة ، ولابد لنا من معركة مع أنفسنا لنصلح للقيام بمعركة مع أعدائنا ، ولنتذكر قول ربنا « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ، ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد » أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

اربع دور للانســان[1]

الحمد لله عز وجل ، بيده الحياة والممات ، وله الأولى والآخرة ، ألا إلى الله تصير الأمور . أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جاهد فى دنياه ، وآثر أخراه على أولاه ، فأكرمه ربه ، واعلاه : « ولسوف يعطيك ربك فترضى » . فعليه من ربه الصلاة والسلام ، وعلى آله الكرام ، وأصحابه العظام ، وأتباعه حماه الإسلام : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

صددت نفسى صدا عنيفاً صارماً عن التحدث فى حاضرنا ، لأنه حاضر أليم محزن ، بشع شنيع ، مؤسف مخجل ، وقلت لها : فلنتحدث عن موضوع بعيد عن الأحداث المخجلة التى تمثل فيها مآتم المسلمين ومخازى العرب ، وليكن حديثنا عن الدور التى يتنقل فيها الإنسان بأمر ربه وقدرة خالقه ، فقد جعل الله للانسان أربع دور ، تبدأ من الضيق إلى السعة ، والدار الأولى هى دار الأرحام فى بطون الأمهات ، والدار الثانية هى دار الدنيا ، بما فيها من خير وشر أو سعادة وشقاء ، والدار الثالثة هى دار البرزخ ، أو دار القبر ، والدار الرابعة هى دار القرار ، أى الدار الآخرة ، دار الجنة والنار . والدار الأولى وهى دار الرحم تذكرنا بقول الله جل جلاله : « وهو الذى يصوركم فى الأرحام كيف شاء » وقوله : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام

---

(١) الجمعة ٧ ربيع الآخر سنة ١٣٩٣ هـ ١١ مايو سنة ١٩٧٣ م .

وما تزداد وكل شئ عنده بمقدار » وقوله « يخلقكم فى بطون أمهاتهم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث » وهى ظلمة الكيس الذى يغلف الجنين ، وظلمة الرحم الذى يستقر فيه هذا الكيس ، وظلمة البطن الذى يستقر فيه الرحم ، ومن داخل هذه الظلمات الثلاث يتنقل القوى القدير بسلالة من طين إلى نطفة فى قرار مكين ، فتصبح النطفة علقة ، ثم مضغة ، ثم عظاما ، ثم تكسى العظام لحماً ، ثم ينشئه الله خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ، ومن أعماق هذا المكان الحساس الضيق يخرج الإنسان إلى الحياة واسع الأمل فسيح الرجاء شديد الحرص على المتاع وعلى الحياة كما قال رسول الله « لو كان لإبن آدم واد من ذهب لتمنى معه الثانى ، ولو كان معه الثانى لتمنى معه الثالث ، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب » . ولا شك أن دار الرحم تذكر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد — بقدرة الله وعظمته ، وتجلى أمامنا الدليل الساطع على أنه سبحانه هو الخالق من العدم والمبدع لكل كائن ، وذلك مما يقوى الإيمان ويوطد اليقين : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ؟

والدار الثانية هى دار الدنيا العريضة الواسعة ، بما فيها من إنسان وحيوان ونبات وجماد ، وبما فيها من أشجار وأزهار وثمار ، وأنهار وبحار وأطيار ، وهى دار ضيافة موقوتة ، وطريق اختبار وابتلاء يجتمع فيها الطيب والخبيث بالشر ، والفضيلة بالرزيلة ، والهدى بالضلال : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » والذكى اللبيب العاقل من فاز بين هذا وذاك ، وأثر أن يعتدل على صراط ربه وهدى خالقه ، ولذلك يقول الحق لنبيه : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً » . وهذه الدار الثانية ترينا مظاهر النعيم وشواهد الفضل ، وتذكرنا

بأن الله تبارك وتعالى هو الذى سخر للانسان ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ، وهو الذى أنعم عليه بما لا يستطيع إنكاره ولا يستكمل شكرانه : « الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا ألا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ، ولا تخسروا الميزان ، والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف والريحان فبأى آلاء ربكما تكذبان » ؟ .

والدار الثالثة للانسان هى دار القبر ، أو دار البرزخ والبرزخ فى الأصل هو الحاجز أو الحد بين الشيئين ، ويراد به هنا ما بين الموت والبعث ، فالإنسان بعد أن طال وجال ، وتباهى بنفسه واستطال ، وتقلب فيما تقلب فيه من أحوال وأعمال — يأتيه أجله المحتوم : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » ؛ ويفضى إلى قبره الضيق ، وكأنه تذكير بما كان فيه من دار الأرحام الضيقة ذات الظلمات الثلاث ، وتمثل دار البرزخ قنطرة الانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء ، وهى أشبه بمقدمة لما بعدها من ثواب أو عقاب ، ولذلك قال الحق جل جلاله : « كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » . ويقول سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام : « القبر إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النار » . فمن صلحت داره الثانية وهى الدنيا صلحت حاله فى قبره ، فهو يتقلب فى رياض من النعيم التى لا ندرك اليوم حقيقتها ولا سعتها ، حتى يلقى الله الذى أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » . ومن ساء عمله وانحرف فى دنياه وضل مع هواه ، فإن داره الثالثة — دار القبر — تكون عليه وبالا

وبلاء ، حتى يلقى الله فيوفيه حسابه وعقابه ، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله عن آل فرعون : « النار يعرضون عليها غدويا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » .

ثم تأتى الدار الرابعة الخاتمة : وهى الدار الآخرة ، دار الحساب والجزاء دار الثواب والعقاب ، وهى ذات جناحين ، فهى إما جنة وصفها القرآن بأنها عقبى الدار ، وأنها دار السلام ، وأنها دار المقامة ، وأنها دار النعيم ، وإما نار وصفها بأنها دار البوار وبئس القرار ، وهى دار قائمة على أدق حساب ونظام : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا نظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » ، « ووضع الكتاب فترى المجربين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » . وقد ضمن الله جل جلاله نعيم هذه الدار للأخيار الأبرار : تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين »، والعجيب أن الله تبارك وتعالى قد ربط بين الدار الثانية والدار الرابعة ، بين الدنيا والآخرة ، فلم يحرم الله عباده من نعيم الدنيا ، وضمن لهم نعيم الآخرة إذا اعتدلوا فى الدنيا ، يقول الحق : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا » . وقال رسول الله ، « ليس خيركم من عمل لأخراه وترك دنياه ، ولا من عمل لدنياه وترك أخراه ، ولكن خيركم من عمل لأخراه ودنياه » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن ضيق الإنسان بالحياة والأحياء هو الذى جعله يفزع إلى الحديث عن

دار الأرحام ودار الدنيا ودار البرزخ ودار البقاء ، ولذلك لم أحدثكم عن مذابح لبنان التى غطت على مذابح المسلمين فى الفليبين ، ولا أحدثكم عن الصهيونية التى ظلت تخرج لسانها مرات ومرات خلال الأيام الأخيرة ساخرة من العرب والمسلمين ، لأن هؤلاء المغفلين - إلا من رحم الله - يقومون الآن للصهيونية بأعظم الخدمات دون مقابل ، استغفر الله بل بمقابل هو أن تحتل الصهيونية ديارهم وتجسم عارهم وتضيع ثأرهم ، ولم أحدثكم عن المؤامرات الصليبية الماكرة المحكمة الإذلال المسلمين أو القضاء على دين الإسلام فليت الأرحام تدفع إلى الحياة بجيل أنظف من أجيال ، وما ذلك على الله بعزيز . أقول قولى هذا ، واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق مخلصين يستجب لكم .

بين اللســان والأذنين[1]

الحمد لله عز وجل هو الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، وهو المحصى لأعمال عباده وأقوالهم فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى » . نشهد أن لا إله إلا الله يسمع ويرى وهو رب الآيات الكبرى ، ونشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من اهتدى بطريقه المثلى ، « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى » . فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى دوحته الزكية ، وعصبته القوية الظاهرة ، وأتباعه العاملين للأولى والآخرة ، « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

نشأت اللغة أول ما نشأت ليستعملها الإنسان عند الضرورة والحاجة ، وليقتصر فيها على المقدار اللازم منها ، يجوع فيطلب الطعام ، ويعطش فيطلب الماء ، ويريد شخصاً فينادى عليه ، ويحس بخطر فيحذر منه ، وهكذا ، ولكن الناس على مرور الأجيال والأيام ، أساءوا استعمال النطق والكلام ، فصاروا « يلتون ويعجنون » ، ويلوون ألسنتهم فى أفواههم بسبب وبغير سبب ، ويثرثرون ويصخبون عند المناسبة وعند انعدامها ، حتى أصبحت أمنية الكثيرين الذين ضاقوا بالكلام والمتكلمين ، وضجوا من الثرثرة والثرثارين ، أن يجدوا لهم مهرباً عن هؤلاء وهؤلاء ، ولكن كيف السبيل والمرء يقضى عليه أن يقبل ما لا يرتضيه ، وأن يصبر على ما يعانيه ويعاديه ، وشتان بين ما يكون وبين ما يتمنى المرء أن يكون ؟ . .

---

(١) الجمعة ٢٩ جمادى الآخرة سنة ١٩٧٠ هـ ٦ ابريل سنة ١٩٥١ م

ولو تدبر أولئك فى أمر نفوسهم لأدركوا أن اللسان آلة تستخدم عند اللزوم ، وأن اللغة وسيلة يتذرع بها صاحبها إلى قضاء أمر أو بلوغ غاية ؛ وكأن الله سبحانه خلق للانسان لساناً واحداً كما خلق له قلباً واحداً وعقلا واحداً ، ليشعره بأن اللسان يجب أن يكون فى الضبط والإحكام ، وفى علو القيمة وسمو الرتبة ، كالعقل والقلب سواء بسواء ، لا أن يكون للاستعمال المستمر أو الحركة البدائية كالقدمين واليدين والعينين ، وكأن الله سبحانه قد أعطى الإنسان رجلين ، لأن الرجل تحتاج إلى أخت معها ليوجد التوازن والتعاون ، ولأنه لو أعطاه رجلا واحدة لكان سيره وثبا وقفزا ، ولما استطاع الذهاب والإياب كالمعتاد ؛ وأعطاه يدين لأن اليد تستلزم أخرى ليستطيعا إمساك الأشياء والقبض عليها ، ولتكون اليمنى لرفيع الأمور وطاهر الأشياء ، وتكون اليسرى للخسيس من الحاجات ، ولأن اليد لا تصفق وحدها كما يقولون ، وأعطاه عينين تقرآن وتبصران وتتجهان فى سهولة ذات اليمين وذات الشمال ، وبذلك يمكنه إدامة النظر واستخدامه دون إجهاد ، وأعطاه أذنين ليطيل بهما الاستماع إلى ما يفيد وينفع ، ولكى يلتقط بإحداهما ما يفوت الأخرى ، ولكنه مع هذا كله أعطاه لساناً واحداً ليكفيه القليل من الكلام ، ولا يسرف فى استخدامه كغيره من متعدد الأعضاء ، أو بعبارة أخرى : أعطاه الله لساناً واحداً مع أنه أعطاه أذنين ليوحى إليه من طرف خفى بأن الواجب عليه أن يسمع ضعف ما يقول ، فإذا تكلم ساعة سمع ساعتين ، وهكذا ، ولكن الكثير من الناس سدوا آذانهم فلا يسمعون ولا ينتصحون ، وأطلقوا أعنة ألسنتهم فغدت عقارب لا تكف عن اللديغ ، أو ثعابين لا تمل الحركة ، أو سياطاً لا تنقطع عن الفرقعة والطنين ، فتراهم يفرضون كلامهم على الناس فى الغث والسمين ، وفى الحق والباطل ، وفى المشروع والممنوع ، ولكنهم لا يحسنون الاستماع ، بل لا يريدون أن يستمعوا ، وإذا سايرتهم

أو لا ينتهم أبوا أن يقتنعوا ، ولنا أن ندرى ماذا كان يحدث لو أن الله وضع فى فم كل واحد من هؤلاء لسانين ، مع أننا لم نطق بلايا لسان واحد ؟ . . لو حدث هذا لكانت الداهية الدهياء ، ولكن الله لطيف بعباده الضعفاء ! . .

ولو أن هؤلاء « اللتاتين » يتكلمون فى خير ، أو يشرحون فى دعوة ، أو يحضون على معروف ، لحمدنا لهم أمرهم ، مع أن خير الكلام ما قل ودل ، والبلاغة الإيجاز ، ومن الإيجاز ما هو إعجاز ، ولكن هؤلاء فى الأعم الأغلب لا يتحدثون إلا فى فضول الكلام وفاسق الحديث من السباب والشتائم ، والسخرية والاستهزاء ، والشقاق والنفاق ، وطعن الأعراض وفرض اللحوم البشرية بلا استحياء . . . وهل ابتليت يوماً باستماع ما يدور من جدل سقيم وحديث باطل وحوار أثيم فى المجالس والجماعات ، وفى محيط الأسر والعائلات ؟ لكأن هؤلاء لم يسمعوا قول الحق تبارك وتعالى : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » ، وكأنهم لم يسمعوا أن عقبة بن عامر قال : يا رسول الله ، ما النجاة ؟ قال : أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك ! . وأن الرسول قال أيضاً : وهل يكب الناس فى النار على أنوفهم إلا حصائد ألسنتهم . . . كأنهم لم يسمعوا هذا فانطلقوا بلا حساب يستخدمون تلك الآلة الصغيرة الخطيرة التى تسمى اللسان فيما يذهب المروءة ويخدش الشرف ، ويقطع أواصر الأخوة والصفاء بين بنى الإنسان ! . .

فلنسأل أنفسنا عما فى مجالنا من علم صادق ينتفع به ، أو توجيه كريم نجتمع عليه ، أو حديث رفيع نتمعن فيه ؟ . . وأين نظام الكلام وحسن الاستماع فى هذه المجالس ؟ . يتحدث المتحدث فيسارع الآخر بالاعتراض أو الإعراض ، وقد يسبق بحكم أو تعليق قبل أن تتم جملة المتحدث الأولى ، وقد يتحدث ثلاثة أو أربعة دفعة واحدة ، وكل منهم يطمع ويلح فى أن يسمع

له الآخرون ، وقد تستبد شهوة الكلام بخفيف عقل أو ثقيل ظل أو سليط لسان أو وضيع أسلوب ، فلا يمكن سواه من عرض رأيه أو إبداء حجته ، وهكذا تمر الساعات دون أن تقضى الواجبات ، ويخرج الجمع من المجلس الطويل الثقيل بلا اتفاق على رأى ، أو اتحاد فى اتجاه ، ولو عرف كل منهم متى يحسن أن يتكلم ، ومتى يحسن أن يسكت ، ومتى يحسن أن يستمع لاستقامت الأحوال وظهرت الرجال . . .

لقد أوصى الله الحكيم العليم رسوله أن يكون نطقه ذكراً وصمته فكراً ونظره عبرا ، فجعل له ثلاثة أحوال هى النطق والصمت والنظر ، ولكل منها بطبيعة الحال نصيب ، فليكن للنطق مقدار الثلث فى هذا المجال ، لا أن يستبد بكل الأوقات والحالات ، فيجعل المرء كالثرثار المخبول ، أو الحاكى الذى لا يفقه ما يقول ! . . ولقد أدبنا القرآن فى كثير من آياته بأدب الاستماع وجعله شعار الخيار الأبرار ، فهو يقول : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » ويقول : « ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون » ويقول : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » . وهو أيضاً يقول : « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقه أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيما » . ويقول رسوله الكريم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» . فهل من الخير أن ترائى شخصاً بمديحك ما دام موجوداً فإذا غاب أنشبت مقاريضك فى لحمه وعرضه ؟ . وهل من الخير أن تطلق لسانك فتقصى ما تعرف وتنشر ما ينطوى من أسرار البيوت والعائلات ؟ . وهل من الخير أن تتطاول بالذم والقدح على الشرفاء ؟ وهل من الخير أن تعد الوعود الطنانة الرنانة ثم تكذب فيها ؟ . وهل من الخير أن تعتاد الولوع فى العوارت وأحاديث المجانة والرذيلة بلا خجل أو حياء ؟ ! .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

أحسنوا أن تستمعوا كما تحسنون أن تنطقوا ، ورب مستمع خير من ناطق وأحكموا رباط هذا الثعبان المسمى باللسان ، فإنه قتال إذا أطلق بلا عقال ، وليكن حديثكم مما تحبون أن تروه فى صحائف أعمالكم ، وتذكروا أن الحديث يقول : « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم وقوعاً فى الباطل » . . . ورب كلمة سوء هوت بصاحبها فى نار جهنم ، ولأن تصمتوا أو تقولوا طيباً فتفوزوا ، خير ألف مرة من أن تنطقوا بهجر أو نكر فتؤخذوا وتندموا وتقولوا « وكنا نخوض مع الخائضين » ولكن حيث لا ينفع الندم من الآثمين واتقوا الله . . .

سب الدين[1]

الحمد لله عز وجل ، يقول الحق وهو يهدى السبيل . أشهد أن لا إله إلا الله ، ألزم عباده كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ، وكان الله بكل شيء عليماً . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، طاب قوله وحسن عمله ، فكان خير مثل للمؤمنين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

هناك من الكبائر التى تقع بين الناس كبائر تبلغ غاية الفحش والنكر ، ولكن تكرارها أو تعود الناس إتيانها ومشاهدتها ، يجعلهم بمضى المدة يسكتون عليها ، وكأنهم يعدونها ظاهرة من الظواهر التى لا مفر منها ، أو علة مزمنة دائمة لا سبيل للقضاء عليها ، أو مرضاً ملازماً باقياً لا يفكرون فى علاجه أو البعد عنه ، وبذلك تهون فى أنظارهم بشاعة الإثم وفظاعة المنكر ، مع أن الله تعالى يحذر من مثل هذا حين يقول عن بعض كبار الذنوب : « يحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم » . ولقد فشت فينا خلال السنوات الأخيرة رذيلة قذرة وقحة متبجحة ، لا ندرى كيف سرت إلينا ، ثم تمكنت منا ، ثم استحكمت فينا ، فعرضتنا لغضب الله ونقمته ووعيده ، وتلك الرذيلة هى عادة سب الدين ، فقد أصبحت تسمع هذا السب علناً فى كل مكان : فى البيت والشارع والديوان ، وأصبحت تسمعه من كبار وصغار ، ومن نساء

---

(١) الجمعة ٨ شعبان سنة ١٣٨٧ ١٠ نوفمبر سنة ١٩٦٧ م .

ورجال ، ومن مثقفين وجاهلين ، وأصبح من المتكرر المألوف أن تسمع حماراً ينهق فيقول لغيره : « يلعن دينك » أو « يلعن دينك ودين أمك ودين أبوك كمان » أو يعمم فيقول : « يلعن دينكم » أو « يلعن دين الناس كلها » إلى آخر هذه العبارات السافلة المنحطة التى لا تدل على إنسانية أو كرامة أو إحساس .

ولقد بدأ هؤلاء الحمير ضلالهم وانحرافهم على مراحل ، بدأوا بإهمال الفرائض العملية فى الدين ، ثم تركوا الكلام الطيب والرد الحسن فى الخطاب ، ثم استسهلوا كلمات الشتم والسباب ، ثم انتقلوا إلى ذكر العورات ، ثم انتقلوا إلى لعن الآباء والأمهات ثم وصلوا إلى لعن الدين وسبه ، ولسنا ندرى ما بجد بعد ذلك من تنقلات المتحللين الفاسقين : « أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار » . أو لم يكفهم أنهم أهملوا الفروض والواجبات ، وعطلوا الطاعات والقربات ، ورتعوا فى الآثام والسيئات ، ونسبوا أنفسهم فى شهادة الميلاد إلى الإسلام ، ثم كالوا له الطعنات والضربات ، وكأنهم أمنوا أن يكون هناك من يغير منكرهم باليد ، واستخفوا بمن ينكر عليهم باللسان ، ولم يبالوا بأن يكون هناك من ينكر عليهم بالقلب ، لأنهم فقدوا كل ذرة من ذرات الحياء ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » .

والعجيب أن الإسلام ينهانا عن سب الدين ، حتى ولو كان ديناً مغايراً لديننا ، لأن المسلم يجب أن يكون عف اللسان وقور الكلام ، يدعو إلى دينه بالحكمة والرحمة وطيب القول ، والله تعالى يقول : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » » ويقول : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هىأحسن » ويقول : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم » . أى لا تسبوا أيها المؤمنون معبودات المشركين

الكافرين ، فيترتب على ذلك سبهم الله سبحانه وتعالى عدواناً منهم وتجاوزا إلى الشتائم التى تغيظ المؤمنين ، وكأن هذا يذكرنا بمن يتسبب فى شتم أبويه حينما يشتم أبوى غيره ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من الكبائر أن يسب الرجل أبويه . قالوا : يا رسول الله ، هل يشتم الرجل والديه؟ قال يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه . وإذا كان الإنسان المتحلل يسب دينه هو فهذا أوقح وأفحش . لأنه يجرح شعور من وجه إليه السب ، ويجرح شعور كل المسلمين ، ويطعن نفسه لأنه يزعم أنه على هـــذا الدين ومع ذلك يلعنه ويسبه ، وهكذا ترون جريمة لعن الدين تتضمن جرائم ، فجريمة نحو الذات ، وجريمة نحو الآخرين ، وجريمة نحو الدين ، وجريمة أخرى أشنع وأفظع ، وهى جريمة التطاول على مقام الله ورب العالمين ، لأن من لعن دين الله ، فقد سب الله ، ومن سب الله فقد باء بغضب من الله فى أولاه وأخراه : « ألا لعنة الله على الظالمين » .

وقد يكون من حقنا هنا أن نتساءل : هل يجرؤ هذا الدنئ المتطاول على دين الله تعالى أن يسب نظاماً وضعياً للدولة ؟ . الجواب لا . هل يستطيع أن يسب كبيراً له مكانته وقدرته ؟ . الجواب لا . هل يستطيع أن يسب أحداً يرجوه أو يخافه ؟ . الجواب لا . ولكن هذا الحيوان لا يجد فى نفسه غضاضة من أن يلعن دين الله جل جلاله ، وكأنه يعلم أنه ليس هناك من يردعه أو يوجعه فاستباح الحمى المصون ، وانطلق انطلاق المجنون ، يلعن الدين ويسبه ، وهو لا يسيء بهذا إلى نفسه فقط ، بل يطعن كل متدين فى أشرف ما يعتز به وهو إيمانه ويقينه . والمؤسف أن بعض هؤلاء الحمير يحاولون التظرف فى وقاحة وسفالة فترونهم يقولون فى سبهم لغيرهم : « يلعن ديكك» فإذا راجعت أحدهم قال لك : أنا لعنت الديك وليس الدين . وهذا لا يبعده عن الإثم والذنب ،

لأن عبارته تذكر بلعن الدين وتحضره فى الذهن ، وهذا هو حجة الإسلام الإمام الغزالى يذكر أنه لو جلس اثنان يشربان ماء قراحاً أو شراباً حلالا مع من يشربان الخمر ، فاتخذا كأسين من كئوس الخمر ، وقرعا الكأسين عند الشرب ، لكان ذلك حراماً ينبغى للمسلم أن يحذره ، لأن من تشبه بقوم فهو منهم ، ومن عرض نفسه لسوء الظن لوم على الناس إذا أساءوا به الظنون « وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : لا أتصور بطبيعة الحال أن واحداً منكم يسب الدين أو يلعنه ، لأنكم بقايا الخير فى حنايا المجتمع ، وخطواتكم إلى بيوت الله ، وحرصكم على الصلاة ، واستمساككم بدينكم بين من لا يرعون للدين حرمة ولا كرامة ، كل هذا يدل على أنكم لا ترضون أبداً بالتطاول على حمى دينكم ، ولا السخرية من عقيدتكم . ولكن الذى يرجى هو أن يبذل كل منكم ما يستطيع من نصح ونقد وتوجيه لمقاومة هذه الآفة القذرة السافلة بين من لكم عليهم ولاية من أبناء أو نساء أو أقارب أو مرؤسين ، ومن واجب المسئولين فى المجتمع — قبل ذلك وبعده — أن يعالجوا هذا الوباء ، لأنه جريمة يحرمها الدين والقانون ، والله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

انتفاضة الخوف[1]

الحمد لله عز وجل ، كتب الأمان للخائفين منه ، وجعل الهوان للغافلين عنه : « فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . أشهد أن لا إله. إلا الله ، يذكر ويحذر ، ويعد وينذر : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خشي ربه فأكرمه ، واعتز به فما أسلمه ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى الطاهرين من ذريته ، والموقنين من صحابته ، والمؤمنين من أهل ملته : « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يقول ربكم جل جلاله : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ، ومقتضى هذه العبودية لله أن يتمسك الناس على الدوام بصراطه المستقيم ، وأن يتقوه كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه فقد قال : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » . وقد فسر ابن مسعود حق التقوى فى هذه الآية بقوله : « هو أن يطاع الله فلا يعصى ، ويشكر فلا يكفر ، ويذكر فلا ينسى » ، ويروى أنه لما نزلت هذه الآية صعب أمرها على المسلمين فأجهدوا أنفسهم فى الطاعة ، واشتدوا عليها فى العبادة ليبلغوا حق التقوى لله — وما أعظمه من حق — فتلطف الله بعباده وأنزل قوله : « فاتقوا الله ما استطعتم » .

والواقع أنه لو أراد العبد أن يتقى ربه حق تقواه ، ويخشاه حق خشيته ،

---

(١) الجمعة ٢٦ ربيع الأول سنة ١٣٧٨ هـ ١٠ أكتوبر ١٩٥٨ م .

لصعب عليه المراد ، ولعل هذا هو الذى جعل عمر بن عبد العزيز يقول عن الغفلة التى تعرض للانسان أحياناً : « إنما جعل الله هذه الغفلة فى قلوب العباد رحمة بهم كيلا يموتوا من خشية الله تعالى . . . ولكن المسلم مطالب — فى حدود استطاعته — بأن يقبل على ربه ويستجيب لأمره ، ويطيعه قدر طاقته ، ويخاف سطوة عذابه ونقمته : ولذلك يقول القرآن : « إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم » ويقول : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً » . وإذا كان السابقون قد حاولوا أن يبلغوا القمة فى الخشية والتقوى والإقبال على الله ، فنحن قد صرنا على النقيض منهم ، نزداد كل يوم استخفافاً بحق الله ، وإعراضاً عن حماه ، بل أصبح كثيرون يخشون الذين يرغبون فيما عندهم ، أو يرهبون منهم أكثر مما يخشون جبار السموات والأرض ، فهم يتحملون ما يتحملون فى سبيل المجاملات والمخادعات ، وفنون الرياء والنفاق ، وأساليب التضليل التموية ، ولا يفكرون فى أن يتحملوا قليلا من تعب ، أو نصيباً من مشقة فى أداء طاعة ، أو تحرز من إثم ، مع أن الحق تبارك وتعالى يقول : « فلا تخشوا الناس واخشون » ويقول « تخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » .

وكان من نتيجة هذا الإعراض الفاحش عن حوافز المراقبة والمحاسبة والتقوى أن الإنسان أصبح يقدم عليه من سيئات ومنكرات ، بلا تردد أو خوف ، أو بلا مبالاة أو مداراة ، مع أن السابقين من المؤمنين كانوا « إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » ، وإذا أخطأت منهم يد فامتدت إلى حرام ، أو انحرفت بهم قدم فسعت بهم إلى محظور ، اقشعرت جلودهم ، وانتفضوا انتفاضة الخوف الذى يجعلهم يندمون على ما فعلوا ، وينصرفون عما هموا به متذكرين أن الله تبارك وتعالى الذى وصف

نفسه بصفات الجمال والرحمة والمغفرة هو الذى وصف نفسه فى الوقت ذاته بصفات الجلال والرهبة والانتقام : « نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابى هو العذاب الأليم » . « وإن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم » « لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً » .

واستشعار عاطفة الخوف من الله والخشية من عقابه مكرمة يتحلى بها الأوفياء من أهل التقى والصلاح ، فليس الخوف أمراً مقصوراً على مواطن الخطأ والزلل ، بل إن المؤمن يسير على الطريق القويم ، ويتحلى بالخلق الكريم ، ومع ذلك يظل قلبه ممتلئاً بالهيبة من الله ، والرهبة من غضبه ، حتى لا يغتر بخير قدمه ، ولا يزهو بجميل فعله ، لئلا يمحق الاغترار والازدهار ما قدم وفعل ، وينقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين ... وهذا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه كان أعبد الناس وأتقاهم ، ومع ذلك كان أشدهم خوفاً وأخشاهم ، ولقد كان يدخل الصلاة فإذا لجوفه أزيز (أى غليان) كأزيز المرجل من البكاء ، ولقد كان يسمع القرآن من بعض صحابته فتسيل دموعه ، وهو القائل : « شيبتنى هود وأخواتها » ! [1] . . وهذا عمر الفاروق كان يتقرب إلى الله بصلاحه وإصلاحه ، ومع ذلك كان شديد الخوف والخشية ، وكان يدعو ربه فيقول : « اللهم إنى أعوذ بك أن تأخذنى على غرة ، أو تتركنى فى غفلة ، أو تجعلنى من الجاهلين » . ولقد كان أبو بكر من شدة خوفه ورهبته من غضب ربه يقول : « لو كانت رجلى اليمنى داخل الجنة ورجلى اليسرى خارجها لما أمنت مكر الله ، ولخشيت أن أعود إلى النار » . وهذه فاطمة بنت عبد الملك تحدثنا عن زوجها عمر بن عبد العزيز فتقول : « لقد كان يذكر الله فى فراشه فينتفض انتفاضة العصفور من شدة الخوف ، حتى نقول : ليصبحن الناس ولا خليفة لهم » . وإذا كان

(١) روى أن أخواتها هى : سور الواقعة ، والنبأ والشمس .

هؤلاء الأعلام قد خافوا ربهم هذا الخوف وهم على ما هم عليه من الطهارة والخير والاستقامة ، فماذا يكون أمرنا نحن الراتعين فى مراتع الأهواء والشهوات الذين كدنا ننسى هذه الانتفاضة التى تذكرنا بعقاب الله ، وهذه القشعريرة التى تردنا إلى رحاب الله ؟ . . .

ألا ما أشد حاجتنا إلى أن نخاف ونخشى . . . لا نخاف إنساناً أو عدواً ، ولا نخشى فقراً أو مرضاً ، وإنما نخاف الله رب العالمين ، ونخشى حساب يوم الدين « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » . . . ولعل أحوج الناس إلى انتفاضة الخوف من الله هم أولئك الذين يتصلون فى حياتهم وأعمالهم بجموع الناس ، فهذا الموظف الذى يهرع الناس إليه طالبين حقوقهم وقضاء مصالحهم ، وهو يعرض عنهم ويتخلص منهم ، ويلهو بأحاديث مع أصدقائه أو صديقاته ، ويقتل الوقت فى التدخين وتناول المشروبات ، والسؤال عما يهمه من الدرجات والعلاوات ، يعقد لأصحاب الحاجات أمورهم ، ويملأ الطريق أمامهم بالأشواك والعقبات ، ما أحوج هذا إلى انتفاضة الخوف وقشعريرة الخشية من الله مالك الملك سبحانه ، وهذا الطبيب الذى يتحكم فى علل الناس وأمراضهم ، فتكالب على المال ، ويطيل أمد العلاج ، وقد يرى المريض فى أشد حالات الخطر ، فلا تثور عنده الرحمة ليسارع بعلاجه أولا ، بل يظل يفاوض على الأجر ويساوم ، حتى ولو باعت زوجة المريض من أجل ذلك حليها أو متاع بيتها ؛ والمرتشى الذى مرنت يده على أخذ الرشوة فلا يقضى أمراً ولا يعمل عملا إلا إذا امتلأت يده من السحت الحرام ، الأثيم الجرىء المتهجم على الأعراض والحرمات ، ورجل الدين الذى يضلل ويحرف ، ويأكل الدنيا باسم الدين ، هؤلاء وأمثالهم فى أشد الحاجة إلى انتفاضة خوف تذكرهم بالله ، وتخوفهم من الحساب والعقاب : « ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين » ؟! .

هذا عمر بن عبد العزيز قرأ قوله تعالى : « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش » فارتعش وارتجف ، وجعل ينتفض خوفاً ، ويجول فى أنحاء داره طول الليل وهو يقول : ويلى من يوم يكون الناس فيه كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش !...

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . .

لقد كان صحابة رسول الله يقولون للناس من بعده : « إنكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر ، كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر » . يقولون هذا فى الصدر الأول . فكيف لو أدركوا زماننا هذا ؟ . لقد أصبح الإنسان يتهجم على الآثام بلا تورع ، ويتوغل فى المنكرات بلا احتشام ، ولا يسائل نفسه عن حلال أو حرام ، فلنستعن الله وهو أكرم مسئول وأفضل مأمول فى أن يجعلنا من الذين يخشون ربهم وهم من الساعة مشفقون ، وأن يجعلنا ممن يشعرون بانتفاضة الخوف من الله حتى نفوز ونسعد فمن المنسوب إلى الرسول قوله : « إذا اقشعر قلب المؤمن خشية الله تحاتت عنه خطاياه (أى تساقطت) كما يتحات من الشجرة ورقها » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ! . . .

حــول الغنــاء[1]

الحمد لله عز وجل ، هو أحكم الحاكمين وأصدق القائلين : « ومن أصدق من الله حديثاً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، زان الأخيار من عباده بحسن القول والعمل : « وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أوتى جوامع الكلم ، وقاد خير الأمم ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الطاهرين وأصحابه المخاصين وأتباعه الصادقين ؛ « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن الكلمة سواء أكانت مكتوبة أم منطوقة لها قوتها وتأثيرها ، فإن كانت طيبة جميلة طاب أثرها وثمرها ، وإن كانت سيئة قبيحة ساءت نتيجتها وعاقبتها والله تبارك وتعالى يقول : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » . وقد تكون الكلمة المنطوقة أقوى تأثيراً من الكلمة المكتوبة ، لأن المنطوقة تجمع بين تأثيرها الذاتى وتأثير قائلها المنفعل بها ، فإذا كانت هذه الكلمة منظومة فى شعر زاد تأثيرها بوزنها واتساقها ، والرسول يقول : « إن من الشعر لحكمة » ، فإذا

---

(١) الجمعة ٣ جمادى الأولى سنة ١٣٨١ هـ ١٣ أكتوبر سنة ١٩٦١م

قيلت هذه الكلمة الموزونة بصوت عذب جميل ، كما فى الغناء الرائع ، تضاعف أثرها وتزايد خطرها ، ولذلك روى الأوائل أنهم كانوا يعالجون المريض بعلة السوداء بالصوت الطيب فيرجع إلى حال صحته ، والطفل يبكى فى المهد لوجود ألم ، فيسمع الصوت الجميل فيسكت وينام ، بل إن الصوت الجميل يؤثر فى الحيوان الأعجم ، وقد ألف العرب منذ أقدم عصورهم نظام « الحداء » وهو الغناء للابل حتى تهتز وتطرب ، فتقوى وتنشط فى المسير ، ولقد يحدو الحادى للابل فتظل تمشى دون إحساس بالألم حتى تمرض أو تموت ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم لأنجشة حادى إبله : « يا أنجشة ، رفقاً بالقوارير » يريد بذلك ألا يسرف فى حدائه وغنائه ، حتى لا تسرع الإبل فتعنف حركتها فتهتز النساء فوقها اهتزازاً مؤلماً فيتعبن منه ، وقد ذكر الإمام الغزالى فى كتابه « الإحياء » أنه « من لم يحركه الربيع وأزهاره ، والعود وأوتاره ، فهو فاسد المزاج ، ليس له علاج » . وعندما قال الله تعالى : « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » فهمنا منه أن الصوت القبيح يؤذى وينفر ، وفهمنا منه أيضاً أن الصوت الجميل يجذب ويؤثر ، ولله فى خلقه شئون .

والغناء فى الواقع سلاح ذو حدين ، فقد تستعمله على وضع فيفيد وينفع ويوجه ، وقد تستعمله على وجه آخر فيضر ويفسد ، وإذا كنا نجد فى النصوص الدينية أقوالا كثيرة بعضها يحمل على الغناء حملة واضحة ، وبعضها يؤيده ويدعو إليه ، فليس هناك تناقض بين هذه الأقوال ، ويمكن التوفيق بينها بيسر وسهولة ، لأن بعضها يكمل البعض الآخر ، فالذين حملوا على الغناء وحاربوه من رجال الإسلام إنما حاربوا ما يسبب ضرراً أو يحدث خطراً ، من كل غناء تافه أو مائع أو خليع أو وقح العبارة أو مخنث الأداء ، والذين أيدوا الغناء أو أجازوه قد أرادوا منه كل غناء حميد مشكور ، يثير عواطف الخير والبر ، ونوازع السمو والفضيلة فى نفس الإنسان .

والذى لا جدال فيه أن أكثر الأغانى المعاصرة التى تتردد على لهوات المتحللين من المغنين والمغنيات تعد من النوع الذى يستلزم المقاومة ويحتاج إلى الإصلاح لأننا لا نجد فيه عفة اللفظ ولا قوة الأداء ولا تماسك الصوت ؛ بل نجد فيه العبارة المكشوفة والمعنى المخجل واللحن المتخاذل والأداء المتميع ، ولقد سبق للعلماء والخطباء فى مناسبات كثيرة أن حملوا على الأغانى الخليعة المائعة ، ولكن هذه الحملات كانت لا تحقق أثرها ولا تؤتى ثمرها ، لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، ولأن أصوات هؤلاء إنما تتردد فى المساجد والمعابد ومجلات الإسلام وجمعياته ، ويحال بينها وبين الذيوع والانتشار فى المجالات العامة ، ولأن الصحافة كانت تحبذ هذه الألوان المائعة من الأغانى وكانت تمجد المغنيات والمغنين الذين يتخلعون أو يتميعون ، ولكن بعض الصحف أحست أخيراً بما فى الموضوع من خطر ، فأخذت تدعو إلى محاربة الأغانى الخليعة ، وهذا برهان على أن الله تبارك وتعالى يأخذ بنواصى خلقه إلى صراط حقه ولو بعد حين .

واللافت للنظر أن أهل الغناء قد دخلوا علينا بالسأم والسقم من كثرة ما غنوا عن الحب الجسدى والهوى المتهالك والصلات الأثيمة بين الرجل والمرأة ، وأعجب العجب أن يسموا هذا حباً ، وأن يوهموا الناس أهذا هو « الحب وحده » ولا شىء سوى هذا يكون حباً فى نظرهم واعتبارهم ، والحب براء من هذا الفهم السقيم العليل ، لأن الحب هو أسمى عاطفة فى الوجود ، وهو أوسع نطاقاً وأسمى رتبة مما يصورون أو يعبرون. لكننا لسنا ندرى : لماذا يقصرون معنى الحب على هذه الرابطة الجسدية أو الصلة الجنسية بين الرجل والمرأة ، مع أن هذه الصلة ليست حباً فى الواقع ، وإنما هى شهوة ورغبة واستجابة لدافع بدنى جنسى ، إذا لم يستقم الإنسان فى إرضائه على طريقة مشروعة أدى إلى أوخم العواقب وأسوأ النتائج ، ونحن باسم الإسلام نسبق

غيرنا فى الدعوة إلى الحب الصحيح السليم ، وإلى الإكثار من الأغانى فى الحب السامى الطهور ، ولكن يجب قبل كل شئ أن نفهم الحب على حقيقته ، وأن نتزهه عن هذا المنحدر الذين انحدروا إليه حينما قصروا الحب على الشهوة الجنسية أو الرغبة البدنية ، بينما توجد ألوان من الحب هى أسمى وأصفى بكثير من هذا اللون المادى التافه ، فهناك حب الله والرسول والوالدين والزوج والزوجة ، والأبناء والبنات ، والإخوة والأخوات ، والأسرة والعائلة ، والوطن والطبيعة ، والفضيلة والمبادئ الإنسانية الكريمة ، وغير ذلك من أنواع الحب الشريفة الطاهرة ، فلماذا لا يعرفون هذه الأنواع من الحب ، ولماذا لا يغنون فيها إن كانوا صادقين حينما يقولون إننا نريد إرضاء العواطف الإنسانية فى صدور السامعين .

نريد منهم أغانى فى حب الله الواحد الأحد ، الذى أبدع السموات والأرض ، وخلق كل شيء فقدره تقديراً فتبارك الله أحسن الخالقين ، ونريد أغانى فى حب الرسول مثل الإنسانية الأعلى الذى قضى حياته مجاهداً فى سبيل الحق ، مناضلا من أجل كرامة الإنسان ، حتى قال فيه ربه : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، ونريد أغانى عن حب الوالدين اللذين تعبا وسهرا وجاهدا جهاد الأبطال فى سبيل الأبناء ، حتى قال الله تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » وقال : « أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير » . ونريد أغانى عن الوطن العزيز الغالى الذى قال فيه الأثر الهلالى : « حب الوطن من الإيمان » ، ونريد أغانى عن حب الطبيعة التى نرى فيها ملكوت السموات والأرض ، والتى تعطينا البرهان على وجود الخالق العظيم ، وقدرته على الخلق والإبداع :

وفى كل شيء لـه آية   تدل على أنه الواحـــد !

ونريد أغانى عن حب الزوج لزوجته وما بينهما من رابطة تباركهما يد الله تعالى حين يقول : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . ونريد أغانى عن حب الأسرة حتى يتعلق الفرد بأسرته تعلق المحب المستهام ، فيحقق قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى » . ونريد أغانى عن حب الأستاذ والمعلم ، حتى تتوثق تلك العلاقة النبيلة الكريمة بين التلميذ ومربيه التى أشار إليها « شوقى » حين قال :

قم للمعلم وفه التبجيــلا كاد المعــلم أن يكون رسولا

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن وسائل الإعلام — وفى طليعتها الراديو والتلفزيون — قد جعلت الأغانى تتردد على الأذان فى الصباح والمساء ، وتدخل البيوت والخدور وكل مكان ، وهناك فى المجتمع رجال ونساء ، وشباب وشواب ، وصبية وأطفال ، وهؤلاء أمانة غالية يجب أن ترعى وتصان ، ولذلك يجب على المسئولين وعلى المغنين وعلى المستمعين أن يتعاونوا جميعاً لتطهير الغناء من عوامل الفساد ومثيرات الفتن ، حتى لا نتعرض لغضب ربنا وحتى لا يقال لنا يوم القيامة : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون » . وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

ذمة ووفاء[1]

الحمد لله عز وجل ، يحب الوفاء ويدعو إليه : « وأوفو بالعهد إن العهد كان مسئولا » ويوصى بالشكر ويثيب عليه : « ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم » . نشهد أن لا إله إلا الله ، أوسع الغافرين وأفضل الشاكرين : « إن ربنا لغفور شكور » . ونشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، حفظ الميثاق وحارب النفاق ، فأعلاه ربه وفضله على العالمين : وكذلك نجزى من شكر » . فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى فروع دوحته وجموع صحبته وأتباع ملته : « فأولئك كان سعيهم مشكوراً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لكل امرىء ذمة ، إذا لم يصنها ويحفظها كان من بين الناس لئيماً وضيعاً . والإنسان إذا لم يرع عهده وميثاقه فقد رجولته واكتسب مهانته . والنعمه إذا لم يقابلها الشكران مع التقدير صارت نقمة ولو بعد حين : « وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » . وكم من شيطان يلقاك ، وأنت مبسوط اليد موفور القوة آمن الحال ، بالوداد والإخاء ، والإقبال والصفاء ، فإذا عرضتك الأقدار يوماً لتجربة أو ابتلاء ، لم يكتف هذا الشيطان بالإعراض بعد الإقبال ، أو بالتقاضى بعد طول الاحتفال ، بل تطوع وتبرع ، فأراك من كفرانه فنوناً ، وكان لهادميك معواناً ؛ وشيوع هذه الأخلاق الدون يفضى إلى تقلص الخير والتداعى إلى الشر ، حتى يقول الأول وقد ضاق بقلة الشكر :

---

(١) الجمعة ١٦ رجب سنة ١٣٧١ هـ الموافق ١١ أبريل سـنة ١٩٥٢م

يزهدنى فى كل خير فعلته ... إلى الناس ما جربت من قلة الشكر

ويأتى الآخر فيزيد فى المعنى شيئاً ، لأنه ازداد بالكفران من الناس بلاء ، فيقول :

يزهدنى فى كل خير فعلته ... إلى الناس ما جربت من كثرة الغدر

ولو أن الأمة التى تنتسب إلى محمد صلوات الله عليه عرفت الوفاء فى صلاتها الفردية والعامة ، فذكرت إحسان المحسن ودافعت عنه ، وتذكرت إساءة المسىء واقتصت منه ، وأقرت بالفضل لذويه قربوا أم ابتعدوا ، واشمأزت من المجرمين علوا أم سفلوا ، لما أصيبت الأمة فى أخلاقها ، ولما ضيمت فى حقوقها .

وإن شئتم فخذوا العبرة من التاريخ . . : لقد كان عهد أحمد بن طولون عهداً مليئاً بالفتن والقلاقل ، والاضطرابات والزلازل ، وكان الجو مناسباً كل المناسبة للغدر والتلون والرشوة والمحسوبية ، وغير ذلك من أساليب الضعة واللؤم ؛ ومع ذلك كان هناك بعض الأحرار ، الذين يحفظون عهدهم ويصونون وعدهم ، ولا يتغيرون بتتابع السراء والضراء ؛ فهذا ابن طولون مثلا كان شاباً يسير فى طريقه ، فرأى غلاماً لأمير المؤمنين يقود دابة عليها نفائس للخليفة ، ثم هجم اللصوص من مكمن يريدون سرقة الدابة بما عليها ، فأسرع ابن طولون وطاردهم ، وأنقذ الغلام والدابة ، وعلم بذلك المستعين فقربه وأكرمه ، ثم تغيرت الأحوال بعد ذلك وتبدلت الأمور ، وتنكرت الدنيا للمستعين ، فخلعه أعداؤه ونفوه إلى مدينة « واسط » بالعراق مهاناً ذليلا ، وأصبح ابن طولون جندياً خاضعاً لسلطان الدولة الجديدة التى رأسها المعتز ، والتى أسندت إلى ابن طولون حراسة المستعين المخلوع فى منفاه ، وبعث الخليفة الطارىء إلى ابن طولون يحرضه على القسوة فى معاملة المستعين ،

ويلمح له بالمنح والعطايا ، ولكن ابن طولون أبى أن يستجيب لتلك الرغبـــة الخسيسة ، وأكرم معاملة المستعين كأنه لا يزال خليفة ، وأباح له التنزه والصيد ، وحفظ له عهده القديم . . .

واغتاظت أم المعتز من ذلك وكانت مستبدة بالأمر يومئذ وكانت تسمى « قبيحة » ولعلها كانت قبيحة أيضاً فى أفعالها ، وأرادت أن تبذل المحاولة الأخيرة للقضاء على المستعين المخلوع بطريق الخداع والإغراء ، فبعثت إلى ابن طولون خطاباً تقول فيه : « إذا قرأت كتابى هذا فجئنى برأس المستعين ، وقد قلدتك (أى وليتك) واسط » . فأبى ابن طولون أن يطيع أم الخليفة الحاكمة بأمرها ، وضرب فى الوفاء مثلا عالياً ، فكتب إليها يقول : « والله لا يرانى الله عز وجل أقتل خليفة له فى عنقى بيعة وأيمان مغلظة أبداً » . . . ويشاء ربك بعد هذا أن يسطع نجم ابن طولون ، وأن يسوق الله إليه ملكاً كبيراً ، لا مدينة « واسط » وحدها ، لأنه صدق ما عاهد الله عليه ، فصدقه الله وعده ، « ومن أوفى بعهده من الله » ؟ . . . ساق الله إليه ملك مصر بخيراتها وبركاتها ، فلم يغتر ابن طولون بالنعمة ، ولم يفته شكرها ، بل ترجم عن فضل الله قائلا : « الحمد لله حمداً كثيراً ، تركنا لله عز وجل شيئاً واحـــداً فعوضنا منه أشياء أعظم وأجود وأحمد عاقبة ، كانت نهاية ما وعدنا به على قتل المستعين تقليد واسط ، فخفنا الله عز وجل فى قتله ، فلم نقتله ، فعوضنا الله جل اسمه مصر وغيرها » . . . وصدق العلى الكبير : « أليس الله بأعلم بالشاكرين » ! .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يقول رسولكم العظيم عليه الصلاة والتسليم : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، يرفع لكل غادر لواء ، فيقال : هذه غدرة فلان

ابن فلان » ! . وإن اللئيم الغادر قد يفوز بعرض عاجل أو مغنم سريع ، ولكن عقارب التأنيب وأشباح الجريمة ستظل تلاحقه وترهقه حتى تسقطه صريعاً ، طال المدى أم قصر ، ومن وراء ذلك لعنة الناس وسبة التاريخ وعقاب الجبار ! . وإن الأمة التي تعرف الغدر أو ترضى بالخيانة والجحود لا تستحق الحياة أو البقاء ، وإن الانسان إذا زين له شيطانه أن يغدر وسم نفسه بميسم الفضيحة والعار ! . فلنعلم أنفسنا الوفاء إفراداً وجماعات ، ولنطبعها على شكر النعمة وحفظ العهد وصيانة الميثاق ، لنستوجب رحمة ربنا ونناى عن عذابه وعقابه : « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد » . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

بوادر فيها بشــائر[١]

الحمد لله عز وجل ، من استمسك بحبله نجا ، ومن أعرض عنه ضل وغوى : « قل إن هدى الله هو الهدى ، وأمرنا لنسلم لرب العالمين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، عز من توكل عليه ودعا إليه : « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، هدى العالمين بشرعة الإيمان واليقين ، فصلوات الله وسلامه عليــه وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغر الميامين ، وأتباعه المهتدين بهديه المبين : « أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

من ثمرات وعينا الحاضر أننا بدأنا ندرك أن المجتمع لا ينهض على الدعائم المادية وحدها ، بل لا بد له من الدعائم الروحية الحافظة من الهدم ، الواقية من الحطم ، وإذا كان للفرد جسم وروح ، وكان الجسم لا يستغنى بوجه من الوجوه عن روحه ، وإلا كان جثه بالية هامدة ، وكانت الروح بحاجة إلى جسم تحل فيه لتقوده وتحركه ، وإلا كانت شيئاً بعيداً عن دنيانا ، لا نبلغه ولا نتمكن من الانتفاع به ، فإن المجتمع كذلك له جسم وروح ، وجسمه هو هذه اللبنات المتتابعة المتلاحقة التى نسميها أفراداً ؛ وأما روحه فهو الإيمان الصادق الذى يجعل المجتمع موصول الأسباب والأواصر بالله ديان العالمين ، ورحمن الدنيا والآخرة ، وقيوم السموات والأرض ، فتجعله هذه الصلة قوياً فى كيانه ، حصيناً فى أخلاقه ، سعيداً فى حياته . . . وقد تبدت فى أفقنا

---

(١) « لم يذكر أستاذنا الدكتور أحمد الشرباصى رحمه الله تاريخا لالقاء هذه الخطبة . . » د. السيد محمد ديب .

بعض الظواهر الطيبة التى تدل على الاتجاه الحميد نحو غرس الجذور السليمة لشجرة الإيمان المورقة فى صدور الأفراد والجماعات ، فقرأنا مثلا أن مؤتمر التعبئة القومية الذى انعقد بالإسكندرية قد قرر جعل الدين مادة أساسية فى مراحل التعليم ، وقرر أن يمتحن طلاب الشهادتين الإعدادية والثانوية فى مادة الدين ، بعد أن كان هؤلاء الطلاب بالأمس يدرسون هذه المادة ولا يمتحنون فيها ، فيتخذون حصتها وسيلة للسخرية منها والتندر عليها وعلى مدرسيها ، ما داموا يعلمون أنهم لن يمتحنوا فيها آخر العام كما عنيت وزارة التربية والتعليم بموضوعات مادة الدين ، ولقد اشتركت فى لجنة مناهج التربية الدينية للمدارس ، وانتهينا إلى منهاج يضم الموضوعات التى يتطلبها التوجيه الدينى القويم للشبيبة الناشئة ، من قرآن وحديث وأحكام وسير رجال ، واعتقد أنه لو طبق هذا المنهاج فى صدق وإخلاص لأوجد أطيب الثمرات المرجوة منه بمشيئة الله . . .

ومن الظواهر الطيبة الجديرة بالذكر والتنويه أنه قد أنشئت فى الجيش إدارة للتوجيه المعنوى الروحى ، يراد منها إعداد مجموعات من الضباط فى مختلف أسلحة الجيش وفروعه يتثقفون ثقافة دينية وروحية ومعنوية تؤهلهم لأن يكونوا طلائع التوجيه المعنوى بين الجنود والضباط ، وهذا من غير شك عمل طيب حميد يستحق التنويه والتمجيد ، كما يستحق من فكر فيه ومهد له وسهر عليه الشكران والثناء ، ونسأل الله تباركت آلاؤه أن ينفسح المدى أمام هذا العمل الروحى الدينى ، حتى نرى التربية الروحية السليمة صبغة كريمة تعم صفوف المجاهدين فى شتى الميادين . . . ولقد دعيت إلى إلقاء سلسلة من المحاضرات على هلاء الضباط فى نواحى التربية الروحية ، وأشهد لقد رأيت خلال إلقائى هذه المحاضرات ضباطاً متعطشين إلى الثقافة الإسلامية

ويثير إعجابهم — وأحياناً دهشتهم — أن يسمعوا ويطلعوا على جوانب رائعة مشرقة فى الإسلام تنظم شئون الفرد والجماعة مادياً ومعنوياً ، فى الحرب والسلم ، وتضع القواعد الراسخة الثابتة للمجتمع القوى الفاضل الذى يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا ويعمل لآخرته كأنه يلقى ربه غداً ، ولقد كانت أسئلة هؤلاء الضباط وتعليقاتهم على المحاضرات تدل بوضوح على رغبتهم فى معرفة قواعد التوجيه المعنوى والتربية الروحية والتهذيب الدينى ، كما تدل فى الوقت نفسه وجوب التوسع فى تزويدهم بالمعلومات الدينية والثقافة الإسلامية والجوانب العسكرية والروحية التى تتعدد وتتوالى فى تراث هذه العقيدة السمحة التى أشرقت بها أرجاء الأرض ، واهتدت جموع الناس فى المشارق والمغارب : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » .

ولقد قلت لهؤلاء إن التوجيه الروحى يجب أن يسبقه التوجه الروحى ، فهناك فرق بين التوجه والتوجيه ، لأن التوجه عمل يقوم به الإنسان لشخصه وذاته ، فيتوجه بنفسه إلى جهة الخير ، ويطهر روحه ، ويتسامى فى خلقه وتصرفه ، حتى يصبح متوجهاً توجهاً روحياً كريماً ، وبعد ذلك يبدأ فى المرحلة التالية ، وهى مرحلة التوجيه الروحى لغيره من الناس ، أو بتعبير آخر : لابد للانسان أن يكون صالحاً فى نفسه أولا ، ثم يأخذ فى إصلاح غيره ، وشوقى يقول فيما يقرب من هذا المعنى : « الصالحون يبنون أنفسهم والمصلحون يبنون الجماعات » .

وقلت لهم إن الجندى فى الميدان لا يمكن أن يثبت فى معركة ، أو يصبر على هول ، أو يصدق فى تضحية ، إلا إذا كان قلبه عامرا بالإيمان ، لأن هذا الإيمان يجعله يقدم على القتال ، وهو لا يبالى أوقع على الموت أم وقع الموت عليه ، فهو ينتظر إحدى الحسنيين ، فإما نصر تعقبه عزة فى الحياة ،

وإما شهادة يعقبها خلود فى جنة عرضها كعرض السموات والأرض . . . وفى تاريخ المسلمين مئات الشواهد على ما صنعه الإيمان من عجائب ، وهؤلاء مثلا هم المسلمون على عهد الرسول يخرجون فى ثلاثة آلاف إلى غزوة مؤته ، ليحرروا الإقليم السورى من احتلال هرقل وأتباعه له ، ويخرج لهم الأعداء فى مئة ألف ، حتى خشى بعض الجنود من هذا التفاوت الصارخ ، فقال لهم ابن رواحة : « يا قوم ، والله إن للتى تكرهون للتى خرجتم تطلبون : الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هى احدى الحسنيين : إما ظهور وإما شهادة » . وترددت الأصوات : من حوله « صدق والله ابن رواحة » . وبدأت المعركة وإذا نحن نرى جعفر بن أبى طالب يحمل اللواء مؤمناً مقداماً وهو يردد :

يا حبذا الجنة واقترابها   طيبة وبارداً شـــرابها
والروم روم قد دنا عذابها   كافرة بعيـــدة أنسابها ؛   على إن لاقيتها ضرابها

وما زال يجاهد حتى قطعة سيوف أعدائه ، فخلفه ابن رواحة وأقبل يجاهد حتى سقط شهيداً وهو يردد قوله :

يا نفس ، إلا تقتلى تموتى   هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقــد أعطيت   إن تفعلى فعلهما هديت   وإن توليت فقد شقيت

وهل كسب المسلمون الأولون غزواتهم بغير الإيمان؟ وهل فتحوا المشارق والمغارب على اسم الله بغير الإيمان ؟ وهل انتقلوا من رعاة للابل والغنم إلى قادة للشعوب والأمم بغير الإيمان ؟ . . « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . لقد استبان الصبح لذى عينين ،

ودلتنا الطبيعة والعقل والنقل والتجربة والشواهد على أن الإيمان بالله هو مفتاح الصفاء والعلاء ، وأن الأمة لا تسمو ولا تعلو دون تربية روحية ومبادئ أخلاقية وثقافة دينية ، وها قد بدت بوادر فيها بشائر ، فلننتهز ها فرصة نزكيها ونقويها ، ولنجعلها باكورة نضاعهفا ببواكير ، تتجلى فى أخذنا لأنفسنا وأولادنا وأسرنا ومن حولنا بهدى الله الذى لا يضل من استنار بسناه ، حتى تتم لنا النعمة من الله : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دناً » وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل .

حضــارة الذئاب(١)

الحمد لله ، عدل وأمر بالعدل والقسطاس ، وسوى فى النشأة بين جميع الناس وألغى فوارق الألوان والأجناس : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » ، « لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود ، إلا بالتقوى » نشهد أن لا إله إلا أنت ، تنتقم بلا إجحاف ، وتكرم بلا إسراف ، وأنت العلى الكبير ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، آخى بين العرب والعجم ، وألف بين السادة والخدم ، فكان رسول الكرامة الإنسانية ، وحافظ الهيبة البشرية ، ومجدد قيمة الإنسان ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وأسرته ، والفائزين بشرف صحبته ، والمستمسكين بهديه وسنته : « أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إذا غضب الله على أمة معرضة عنه ، تتابعت منها المخازى والسيئات ، حتى تبدو شوهاء نكراء ، تقيم من نفسها الدليل على خستها ، وتقدم البرهان من ذاتها على أنها لا تستحق الحياة الفاضلة أو التكريم الإلهى ، مهما طال التبجح والادعاء بأنها ذات حضارة ومدنية ، وهؤلاء الذين عمى الله بصائرهم فلا يدينون دين الحق ، ولا يؤمنون بالإسلام ، قد أوتوا ما أوتوا من علم وقوة ، وسيطروا على ما سيطروا عليه من خيرات وأسباب ، وعلوا فى الأرض علواً كبيراً ، ومع ذلك ظلوا منحطين انحطاطاً روحياً شنيعاً ؛ وكأن الله سبحانه قد أتاح لهم كل هذه الوسائل والأسباب ، بينما حرمهم نعمة الأيمان

---

(١) الجمعة ١٦ شوال سنة ١٣٧٠ هـ ٢٠ يولية سنة ١٩٥١ م .

ليريهم رأى العين أنهم بدون نصره أذلاء ، وبدون هديه أخساء ، وبدون تأديبه سفهاء ؛ « أم لهم إله غير الله ؟ سبحان الله عما يشركون » .

ألا تقرأون أيها السادة ؟ . . . لقد نشرت الصحف أن أربعة آلاف من البيض الأمريكيين « المتحضرين المهذبين المثقفين جداً » ثاروا فى إحدى ضواحى « شيكاغو » على عائلة زنجية مسكينة ، نزحت إلى هذه الضاحية واستأجرت شقة فيها ، وسبب هذه الثورة أن هؤلاء البيض المؤدبين الراقين جداً فى شعورهم لا يريدون أن يعيش بجوارهم أحد لونه أسود ، وقد قامت مظاهرات من الآلاف الأربعة استمرت ثلاث ليال كاملة ، وأخذ المتظاهرون الأبطال جداً يقذفون مسكن الأسرة الزنجية المسكينة التى كل جريمتها أنها ولدت سوداء البشرة ، أخذوا يقذفون المسكن بالمواد المحرقة حتى أشعلوا فيه النار ، ثم عمدوا إلى تحطيم نوافذ المسكن كله ، وإلقاء الأثاث فى الشارع ثم أحرقوه . . . وهكذا فلتكن خسة المتحضرين ، وهكذا فلتكن مدنية الذئاب وهكذا فليكن رقى الوحوش ، وإلا فلا ! . . . وهؤلاء الوحوش أيها السادة هم مع شديد الأسف القبلة التى يتجه إليها بعض كبرائنا ليستمدوا منهم الثقافة والمدنية وأصول الحرية وقواعد التربية والأخلاق ، وهؤلاء مع شديد الأسف هم الذين يضحكون على ذقوننا وذقون سوانا بمساخرهم البهلوانية التى يسمونها هيئة الأمم المتحدة أو مجلس الأمن أو الضمان الاجتماعى أو محكمة العدل الدولى أو ميثاق الإنسان والحريات والمساواة بين الناس . . . وهؤلاء هم مع شديد الأسف أئمة لبعض الناس فى السياسة والأدب والاجتماع ! . .

أين تذهب هذه الخسة أو تجىء أمام هدى الله المبين ، وتكريم الإسلام لقيمة الإنسان ، وسحقه لعصبيات الجنس واللون والوطن ، وتسويته بين الناس جميعاً لأنهم من أصل واحد ولرب واحد ؟ وأين هذا اللؤم الوضيع من

سماحة الإسلام وتعظيمه للعبيد والموالى والإماء فالرسول صلوات الله عليه يقول فى مولاه زيد بن حارثة الذى كان عبداً وفى ابنه أسامة : « وايم الله إن كان لخليقا بالإمارة ، وإن كان لمن أحب الناس إلى ، وإن هذا لمن أحب الناس إلى بعده ، فأوصيكم به فإنه من صالحيكم » . ويقول الرسول لأسامة : « أنت أخونا ومولانا » ويعده من أهله ، ويقدمه فى الحب على غيره ، ويأمر أهله بحبه . ولقد أعطى عمر بن الخطاب أسامة هذا عطاء أكثر من عطائه لابنه عبد الله ، فسأله ابنه : لم فضلت أسامة على ، فوالله ما سبقنى إلى مشهد ؟ فأجاب عمر : لأن زيداً كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك ، وكان أسامة أحب إلى رسول الله منك ، فآثرت حب رسول الله على حبى . وكان بلال بن رباح الحبشى الأسود أول من مؤذن فى الإسلام ، وأخبر عنه الرسول بأنه يمشى أمامه فى الجنة ، وأنه سمع صوت نعليه حين مشيه ، وعنه يقول عمر : « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا – يعنى بلالا – » . وهذا سالم مولى أبى حذيفة المملوك الفارسى جعله الرسول أحد أربعة هم أئمة الناس فى قراءة القرآن وقال عنه عمر حين طعنه أبو لؤلؤة : لو كان سالم حياً لوليته خلافة المسلمين ! . وهذا صهيب العبد الرومى يقول عنه الرسول : « نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه » . وهذه أم أيمن مولاة الرسول ، الأمة التى ورثها عن أمه ، أعتقها الرسول ، وكان يبرها مبرة الوالدة ، ويقول عنها : « أم أيمن أمى بعد أمى » . . . ثم يصنع الرسول صلوات الله وسلامه فيقول : هم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما لا يطيقون ، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه » . وها هو ذا يشاهد صحابياً من صحابته يخاصم آخر ويسبه بقوله : يا ابن السوداء . فيغضب الرسول ويقول لصاحبه : طف الصاع

إنك امرؤ فيك جاهلية ، كلكم بنو آدم ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى والعمل الصالح . . . ولا عجب فهو الذى يقول عن المتكبرين من الخلق : « إنه ليأتى الرجل السمين العظيم يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضه » . ويقول عن المجاهدين المستضعفين : « رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره . « ويقول : « اتقوا دعوة المظلوم ، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هذه هى حضارة الذئاب وهذه هى سماحة الإسلام ، فأى الفريقين خير وأهدى سبيلا ؟ . . إن كذبة الساسة وطغاة السادة فى الأرض يخدعوننا عن بهتانهم ببريق مظاهرهم وزور حديثهم ، ثم يأتون الكبائر فى هضم الحقوق وإهدار الكرامات وإزهاق الحريات ، وتسخير الملايين كالعبيد أو الأغنام فى سبيل شهوة مجنونة أو لذة مخبولة ، وهم فى سبيل ذلك يصطنعون فروقاً من الدماء والألوان والطبقات لا يقرها الله ولا يعرفها الإسلام ، وهذه مثلا فرنسا التى تتاجر صباح مساء بألفاظ الإخاء والحرية والمساواة ، وتدعى أنها أم الثورات الإنسانية ، ومثبتة الحقوق البشرية ، هى نفسها التى تريد أن تستأصل الملايين من أبناء الجزائر العربية المسلمة ، لا لشىء إلا لأنهم يريدون أن يعيشوا عرباً مسلمين ، فى حرية واستقلال ! . . وقد آن للبشرية الحائرة أن تكفر بكل غدار ، وأن تأخذ بعنق كل مفتر كذاب ، وأن تهدم بيدها الصالحة المصلحة ما أقامته ذئاب البغى من فخاخ للكرامة الإنسانية وقبور للحقوق البشرية ، « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . وآن للمسلمين بصفة

خاصة أن يكفروا بكل ميثاق إلا ميثاق الرحمن ، وأن يعرضوا عن كل ينبوع إلا ينبوع القرآن ، وأن يسخروا من كل تدجيل ، ويقبلوا على هدى الرسول ، ثم يحملوه إلى الناس قائلين : هذه مضخة الإطفاء وقارورة الدواء وزورق الإنقاذ قد جاءكم من الله نور . . . « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء » . .

واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . سوا ربكم التوفيق يستجب لكم . . .

من أشـــعة الهدى[١]

الحمد لله عز وجل ، يحق الحق ويبطل الباطل : « قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب ، قل جاء الحق وما يبدى الباطل وما يعيد » ؟ ، أشهد أن لا إله إلا الله ، يهدى المصلحين ويضل المفسدين ، وما ربك بظلام للعبيد ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، دعا إلى الهدى ، وأمر بالتقوى ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبائه ، ومن سار على طريقته واعتصم ببابه : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

من خلال الأنباء الكثيرة التى تدور حول الطعام والشراب والثياب ، أو غير ذلك من شئون التمتع بالحياة والتلهى بأعراضها ، تشع بعض الأنباء التى تشير إلى أمل ، وتدل على إصلاح ، والخير فى أمة محمد — مهما قل — موصول دائم لا ينقطع إلى يوم القيامة بإذن الله عز وجل ، وهذه الأنباء الخيرة المتناثرة تقوى عامل الرجاء فى صدر المؤمن الذى لا يقنط ، ولذلك نراه يتتبعها ويلتقطها ويتمعن فيها ، ويتطلع إلى المزيد منها ، ويذهب يؤكد لنفسه ويقرر للناس أن هذه بشائر تتبعها أمثال لها ، فإذا الخير سائد ، وإذا الإيمان قائد ، وإذا الأرض تشرق بنور ربها ، وتستضئ بهدى خالقها ، ومن هذه الأنباء ما نشرته الصحف من أن مجلس محافظة المنيا قد قرر إغلاق جميع المحلات العامة لمدة ساعتين كل يوم جمعة عند الظهر ، ليتمكن عمال هذه المحلات من أداء صلاة الجمعة[٢] ، وهذا قرار يدل على تقدير لحق العقيدة

---

(١) القيت فى مسجد الرفاعى بالقاهرة يوم الجمعة ٢٤ ربيع الأول سنة ١٣٨٢ هـ الموافق ٢٤ أغسطس سنة ١٩٦٢ م .

(٢) جريدة الأخبار ٨/٢٣/ ١٩٦٢ م .

والدين في نفوس هؤلاء العمال ، وعلى تقدير للفريضة الإسلامية التي يجلجل بالدعوة إليها صوت القرآن المجيد حيث يقول : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .

والواقع أن الصلاة فى الإسلام لها مكانتها الكبرى ، فهى تجئ بعد شهادة التوحيد ، وهى عماد الدين ، وهى الصلة اليومية المتكررة بين العبد وربه ، ولعل هذا هو الذى دعا إلى إعلان فرضها فى السماء ليلة الإسراء ، بينما كان إعلان الفرائض الأخرى على الأرض ، ولقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الأعمال أفضل ؟ . فقال : الصلاة لوقتها . ولقد كتب كاتب متحلل يتهكم على الصلاة ، ويزعم أنها مشغلة ومضيعة للوقت ، وأنها لا تناسب سرعة العصر الذى نعيش فيه ، وكبرت كلمة تخرج من فيه ، إن يقول إلا كذباً وضلالا ، ففروض الصلاة خلال اليوم يمكن أداؤها باعتدال فى نصف ساعة ، كل فرض يستغرق دقائق معدودة ، وهذه الدقائق هامة وضرورية فى حياة الإنسان حساً ونفساً ، ومبنى ومعنى ، وظاهراً وباطناً ، وخلقاً وخلقاً ، لأنها تخلص من شواغل الحياة وتخفف من أثقال الدنيا ، وتزود بطهارة الجسم وحياة القلب ، ومناجاة للذى أبدع الحياة وسوى الأحياء ، واستمداد من واهب القوى والقدر ، الذى وسعت رحمته كل شئ ، الذى جعل رحمته قريباً من عباده المحسنين .

والعجيب فى أمر الصلاة أنها الفريضة الاسلامية الوحيدة التى لا تقبل التأجيل أو التسويف ، فمن الممكن تأجيل الصوم : « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » ، ومن الممكن تأجيل الحج : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » فمن لم يجد الزاد والراحلة أو من الطريق كان الحج مؤجلا بالنسبة إليه حتى تتوافر له الاستطاعة ، والزكاة

قد يدخلها التأجيل على لون من المجاز ، فمن لم يملك نصاب الزكاة لا تجب عليه الزكاة حتى يملكه ، وإذا كان عنده أقل من النصاب فلا زكاة ، وزكاة المال مؤجلة فيه حتى يحول عليه الحول ويمر العام ، وأما الصلاة فلا تأجيل فيها ولا تسويف ولا تفريط : « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » ، « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا الله قانتين » . والسليم الصحيح القادر يصلى قائماً ، يؤدى حركات الصلاة كاملة كما رسمها الإسلام ، فإن عجز عن القيام صلى قاعداً ، فإن عجز عن القعود صلى مستلقياً بالإيماءة ، حتى قال بعض الفقهاء إن الإيماء قد يكون بأهداب العين . والإسلام يطالب المسلم بالصلاة كاملة إذا كان مقيماً ، فإذا سافر طالبه بها مقصورة ، فإن عرضت ضرورة طالبه بها مجموعة : الظهر مع العصر ، والمغرب مع العشاء ، فإذا كان المسلم فى حرب طالبه بها مقسومة موزعة ، ومعنى هذا كله أن الإسلام يعطى فريضة الصلاة أهمية كبرى ، حتى أغلظ الحكم على من تركها عمداً وأهملها استهتاراً وإنكاراً فقال الرسول : « بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة » . وقال عن الكافرين : « العهد الذى بيننا وبينهم ترك الصلاة » .

وإذا كانت فروض الصلاة عامة لها هذه المكانة ، فإن لفريضة الجمعة مزيداً من الرعاية ، ولذلك نص القرآن الكريم عليها بالذات ، وسمى سورة من سوره باسمها ، وقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « لقد هممت أن آمر رجلا ليصلى بالناس ، ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم » . وهذا تهديد ليس وراءه تهديد ، وإنما كانت الصلاة الجمعة هذه منزلة لأنها العيد الأسبوعى للمسلمين ، ولأنها مظهر لتلاقيهم على كلمة الله ، واجتماعهم باسم الله ، مع الجماعة » كما يقول الرسول ، وفى الجمعة تأكيد لروابط الأخوة بين المؤمنين ، والقرآن يقول : « إنما المؤمنون إخوة » ، وفى صلاة

الجمعة تذكير بالله وتفقيه فى الدين ، عن طريق خطبتها التى تعتبر درساً إسلامياً أسبوعياً دائماً ، والرسول يقول : « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » ، وفى صلاة الجمعة فرصة لتبادل الرأى والمشورة ، وهذا أصل من أصول الإسلام : « وأمرهم شورى بينهم » . وفى صلاة الجمعة فرصة كى يبث كل مسلم أخاه جانباً من شئونه وأموره ، فيكون هناك تبادل للمعاونة والمؤازرة ، والقرآن يقول : « وتعاونوا على البر والتقوى » .

ومن هنا نستطيع أن نعتبر قرار مجلس محافظة المنيا عملا إسلامياً يستحق التقدير ، ونرجو أن يثمر ثمراته ويحقق غاياته ، كما نرجو أن يكون هـذا العمل موضع اقتداء عند بقية المجالس ، وأن تكون هذه الخطوة الأولى فاتحة لخطوات أفسح وأوسع يكون فيها للدين تطبيق وتأييد ونرجو أن يتمكن كل موظف فى الدولة من أداء صلاته التى يعرض وقتها فى أثناء وظيفته ، وأن تتخذ مدارسنا ومعاهدنا وكليات جامعاتنا من الوسائل ما يهيئ للتلاميذ والطلاب القيام بالصلوات المفروضة عليهم . كما نرجو أن يحسن العمال استخدام هذا القرار ، بأن ينصرفوا حقاً وفعلا إلى صلاة الجمعة ، لا أن يضيع بعضهم هذا الوقت فى اللهو أو العبث ، فهناك بعض الناس يتعللون باسم الدين حتى ينالوا حقوقاً ، ثم يستخدموها فيما يسئ إلى الدين أو فيما يتفق معه على أقل تقدير ، وبذلك يجرئون غيرهم على الاستهانة بالمطالب التى تطلب باسم الدين ، والدين براء من المستغلين له ومن المستخفين به على السواء .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . لقد اقترن هذا القرار الطيب بخبر سار آخر أتانا من البلد العربى المسلم الشقيق الجزائر ، وهو أن علماءها قد قرروا المطالبة بجعل الإسلام ديناً رسمياً للدولة هناك ، ولا شك أن تقرير

المبدأ العظيم أمر لا بد منه فى أول الطريق ، ولكن ثمرته تظهر بالتنفيذ والتطبيق فإذا كنا نؤكد أن الإسلام دين الدولة ، فإن من واجب الدولة أن تجنى لنفسها ولأفرادها ثمرات هذا المبدأ الأصيل عن طريق الاهتداء بهدى الله الذى أشرقت لوجهه الظلمات ، وصلح به أمر الدنيا والآخرة ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

اهتــداء الى الله[1]

الحمد لله عز وجل ، له دعوة الحق ، دعا إليها وحرض عليها ، وأوجب التبشير بها : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، أتم الحجة وأوضح المحجة : « ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، دعا إلى سبيل النعمة والرحمة : « وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم » . فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

إن الله تبارك وتعالى يقدم لعباده فيما بين الحين والحين دليلا على ربوبيته ووحدانيته ، وبرهاناً على جلال دينه وصادق دعوته ، وبتوالى الأيام تتوالى الأدلة وتتصل البراهين ، وكلها تمجيد لله وتأييد للاسلام : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد » . ومن أمثلة ذلك ما نشرته الصحف منذ قليل[2] ، وهو أن محامياً يهودياً مشهوراً ، كان عميد اليهود فى هذا البلد ، وهو من كبار رجال القانون ، قد تقدم إلى الجهات المسئولة يطالب منها اتخاذ ما يلزم لإعلان إسلامه وتسجيله ، لأنه قد اقتنع بعد الدراسة العميقة والمراجعة الدقيقة بصدق مبادئ الشريعة الإسلامية ، وقرر فى طلبه أنه قد مال إلى الإسلام واقتنع به منذ عهد بعيد ، ولكنه لم يسجل إسلامه رسمياً ولم يعلنه فيما مضى لبعض الاعتبارات والظروف ، وخشية أن يقال إنه أسلم خفية أو رهبة أو مما لأة . . . وهــذا

---

(١) الجمعة ٢٠ شوال سنة ١٣٧٩ هـ ١٥ ابريل سنة ١٩٦٠ م .

(٢) جريدة الجمهورية ١٢ ابريل سنة ١٩٦٠ والأهرام ١٣ ابريل سنة ١٩٦٠ م .

الرجل الآن فى سن الشيخوخة ، لأن عمره يزيد على خمسة وستين عاماً ، وهو قد جرب الحياة وعرك الأحداث ، وظل نحو خمسين سنة يترافع أمام مختلف المحاكم ، والمحاماة صنعة تعلم صاحبها كثرة النظر فى الأدلة والبراهين ، وهو يقرر أنه قد حفظ القرآن وطالع كل كتب الشريعة والفقه ، فطرق الإسلام فؤاده برفق ، ثم ملأ عليه جوانب نفسه ، فلم يجد مفراً من الإذعان والإقرار بأن الدين عند الله الإسلام ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

ونلاحظ هنا أن إسلام رجل كهذا أمر لا يبدو منه أنه رغبة فى شهوة ، أو طموح إلى جاه ، أو خضوع لمؤثر ، وصاحبه ليس كأولئك الذين يتلاعبون بدينهم وعقيدتهم ، فيخرجون من ملة إلى ملة ، بسبب الشروع فى طلاق أو زواج أو حضانة أو غير ذلك من المؤثرات ، ولعله لا يفرحنا كثيراً مجرد دخول شخص غير مسلم فى الإسلام ، فالأمر هنا ليس متعلقاً بالكم والعدد ، بل يجب أن يتعلق بالكيف والمعنى ، وعدد المسلمين ليس قليلا حتى نفرح لمجرد الزيادة العددية فيه ، بل هناك أكثر من أربع مئة مليون من المسلمين فى الأرض ، فلو نقص هؤلاء ألفاً مثلا لما أضعفهم ذلك ، ولو زادوا واحداً أو آحاداً لما قواهم ذلك ، ولكن المهم أن الرجل الذى أعلن إسلامه طواعية واختياراً شخص مثقف دارس ، قد عرف الإسلام عن بصر وخبرة فآمن به ، وهذا يزيدنا ثقة واعتزازاً بديننا ، والرجل الذى أسلم كان يهودياً ، والعداوة بين اليهود والمسلمين قديمة موروثة ، وقد زادت هذه العداوة حده بعد مأساة فلسطين ، فإذا أقدم يهودى مثقف ضليع على اعتناق الإسلام بعد دراسة وتمحيص كان ذلك دليلا قوياً على أن الإسلام نور الله يهدى إليه أولئك الذين يتجردون من أهوائهم وشهواتهم وغاواتهم ، ويريدون الحق لذاته .

والإسلام دين قد نشر نفسه وبث مبادئه فى العالمين بسهولته وسماحته وسطوع أضوائه ، ولقد كان يفتح القلوب والعقول قبل أن يفتح المدائن

والحصون ، وإذا كان هناك جهلة أو سفلة يزعمون أن الإسلام ين انتشر بالسيف فإن التاريخ الحق يشهد أن ذلك افتراء واجتراء ، ففتوح الإسلام لم يكن فيها إرغام لغير المسلمين على اعتناق الإسلام ، بل كان هناك تبشير وتخيير ، فإما أن يقبل غير المسلمين دين الإسلام فيكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وإما أن يعطوا قدراً من المال لجنس الإسلام فى مقابل صيانة لأمنهم ودفاعه عنهم باعتبار أنه المتمكن الغالب فى المنطقة ، وإما أن يتجنبوا اعتراض الدعوة الإسلامية ، ويحذروا قطع الطريق عليها والتهديد لها والإقبال بعد أن أعذر من أنذر : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم » ، ولم يثبت فى تاريخ المسلمين الحق أن الإسلام أرغم قوماً على الدخول فيه من أول الطريق ، بل لقد هم طاغية من الحكام أن يرتكب مثل هذا باسم الإسلام ، فوقف فى وجهه هداة الأمة وردوا فى ذلك حكم الله : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ، « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » ، « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

ولقد كان المسلمون الأولون يدعون إلى دينهم بالحكمة الهادية ، والموعظة الحسنة ، والقدوة الصالحة ، والتصرف النبيل الآسر . . . فالمسلمون مثلا قد أخذوا فى بعض الأوقات جزية من قوم لم يسلموا كى يقوموا بحمايتهم فى مقابلها . وحينما أحس المسلمون بأنهم قد يعجزون عن حماية هؤلاء القوم بسبب بعض الظروف الحرجة ، ردوا إليهم الجزية ، وأعجب القوم بهذا التصرف النبيل إعجاباً شديداً ، فدخلوا فى دين الله أفواجاً ، وكان كل من هؤلاء المسلمين الصادقين يعطى القدوة السامية من نفسه فى مظهره ومخبره ،

وقوله وعلمه ، فكان غير المسلمين يشاهدون الإسلام طاهراً مطهراً ، رائعاً مؤثراً ، من خلال تصرفات هؤلاء الكملة من المسلمين ، فيهرع الناس إلى هذا الدين الذى صنع أمثال هؤلاء الرجال الأبطال ، وكان المسلم فى الصدر الأول يبشر بالإسلام ، فيتجلى فيه الاخلاص الذى يجعل هذا التبشير مثمراً نافعاً بالغاً أعماق الأفئدة وطواياً السرائر ، فيلين له العتى ، وينقاد معه العصى ، ويدنو به القصى ، ويفرح المسلمون بذلك التوفيق فرحاً بليغاً ، لأنهم يتذكرون قول رسولهم صلوات الله وسلامه عليه : « لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم » .

ومن المؤسف أنه فى الوقت الذى يدخل فيه رجل مثل هذا الرجل فى الإسلام ، بعد أن بحثه ودرسه واقتنع به ، نرى المئات من أبناء المسلمين يهملون دينهم ويجهلون تعاليمه وقواعده الأساسية ، فهم محسوبون على الإسلام ثقلا وعدداً ، ولكنهم لا يلتزمون له قاعدة ولا حداً ، ولقد ذكر الرجل أنه كان يحدث ابنته كثيراً عن الإسلام وعظمته ، حتى أخذت تشعر بنفس الأحاسيس التى دارت بقلب والدها وعقله ، ولما كتب إليها يخبرها أنه قد أعلن إسلامه فرحت بذلك وكتبت إليه تهنئه ، فهل سمع هذا أو تدبره أولئك المنسوبون إلى الإسلام الذين يهملون أبناءهم وبناتهم فلا يتحدثون معهم بشئ من العقيدة والدين ؟ .. واحسرتاه على كثير من أبناء الإسلام ... لقد أهملوا شأنه فى نفوسهم وأهملوا الدعوة إليه والتبشير به . . . أهملوا هذه الدعوة فى البيت ، فضاعت القدوة الدينية العملية التى كان يجلبها الآباء والأمهات ، وأهملوا هذه الدعوة فى المجالات الأخرى لأن شياطين المكر والخديعة قد أوهموهم أن حياة المدنية والحضارة لا يلائمها التدين ، ولا يناسبها الدين والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

فلنتذكر ولنعتبر . . . فإن الذكرى تنفع المؤمنين . . إن الدين الإسلامى الذى يفرط فيه أهلوه ويهمله أبناؤه ، يقبل عليه الذين كانوا بالأمس من أعدائه أفليس هذا زاجراً كافياً لإيقاظ من غفلة ، وهداية إلى طريق مستقيم ؟ . . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

فلنحــذر الفتنة[1]

الحمد لله عز وجل ، نحمده ونستعينه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، ألا إلى الله تصير الأمور ، وأشهد أن لا إله إلا الله أمر بكلمة التوحيد وتوحيد الكلمة ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، نبي الجماعة ، وصاحب الشفاعة فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

يحاول الشيطان قدر طاقته الشريرة أن يتعرض للأمة المؤمنة من حين إلى حين ، ليوجد فى حصنها ثغرة ، أو يحفر أمام أقدامها حفرة ، فإن استجابت لوسوسته ، ولم تنتبه إلى خديعته ، أوقعها فى فتنته ، فذاقت وبال أمرها ، وكان عاقبة أمرها خسرا ، ولفتنته امتحان واختبار وكلمة الفتنة مأخوذة من كلمة الفتن وهو امتحان الذهب بالنار لتظهر أصالته ، ويطهر عنصره ، والله تبارك وتعالى يحذر أمته من مخاطر التعرض للفتنة ومعاطب الوقوع فيها ، جل جلاله : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب » . أى احفظوا أنفسكم وصونوا بنيانكم من التعرض للفتنة التى قد تبدأ صغيرة أو مستورة ، ثم تتزايد وتتوارد ، فإذا معظم النار من مستصغر الشرر ، وإذا الفتنة يتسع خرقها على الراقع ، وإذا لم تجد العلاج صيرت الديار بلاقع ، لأنها حينئذ تعم وتجمع ، فتصيب الفاسد والصالح ،

---

(١) الجمعة ٢ ذو الحجة سنة ١٣٨٧ هـ أول مارس سنة ١٩٦٨ م.

أما الفاسد فلأنه سعى فى الفتنة ، وأراد بها الشر والخلل ، وأما الصالح فلأنه سكت عن مقاومة الفتنة ، ولم يعاون فى القضاء عليها وعلى أسبابها وبواعثها ، والله تعالى — كما قال ابن عباس — أمر المؤمنين أن لا يقروا المنكر بينهم ، أو يسكتوا عليه ، حتى لا يعمهم الله بعذاب من عنده ، ولذلك قال فى ختام الآية السابقة : « واعلموا أن الله شديد العقاب » ، وهذا تهديد ووعيد من رب العزة والجبروت للأمة إذا تركت عقارب الفتنة تسعى بين ظهرانيها ، فلم تبادر إلى علاجها ، ولذلك علمنا ربنا أن نقول داعين له راجين منه : ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم » .

ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم ، يتعاونان على الفتان » أى الشيطان لأنه يفتن الناس عن الحق والهدى ، وفى رواية : « يتعاونان على الفتان » بضم الفاء ، والفتان جمع فاتن ، أى يعاون كل منهما الآخر على مجاهدة الذين يضللون ويثيرون الفتن والقلاقل . كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود : « إن السعيد لمن جنب الفتن » ، وكان سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام يستعيذ بالله من فتنة المحيا وفتنة الممات ، ومن كلمات أجدادنا الحكيمة البليغة : « الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها » . ولقد حذر كتاب الله تبارك وتعالى من خطر المنافقين المخادعين الذين يقولون ما لا يفعلون « وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » ، وهم أولئك الذين يعملون على إثارة البلبلة والخلل ، ويسارعون إلى التفريق والتمزيق ، تطلباً لمغنم رخيص أو مأرب خسيس ، فيقول القرآن عن أولئك الفاسدين المفسدين : « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ، وفيكم سماعون لهم ، والله عليم

بالظالمين ، لقد ابتغوا الفتنة من قبل ، وقلبوا لك الأمور ، حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون » .

إن واجب الأمة أن تعرف طريقها ، وتطهر صفوفها ، وتعتصم بعقيدتها ومبادئها ، فمن وفى لها وحرص عليها وجاهد فى سبيلها ، فله جزاء الحسنى ، ومن تنكر لها أو استخف بها أو خان فيها لقى جزاءه العادل الرادع ، فقد أخبرنا القرآن منذ أربعة عشر قرناً بأن الإنسان محكوم عليه بالوبال والخسران ما لم يسلك طريق الإيمان والإحسان فى العمل والاستمساك بالحق ، والصبر على طريق الهدى : « والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » . ثم على الأمة بعد ذلك أو مع ذلك أن تحرص الحرص كله على صيانة وحدتها ، وتعزز أخوتها ، حتى تستفيد بكل طاقاتها فى سائر مجالاتها ، وبذلك لا تقع فى مصيبة التفرق والتمزق فيمسها عقاب الله الأليم : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين اسودت وجوههم : اكفرتم بعد إيمانكم ؟ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، وأما الذين أبيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون » .

إن الأمة المؤمنة لم تنس بعد ، ولا يجوز لها أن تنسى فى حال من الأحوال ذلك الشعار اللئيم الخبيث الذى كان الاحتلال الأجنبى يسعى بالفتنة والخسران داخل ظلماته ، وهو شعار : « فرق تسد » وكأن هذا الاحتلال الأثيم ما زال يسعى سعيه من وراء ستار الاستبقاء آثار وبيلة لهذا الشعار بين الذين يأمرهم ربهم ونبيهم وقرآنهم ودينهم وعقلهم ووطنهم ومصيبتهم بأن يكونوا أقوياء ، أشقاء ، حكماء بصراء ذاكرين قول الحق جل جلاله : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين » وقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا » . وإذا كان

هذا الرسول الكريم نفسه هو الذى يقول : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » فكيف يتنكر إنسان لهذا الهدى العظيم ، فيحاول أن يكون معولا يهدم أخاه أو يناله بسوء ، وكيف والعدو فى ديارنا ، وأمام وجوهنا ، وليس أمامنا إلا أن نتلاقى كلنا على مجاهدته هو ، وضربه هو ، ونسيان كل خلاف وشقاق فى سبيل التغلب عليه وإخراجه من الأرض التى احتلها وتعمر فيها ، حتى طغى وبغى ، وكأنه يقول : للقوة الغاشمة التى لا تجد رادعاً أن تفعل ما تشاء ، وفى أى شريعة من شرائع الله ، أو فى أى مذهب من مذاهب العقلاء ، نترك نيران العدو موقدة فى ديارنا وأقدامه القذرة تجثم على صدورنا ، ثم نتحاور أو نتحارب فيما بيننا ، ولن يستفيد من هذا التصدع الموجع إلا أعداؤنا ؟ وكيف يجوز هذا ولقد سئل رسول الله عليه الصلاة والسلام : من خير الناس فى الفتنة ؟ . فقال : « رجل فى ماشيته ، يؤدى حقها ، ويعبد ربه ، ورجل آخذ برأس فرسه يخيف العدو ويخيفونه » وكأن الرسول يريد بهذا أنه يجب على المؤمنين خلال الفتنة أن يطفئوا نارها ، ويحولوها إلى عمل طيب ، وإنتاج مثمر ، واعتصام بالتقوى ، وإقبال على الواجب الأكبر وهو مجاهدة الأعداء .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

لا يجوز بحال من الأحوال أن نضيف إلى نكبتنا بالعدوان نكبة أخرى بصراع داخلى ، فلنتق الله فى أنفسنا وأوطاننا وحرماتنا ومقدساتنا ، فعدونا يتبجح كل يوم ويتوقح ، ولسنا ندرى ماذا يكون المصير ، من هول ما نرى وما نسمع ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

التحريض على الرذيلة(١)

أحمد الله عز وجل ، سن الشرائع لتهدى إلى الخير والفضيلة والرشاد ، وسد الذرائع ليحول بين عباده وبين الشر والرذيلة والفساد : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة ، أو يصيبهم عذاب أليم » . وأشهد أن لا إله إلا الله ، وعد بالثواب كما توعد بالعقاب « ويحذركم الله نفسه ، وإلى الله المصير » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أضاء القلوب بنور ربه فهداها وطهر النفوس من فجورها فزكاها . . . فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، وصحبه ورجاله : « ومن يطع الله ورسوله ، ويخش الله ويتقه ، فأولئك هم الفائزون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

نشرت بعض الصحف أن رجلا ممن لا دين لهم ولا مروءة فيهم قد حرض زوجته وأكرهها على أن تكون بغياً تبيع جسمها وتتاجر بعرضها لتجمع له المال الذى يريده ، وهذا الخبر الشائن المخجل يذكرنا بالخبر الذى نشرته بعض الصحف وقالت فيه إن أحد أعضاء مجلس الأمة أعد اقتراحاً لإصدار تشريع بإعادة البغاء ، ونحن لم ننس تلك الضجة التى أثيرت حول هذا الخبر ، وكيف طال الكلام عنه ما بين تفسير وتحوير ، وإثبات ونفى ، واعتراض واعتذار ، والموضوع مؤسف فى حالتى الثبوت والانتفاء ، فإن كانت الصحيفة قد اخترعته من عندها فهى جرأة تستحق المؤاخذة ، وتشجيع على الفساد فى أمة تود صلاح نفسها ، وافتراء للباطل بين قوم ينشدون الحق ، وإن كان الخبر صحيحاً على طول الخط فيالها من كارثة ، وإن كان صحيحاً

---

(١) الجمعة ١٨ صفر سنة ١٣٧٧ هـ ١٣ سبتمبر ١٩٥٧ م .

فى أول الأمر ، وأريد التخلص منه بعد الثورة عليه والتنديد به، فياله من موقف لا يليق بالرجال ومن يدرى ، فقد يعود هذا الخبر إلى الظهور يوماً من الأيام ، عن طريق الإشاعة والافتراء ، أو عن طريق تجدد النية والعزم :

واللیـــالی من الزمان حبـــالی مثقـــلات يلدن كل عجيب

كما تذكرنا حادثة الرجل المحرض لزوجته على الدعارة بقول الله جل جلاله : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ، ومن يكرهن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم » أى غفور لهن رحيم بهن ، لأنهن مكرهات روى أن هذه الآية الكريمة نزلت فى شأنقوم كان عندهم إماء مملوكات لهم وكانوا يحرضون هؤلاء الإماء على البغاء ليجمعوا من وراء ذلك أموالا ، وكان الإماء أحياناً يكرهن الانحطاط بكرامتهن وإنسانيتهن إلى هذا الدرك القذر ، فكان المالكون لهن يفرضون عليهن ذلك ، ويستعملون معهن وسائل الإكراه والإرغام ، فجاءت الآية الكريمة مصورة لتلك الحالة البشعة الفظيعة التى كان عليها القوم ، والتى وصلت بهم إلى أن تريد إماؤهم وجواريهم التعفف والتحصن ، فيأبى الرجال أو أشباه الرجال — بتعبير أدق — إلا أن يكونوا تيوساً قوادين ، ولا يستفاد من الآية أن الله ينهى عن التحريض على البغاء فى حالة كراهة الفتاة له فحسب ، لأن الآية إنما صورت ما كان عليه القوم من شناعة وبشاعة فى هذا المجال ، والبغاء أمر خبيث ملعون من الله ومن فضلاء الناس بجميع صوره وأحواله وألوانه وأشكاله ومقدماته ونتائجه ، وحسبنا أن الحق تبارك وتعالى يقول : « ولاتقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا » ، ويقول : « قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن » ويقول : « ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن » وإنما عنى الدين والعقل بالتنفير من البغاء ومن التحريض عليه ، لأن البغاء

يهدم كرامة النساء ، ويهدم فضيلة الرجال ، ويضيع الأنساب ، وينشر الفاحشة فتتحطم الأخلاق ، والبغى لا تشبع نهم مضاجعها ، ولا ترده عن الفساد مع غيرها ، مهمتها غالباً أن تعلمه كيفية انتهاك العرض ، ثم هو عقب تعلمه تعلمه منها ذلك يزهد فيها لأنها للجميع ، ويسعى كالذئب فيسطو على كل عرض يستطيع إليه الوصول ، وإذا بلغت الأمة هذا فقل عليها وعلى مجتمعها وأخلاقها العفاء .

ويظهر أن بعض الناس اليوم قد عاهد الشيطان على أن يكون أوقح من أهل الجاهلية فى هذا الباب ، فأهل الجاهلية الجهلاء كانوا يحرضون على البغاء الفتيات الإماء المملوكات لهم ، والمرء لا يهتم عادة بالغيرة على خادمة إن خدمته اليوم فستخدم سواه غداً ، ولا يهتم بالغيرة على أمة إن كانت فى ملكه الآن فستكون ملكاً لغيره بعد الآن ، وإنما يغار المرء كل الغيرة على أم وأخت ، وزوجة وبنت ، وما شابه ذلك ، وها نحن أولاء اليوم فى عصر الحضارة والرقى ، وعهد العلم والنور ، نجد من يحرض زوجته على البغاء ، ومن يحرض بنته على الفساد ، لأننا نعيش بلا دين وبلا أخلاق :

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم فأقم عليهم مأتماً وعويلا

وإذا كان القوم قديماً قد أكرهوا فتياتهم على البغاء فإن كثيرين اليوم يكرهون نساءهم وبناتهم على الفحشاء والمنكر ، وذلك بوضعهن فى ظروف تهيئ للفساد ، وتعريضهن لعوامل تحرض على المنكر ، وإلقائهن فى أوساط وتيارات تدفع إلى الإثم دفعاً شديداً ، فتكون الفتاة فى هذه الحالة كالمكرهة على الإثم ، لوقوعها تحت إغرائه وسلطان جاذبيته ، فلا تستطيع أمامه تمنعاً أو تماسكاً أو مقاومة ، ولو أرادت ذلك ، فهى كالشخص تلقيه فى الماء وتقول له : احذر البلل ، وهو لن يبتل فحسب ، بل سيغرق أيضاً ، أو هى

كالقط الجائع تضيع بين يديه اللحم المثير ، ثم تحذره من التطلع إليه ، وهو لن يتطلع إليه فحسب ، بل وسيأتى عليه كله . . . أليس من إكراه الفتيات على الفحشاء أو تحريضهن على المنكر أن نفعل تربيتهن تربية دينية أخلاقية اجتماعية قويمة ، وأن نضعهن فى وسط متحلل ، وأن نغريهن بمختلف الوسائل فنذهب بهن مثلا إلى الشاطىء ، ونجردهن من الثياب ونخلطهن بالفتيان ، ونجعلهن يتطلعن إلى الأجسام الشابة واللحوم المثيرة ، فى الاجتماعات وفى الخلوات وداخل الماء ، وعلى الرمال ، وخلف الصخور ، وفى « الكابينات » وليس هناك عاصم من دين رفيق أو خلق وثيق ؟ ! . . .

ولقد سمعنا بقصة رجل أراد أن يجعل ابنته مجددة متطورة ، فكان يجلسها مع أصدقائه وزواره ومساهريه ، وكانوا يلعبون الورق فلعبت ، وكانوا يرقصون فرقصت ، ثم كانوا يشربون الخمر فشربت . . . ثم ماذا كانت النتيجة ؟ . . . حملت الفتاة واستنبأها والدها عمن كان السبب ، فإذا هو أحد الأصدقاء زوار البيت ! . . والنتيجة هنا طبيعية ، فقديماً أعطوا لامرأة عربية جانباً من الخمر فشربته ، فأدركتها النشوة ، فاهتزت وطربت ، ثم سألت الذين أعطوها الخمر : أتشرب هذا نساءكم ؟ . . قالوا نعم . فقالت : زنين وركب الكعبة ! . . .

وسمعنا بقصة رجلين متزوجين ، كانا يتزاوران ويسهران ويشربان مع زوجتيهما باسم المدنية والتجدد والتطور والتنفيس عن الغرائز . . . وتهيأت فرص اللقاء والخلوة والتطلع ، وأخذ كل زوج يتبين مشتهيات له فى زوجة الآخر ، وكل منهما قد شبع طبعاً من زوجته أو كاد ، وهو يريد التنويع والتلوين و « الرمرمة » كما تقول العامة ، وكانت النتيجة أن ولغ هذا فى إناء ذاك ، وولغ ذاك فى إناء هذا ، والقصة طبيعية معلومة مفهومة ! . . خبرونى بربكم . . . كيف تستمسك أمام الإغراء فتاة تسمع هذه الأغانى القذرة ،

وترى هذه الأفلام الأثيمة ، وتشهد فى بيتها هذه السهرات الفاضحة ، وتختلط بالشبان والرجال هذا الاختلاط الشائن الذى لا ضابط له ولا حدود ، وتلبس تلك الملابس الخليعة المثيرة ، وتطالع تلك القصص الداعرة ، وتعيش فى هذا الوسط المتحلل الفاجر الداعر؟ . . . أليست كل هذه الأمور ألواناً من ألوان الإكراه على الفساد والتحريض على الرذيلة ؟ ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . لقد كان فى الأمة بغاء علنى رسمى ، وخيل إلينا أننا قضينا عليه وعلى جذوره بالقانون المحرم له ، ولكن القانون قد يقضى على أمر من الأمور فى الظاهر ، ويبقى ذلك الأمر من وراء ستار ، ولقد وضعنا قانوناً لمحاربة البغاء السرى ، وحسبنا أننا بذلك قد قضينا على الرذيلة ، ومع ذلك فالرذيلة فاشية تقض مضاجع الرجال الأحرار فى كل وقت ، لأن هذا ليس بطريق الإصلاح ، وإنما الطريق كل الطريق أن نحسن تربية البنين والبنات ، وأن نبنى الأسرة على الدين والفضيلة والقدوة الصالحة ، وأن نزرع فى صدور الشباب مكارم الأخلاق ، وأن نحارب الأسباب المهيجة لشهوة الأجسام وعواطف الجنس ، وأن نمنع العوامل الموقدة لرغبات الحيوان فى صدر الإنسان ، وبدون ذلك سنظل نضحك على أنفسنا وعلى الناس ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . . .

الخـوف من الحرام[1]

الحمد لله عز وجل ، وضع الخير فيما أحل وأباح ، وجعل السوء فيما حرم ومنع : « ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يضاعف الحسنات ويمحق السيئات : « قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أمره ربه بالحرص على الطيبات والعمل الصالح : يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم » . فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، وصحبه ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

الحكمة ضالة المؤمن ، يأخذها أنى وجدها ، ونحن فى هذه الحياة الصاخبة اللاغبة نحتاج إلى نماذج واعظة زاجرة نأخذها من هنا أو من هناك ، لنضعها أمام أبصارنا وبصائرنا ، وإن لم نعمل بها كلها فلا أقل من أن تخفف غلواء الجشع فينا ، وإن لم نسع لتطبيقها فلا أقل من الاعتبار بها حتى لا نلج فى سحت أو نسرف فى حرام . وهذا درس عاجل نأخذه من بيئة غير مسلمة ، فقد نشرت إحدى الصحف أن محامياً إنجليزياً كبير السن تبنى فتاة شابة ، وكان يتولى الإشراف على أموال ضخمة لليتامى والأرامل ، فاختلس منها مئات الألوف ، فسهل عليه أن يمطر الفتاة بالهدايا ، وأن يعطيها ثلاثين ألفاً من الجنيهات . ومات المحامى المختلس ، واكتشفوا اختلاساته بعد موته ،

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٢٩ شعبان سنة ١٣٧٨ هـ الموافق ٢٧ فبراير سنة ١٩٥٩ م .

والقانون ليس فيه نص يطالب المهدى إليهم برد الهدايا إذا كانوا يجهلون أن مصدرها حرام ، ومع ذلك ذهبت الفتاة برغم فقرها إلى المحكمة وسلمت القاضى الثلاثين ألف جنيه ، قائلة : إننى أعرف أن القانون لا يلزمنى برد هذه النقود، ولكنى لا أستطيع أن احتفظ بالمال الحرام ، . وأعجب القاضى بتصرفها وتعففها ، وأعلن مندوب اليتامى والأرامل التنازل باسمهم عن خمسة آلاف جنيه لهذه الفتاة ، فقدمها القاضى إليها قائلا : إن هذا المبلغ حلال ، وسيبارك الله لك فيه ! . .

هذا هو الدرس العابر الذى يجب أن يحرك مع أمثاله النفوس الغافية والضمائر النائمة ، ونحن نتناوله بالتعليق فى ضوء الإسلام الذى يزكى هـذا التعفف ويدعو لما هو أسمى وأكرم ، فنذكر أن التبنى الذى بدأت به القصة هنا شئ حرمه الإسلام وقضى عليه فى بيئته ، لما يترتب على التبنى من خلط الأنساب وتمويه الحقائق ، ولما يصحبه أو يعقبه من حرمان لمستحق ، وإعطاء لغير مستحق ، وانحراف فى العلاقات ، وتعرض لهتك الحرمات ، وغير ذلك . وأما اختلاس أموال اليتامى والأرامل الذى ارتكبه ذلك المحامى ، فهو أمر شنيع بشع ، حمل الإسلام عليه حملة عنيفة قاسية ، وحسبنا فيه قول الحق تبارك وتعالى : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا » ومن أجل ذلك يقول عز وجل : « وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيراً » ويقول : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبدارا أن يكبروا ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فاشهدوا عليهم وكفى بالله شهيداً » ويقول : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا فأخافوا عليهم فليتقوا الله ليقولوا قولا سديداً » . وأما أن القانون هناك لا يلزم برد

الأموال المأخوذة من حرام فالإسلام لا يحاكم الناس بقانون الناس الذى يصل إلى الجريمة حيناً وقد تخفى عليه حيناً آخر ، ولكنه يحاكمهم فوق هذا القانون بدينهم وخشيتهم ومراقبتهم للذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ويحاكمهم بذلك القانون الإسلامى المحمدى الواعظ : « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ! . .

ولقد عنى الإسلام عناية ملحوظة بتحريض الناس على أكل الحلال والكسب الطيب ، وتحذيرهم من السحت والحرام والشبهات ، فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله إن كنتم إياه تعبدون » ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً » ويقول أيضاً : « من أكل طيباً ، وعمل فى سنة ، وأمن الناس بوائقه دخل الجنة » . . . بل أراد الإسلام أن يبعد بأبنائه عن المواطن المريبة التى قد يعرض لها الظن أو الشك ، خشية أن يبلغ بهم ذلك موطن الحرام فيقعون فى المعصية أو يرتكبون المحظور ، فهذا رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام ينادى فى الخلق : « الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » .

ولقد شدد المسلمون الأوائل على أنفسهم فى هذه الناحية ، فلم يقبلوا لأنفسهم أن تنال شيئاً حراماً أو ما فيه شبهة ، وهذا رسول الله عليه صلوات الله يرى الحسين بن على وهو صبى صغير يتناول ثمرة واحدة من تمر كثير فى بيت المال ، فينهره النبى قائلا له : ألقها يا حسين ، فإنا أهل البيت لا تحل

لنا الصدقة » . وجاء الحاكم العادل وجاء عمر بن عبد العزيز بعد ذلك فاهتدى بالهدى النبوى حين رأى ابنه يأخذ تفاحة من تفاح يقسمه بين المسلمين فانتزعها منه ، فبكى الولد وذهب إلى أمه ، فلما عاتبت زوجها على ذلك قال : والله لقد انتزعها وكأنى انتزعها من قلبى ، ولكنى كرهت أن أضيع نفسى عند الله عز وجل بتفاحة من فئ المسلمين وهذا أبو بكر الصديق نراه لا يأكل طعاماً حتى يسأل عن مصدره ليتأكد من حله ، وذات يوم أنساه الجوع الشديد أن يسأل ، فعجب غلامه وقال : لقد كنت تسألنى كل يوم عن مصدر الطعام فلم لم تفعل اليوم ذلك ؟ فتوقف أبو بكر عن الأكل معتذراً بالجوع ، وسأل عن مصدر الطعام فذكر الغلام له ، فرأى فيه نوعاً من الشبهة ، فجعل يضع يده فى حلقه ليتقيأ ما أكل وهو يصيح : لقد كدت تهلكنى يا غلام . ولما بالغ فى القىء وهو يقول : اللهم اغفر لى ما شربته العروق واختلط بالدماء ، قالوا له : يرحمك الله ، أتفعل كل هذا من أجل لقمة ؟ . فقال : والله لو لم تخرج إلا مع نفسى لأخرجتها ، فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به ، ولقد خشيت أن ينبت شىء من جسدى من هذه اللقمة الحرام فأصير به إلى النار . . .

ولقد اشتهى عمر بن عبد العزيز يوماً أن يأكل تفاحا ، فأهدى إليه بعض الناس جانباً منه فرفضه عمر ، فقيل له : لم ترفض والنبى صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة ؟ فأجاب عمر : إن الهدية كانت لرسول الله هدية ، وهى اليوم لنا رشوة ! . . بل لقد كان المسك مثلا يحمل إلى عمر بن العزيز فى مال المسلمين ليقسمه بينهم فإذا وضعوه بين يديه سد أنفه حتى لا يشم المسك ، فإذا قالوا له : إن هذا ريح فقط ، أجابهم : وهل ينتفع من المسك إلا بريحه ! ! . . وهكذا نرى هذه الأمة المؤمنة بدينها المراقبة لربها الخائفة من يوم حسابها يتألق تاريخها فى كل عصر وجيل بهذه النماذج

العالية الرائعة التى تضرب أعلى الأمثال فى التقوى والإيمان ، والحذر من الريب والشبهات ، والابتعاد عن سوء الاستغلال ومكر الاحتيال وفنون الابتزاز لأموال الناس بالباطل ، وبهذا الحذر وتلك الخشية نالوا الدرجات العلى عند من لا يضيع أجر من أحسن عملا : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن قصة الفتاة التى رفضت الثلاثين ألفاً لأنها من مصدر حرام ، تذكرنا بقصه المكفوف الذى رفض أن يضعوا له عينى رجل قاتل محكوم عليه بالإعدام ، لأنه لا يريد أن يبصر بعينى رجل محرم ، وهاتان القصتان تذكران كل مسلم بما فى دينه من هدى كريم بليغ فى هذا الباب ، وبما فى تاريخه من روائع القصص الواعظة الزاجرة ، وإذا كنا لا نستطيع بلوغ مراتبها لقصر الهمم وضعف العزائم ، فلا أقل من السير فى هذا الطريق القويم مهما كان السير وئيد الخطوات ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . . .

حق التحليل والتحريم[1]

الحمد لله عز وجل ، هو وحده الذى يحل الحلال ويحرم الحرام : « والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب » . أشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولى الرشاد والتوفيق ، والهادى إلى أقوم طريق : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خضع لربه ، وتأدب بأدبه : « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى » . فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الخاشعين للرحمن ، وأصحابه المستضيئين بنور الإيمان ، وأتباعه الخاضعين لكلمة القرآن : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لعل أخطر الأمور التى يأتيها الإنسان فى حق الدين أن يعطى نفسه حق التحليل لما حرم الله أو التحريم لما حلل ، لأن هذا يعد تدخلا فى اختصاص الخالق جل جلاله ، وإذا استباح الإنسان — كائناً من كان — أن يشرع للناس ما ليس من الدين ، فقد بلغ الأمر مبلغه من الفوضى والاضطراب ، ولقد نشرت الصحف أن أحد الملوك قد طلق زوجته وفارقها منذ زمن بعيد ، ولكنه يحرص على منعها من التزوج بأحد ، ويشترط عليها ألا تتزوج حتى يتزوج هو ، ومتى يكون زواجه هذا ؟ لا يعلم الغيب إلا الله — وهذا يذكرنا بما فعله ملك طاغية من قبل ، إذ طلق زوجته أيضاً فى ظروف مؤسفة ، ثم طلب هذا الطاغية من الأزهر أن يصدر له فتوى خاصة تقضى بتحريم زواج الملكة المطلقة من غيره ، حتى لا يقال إن فرداً من أفراد الشعب — مهما كان — قد تزوج

---

(١) الجمعة ٧ من رجب سنة ١٣٧٨ هـ الموافق ١٦ يناير سنة ١٩٥٩

الملكة ، ولو كانت ملكة سابقة ، وللطغيان أن يفعل ما يشاء إذا لم يجد أمامه حقاً يقاومه : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » .

إن مثل هذه المحاولة تذكرنا أن هناك مواريث ثقيلة من ظلم الرجال للنساء ، وتحكم الأزواج فى الزوجات حتى بعد انفصام عروة الزواج بلا مسوغ من دين أو عقل ، ولقد كانت هذه المواريث طاغية باغية فى ظلمات الجاهلية ، فأقبل الإسلام العظيم المنصف ليزيل عن كاهل المرأة الضعيف ، وبرغم هذا بقى هناك من الرجال من يحاول اتخاذ المرأة سلعة تباع وتشترى . . . لقد كان الطلاق فى الجاهلية لا نظام له ولا ضابط ، فالرجل يطلق المرأة ثم يراجعها وهى فى عدتها بلا عدد أو توقف ، وحدث أن قال رجل لامرأته فى بدء الإسلام : والله لا أطلقك فتبينى ، ولا آويك أبداً . قالت : وكيف ذلك ؟ . قال : أطلقك فكلما همت عدتك أن تنقضى راجعتك. فذهبت المرأة المسكينة فأخبرت النبى صلى الله عليه وسلم بذلك ، فنزل قوله تعالى : « الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف ، أو تسريح بإحسان » . وقال الإسلام لأتباعه : إذا أوقعتم الطلاق على المرأة لداع دعا إلى ذلك ، وقاربت انتهاء العدة ، فإما أن تعيدوها إلى عصمتكم برفق وطريق أليف معروف ، وإما أن تخلوا سبيلها بمعروف وإحسان ، حتى تستطيع زواج رجل آخر إذا أرادت ، يقول القرآن : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه » . ولا تتخذوا آيات الله هزوا ، واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ، واتقوا الله ، وا علموا أن الله بكل شئ عليم » . وفى موضع آخر يقول القرآن مخاطباً الرجال فى حسن معاملتهم لمطلقاتهم : « ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن » . ولقد كان من عادة

الجاهلية الجهلاء أيضاً أن الرجل يعضل زوجته المطلقة ، أى يمنعها أن تتزوج غيره آنفة منه وكبرا أن يرى امرأته السابقة عند رجل غيره ، فكان يمنعها من الزواج ويصد عنها الأزواج بضروب من الصد والمنع ، فجاء الإسلام فأبطل هذا الظلم وهذا الإجحاف فقال القرآن : « وإذا طلقتم النساء فبلغهن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن » إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم والآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون » . فمن ذا الذى يريد أن يشارك الله فى حكمه ليحل حراماً أو يحرم حلالا ؟ « أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » ؟ .

إن للمرأة شهوتها الجنسية ورغبتها الطبيعية فى الرجال كرغبة الرجال فى النساء ، وليس بعيب من المرأة أن تطلب إرضاء هذه الشهوة بطريق مشروع سليم ، بل إنه يجب عليها إرضاء هذه الرغبة بالطريق المشروع إذا أيقنت أنها سترضيها بطريق غير مشروع . وماذا تفعل فتاة جميلة شابة مترفة إذا طلقت وعاشت بلا رجل ؟ . ألا يكون هذا مدعاة لسوء الظن والريب فيها ؟ . ألا يفتح هذا أبواب الانحراف والزلل أمامها ؟ . . . لو كان المطلق رجلا عاقلا ومنصفاً لرحب بتزوج مطلقته طلاقاً نهائياً من زوج آخر ، بدل أن تبقى بلا زواج ، فتثور حولها الشكوك والتهم ، ثم يقول الناس عنها بالحق أو بالباطل هذه مطلقة فلان تفعل كذا وكذا ، فيناله عارها وشنارها ، ولو أنها تزوجت من بعده لنسبها الناس إلى زوجها الثانى وتركوا زوجها الأول : « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » .

والإسلام يذكر فى هذا الباب أنه متى انتهت عدة المرأة المطلقة ، وانتهت علاقتها بزوجها الأول ، فلا مانع يمنعها شرعاً ولا عقلا من أن تتزوج بغيره ،

بل يكون ذلك فى الغالب أستر لها وأصلح . والعامة تقول : « ظل الرجل للمرأة ولا ظل الجبل » . ولو كانت المرأة حاملا من مطلقها ووضعت حملها بعد ذلك انتهت عدتها ، ولو كان الوضع بعد طلاقها أو موت زوجها بأيام والقرآن المجيـــد يقـــول : « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن . . . » ولقد أفتى النبي صلى الله عليه وسلم امرأة (وهى سبيعة الأسلمية) بأنها حلت للزواج حين وضعت حملها ، وكانت قد ولدت بعد موت زوجها بنصف شهر ! ! . .

إن الإسلام يقرر أن الزوج إذا طلق زوجته ثلاث تطليقات ، وبانت منه بينونة كبرى ، فإنها لا تعود إلى عصمته إلا إذا تزوجت غيره زواجاً صحيحاً ، وطلقها أو مات عنها ، وانقضت عدتها ، وفى هذه الحالة يجوز له أن يراجعها ، وجعل الإسلام ذلك تأديباً للرجل وتهذيباً ، حتى يرعى حرمة الزواج ، ولا يقدم على فصم عقدة الزواج فصماً نهائياً إلا عند الدافع الضرورى الذى لا حيلة معه .

وكأن الإسلام يريد أن يقول للزوج المطلاق : إن الزوجة لم تكن زوجة لتصير ألعوبة فى يد زوجها ، يطلقها كل حين ، فيحرمها متعة اطمئنان الحياة الزوجية ، واستقرار المعيشة المشتركة ، بل كانت هذه الزوجة زوجة لتسعد بحياة زوجية ، فيها إرضاء لحسها ونفسها ، وقلبها وعقلها ، فإذا تكرر من الزوج التطليق لها حتى بلغ ثلاثا ، كان من حكم الله أنه يحرم عليه إعادتها إلى عصمته حتى تتزوج زوجاً غيره ، وتذوق عسيلته ، وتحيا معه حياة زوجية صحيحة ، وإذا فرضنا وطلقها الزوج الثانى ــ وهذا قد يندر ــ أو مات وهذا غير متوقع فى الغالب ــ فإن الزوج الأول يجوز له بعد هذا أن يعيدها إلى عصمته .

ولا شك أن الزوج يغار غيرة شديدة ويأنف أن تكون زوجته حليلة لزوج آخر ، ومن أجل ذلك يجب عليه أن لا يعرضها لهذا الوضع ، فإذا حدث هذا بحماقته أو بظروفه السيئة ، فلا يجوز له أن يقف فى وجه زوجته المطلقة ، بل لها أن تتزوج غيره ، ولا يجوز له هو — أى الزوج الأول — أن يستردها إلى عصمته إلا إذا تزوجت سواه ! ! . .

أيتفق هذا النظام الإسلامى القويم مع محاولة البعض الوقوف فى وجه المطلقات حتى لا يتزوجن ، فيظللن كالمعلقه ، فلا هى بالباقية مع زوجها الأول ، ولا الطريق بممهد أمامها لتشارك فى حياتها زوجاً آخر ! ؟ . .

وأباح الإسلام للرجل الراغب فى زواج المرأة المتوفى عنها زوجها أن يعرض لها بحديث زواجه منها وهى ما زالت فى العدة . حتى إذا انتهت عدتها شرع فى زواجها ، يقول الله تعالى : « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سراً إلا إن تقولوا قولا معروفاً ، ولا تفرقوا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله » ! ! . .

هذا هو حكم الإسلام ، فمن ذا الذى يريد أن يعرض نفسه لغضب الله الشديد ونقمته البالغة ، فيدعى لنفسه أنه يستطيع أن يجعل الحلال حراماً أو الحرام حلالا ؟ . . إنه لا يقدم على ذلك إلا طاغية متجبر مثل ذلك الملك الباغى الذى غضب على شيخ من شيوخ الأزهر لأنه أصدر فتوى بحرمة رقص الرجال مع النساء بالطريق المعروف ، وكان هذا الطاغية يحب حفلات الرقص الخليع والمجون السافر ، وإنه لمن المؤسف حقاً أن نرى كباراً أو صغاراً يتجارأون فى تبجج وتوقح على تحريم الحلال وتحليل الحرام ، ناسبين ذلك إلى الدين ، مسرفين فى التحريف والتأويل والتخريج الأثيم ، والأنكى من ذلك والأدهى أن بعضهم يقول يوماً بتحريم أمر من الأمور ، ثم يعود بعد ذلك

من الزمان وقد تبدلت الأحوال والرجال ، فيطلع على الناس بتحليل هـذا العمل ومحاولة إيجابه على الناس ، فبعض الحياء يا هؤلاء ! ! . .

إن هؤلاء الملحدين فى آيات الله ، المتطاولين على حرمات الله ، يريدون أن يخضعوا الدين للحياة ، فكلما اتجهت الحياة إلى جهة من الجهات حرص هؤلاء على تكييف الدين تبعاً لهذا الاتجاه ، وكلما تغير الاتجاه بتغير المتحكمين فيه عاد هؤلاء إلى تحريف الكلم من مواضعه ، وتفسير الدين من جديد بما يتفق مع هذا التبدل والتغير ، يفعلون هذا ناسين أو متناسين أن الحياة هى التى يجب أن تخضع للدين ، وأن يكيف الأحياء دنياهم على مقتضى تعاليم هـذا الدين ، لأن الدين قانون ، والناس يخضعون للقانون ولا يصح أن يخضع القانون لأهواء الناس : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن المشرع هو الله جل جلاله وحده ، فمن ذا الذى يريد أن يكون إلهاً ؟ . . ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ، وكذلك نجزى الظالمين » . « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون » . فليبذل كل منا طاقته كى يهتدى بهدى ربه . ليكون من عباده وحزبه ، وأولئك هم المفلحون ، واتقوا الذى أنتم به مؤمنون .

عوامل التحريض على الفساد[1]

الحمد لله تبارك وتعالى ، وله الحمد فى الآخرة والأولى ، سبحانه يصدر عنه الخير كل الخير ، ويحرضنا على ما استطعنا من البر ، ويصدنا جهد طاقتنا عن الشر ، « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولاتعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير ، ونشهد أن سيدنا محمداً عبدك ورسولك ، أخلص لك الطاعة والاستجابة ، وصدق فى التقوى والإنابة ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وفروع دوحته ، وأنصاره وأولى صحبته ، وأتباعه الثابتين على ملته : « رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لعل ميزة الإسلام الكبرى أنه دين وسط معتدل مقتصد ، لا إفراط فيه ولا تفريط ، ولا إسراف فيه ولا إجحاف ، بل خطة مستوية راشـــدة ، تأخذ طريقها إلى غايتها قاصدة بعيدة عن الانحراف والالتواء ، مختارة أقرب الطرق وأحكم الوسائل : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » ، «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين » ومن اعتداله وسلام إفضاله أنه ينصح المسلم بأن يسد كل باب تأتى له منه الريح ، ليهدأ المسلم ويستريح ، فهو ينفر من الرذائل ومن المحرضات عليها والأمور المذكرة بها أو المؤدية إليها ، وهو يدعو إلى الفضائل

---

(١) الجمعة ٣٠ من ذى القعدة ســنة ١٣٧٦ هـ ٢٨ يونية ســنة ١٩٥٧ م .

والمرغبات فيها والأمور المعاونة عليها ، وهو يرعى مصالح الحس والنفس ، والروح والجسد ، فى غير قصور أو فجور ، ولذلك كان هذا الدين هو الدين الماجد الخالد ، الراق الباق ، الصالح لكل زمان وكل مكان وكل إنسان . . .

ولكننا مع هذا نجد أن الكثرة الهائلة تسرف فى الشر ، وفى الانعتاق من التكاليف والواجبات ، وهذه الكثرة توجد غالباً فى صفوف الشباب ، وذلك لأن الصغار لم يدركهم أمر التكليف بعد ، ولأن الكبار الطاعنين فى السن ، يكتوون بنيران التجارب والعبر ، فيفيئون ويندمون ، وأما عهد الشباب فإنه كما يقولون قطعة من الجنون ، والشاب محتاج إلى مزيد من الرعاية والعناية ، لأن دمه فائر ، وجسمه ثائر ، وعقله طائر ، وخياله دائر وذاته تتعرض لأزمات نفسية وزلزلات عاطفية إذا لم تجد المرشد الأمين والموجه الحكيم عصفت باتزانه وكيانه ، والناس يتساءلون عن انحراف الشباب ، ويلعنون فساد الشباب ، ويضعون على أكتاف الشباب كل التبعة فيما هم عليه من خسران وضلال ، ومع أننا لا نخلى الشباب من التبعة ، نرى أن هناك كثيراً من الأسباب القوية والعوامل العنيفة تدفع الشباب إلى التحلل من الواجبات ، وتعاونهم على الانغمار فى خضم الشهوات ، وحسبنا أن ننظر إلى العوامل التى من صميم واجبها أن تثقف الشباب وتهذبهم ، فنجدها بدل ذلك تدفعهم دفعاً إلى الانحراف فى السلوك والاختلال فى التصرف عمداً أو بغير عمد.

خذوا المدرسة مثلا . . . إنها إنما أوجدت لتهذب وتؤدب وتربى ، ولكن هل نجحت المدرسة فى رسالتها ، وهل حافظت على أمانتها ؟ . ها هو ذا سيد مفضال ، هو لواء طبيب ، وتثقف بالثقافتين الشرقية والغربية ، يكتب إلى رسالة حزينة كلها لوعة ، ويذكر فيها أن كتب النصوص الأدبية المقررة على طلاب المرحلة الثانوية وطالباتها فيها قصائد غزلية مكشوفة ، وقصائد

خمرية فاضحة وهذه القصائد مقررة على الطلاب يدرسونها ، ويتفهمون شرحها ويحفظونها ، ويمتحنون فيها : البنين والبنات على السواء ، ويقول اللواء المسلم إن الطلاب ومعهم الطالبات — تكون أعمارهم فى هذا الدور من التعليم بين الخامسة عشر والثامنة عشر ، أى يكونون فى دور المراهقة والثوران العاطفى والهياج الجنسى ، ويقول اللواء إنه قد أخذ كتاب النصوص من ابنة شقيقه وأرسله إلى مع خطابه الذى يذكر فيه على سبيل المثال أرقام الصفحات التى وردت فيها القصائد ، فهذه قصيدة فى وصف جسم إمرأة ، وقصيدة ثانية فى تصوير الضمات والقبلات ، وثالثة فى وصف راقصة ، ورابعة فى وصف كأس الخمر . . . الخ . . . فهل هذا الزاد المثير المزلزل يعاون على التأدب وتحسن الأخلاق ؟ . .

وهذا عالم أزهرى يحدثنى فى الموضوع نفسه ، فيذكر أنه كان يجلس مع ابنه — وهو طالب فى المرحلة الثانوية — ليشرح له نصوص الأدب الغزلية والخمرية المكشوفة ، فيحتاط فى الشرح ، ويتحفظ فى التفسير ، ومع ذلك كان التلميذ يبتسم حيناً ، ويطأطىء رأسه خجلا ، أومتكلفاً الخجل حيناً آخر ! ! . . فأين المعوان على تلطيف النفوس وتهذيب الغرائز وكبح جماح الشباب ! ؟ . .

وخذوا الصحافة بعد المدرسة . . . الصحافة الموجهة للرأى المكيفة للمشاعر . . . أتحمل إلى الشباب الدين والأخلاق وكريم المبادىء أم تحمل إليهم التغرير والتضليل ؟ . أتهديهم سواء السبيل أم تبعدهم عن كل سبيل قويم ؟ . . أتفتح عيونهم على ما يسر أم على ما يسوء من أخبار أو أسرار ، ومجون وفجور ، ومثيرات للشهوات ومحرضات لغرائز الحيوان ؟ . . ماذا تترك فى نفس الشباب — مثلا — تلك المجلة الزائعة الانتشار مع الأسف التى

ينقل إليه خبر طراز الخبر الذى يقول إن رواد الملاهى والبارات كانوا يشكون فى الأيام الأخيرة من الظمأ والعطش لندرة الخمر الأجنبية ، بسبب انقطاعها من الخارج ، ومنذ أيام انفرجت الأزمة لأن إحدى الشركات استطاعت التغلب على هذه العقبة ، وأخذت تمد المحال العامة بحاجتها من الخمور المختلفة ، وقد تعاقدت الشركة مع هذه الملاهى على توريد كميات كبيرة من أفخر أنواع « الويسكى » وأجودها ، وعادت الابتسامات إلى شفاه رواد الملاهى « والكازينوهات »[١] .

ماذا يكون شعور الشاب حين يقرأ فى مجلة أخرى متحللة أن إحدى النساء قد اشترت كلباً جميلا ، وقامت باستعدادات هائلة فى منزلها من أجل هذا الكلب ، فاشترت له مجموعة من الملاعق والأطباق الحمراء ليستخدمها الكلب المصون فى طعامه ، وأعدت له حجرة نوم كلها من الحرير الأحمر ، وهى تدعو كل أسبوع مجموعة من صديقاتها لمقابلة الكلب « الغالى المحروس »!! . . فى حجرته الحمراء[٢] ! . . . ماذا يكون شعور الشباب حين يقرأون مثل هذا وكثير منهم لا يتمتع ببعض ما يتمتع به ذلك الكلب المحظوظ ؟ ! . . أيستقيم الشبان بمثل هذا الخبر أم ينحرفون ؟ . .

فإذا انتقلنا إلى ميدان السينما وجدنا دورها قد كثرت بيننا كثرة مخيفة مفزعة ، وأصبح إقبال الشباب عليها إقبالا مخيفاً مفزعاً ، والطلاب يهربون من دروسهم ليذهبوا إلى السينما ، ويسرقون النقود من آبائهم أو أمهاتهم أو زملائهم أو الغرباء عنهم ليدخلوا السينما ، وليس هناك رقابة دينية أو روحية على ما يجب أن يعرض وما لا يجب ، وليس هناك نظام لدخول الطلاب دور

---

(١) روز اليوسف .
(٢) صباح الخير ٢٠ يونية سنة ١٩٥٧ م .

السينما ، فهم يدخلون كل الأفلام ، ومنها الأفلام المثيرة ، والأفلام البوليسية الإجرامية ، والطلاب يشاهدون ويتأثرون ، ويخرجون فيقلدون ، وحسبنا أنه قد نشر أن التلميذ الذى صوب فوهة المسدس إلى صدر أستاذه ومدرسه كان فى هذا متأثراً بالسينما ، لأنه كان من رواد الأفلام الخاصة بحرب العصابات ! ! . .

فإذا تركنا السينما إلى الإذاعة التى تغلغلت فى كل مكان وجدناها هى الأخرى تعين على دفع الشباب فى نفس الاتجاه ، فثلاثة أرباع ما يذاع منها تقريباً يدور حول الحب والهوى والغرام والعلاقات الجنسية ، وتحرص الإذاعة على أن تذيع أمثال سلسلة « سمارة وعودة سمارة » لتعرض تفاصيل البيئات المثقلة بأوزار الجريمة ، كما تعترف الإذاعة نفسها ، ومن هنا يتعلم الشباب فنون الإجرام ، ويذهبون لتطبيق ذلك هنا وهناك .

ولعلكم لم تنسوا بعد تلك العصابة التى تكونت من تلاميذ المدارس متأثرة بسلسلة « سمارة » الأولى ، والتى ذهبت تطبق بعض ما سمعته من فنون الإجرام ، وضبطوها وهى متلبسة بما اقترفت ، وقد يكون هناك بسبب هذا أيضاً كثير من الجرائم لم تصل إليها يد الكشف والضبط : : : وما خفى كان أعظم .

وتحرص الإذاعة على أن تذيع أمثال « مطبات الهواء » حيث تعرض فنوناً من الجرائم الخلقية والاجتماعية ، وتعلم السامعين كيف يتخلصون من تبعات هذه الجرائم بالزور والافتراء والتضليل ، فهذه سارقة ساعة يعلمونها كيف تتخلص من عقوبة سرقتها ، وهذه زوجة خائنة يدربونها على تضليل زوجها ، وهذا صديق مخادع يعرفونه كيف يستر خداعه ، وهكذا . . . فحدثونى بربكم كيف يستقيم الطريق أمام الشباب ومن حولهم كل هذه العوامل تحرضهم على الانحراف والتحلل ، وفوق هذا كله مصيبة الفجور الذى برعت فيه المرأة فعرضت لحمها وفتنتها على أنظار الجميع فى كل مكان بلا خجل

أو حياء ! ! . . حتى صار الشبان الضعفاء يتعللون بهذا الفجور ويعتذرون بهذا التبذل الوقح ، فيقولون إن الشاب لا يستطيع أن يعصم نفسه من الإثم أمام هذه الفتنة وذلك الفجور إلا إذا كان ملكاً معصوماً قد نزل من السماء ! ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . يا أبناء الإسلام ، يا حفدة المسلمين الأوائل ، يا رواد المساجد ، يا بقايا الخير فى حنايا المجتمع الصاخب . يا سلالة محمد بن عبد الله ستقولون : وماذا نصنع ؟ ! . . إنكم تستطيعون أن تصنعوا الكثير أيها الناس . . . تستطيعون أن ترعوا أولادكم من أول الطريق ، وأن تتقوا الله فيهم ، وأن تنشئوهم على الإسلام والعبادة ومراقبة الله . . . وتستطيعون أن تكتبوا إلى ولاة الأمور ليصلحوا هذا الفساد ، وتستطيعون أن تكتبوا للمشرفين على المدارس والصحف والإذاعة والسينما ، لتقولوا لهم إنكم لا ترضون هذا التخريب للنفوس والأخلاق . . . إنهم يتعللون بأن الرأى العام يريد هذه الاتجاهات ، وأنتم خلاصة الرأى العام ، فأشعروهم أنكم لا تريدون هذا الضلال ولا تقبلونه . . . فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد . . . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

حول طائفة الاسماعيلية[1]

الحمد لله عز وجل ، أبان المعالم وأوضح السبيل ، وأنزل الهدى وأرشد إلى أقوم طريق : « وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذالكم وصاكم به لعلكم تتقون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، حذر من الفرقة وحض على الجماعة : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا». وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ثبت دعائم السنة وأرسى قواعد الملة ، وجاهد فى الله حق الجهاد ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله المعتصمين بربهم ، وأصحابه المستمسكين بكتابهم ، وأتباعه الحريصين على دينهم « أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » :

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . .

إن نشر الإسلام بين أهليه الأولين لم يكن بالعمل اليسير أو القليل ، فقد كان إخراج الناس من ظلمات الجاهلية إلى أضواء اليقين والإيمان عملا جليلا خطيراً ، وقد بذل الرسول جهوداً ضخمة جبارة لجمع الناس على كلمة ربه ، ولم يوفق إلى ذلك إلا بفضل الله وعونه ؛ « هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » . ولقد ترك النبى أتباعه وهم موحدون متحدون على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك وهذا التوحيد فى العقيدة والجماعة أمانة عظمى يجب أن نحرسها ونصونها ، وألا نفتح الباب لما يفسدها ، ومن فضل الله علينا أنه هدانا إلى سواء السبيل ، فنحن نأتم بالقرآن ، ونهتدى بالسنة ، وننهج نهج السلف الصالح ، فإذا عرض

---

(١) الجمعة ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٧٨ هـ ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٥٨ م .

لنا ما يخالف ذلك كان واجباً علينا أن نحذره ، وأن نباعد بيننا وبينه ، حتى لا تفسد علينا حياتنا ، ولا تنحرف عقيدتنا التى يجب أن نحفظ وتصان :

وقد نشرت صحيفة صباحية[١] منذ أيام مقالا لأحد محرريها يذكر فى صدره أنه سيصل إلى مصر فى أول يناير القادم عشرة آلاف شخص من أبناء الطائفة الإسماعيلية قادمين من أقطار مختلفة للاشتراك فى الاحتفالات الدينية الخاصة بهم التى ستقام فى مدينة أسوان لنقل جثمان زعيمهم وإمامهم أغا خان إلى مقبرته الجديدة ، وقد يبقون شهراً أو شهرين ، ويقترح المحرر سامحه الله أن تستعد الدولة من الآن لاستقبالهم وتستخدم فى ذلك استراحات الحكومة والبواخر النيلية وعربات النوم فى السكك الحديدية وغيرها ، ويوصى المحرر الدولة بأن لا تضيق فى النفقة من أجل ذلك ، لأن فيه دعاية طيبة لنا . . . والمقبرة المذكورة قد بنيت بمئة ألف من الجنيهات غير ثمن قطعة الأرض ، نعم مئة ألف من الجنيهات لمقبرة شخص قد صار جيفة وحطاماً وأشلاء ، وهناك فى كل واد مئة ألف فقير يحتاج إلى جنيه ليستر به جسمه فى هذا الشتاء .

وتقول صحيفة صباحية أخرى[٢] إنه فى الوقت الذى سيبكى فيه أتباع أغا خان الماضى وهم ينقلون جثته ستدق أجراس العرس لأغا خان الجديد وهو يحتفل بزواجه من ممثلة فرنسية ناشئة ؛ وهو كما يصفونه شاب وسيم الطلعة يتعلم الآن فى إحدى جامعات أمريكا . . . ولسنا ندرى وجه الصلة بين هؤلاء « الزعماء الروحيين المعصومين » كما يزعمون وبين الزواج من غانيات باريس وممثلات فرنسا التى أذاقت المسلمين والعرب ألوان الخسف والعذاب ! ! . .

إن أتباع الإسماعيلية لا يعرفون الصوم ولا الحج ، ولا يصلون إلا مرتين

---

(١) انظر جريدة الجمهورية يوم ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٥٨ م .
(٢) انظر جريدة الأهرام يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩٥٨ م .

فى اليوم ، مرة فى الصباح وأخرى فى المساء ، وصلاتهم هى أن ينظروا إلى صورة أغا خان المحاطة بالأزهار بينما يتلو أحدهم أدعية خاصة ، وكلما ذكر إماماً من أئمتهم انحنوا للصورة . . . وهم كذلك يشربون الخمر ويأكلون لحم الخنزير —كما روت الأهرام — ويدفعون الزكاة وهى خمس ما يكسبونه سنوياً للامام ، والإمام يتصرف فيها كما يشاء ، وهذا الزعيم الدينى للطائفة الإسماعيلية التى يكثر فيها الفقراء تبلغ ممتلكاته سبعمائة مليون وخمسين مليوناً من الجنيهات ، لأنه يوزن كل عام بذهب أتباعه ، ويأخذ هذا الذهب لينفق منه كما يشاء ، ويغدق منه على الراقصات فى باريس ، بينما الألوف من طائفته فى حاجة إلى الغذاء والكساء ، وهم مع هذا يعتقدون أنه معصوم يعلم علم الباطن ، وباطن الباطن ، ولا يسأل عما يفعل إلا الخير[1] ، ومن العجيب أن باحثاً سأل أغا خان : هل تعتقد حقاً أنك إله ؟ فأجابه : إن فى الهند من يعبد البقر ، واعتقادى أننى خير من البقر ! . . والمؤرخون يذكرون أن الإسماعيلية من طائفة الباطنية الذين يحرصون على التخفى والتستر وجعل عقائدهم أسراراً مطوية ، ولقد نشر باحث مصرى بعض تعاليمهم فتلقى خطابات منهم تهدده بالقتل ، والباطنية هم الذين استغلوا فرصة هجوم الصليبيين على الشام وبلاد الإسلام فانضموا إلى الصليبيين وخانوا المسلمين ؛ ولما استولى الصليبيون على ما استولوا عليه قربوا منهم هؤلاء الباطنيين واستعانوا بهم ضد المسلمين ، وظلوا يكيدون للعرب والمسلمين فى عهد صلاح الدين ، ولما أغار التتار على الشام انضم هؤلاء الباطنيون أيضاً إلى التتار ومكنوهم لهم من رقاب المسلمين ! .

والإسماعيلية يعتقدون أنهم أولى الناس بالأزهر الشريف لأن أجدادهم الفاطميين هم الذين بنوه ، ويريدون أولا أن يدرسوا مذهبهم فيه ، ثم يتدرجوا بعد ذلك إلى ما يريدون ، وهم يقولون فيما يقولون إن زعيمهم « داعى الدعاة المؤيد فى الدين » قد ألقى محاضرات بالأزهر فى النصف الثانى من القرن الخامس

---

(١) انظر كتاب المذاهب الاسلامية للشيخ ابو زهرة ٩٥ ، ٩٦ .

الهجرى ، ومعنى هذا — بالمفهوم والفحوى — هو : ولماذا لا يلقى الاسماعيليون اليوم محاضرات فى الجامع الأزهر ؟ . . فهم أحق به وأولى ! ! . . ومن الحقيقة أن الأزهر قد أقيم أولا ليكون معهداً للدعوة الفاطمية ونشر مذهبها ، ولكن الله شاء للأزهر أن يصير حصناً للاسلام ومعقلا للغة القرآنية وجامعة كبرى للعلوم الدينية والعربية ، فهل نريد انتكاس الداء وبعث الفتنة وتكرار المأساة ! ؟ .

إن فتح الباب على مصراعيه لنشاط طائفة غريبة منحرفة عن الإسلام فى بلاد الإسلام ، ولمقابرهم واحتفالاتهم ووفودهم أمر له خطورته وعواقبه السوذ ، لأن هذا سينشر أفكارهم وآراءهم فى وسط الأمة المسلمة المطمئنة ، فيدخل عليها التبلبل والاضطراب ، ومن الواضح إن جمع الأمة على كلمة سواء يحتاج إلى أشق الجهود ، ولكن تفريقها إلى عصبيات لا يحتاج إلى مثل ذلك ، والرسول يقول : حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات . وعدوى المريض للسليم مشهورة ، ولكن السليم لا يعدى المريض بصحته ، وهؤلاء قد بنوا اليوم مقبرة لزعيمهم ، وسيبنون غداً بجوارها مسجداً ومدرسة وهلم جرا وهم سيعتبرون مقبرة « إمامهم » مكاناً مقدساً يحجون إليه كل عام أو فى كل حين وأوان ويبثون من حوله تعاليمهم ومبادئهم فى وسط شعب مؤمن مستمسك بتعاليم قرآنه وسنة نبيه وطريقة أسلافه الأئمة الصالحين ، ونحن الآن فى فترة تجميع للمسلمين وتوحيد لكلماتهم ، لا فى فترة بعث للخلافات والعصبيات ، أو تحريك للدعوات والمذاهب ، واستعانة بالمال والجاه فى إثارة طائفيات دينية ، ونحن فى بلادنا لا نعرف والحمد لله هـــذا التطرف الدينى ، فليس بيننا حزب للسنة وحزب للشيعة وحزب للاسماعيلية ، بل من فضل الله علينا أنه جمعنا على الكتاب والسنة وأقوال الأئمة الأربعة المألوفة ، فلا تحركوا العصبية أيها الناس ، والفتنة نائمة لعن الله من أيقظها ،

والرسول يقول : تفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، ثنتان وسبعون فى النار : وواحدة فى الجنة وهى الجماعة . ويقول : تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتى ! . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن من واجبنا أن نسمع هـــذا الحديث ، لكى نعرف هذه الطائفة ومبلغ بعدها عن صراط الجماعة الإسلامية ولكى نحذرهم ونبتعد عنهم ، وننبه المسئولين إلى خطورة الموضوع ، فلا يزال هناك متسع لوضع حد لهذه المساعى الغريبة المثيرة للريب الشديد والظن المعلق ، ونسأل الله أن يوفق كل فرد فى الأمة لأداء ما يستطيعه لجمع الكلمة وإطفاء نار الفتنة ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

مدرســة للشيطان(١)

الحمد لله تبارك وتعالى ، ينصر الحق وأهله ، ويخذل الباطل وشيعته : « والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يغار من الحرام ويغار على الحرمات ، ويأمر بالتعاون على فعل الخيرات ومجاهدة المنكرات : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، لم يخش فى الحق لومة لائم ، ولم يخف فى الله غضبه غاضب ، فعليه من ربه الصلاة والسلام ، وعلى آله الكرام ، وأصحابه الأعلام ، وأتباعه هداة الأنام : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يوجد فى المجتمع الحديث مدرسة خطيرة كبيرة الخطر ، مؤثرة بعيدة الأثر ، ابتدعها عقل الإنسان ، وكان من الممكن — بل إنه من الواجب — أن تكون مدرسة للاهتداء بهدى الرحمن ، أو لتثبيت أركان العقيدة والإيمان ، لتدعيم قواعد الديار والأوطان ، ولكنها مع الأسف صارت مدرسة للشيطان .. أتدرون ما تلك المدرسة أيها الناس ؟ .. إنها مدرسة السينما .. السينما التى انتشرت فى كل مكان ، واجتذبت إليها الملايين بعد الملايين ، والتى زاد عددها زيادة هائلة مرعبة ، وغلبت المساجد والمدارس والجمعيات والتى انحرفت انحرافاً كبيراً عن جادة الطريق واستبدت بالأموال والأوقات ، واستحوذت على قلوب الناس واهتمامهم . . ولقد تجد مثلا بعض نواحى القاهرة لا يوجد فيها

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٧ هـ ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٥٧ م

مسجد أو مدرسة ، ولكنك قد تجد فيها أكثر من دار للسينما ، وفى القــاهرة شوارع يوجد فى كل منها عدة دور للسينما ، بل يوجد فى ميدان الطاهرة البتول السيدة زينب مثلا أربع دور كبيرة للسينما . . :

والدراسة فى مدارسنا بضع ساعات من النهار ، وأكثر المدارس تأخذ بنظام « نصف اليوم المدرسى » لقلة المدارس وضيقها عن التلاميذ ، وأما ساعات السينما فإنها تبدأ من العاشرة صباحاً وتمتد إلى منتصف الليل ، أى أنها تستمر أكثر من اثنتى عشرة ساعة ، لأنها تعرض أفلامها كل يوم أربع مرات ! . . وناهيكم بالعرض الأول ، وهو عرض الساعة العاشرة صباحاً . . إنه مكمن الداء ، فالتلاميذ الذين لا رقابة عليهم يهربون من المدارس ويتواعدون مع الفتيــات أو غير الفتيات على الذهاب إلى السينما فى هذا الوقت . . . كما يذهبون إليها فى غير ذلك من الأوقات ولم لا يفعلون والسينما عندهم أكثر جاذبية من المدرسة . ونجوم السينما وممثلاتها وراقصاتها أجمل فى أنظار التلاميذ من وجوه مدرسيهم ، وفى المدارس يتعلمون أشياء ثقيلة الظل عليهم ولكن السينما تعلمهم الحب الرخيص والهوى الملوث والتفسخ من الأخلاق والتحلل من الواجبات ؟ . .

ولم يفعلون والرقابة ضعيفة ، والتسلية البريئة قليلة ، والمحرضات على جذب الأحداث والتلاميذ والطلاب إلى السينما كثيرة يتفنن فيها أهلوها تفنن الأبالسة : حتى جعلوا هؤلاء التلاميذ يستهينون بكل حرمة فى سبيل الذهاب إلى السينما ، فهم يتركون دروسهم ويهربون من مدارسهم لأجلها ، وهم يسرقون النقود كى يحصلوا على تذاكرها ، وقد يسلكون أقذر الوسائل وأحطها لدخولها ، والمسئولون عنهم لا يشعرون ، أو هم يشعرون ولكنهم يهملون ويفرطون ! . .

هذا ممثل سينمائى أراد أن يعلن عن فيلم من أفلامه ، فابتدع طريقة جديدة فى الإعلان ، هى أنه طبع هذا الإعلان على جدول من جداول حصص الدروس ، وأخذ يوزع نسخه الكثيرة على طلاب المدارس ، وطالباتها وعلى هذا الجدول المطبوع ظهر بطل الفيلم وبطلته متعانقين متحاضنين فى قبلة عميقة فاجرة ! . . وحول خانات الحصص المدرسية طبعوا أسماء الممثلين والممثلات وكأنهم يريدون أن يقولوا للتلاميذ والتلميذات : دعوكم من مدارسكم ودروسكم ومدرسيكم ، وتعالوا إلى مدرستنا فهى أجمل ، وإلى ممثلاتنا فهن أروع وأرشق ! .

وكتب الممثل على الجدول يقول إنه « يهنئ الطالبات الفاتنات الناجحات بالسنة الدراسية الجديدة ويتمنى لهن أطيب التمنيات وتحقيق آمالهن السعيدة بمشاهدة فيلم . . . » . . . أرأيتم وسمعتم ؟ . . إنه يهنىء الطالبات « الفاتنات » — وأظن أن معنى الفتنة معروف — يهنىء الفاتنات فقط ، أما الطالبات غير الفاتنات فلا ، وأما المتوسطات فى الجمال فلا ، فالمقياس عنده فى الطالبات هو الفتنة ، لا الدين ولا العلم ولا الأخلاق ! ! . . وهو يحصر تحقيق آمال هؤلاء الطالبات فى مشاهدة فيلمه المعلن عنه ! . . . ولست أدرى السر فى أن البطل الرجل يهنىء « الطالبات » الإناث ، بينما نجد البطلة المرأة تهنى — فى هذا الجدول المطبوع — الطلاب الفتيان الذكور ؟ ! : : : ألذلك حكمة أيها الحكماء ؟ . . .

وقد وضعوا اسم الفيلم فى هذا الجدول تحت عنوان « الحصة الثامنة » ! . أى ختام الدروس عند هؤلاء يجب أن يكون فى السينما لتهدم ما بنته المدرسة ! . وجاء فى الإعلان أيضاً أن يوم الجمعة « مخصص لمشاهدة الفيلم ما عدا أيام الزوغان » ! . ومعنى هذا أن أيام الزوغان من المدرسة لها ذكر وسيرة عند صاحب الفيلم ! . . أفليس هذا تحريضاً ملفوفاً على الهروب من المدرسة لأجل السينما ؟ . . أليس هذا تشجيعاً على الإثم والانحراف ؟ ! . أليست هذه

دعوة لإفساد الطلاب والشباب ؟ . . أين أنت يا وزارة التربية ؟ . . أين أنت يا وزارة الإرشاد ؟ . . أين أنت يا هادى الطريق ؟ . . أهكذا نترك هؤلاء يوزعون على طلابنا وتلاميذنا وبناتنا جداول حصص تكون تحت أبصارهم باستمرار وفيها هذه السموم المثيرة الخطيرة ؟ . دون هذا ويذهب حلم الحليم . .

لقد قرأنا فى الصحف بالأمس أن ثلاثين صبياً من الأحداث قد فروا من مؤسسة البنين بحى العجوزة ، وتشتتوا فى أرجاء القاهرة بعد أن سرقوا بعض الأشياء ، وقد تقرر تقديمهم للمحاكمة غيابياً لأنهم لم يجدوهم ، ومن يدرى ، فلعلهم قد ذهبوا ليتلقوا الدروس هناك .. هناك فى ظلمات السينما ! ! . .

يا عالم ، يا ناس ، يا خلق ، يا بنى آدم . . . إن البلاء قد طم وعم على أيدى هذه السينما . . . فهذا والد يقرر كما نشرت الصحف — أن زوجته ذهبت مع ابنته الطالبة لمشاهدة فيلم سينمائى تعرضه مدرسة ثانوية للبنات ، ففوجئت الزوجة بأن الفيلم غرامى صارخ ملىء بالقبل والخلاعة ، وأن العامل المشرف على عرض هذا الفيلم كان يقرر عرض بعض المناظر المثيرة التى تنال استحسان البنات وجميعهن فى سن المراهقة ، ويقول الوالد إن المدرسة قررت عرض الأفلام السينمائية أسبوعياً ، وهو يطالب باختيار الأفلام الصالحة للعرض بدل الأفلام الخادشة للعرض ! . . وهذا هو « البابا » المسيحى قد ضج بالشكوى من موجة الأفلام الغريزية التى تجتاح المراهقين بوسائلها الخبيثة الماكرة ، وتخاطب أخطر ما فى أعماقهم من غرائز وأحاسيس ، وتنحرف بهم عن سواء السبيل ، وقد طالب « البابا » بالقضاء على هذه الأفلام القذرة حفظاً للبشرية من التردى فى هاوية الرذيلة ! . . هذا فى الوقت الذى تغمر فيه الأفلام الغريزية الفاضحة من الخارج ، والذى تغمرنا فيه الأفلام الجنسية القذرة من الداخل ، وهناك ما يقرب من خمسين فيلماً لا تخرج موضوعاتها

عن الحب واللذة الجسدية والاتصال الآثم بين الرجل والمرأة . . . والعجيب عندنا أن الفيلم إذا زادت وقاحته منعوا دخوله عن الذين لم يبلغوا ستة عشر عاماً من أعمارهم ، أى الذين يبلغوا سن المراهقة والتأثر والانفعال ، أما الذين بلغوها وصاروا وقوداً صالحاً للاشتعال فهؤلاء يدخلون هذه الأفلام ، وليعطنى أحدكم عقله لأفهم به ، فهذا منطق تضيع معه العقول ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . يا أحفاد المسلمين الأوائل . . . يا بقايا الخير فى حنايا المجتمع الصاخب . . .

الأمر فى هذا المجال منكم وإليكم أولا وقبل كل شئ . . . أنتم الجمهور الذى يؤثر فى إقباله وإدباره ، فابذلوا جهدكم لحفظ أنفسكم وأبناءكم وبناتكم من هذا الطوفان ، واجأروا بالشكوى إلى ولاة الأمور من هذا البلاء ، ولا تدعوا وسيلة من وسائل القول أو الكتابة أو النقد أو التوجيه فى هـذا الباب ، وعلى الدولة أن تتذكر جيداً أنها قد تبنى فى جهة ومعاول التخريب على هذا الطراز تهدم فى جهات ، فلتضرب الدولة على أيدى هؤلاء الهادمين ليسلم الوطن الأمين ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . . .

حول التلفزيون[1]

الحمد لله عز وجل ، خلق الخلق ، وأجرى الرزق : « ذلك الفضل من الله ، وكفى بالله عليماً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، أقام المعالم ، وحدد المحارم ، ووعد بالثواب وأوعد بالعقاب : « من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أرشد وعلم ، وهدى وقوم ، فكانت أمته خير أمة أخرجت للناس ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله : « أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هذه المدنية الحديثة فيها وسائل كثيرة من وسائل الثقافة والترفيه وترقية الحياة ، وكل وسيلة من هذه الوسائل لها جانبان ، أحدهما يجلب الخير ويحقق الفائدة ، والآخر يسبب الشر ويفضي إلى الأذى ، فالمسرح والسينما والإذاعة والصحافة أدوات عظيمة التأثير وهي تنفع وتفيد على أوسع نطاق ، حين يسيطر على توجيهها وتصريف شئونها الإخلاص والحكمة ، وهي تسيء وتؤذي على نطاق واسع إذا انحرفت عن الصراط أو اعتسفت في المسير ، ومن واجب المسئولين عن هذه الأدوات والوسائل أن يحولوا دون استغلالها فيما يهدم أو يحطم ، حتى يمكن الانتفاع بما في هذه المدنية من طيبات ، وتجنب ما تحويه من سموم وآفات . . . وهذا مثلا هو جهاز « التلفزيون » قد أقبل على بلادنا كأداة حديثة براقة جذابة من أدوات المدنية المعاصرة ، ولا شك

---

(١) الجمعة ٢ ربيع الثاني سنة ١٣٨٠ هـ الموافق ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٦٠ م .

أن جهوداً كبيرة قد بذلت لتتحقق الإذاعة بالتلفزيون ولكن هذا التلفزيون بدأ يسبب لنا متاعب وقلاقل ، ، فقد تسابقنا إلى شراء جهازه ، وجعل بعضنا يكلف نفسه شططا فى سبيل الحصول عليه ، ولو بالدين أو الاقتراض أو غير ذلك من الوسائل ، كيلا يقال عنه إنه متخلف عن غيره الذى اقتنى الجهاز .

وهذا الجهاز يحتاج فى رعايته وصيانته إلى جهد وإصلاح ، ويحتاج إلى غطاء مرتفع الثمن ، ويستنفد من التيار الكهربائى جانباً كبيراً ، وكل هـذا قد يحتمله الكثيرون من الناس ، وقد يكون بجانب غيره من المشكلات والأضرار ، فهناك خمس ساعات تمضى من حياة أصحاب الأجهزة ، وقد أطفئوا الأنوار ، وأقبلوا على مشاهدة العرض ، الكبار والصغار ، والنساء والرجال والفتيان والأطفال ، وكثيراً ما يترك الأولاد واجباتهم ودروسهم فى سبيل هذه المشاهدة ، وقد تتألم عيونهم من انبهارها بضوء الشاشة الساطع وقد يحسون بهذا الألم فى قوة ، ومع ذلك يواصلون السهر والمشاهدة ، وقد يمكن احتمال هذا كله لو أن الثمرة المقطوفة من ورائه تزيد على هذه المتاعب ، ولا بد دون الشهد من إبر النحل ، ولا ننكر أنهم يعرضون فى التلفزيون أشياء لها فائدتها وقيمتها ، مما يزيد فى الثقافة ويوسع المدارك ، ولكن جانب الشر أغلب ، فهناك هذا الإلحاح المستمر فى عرض الرقصات المثيرة الخليعة ، وقد زعموا لنا فيما زعموا أن الرقص من نوع « الباليه » الذى يرتدى فيه العارضات له ثياباً فضفاضة ساترة للجسم ، ويؤدين حركات رياضية رمزية لا تمت للناحية الجنسية بصلة ، فإذا بالرقص يصير عرضاً للأفخاذ والأرداف والصدور والنحور ، وإذا رقصات البطن تأخذ حظها من العرض مع غيرها من المشاهد الجارحة المثيرة ومن العجيب أنهم يسمون هذه المشاهد « ليالى

القاهرة ، كأن القاهرة العربية الإسلامية الواسعة ليس فى لياليها إلا الغث واللهو وهز البطون ! ! .

وكأن هؤلاء قد نسوا أن كثيراً من الأسر المسلمة المحافظة على آدابها وتقاليدها قد اشترت جهاز التليفزيون لتعوض نساءها وبناتها عن التردد على السينما والمسارح والسهر خارج البيت ، وقد كان الواجب أن يراعى هذا فيما يقدم على شاشة التلفزيون ، حتى لا تجرح مشاعر هذه الأسر ، فإذا قيل إن هناك أسراً أخرى تتطلب هذا اللون المتحلل من المشاهد فالجواب أن هذه الأسر ترى هذا المباذل من قبل ومن بعد فى المسارح والسينمات والمواخير التى تتردد عليها صباح مساء ، فاتقوا الله فيما بقى من الحياء . . .

ومنذ أيام قليلة عرضوا على الناس فى جهاز التلفزيون فيلماً سينمائياً استمر ساعتين ، وهو يصور لك حياة الرهبان النصارى ، وكيف قاموا بنشر عقيدتهم المسيحية فى الصين ، وكيف نجحوا فى بث تعاليهم ومبادئهم ، والفيلم يحتوى على دعاية للمسيحية قوية محبوكة مؤثرة ، بحيث قال بعض الذين شاهدوه إنه يحبب فى هذا الدين بصورة خطيرة ، فلأى هدف يعرض هذا الفيلم على شاشة التلفزيون فى بيوت مسلمة كثيرة أبناؤها من أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ؟ وبأى لسان يعتذرون عن فيلم يصور أمجاد الرهبانية النصرانية الغربية الدخيلة فى الصين البعيدة عنا ؟ . . وهل فكر هؤلاء مثلا — من قبل أو من بعد — فى أن يعرضوا أفلاماً إعلامية تتناسب فى عددها وقوتها مع هذه الكثرة الضخمة من المسلمين ؟ . إن الأفلام الدينية الأجنبية أفلام مخدومة خدمة واسعة جداً ، فى حبكة الموضوع وروعة الإخراج وبراعة التصوير وأصحابها ينفقون عليها المال الكثير الضخم ، ويتفننون فى عرضها وجذب الناس إليها ، وما زلنا نذكر طائفة من الأفلام الأجنبية الدينية التى توالى عرضها هنا منذ حين

فأثارت الأقاويل ، فإذا جاء التلفزيون ليعرض علينا فيلماً من هذا النـــوع الخطير كان كمن يضع ضغثا على إبالة ، أو كمن يبشر بتعاليم دينية بين مجموعة تؤمن بتعاليم غيرها ، فهل هذا إيحاء بأن يتركوا تعاليمهم ، أو استخفاف بمشاعرهم ؟ . ليتنا نعرف الجواب .

والعجيب أن التليفزيون يعرض ألواناً من البرامج ، فهناك الغناء والرقص والرياضة والأخبار والمرأة والأزياء والأفلام والحفلات الساهرة والحيوانات المختلفة ، وكل شئ استطابوه ، ولكنهم لا يعرضون شيئاً عن الإسلام أو الإيمان ، فليست هناك أحاديث دينية ولا مسرحيات إسلامية ، وليست هناك إذاعة للقرآن الكريم ، وقد احتجوا فى منع الأحاديث بأنه يثقل على المشاهد أن يتطلع إلى وجه المتحدث فترة ممتدة ، فلماذا لا يقولون هذا عن مذيع الأخبار الذى نراه بشخصه كل ليلة لا يتغير ؟ ولماذا إذن لا يمنعون المحاضرات من الأندية والجمعيات ؟ . . وهم يعتذرون عن عدم إذاعة القرآن بأن المرتل يحرك وجهه ويديه بهيئة خاصة غير مستطابة ، فمن الذى زعم لهم هذا ؟ ولماذا إذن لا يمنعون المرتلين من الحفلات والمجتمعات التى يرتلون فيها ؟ ولماذا لا يمنعون المغنية فى التلفزيون من هز رأسها وتحريك يديهاوالإشارة بمنديلها وضرب الأرض بقدميها وغير ذلك من الإشارات ؟ .

إننا نستطيع أثناء إذاعة القرآن فى التلفزيون مثلا أن نخرج صوت القارئ بالصورة المناسبة ، فإذا تلا مثلا قوله تعالى : « وأن المساجد لله » شاهدنا معه صورة الكعبة والمسجد الأقصى ومسجد الرسول والأزهر والجامع الأموى ، وإذا تلا آيات فيها ذكر السموات والأرض استطاعوا أن يعرضوا علينـــا مشاهد للطبيعة والنجوم ، والشروق والغروب ، وإذا جاء ذكر للماء والأنهار استطاعوا أن يعرضوا علينا النيل وبردى والفرات . . . وهكذا يمكن أن تكون إذاعة القرآن فى التلفزيون ترتيلا واعظاً ، وتفسيراً ببعض الصور أثناء

التلاوة ، فما يذكر السامع والناظر بجلال خلق الله سبحانه ، ولكن المشكلة فى الواقع هى محاولة إقناع هؤلاء بأن التلفزيون يجب أن يكون فيه للدين نصيب ! ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . : إنهم يتعللون دائماً فى مثل هـذا المواقف بأن الجمهور يريد إرضاء رغباته باللهو والرقص والغناء المتحلل ، وأنتم جزء كريم من هذا الجمهور فاشعروهم بألسنتكم وأقلامكم أنكم لا تريدون هذه السفاسف من المشاهد ، بل تريدون ثقافة صحيحة ولهواً بريئاً ومتعة طيبة ، وأنا أعلم أن فيكم من لو تحدث إلى هؤلاء لاستجابوا له وسمعوا منه ، ونحن نتحدث بقدر ما نستطيع هنا وهناك ، والله تعالى يقول : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

الاختلاط فى المدارس[1]

الحمد لله عز وجل ، سن شرائع البر والخير ، وسد ذرائع الإثم والشر : « يريد الله أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيماً » أشهد أن لا إله إلا الله ، أمر بطهارة الحس والنفس ، وتزكية الروح والقلب : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أعز كلمة الفضيلة والعفاف ، ونهى عن الشطط والانحراف ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، وصحبه ورجاله ، والآخذين بمقاله وفعاله : « أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

الإسلام دين المشورة والجماعة ، فبالشورى تتضح الأمور وتتمحض الحقائق ، وتلتقى الأمة على كلمة سواء ، ولذلك وصف الله المسلمين بقوله : « وأمرهم شورى بينهم » ، وأمر نبيه وقدوة عباده بقوله : « وشاورهم فى الأمر » ، والرأى العام السليم فى الأمة الفاضلة المستقيمة له قيمته ومكانته ، لأنه يكون عصارة لتفكير المجموع الكثير فى عدده الرشيد فى تفكيره ، ولذلك كان من قواعد الإسلام أن ما رآه المسلمون حسناً فهو حسن ، وقال الرسول صلوات الله عليه : « يد الله مع الجماعة » ، وقال : « لا تجتمع أمتى على ضلالة » ، ولا يستقيم وضع من أوضاع الأمة الموقنة إلا إذا كانت مؤمنة به راضية عنه ، وكان موافقاً لما دعا الله إليه ، داخلا فيما أمر الله به : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » .

---

(١) الجمعة ١٨ ذى القعدة سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ٦ يونيــة ١٩٥٨ م

وقد نشرت الصحف[١] أن القائمين بأمور التربية والتعليم قد أعدوا استفتاء لأولياء أمور التلاميذ ولنظار المدارس ومدرسيها للوقوف على رأيهم فى نظام الاختلاط بين الذكوروالإناث فى التعليم ، لأنهؤلاء المعدين للاستفتاء يبحثون مشروعاً للتوسع فى هذا الاختلاط على ضوء هذا الاستفتاء ! ! ولا جدال فى أن تعرف رأى الجمهور فى الأمور الجليلة تصرف محمود ، ولكن هذا الاستفتاء المشار إليه لم يبدأوا فى إعداده إلا بعد أن أخذت الدولة فعلا بنظام الاختلاط بين الفتيان والفتيات فى عدد من المدارس هنا وهناك ، وترددت الهمسات بأن هذا تمهيد لفتح الباب على مصراعيه ، وأن الغـد كفيل بتعميم الاختلاط فى التعليم . وقد كان الوضع الطبيعى أن نستفتى الجمهور قبل البدء فى هذا النظام . حتى يكون الاستفتاء فى زمانهالملائم وتكون له ثمرته الصحيحة ، وكان الأولى أن نستفتى عقائدنا وتقاليدنا قبل هذا وذاك ، وكان الأولى أن ننتفع بتجارب غيرنا فى هذا الباب ، بدل إضاعة الجهود والأوقات وتعرضنا لخطير النتائج ووخيم العواقب . ولقد مضى علينا مئات من السنين ، والفتيان يتعلمون فى مدارسهم ، والفتيات يتعلمن فى مدارسهن ، دون شكوى من هذا الاستقلال والانفصال بين مدارس البنين ومدارس البنات ، فأية ضرورة ملحة أو مصلحة عاجلة لازمة أوجبت علينا أن نخلط الذكور بالإناث فى التعليم ؟ . .

هنا يقولون : إن الإختلاط بين الجنسين يخفف طغيان الكبت ، ويهدئ حدة الغريزة ، ويهذب عواطف الجميع . وهذا القول يعجب كثيراً دعاة التحلل الأخلاقى الذين يبيتون ما يبيتون ، ويبتغون ما يبتغون . والذين فرحوا كثيراً بما فعله القائمون على شئون التعليم فى هذا الباب منذ أمد بعيد ، فقد بدأوا بخلط الشباب والشابات فى الجامعة قائلين إن لطلبة الجامعة من الحصانة والتجربة

---

(١) يوم الخميس ٥ يونية سنة ١٩٥٨ م .

ما يقيهم الزلل ، ثم خلطوا الذكور والإناث فى مدارس الحضانة والمرحلة الأولى قائلين إن الجميع فيها أطفال لم يبلغوا الحلم ، ولم يعرفوا شيئاً عن الجنس ثم شرعوا يخلطون بين الفتيان المراهقين والفتيات المراهقات فى المراحل التالية لذلك ، فيجمعون بين الفريقين وهما فى أدق دور من أدوار الاحتدام العاطفى والانفعال الحسى والاستجابة لنداء الجنس والاندفاع مع جواذب البدن

وليتهم يفعلون ذلك عن أصالة وإيمان واعتقاد ، بل هم يفعلونه متابعة وتقليداً للغرب الذى أصابه من جراء الاختلاط والتحلل الجنسى ما أصابه من بلايا ونكبات ، وطالما ترددت الأنباء والأخبار تروى لنا المذهل المؤلم عن هذه البلايا والنكبات ، ومما نشرته الصحف فى الأسبوع الماضى [1] أن المجتمع الإنجليزى قد اهتز بسبب الاختلاط فى المدارس ، واندفع الآباء إلى المدارس المختلطة يسحبون منها بناتهم ، وعقد رجال الدين والأخلاق والنفس اجتماعات طويلة لبحث هذه البلوى ، فقد حدثت حوادث فاجعة مؤلمة فى هذه المدارس وأخذت فى بحثها محكمة الأحداث بلندن بينما أخذ العرق يتصبب من وجوه الآباء والأمهات خجلا مما عرفوا ومما سمعوا ، فهذا عدد من فتيات المدارس المختلطة يعترفن أمام القاضى بأنهن قد قمن بالاتصالات الجنسية مع زملائهن فى المدارس ، وأعمار الفتيان والفتيات قريبة من ثلاثة عشر عاماً وأربعة عشر عاماً ، وقررت بعض التلميذات أن أغلبية الفتيات فى المدرسة على خبرة عملية بالاتصال الجنسى ، وأن اللواتى ليست لديهن خبرة عملية به إنما هن « أقلية لا تذكر » ! ! . .

وإحدى فتيات هذه المدارس اعترفت بأنها اتصلت اتصالا جنسياً بستة تلاميذ ، واعترفت غيرها وغيرها ، حتى صاح القاضى الإنجليزى قائلا : « هذه دناءة لا تعقل » ! . . . وبرغم شناعة ما عرضه الفتيات وقرنه

---

(١) جريدة الشعب فى ٣٠ مايو سنة ١٩٥٨ م .

فإن مفتش البوليس صرح بأنه من المنتظر أن تعرض على المحكمة قضايا أخرى فى هذا اللون ! . .

يحدث هذا فى انجلترا الدولة العجوز التى أخذت بنظام الاختلاط منذ عهد بعيد ، والتى نالت من الثقافة ما نالت ، وادعت الارتقاء بتقاليدها ما ادعت ، وزعمت لنفسها وللناس أنها هذبت نساءها ورجالها ، وأزالت الكبت عن فتيانها ، وتغلبت على الغريزة الجنسية بالاختلاط والرياضة والعلوم والفنون وغيرها من الوسائل . . وهذه لندن عاصمة انجلترا تهتز وترتجف بسبب ما حدث فى مدارسها المختلطة ، ويخجل منه نساؤها ورجالها وليس من طبيعتهم الخجل ، بل من طبيعتهم البرود الذى يضرب به الأمثال ، وجوهم فوق هذا غير جونا ، وتقاليدهم غير تقاليدنا ، ومستواهم الثقافى غير مستوانا ، ونظرتهم إلى العرض والعفة والشرف غير نظرتنا ، وعقيدتهم غير عقيدتنا ؛ أفلا يكون فى هذا عظة وعبرة لنا يا ناس ، يا عالم ، يا خلق ، يا بنى آدم ! ؟ .

فلنتذكر جيداً أن الله قد خلق هذه الحياة من عنصرين يتجاذبان هما الذكر والأنثى ، نجد هذا فى الإنسان والحيوان والنبات ، بل نجد عنصرين متجاذبين فى الكهرباء والكرة الأرضية والذرة ، أحدهما القطب السالب والآخر القطب الموجب ، وليس عيباً أن تشتهى المرأة الرجل ، أو يشتهى الرجل المرأة ، فتلك طبيعة مخلوقة وجبلة موروثة ، وليس عيباً أن يرضى الرجل أو المرأة هذه الشهوة بطريق مشروع غير ممنوع ، ولكن العيب كل العيب هو أن نقدم لهذه الشهوة غذاءها بطريق شاذ أو أسلوب محرم ، أو أن نفتح باب الثورة والغليان أمام هذه الشهوة حتى يصير أهلها كأنهم من الثيران لا من بنى الإنسان ، ولو تغافلنا فى هذا المقام عن كل الاعتبارات ، لما استطعنا أن ننسى أن اختلاط الفتيان بالفتيات فى التعليم يهيئ الجو الخطير للاثارة الجنسية ويحرض

بظروفه الكثيرة على العلاقات المنحرفة، ويفتح الباب للاتصالات الآثمة والخلوات الضارة ، ورسولكم يقول : « إياكم والخلوة بالنساء ، والذى نفسى بيده ما خلا رجل بامرأة إلا ودخل الشيطان بينهما » . والحاكم العــادل عمر بن عبد العزيز يوصى ميمون بن مهران فيقول له : « إياك أن تخلو بامرأة غير ذات محرم ، وإن حدثتك نفسك أن تعلمها القرآن » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . قولوا لدعاة الاختلاط بين المراهقين والمراهقات فى التعليم : إننا نريد أن يتربى أولادنا لا أن يتحللوا ، وأن يتعلموا لا أن يعشقوا ، وأن يتحصنوا لا أن يتهدموا ، وأن يرتقوا ويتقوا لا أن ينزلقوا ، وأن ينشأوا متدينين مؤمنين لا أن ينشأوا ملحدين منحرفين ، وأن يكونوا أبناء إسلام وأخلاق ، لا ضحايا لاتجاهات غربية ومذاهب طارئة غير مرضية ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . . .

بين العــدل والفضــل[1]

الحمد لله عز وجل ، يحكم بالعدل ، ويمن بالفضل ، والله ذو الفضل العظيم ، أشهد أن لا إله إلا الله ، طهر الإنسانية وزكاها ، وكرم البشرية وأغلاها ، إن الله بالناس لرءوف رحيم ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من أدب ، وأفضل من هذب : « وإنك لعلى خلق عظيم » ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « وإن الله لهــادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إذا تطلعنا إلى الناس فى سلوكهم وتصرفاتهم ومعاملاتهم رأيناهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام ، أو ثلاثة أصناف ، فالصنف الأول يمثل صفة الأنانية والاستئثار ، والصنف الثانى يمثل صفة التضحية والإيثار ، والصنف الثالث يمثل صفة التعادل والتماثل ، والملاحظ أن أكثر الناس يمثلون الصنف الأول وهم أصحاب نزعة الاستئثار ، وأن القليل منهم يمثلون الصنف الثالث أصحاب نزعة التعادل ، والأقل النادر منهم هم الذين يمثلون الصنف الثانى وهم أصحاب نزعة الإيثار ، وصاحب صفة الاستئثار رجل أنانى ، يغلب عليه حبه لنفسه وإرضاؤه لذاته ، فهو يريد أن يأخذ ولا يعطى ، وأن يطالب ولا يقدم ، وهو يحاول دائماً أن يأخذ أكثر مما يستحق ، وأن يستحوذ على أكبر قدر يستطيعه ، وأما صاحب الإيثار فرجل شهم نبيل أريحى ، يعطى أكثر مما يأخذ ، ويخدم أكثر مما يتنعم ، ويقدم غيره على نفسه ، وأما صاحب التعادل فهو يأخذ بشرعة

---

(١) الجمعة ١٨ شوال سنة ١٣٨٤ هـ ١٩ فبراير سنة ١٩٦٥ م .

المماثلة ، ويمضي على طريقة المقابلة ، يقول هذا حقى وهذا حقك ، لا تظلمنى ولا أظلمك ، ولا أفرط فى شيء لى ، ولا آخذ شيئاً لغيرى .

ومن الواضح أن الاسلام العظيم يحمل حملة صارمة على أهل الاستئثار لأن الاستئثار أنانية بشعة ، ولذلك يقول القرآن الكريم : «وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية» . كما أنه حين يدفع بصاحبه إلى مواقف الصغار واللؤم فهو إن أصاب القوم المجاهدين شر فرح لمصيبتهم وشمت فيهم ، وقال قولة النذل الخسيس : « قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيداً » ، وإن أصاب القوم خير وفوز تحسر وندم ندامة الجشع المنهوم ، وقال : « يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً » . كما أن الاستئثار ظلم للناس وهضم للحقوق « وقد خاب من حمل ظلماً » ، ولذلك قال القرآن المجيد : « ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين » . والإسلام يجعل التعادل أمراً وسطاً ، فهو يعده الرخصة المسموح بها دون نص على ثواب لها ، ولذلك نجد القرآن الكريم حينما يتحدث عن موقف التعادل والمقابلة بالمثل يكتفى بتقرير الإباحة والجواز وعدم الحرج فى ذلك ، دون أن يذم أو يمدح ، فيقول مثلا : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ، ويقول : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » ، ويقول : « وأحل الله البيع » لأن البيع مقابلة وتعادل ، ويقول عند الإقلاع عن الربا : « فإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » . ولكن الإسلام بعد هذا ينوه بمكانة الإيثار العظيمة ، ويعد عليه بالثواب الجزيل ، فيقول مثلا : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ويقول : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً

ويتيماً وأسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضره وسروراً وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً » .

والعجيب فى صنع القرآن أنه فى مواطن إباحته لطريقة التعادل والمقابلة بالمثل يذكر بطريقة الفضل القريبة من شرعة النبل والإيثار ويثنى على هـذه الطريقة ويحبب فيها ويثيب عليها ، فبعد أن يجيز المعاقبة بالمثل يقول : « ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » وبعد أن يقول : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » يقول : « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » وبعد أن يجيز الانتصار عند الظلم يقول : « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » ، وبعد أن يجيز الإبقاء على رأس المال الأساسى عند التوبة من الربا ورد هذا الربا إلى صاحبه المدين يقول : « وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ، وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون » . والإسلام بعد هذا يحبب تحبيباً عاماً واسع النطاق فى المعاملة بأسلوب الفضل والعفو والكرم ، فيقول القرآن : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » . ويقول : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » فهو يريد منهم أن يتدرجوا من كظم الغيظ إلى ما هو أعلى منه وهو العفو عن الناس ، ثم إلى ما هو أعلى من العفو عنهم وهو الإحسان إليهم . والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول فى حديث له : « أوصانى ربى بتسع أوصيكم بها » ويذكر من بين هذه الخصال التسع قوله : « وأن أعفو عمن ظلمنى ، وأصل من قطعنى ، وأعطى من حرمنى » .

قد يقال : ولكن الله تبارك وتعالى قد نوه فى كتابه بالعدل والعادلين ، والعدل هو طريق التعادل والتقابل والتماثل ، والقرآن يقول : « اعدلوا هو أقرب للتقوى » ويقول : « وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » ، فكيف نهون إذن من مكانه العدل ، أو نقول إنه أقل شأناً من مرتبة التعامل بشرعة الفضل ؟ والجواب ان الله عز وجل قد جعل العدل فريضة لازمة إذا كان المقام مقام فصل بين متخاصمين أو متقاضين ، ففى هذه الحالة لا بد لمن يقضى أو يفصل أن يحكم بالعدل ، وإذا تحرى العدل فى حكمه كان أهلا للثواب من الله ، ولذلك يقول القرآن : « إن الله يأمركم إن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، ويقول : « وأمرت لأعدل بينكم » ويقول : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل » . ولكن الإسلام فى مجالات المعاملة يدعوك أن تكون كريماً نبيلا ، وهو القائل لعباده : « ولا تنسوا الفضل بينكم » والقائل : « وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » والقائل : « وليعفوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

بين دقة العدل وسماحة الفضل تتنقل خطوات الإسلام العظيم ، ليعلم الإنسان أن أقل الدرجات التى يجب أن يلتزمها هى درجة العدل الذى لا يبغى فيها ولا يظلم ، لأن الظلم ظلمات يوم القيامة ، وأن هناك درجة أعلى ينبغى له أن يطمح إليها ويتحلى بها كلما قدر واستطاع ، وهى درجة الفضل والإحسان : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

القـوة الأمينة(١)

الحمد لله عز وجل : هو أقوى الأقوياء ، ومصدر الخير والعطاء : « وإن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، بيده ملكوت كل شئ وهو على كل شئ قدير . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، قائد فرسان النهار ورهبان الليل ، وقائد الغر المحجلين يوم الدين فصلوات الله وسلامه عليه » وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

القوة أمر مرغوب محبوب ، فمن ذا الذى لا يحب أن يكون قوياً فى مختلف جهاته ونواحيه ، والضعف أمر مكروه مبغوض ، ومن ذا الذى يريد الضعف أو يتطلبه ، ولكن القوة طاقة ، وكل طاقة لابد لها من زمام حكمة أو ضمان أمان يقودها ويقومها ، ويحول بينها وبين الانحراف والاعتساف ، والقرآن الكريم يرشدنا إلى أن فضيلة الأمانة هى الضابط للقوة ، وهى صمام الأمان مع الشدة ، ولذلك يقول عن ابنة شعيب حين تحدثت إلى أبيها عن موسى عليه السلام بعد أن سقى لها ولأختها ثم تولى إلى الظل : « قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين » . فهذا موسى كما يقرر كتاب الله المجيد . يجمع بين القوة والأمانة ، أو يتحلى بالقوة الأمينة ، والأمانة القوية القادرة فهو حينئذ شاب قوى فتى جلد ، تبدو عليه الصحة والعافية . وهو فى الوقت نفسه أمين عفيف فى نظره وفكره ، وإذا اجتمعت القوة والأمانة فى إنسان فقد أوسع له ربه فى الفضل والعطاء . وهذا يوسف عليـــه

---

(١) الجمعة ٥ ربيع الأول سنة ١٣٩٤ هـ ٢٩ مارس سنة ١٩٧٤ م .

السلام يمن عليه ربه بصفتى القوة والأمانة ، فهو شاب جميل وسيم ، فيه الرجولة والفحولة ، وتدعوه داعية الفتنة والإغراء ، فلا يستجيب لقوته وحدها ، بل يقودها بزمام أمانة وحصانة : « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون ، ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين » . بل لقد ذكر القرآن الكريم القوة الأمينة ، أو الأمانة القوية حلية للصالحين من الجن : « قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين » . وهكذا يريد الله جل جلاله من عباده أن يكونوا أقوياء أمناء ، والجمع بين القوة والأمانة كالجمع بين قوة المادة وقوة الروح ، لأن الأمانة تمثـــل القوة المعنوية الروحية الأخلاقية ، والقوة وحدها بلا أمانة تؤدى إلى الطغيان والبهتان ، والأمانة مع الضعف عرضة للضياع والانكسار ، ولذلك وصف الله المؤمنين بأنهم « أشداء على الكفار رحماء بينهم » . فقوتهم تستخدم فى موضعها المناسب لها . ورحمتهم تستخدم فى موطنها المناسب لها ، وهذا هو التوازن القويم .

وكما عنى القرآن الحكيم بالإشارة إلى القوة المؤمنة أو الأمانة القوية عنيت السنة المطهرة بذلك ، فقال سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » فلم يفضل الرسول مطلق قوى على مطلق ضعيف ، ولم يقل مثلا « القوى خير من الضعيف » بل قال «المؤمن القوى » فأشار إلى الفضيلتين اللتين تلتقيان فتتعادلان فيكون من ورائهما الخير الكثير . وكم من ضعيف مسالم يكون خيراً عند الله من قوى باطش لا أمانة له ولا استقامة . وكذلك يقول سيدنا رسول الله صلوات الله عليه : « حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرماية ، وألا يرزقه إلا طيباً » . والكتابة

والسباحة والرماية مظهر من مظاهر القوة ، ولكن قوله : « وألا يرزقه إلا طيباً » فيه إشارة بليغة إلى التحرز من السوء ، والتحصن من الحرام ، وما دام الرزق طيباً فى كل وقت فقد طاب المسير وحسنت العاقبة .

من واجبنا أن نتذكر أن ألوان القوة عند الإنسان محتاجة إلى ضوابط من الأمانة ويقظة الروح . إن القوة الجنسية تحتاج إلى ضابط العفة والفضيلة وإلا كانت تحطيماً ، وهتكاً للأعراض ، وإضاعة للأنساب . وسعياً فى الأرض بالفساد ، والقوة البدنية تحتاج إلى حكمة ووقار ، وإلا كانت بغياً وعدواناً : ولذلك يقول القرآن : « ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » . وقوة العلم المادى تحتاج إلى ضابط الأمانة والخشية من الله ، وإلا كان هذا العلم هلاكاً وتدميراً ، ومن هنا قال كتاب الله عز علاه : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » . وقوة البصر تجرح وتفضح إذا لم يكن معها رادع أو وازع من حياء وتعفف وكذلك قال القرآن : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن». وقال على سبيل التذكير والتحذير « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » .

ولننظر إلى قارون . لقد كان صاحب قوة غير عاقلة وغير أمينة ، فكانت وبالا عليه وخسراناً له ، لقد أوتى قوة المال الهائلة المتمثلة فى الكنوز التى تنوء بحمل مفاتحها العصبة أولو القوة ، ولكنه اغتر بها وتكبر ، وقال قولة السوء : « إنما أوتيته على علم عندى » ، فماذا كانت العاقبة ؟ « فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين » .

ورضوان الله تبارك وتعالى على عمر بن الخطاب حين قال يدعو ربه

« اللهم إنى أشكو إليك ضعف الأمين وقوة الخائن » وياله من تصوير دقيق عميق للمجتمع حين يتسرب إليه الفساد ، فإذا التقى النقى أمين مجرد من السلطة مبعد عن التمكن من الأمر ، وإذا الفاسد الخئون تتهيأ أمامه أسباب الطغيان والإفساد . والدنيا اليوم لا تشكو من أمر كما تشكو إبعاد الأمين وتقريب الخئون ، ولو أنصفت الدنيا نفسها وأهلها لوضعت الإنسان المناسب فى مكانه المناسب ، فى ضوء هدى القرآن الكريم القائل : « قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين » . فهداية البشرية اليوم معلق على إيجاد هذه القوة العاقلة ، القوة الفاضلة ، القوة الرشيدة ، القوة الأمينة ، أو الأمانة القوية .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

فلنجعل شعارنا من كلمتين هما : قوة وإيمان ، ولنتذكر أن الإيمان لا يؤدى رسالته دون القوة . كما أن القوة لا تفيد دون الإيمان ، وإذا كان القرآن المجيد قد قال : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة » فقد قال كذلك : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون » .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

الوقــاية خير من العلاج[1]

الحمد لله عز وجل ، كتب البقاء للحق والخير والصلاح ، وتهدد بالفناء والزوال أهل الباطل والضلال : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأماما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال » . أشهد أن لا إله إلا الله محق فسق الجاهلية وظلمات الكفران بنور الحق وهداية الإيمان : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون » .

ونشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جاهد الباطل وأهله ، ونصر الحق وحزبه ، فعليه من ربه أفضل صلاة وأزكى سلام ، وعلى آله ذوى الخير والبر ، وأصحابه السابقين إلى التقى والفضل ، وأتباعه القائمين بدعوة الفضيلة والرشد : « أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم مغفرة ورزق كريم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يقرر الأطباء والعقلاء أن « الوقاية خير من العلاج » ، والوقاية هى حفظ النفس مما يؤذيها وإبعادها عما يضرها ، وإنما كانت الوقاية خيراً من العلاج لأن الحيلولة دون وقوع الداء توفر الكثير من الجهود والمتاعب ، ولأن سد الباب على العلة أسهل بكثير من معالجتها بعد أن تتمكن وتتحكم ، ونحن نستطيع بيسر أن نصد الكثير من الآفات إذا جاءت تريد الدخول . ولكننا قد نفشل فى القضاء عليها إذا فتحنا أمامها الباب وسمحنا لها بالدخول . والقرآن الكريم يشير إلى مكانة الوقاية وأهميتها حيث يقول : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجــارة » وحيث يقول على لسان

---

(١) الجمعة ٤ رجب سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ٢٤ يناير سنة ١٩٥٨ م.

حملة العرش فى دعائهم للمؤمنين : « وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم » ، والله سبحانه يجعل وقايته للمؤمنين من الشر والسوء منة كبرى عليهم فيقول : « فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً » .

والوقاية قريبة فى معناها من « التقوى » ، لأن التقوى اتقاء واجتناب وسد للذرائع وحذر من الشبهات ، وهى ترك للمعصية واصبر على الطاعة والإخلاص فيها ، وهى جعل النفس فى وقاية من كل مخوف ، فهى إذن وقاية وابتعاد عن أسباب الشر والفساد وتمسك بأسباب الهدى والرشاد ، ولو أردنا أن نصف دين الإسلام بوصف وجيز مركز لقلنا إنه « دين التقوى » ، وحسبنا أن مادة « التقوى » » قد ذكرت فى القرآن الكريم ما يقرب من مئتين وخمسين مرة ، والله قد وعد من وقى نفسه السيئات وحرص على الصالحات بالأمن والسعادة : « فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .والقرآن يحدثنا بأن المتقين قوم حذرون متنبهون ، فإذا لحقهم شئ لا يليق بهم من وسوسة الشيطان سارعوا بسد الطريق فى وجهه لأنهم أهل بصيرة وإيمان : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » . فهل نأخذ نحن بمبدأ الوقاية فى حياتنا الفردية أو الجماعية ؟ . . .

لقد قابلنى أناس فرحوا بالقرار الحكيم الذى اعتبر بيع الصور النسائية العارية جريمة ، وألغى القرار العجيب القائل إنها فن وتنمية للذوق وليس فيها ما يخل بالآداب . وقد نشرت جريدة « الأهرام » بتاريخ ٢٢ يناير ١٩٥٨ خبر هذا القرار الذى قال إن قرار حفظ التحقيق «لا يتفق مع نصوص قانون العقوبات الذى اهتدى بأحكام الشريعة فى بلد نص دستورها على أن الإسلام دين الدولة . والدين الإسلامى — بل جميع الأديان السماوية لا تبيح تصوير

النساء العاريات ، ولا تميل إلى جعلها سلعة للبيع والشراء ، كما أن القانون يعاقب على حيازة الصور المنافية للآداب بقصد الاتجار ، ولا يمكن القول إن حيازة هذه الصور إحياء للفن والعلم » وجعل هؤلاء يقولون لى : لقـــد أفلحت الحملةالدينيةعلى هذا الفجور ،فكنتأبادلهم تهنئة ،ولكنى فى الوقت نفسه كنت أسبح بخاطرى فى أفق أوسع ومجال فسيح . . . كنت أتساءل : فيم كان هذا العناد واللف والدوران والجهود الضائعة والأصوات الثائرة ؟ ولماذا لا نمنع الشر إلا بضجة وبعد مدة ، ولماذا لا نستجيب للحق إلا بعد زوبعة ؟ . . لقد طالت مثلا قصة هذه الصور حتى سخفت وسمجت ، وضج الناس منها ، وكان من السهل الميسور أن نتقيها فنسد عليها الباب من أول الطريق ومنذ البداية : . . إن المجرمين قد استباحوا لحوم النساء وصوروا منها هذه الصور العارية ، ثم طبعوا منها آلاف النسخ ، ثم باعوها ووزعوها ، ثم ضج الناس بالشكوى ، ثم قبض على بعض البائعين للتحقيق ، ثم أفرج عنهم وحفظ التحقيق ، ثم ثارت ثائرة الذين يغارون ، وأخيراً أعيد التحقيق ، ولا زلنا فى انتظار النتائج . . . لماذا كل هذا يا قوم ؟ . . . لماذا تلعب وندور ونتعب ونتعب ، وفى النهاية نعود إلى البداية ، وهى أن الأخلاق لا بد لها من قوامين ، وأن الدين لا بد له من حراس ، وأن التحلل داء خبيث ، وأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، وأن الحق لا بد له من قوة تحميه وتدافع عنه ، وأن أكثر الناس عبيد العصا لا يسمعون ولا يطيعون إلا بخوف ورهبة .

ولقد استشهد القرار — زاد الله واضعه توفيقاً وغيرة على الدين والأخلاق وهو رئيس النيابة فى شمال القاهرة — بالنص الوارد فى الدستور وهو أن « الإسلام دين الدولة » ، وأصارحكم بأننى تطلعت إلى هذه الجملة مرات بعد مرات لأتأكد من وجودها ، ولأتأكد أن معناها الذى أفهمه هو نفس المعنى الذى يفهمه واضع القرار ..... إذن فالإسلام دين الدولة . . .

إذن فقانوننا يهتدى بأحكام الشريعة كما جاء بالقرار . . . إذن فمخالفة الإسلام مخالفة للقانون ، إذن كل من يعمل على هدم ركن من أركان الإسلام أو مبدأ من مبادئه يكون خارجاً على هذا القانون ويستحق الجزاء والعقاب . . . هذا والله كسب كبير ومغنم عظيم إذا آمنا به وطبقناه وحرصنا عليه ، وهذا يقتضينا هنا أن نقول إن محاكمة بائع هذه الصور ليست هى كل شئ إن على الدولة هنا واجباً أكبر وأوسع ، إن من واجبها أن تعرف صاحبات هـذه الصور ومصوريها وطابعيها وبائعيها ورؤساء توزيعها ، ثم تؤدب هؤلاء وتهذبهم . . . إن الدولة إذا أرادت أن تتعقب مجرماً وأخلصت فى ذلك فعلت الأعاجيب ، وأذاقت هذا المجرم الوبال والنكال ، والذين يشيعون الفواحش والرذائل فى الأمة مجرمون ، مجرمون بشهادة القانون وبشهادة حراس القانون ، لأن هؤلاء المجرمين يحاولون هدم الكيان الاجتماعى والأخلاق والدينى ويحطمون مقومات الأفراد ومعنوياتهم ، ويضعفون روح الأمة وأخلاقها ، فهلا تعقبتهم الدولة كما تتعقب سواهم من المطلوبين لحسابها وعقابها ؟ ! . .

وليست هذه الصور المباعة فى الشوارع هى كل ما يشكو منه الأخيـار فى هذا الباب . . . فهناك غيرها كثير . . . هناك صور عارية وشبه عارية، وفاضحة وشبه فاضحة ، وجارحة وشبه جارحة ، ووقحة وشبه وقحة ، ومجرمة وشبه مجرمة ، تنشر هنا وهناك فى لوحات الإعلانات ، وفى النشرات ، وفى المجلات الداعرة ، ومن هذه الصور ما هو أشنع وأفظع من صور النساء المباعة ، فهذه هى مجلات التحلل والانحلال تنشر علينا فاجر الصور بالآلاف وعلى أوسع نطاق ، فأين أعين الرقيب التى تحاسب على الفتيل والقطمير ؟ . . ولم يؤخذ بالعقاب كل محرض على الإخلال بالآداب ، وكل هادم للأخلاق وكل متطاول على الدين والعقائد ؟ . . . أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . من خلال الظلام يبزغ الفجر الوليد ، ومن بين السحب المتوالية تطلع الشمس الضاحية ، ومن وراء الليل مهما طال يأتى صباح جديد ، وهذه أشعة خير تلوح فينا ، ومن واجب كل منا أن يشكر الإصلاح وأن يستزيد منه ، وفى كل يوم يرينا ربنا جل جلاله أن الحق سيظل حقاً مهما قل متبعوه ، وأن الباطل سيظل باطلا مهما كثر مشايعوه ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

الوسـط الثابت(١)

الحمد لله عز وجل ، مهد للانسان وأقام فى طريقه المعالم : « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، له دعوة الحق وشرعة الصدق : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون» . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، هو نبى الرحمة ، والدليل إلى النعمة ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبائه ، أولئك الذين آمنوا : وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن من عيوب المجتمع الإسلامى المعاصر أن جمهرة كبيرة من أبنائه انطلقت على وجوهها ، بعد أن تفلتت من قيود عقيدتها ودينها ، فهى تتصرف وتعمل دون أن تقيم وزناً أو اعتباراً لأمر الحلال والحرام ، فهى تأكل كما تأكل الأنعام ، وتشرب شرب الهيم ، وترتع فى كل مرعى وبيل بلا حساب ، وبجوارها قلة محدودة متدينة ، ولكنها قد تنحرف فى تفكيرها ، فتحسب أن التدين لا يصدق إلا إذا كان فراراً من الحياة ، وعزلة من الناس ، وانهماكاً فى أداء العبادات القولية فقط ، مع أن معنى العبادة العام يتسع وينفسح فى الإسلام حتى يشمل كل عمل تقوده النية الطيبة لإصلاح الدنيا أو الآخرة حتى إن معاشرة الرجل لزوجته معاشرة جنسية تعد عملا يؤجر عليه صاحبه ويثاب من الله إذا نوى به إعفاف نفسه وزوجته والحصول على الذرية . وهكذا نرى أننا نضيع بين التفريط وهو التقصير فى الأمر ، والإفراط وهو

---

(١) ألقيت بمسجد الرفاعى يوم الجمعة ٢٧ جمادى الآخره سنة ١٣٨٠ هـ الموافق ١٦ ديسمبر سنة ١٩٦٠ م .

تجاوز الحد فيه ، وهذا ناشيء عن الضلال والجهل ، ولذلك يقول الإمام على رضى الله عنه : « لا يرى الجاهل إلا مفرطاً أو مفرطاً » أى مسرفاً أو مقصراً ، وإذا رجعنا إلى كتاب العربية الأقدس ودستور الإسلام الأعلى وهو القرآن ، وجدناه يذكر مادة التفريط والإفراط فى مواطن الذم والعيب ، وينفيها عن كل صالح أو مصلح ، فهو مثلا قد جعل من وصف الملائكة أنهم معتدلون مستقيمون فقال فيهم : « وهم لا يفرطون » أى لا يتوانون ولا يقصرون ، وأنعم به من وصف يتحلى به الملائكة عباد الله المكرمون الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ويقول على لسان موسى وهارون عن فرعون : « قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى » ، وقال عن المشركين : « لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون » أى متروكون فى تضييع وإهمال كالشئ المتناثر المهمل ، ويقول القرآن : « أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله » ويقول : « قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها » ويقول القرآن الكريم : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً » أى كان أمره مختلا لا اعتدال فيه ولا استقامة ، بل فيه اضطراب واختلال ، ونستطيع أن نستحضر صورة كوز الذرة ، وقد انتظمت حباته فى سطور واتساق ، ثم نستحضرها وقد صار فرطاً فتناثرت حباته هنا وهناك ، وبهذا الاستحضار ندرك ما فى الانفراط من ضياع وانقلاب من قانون النظام والاعتدال ، وهو أمر لا يرتضيه الإسلام فى شئون الدنيا أو الدين ، ولذلك قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « إن المنبت (أى المسرف فى سيره) لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » وقالت أم سلمة لعائشة : « إن رسول الله نهاك عن الفرطة فى الدين » أى مجاوزة العدل .

وهذا صحابى جليل يسمى حنظلة يقول للرسول : « يا رسول الله ، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة ، حتى كأنه رأى عين ، فإذا خرجنا من

عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات (أى اشتغلنا بهذه الأمور) فنسينا كثيراً ، فقال الرسول : والذى نفسى بيده لو تدومون على ما تكونون عندى حين الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وطرقكم ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة . أى ساعة لربك وساعة لنفسك . والمهم هنا هو أن يتماسك الإنسان ، فيكون له من صلابة عوده وحسه ، وتجمع روحه ونفسه ، ما يحول بينه وبين الضعف فإذا سبق به اللهو أو النسيان أو الخطأ إلى هفوة ، تنبه من غفلة ، واعتدل بعد اعوجاج ، وسارع بالندم الماحى ، والاستغفار المطهر ، لأن ربه تبارك وتعالى يقول : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » . فالمهم أن يمضى الإنسان فى طريقه واثقاً بربه ، مستمسكاً بمبادئه ، ثابتاً فى خطوته ، قد تعصف الريح فتميله يميناً أو شمالا ، فى تجربة أو ابتلاء ، ولكنه يسارع فيستعبد توازنه بعد قليل ، يعاود المسير فى ثقة وثبات وإيمان .

وهذا التوسط أو الاعتدال هو الصفة الأساسية للأمة الإسلامية المحمدية العابدة الماجدة ، التى تؤدى واجبها نحو خالقها ، ولا تنسى نصيبها من الدنيا ، بل هى تعمل لدنياها كأنها تعيش أبداً ، وتعمل لأخراها كأنها تموت غداً ، كما جاء فى الأثر ، والله تعالى يقول : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » ويقول : : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « إن الدين يسر » . ويقول : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، فلن يشاد الدين أحد إلا غلبه الدين » ويقول « خير الأمور أوسطها » والشاعر يمدح علماً من أعلام هذه الأمة بحسن جمعه بين الدنيا والدين فيقول :

فلا هو فى الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

والمهم ألا يتحلل المرء أو ينحل . لأن التحلل انطلاق من القيود ، وانعتاق من الحدود ، واتباع للهوى ، ومن بلغ هذا الدرك فعل كل شئ ولو خالف العقل أو المنطق أو الخلق أو الدين ، لأن المنطق على وجهه بلا رابط ولا ضابط يفقد الصفة القوية التى تهديه ولا ترديه ، وهى صفة الحياء ، وإذا ضاع الحياء من الإنسان انقلب إلى شيطان خبيث خسيس ، والعامة تقول عمن يكون مثلا من أمثلة الفجور والفسوق : « هذا إنسان لا يستحى » وهم قد استمدوا هذا المعنى من قول سيد الإنسانية محمد صلوات الله وسلامه عليه : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت » ! . .

ولكى يسلك المرء طريق الرشاد والاعتدال والاستقامة بلا افراط أو تفريط ، ويلزم له أن يكون صاحب قلب مستقر مطمئن قد ربط الله عليه برباط النعمة والحكمة والثبات والتوسط ، ولذلك نجد القرآن يقول عن الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم ربهم هدى : « وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض » ، وقال عن أم موسى : « إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين » .

ويقول للصادقين من العباد فى الجهاد : « وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام » ويطلب من المؤمنين أن يتحلوا بالمرابطة وهى المثابرة على الإيمان والجهاد فى سبيل الله فيقول : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . وربط الله على القلوب معناه إعطاؤها شدة العزم وقوة الصبر ، لأن خور النفس يجعلها كالشئ المتداعى المتناثر : « وكان أمره فرطا » . ولذلك أراد الله من أمته أن تكون فى تماسك وترابط ، فى أوقات السلم وأوقات الحرب ، فقال : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » وقال : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص »

وجعل الرسول الأفراد كلبنات تكون بنياناً مترابطاً فقال : « المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً » وقريب من هذا الربط معنى تثبيت الله لعباده الأخيار ، والتثبيت هو التقوية والتأييد ، حتى يكون الإنسان ثابتاً قادراً غير مضطرب ، والقرآن يقول : « وكلا نقص عليك من أبناء الرسل ما نثبت به فؤادك » . ويقول : « كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا » ويقول : « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا » . وكل هذا تذكير بالتماسك الفردى والجماعى ، وبالثبات على طريقة مثلى لا إفراط فيها ولا تفريط .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، والله يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، وإذا كان دين الله يضيع بين قوم معرضين مفرطين ، وقلة تتعنت أو تشتط ، فإن من واجب الأمة المؤمنة المستضيئة بنور ربها وهدى كتابها أن تتلاقى على الطريق الوسط الذى لا عوج فيه ولا تقصير ولا إسراف : « وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم » « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير » وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

ضعف الشعور بالتبعة[1]

الحمد لله عز وجل ، وهب العقل وطالب بالتفكير ، وأعطى القوة وأوجب العمل : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . أشهد أن لا إله إلا الله هو الذى يراقب ويحاسب ، ويثبت ويعاقب « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ، ويحذركم الله نفسه ، والله رءوف بالعباد » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، حمل الدعوة ، وأدى الأمانة ، وبلغ الرسالة ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، وأصحابه ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله : « وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن نزعة التواكل فى المجتمع عيب من عيوبه العميقة ، ومصيبة من مصائبه الكبرى ، لأنها ناشئة عن ضعف الشعور بالتبعة وقلة الإحساس بالمسئولية ، وإذا تفلت المرء من واجبه ، وتخلص مما يلزمه أداؤه أو النهوض به ، فقد أصبح عضواً فاسداً ، وصار كلا على قومه وعبئاً على مجتمعه . والواقع أن نزعة التواكل هى التى تضيع الحقوق ، وتفسد الأمور ، وتقوض دعائم الإصلاح ، فترى الشخص قادراً على عمل الخير ولكنه يتكل فلا يعمل ، ويطالبه دينه أو وطنه أو خلقه أو إنسانيته بواجب صغير أو كبير ، ولكنه يتجاهل ويهمل ؛ ولقد تذهب لقضاء حاجة هى من اختصاص شخص معين فيحيلك على آخر ، والآخر يقول إنها ليست من اختصاصه ، ويحيلها إلى ثالث ، وهكذا تدور المسألة وتدور ، ويلتوى طريقها ثم يلتوى ، وقد تقضى بعد تعب وإرهاق ،

---

(١) الجمعة ١٨ ربيع الآخر سنة ١٣٧٨ هـ الموافق ٣١ أكتوبر ١٩٥٨م

وقد لا تقضى أبداً ، ولو أدى كل شخص واجبه وقدر تبعته لقضيت الحاجات وتمت الواجبات فى نطاق واتساق . . .

وبسبب هذه النزعة أيضاً تخاذل الكثيرون عن الإصلاح الفردى والجماعى ، فالشخص يزعم لنفسه أنه غير مسئول عن هذا وذاك ، وأن المسئول سواه من المجتمع ، ولكن ، ممن يتكون هذا المجتمع ؟ إنه يتكون منى ومنك ومن الثالث والرابع وهكذا ، والجسم يتكون من خلايا ، والبناء يتكون من لبنات ، والمجتمع يتكون من أفراد ، وبصلاح الوحدات تصلح المجموعات وكثيراً ما يتعلل الفرد فى إهماله لواجباته وأعماله بإهمال غيره ، ولكن الخطأ لا يبرر ، ولو تعلل كل مهمل بإهمال سواه لما بقى فى الدنيا حوافز للخير ، أو دوافع للتماسك ، لأن الإهمال لا بد أن يقع بصورة ما ، هنا أو هناك ، من هذا أو من ذاك ، فإن البشر خطاءون ، وهم ليسوا بمعصومين ، ولكن العقلاء يجعلون وقوع الخطأ لوناً من ألوان العظة والاعتبار ، فهم يحرصون على الحذر منه والابتعاد عنه ، ويحاولون ما استطاعوا تصحيح الخطأ وتغيير المنكر والتعاون على البر والتقوى ، ولا يتعللون بقولهم : هذا من واجب الدولة أو الحاكمين أو العلماء أو غيرهم ، بل يتذكرون قول رسولهم : « كلكم راع ، وكل راع مسئول عن رعيته » ، وإذا كان من الحق أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، وأن الرعاة والدعاة يتحملون تبعات ضخمة أمام الله وأمام الناس ، فإن من الحق كذلك أن كل فرد له واجب ، وعليه تبعة ، ومنهج الإسلام فى هذا المجال هو أن يبدأ المرء بنفسه ، وأن يشغلها أولا وقبل كل شيء بواجبه وإصلاح عيبه ، وأن يتقدم إلى العمل وحمل التبعة قبل أن يسأل عن تأخر سواه أو إهمال غيره ، فالله جل جلاله قد علم نبيه صلوات الله عليه أن يبدأ بنفسه ، فجاء فى القرآن الكريم : « قل هذه سبيلى ، أدعو إلى الله على

بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » ، فالرسول فى ميدان العمل يستجيب بذاته أولا ومن ورائه غيره من الأتباع والأنصار : « أنا ومن اتبعنى » .

نقول مثلا إن التبرج الفاضح شىء لا يليق بالمسلمين ، فيقول قائل : علاج هذا من واجب الدولة ، وهو يحتاج إلى قانون ! . . وكيف والأمر يعالج أولا وقبل كل شىء فى البيت من الداخل ، فلولم يكن الأب متحللا لما ترك ابنته تحل شعرها وتطلق فيها للريح ، فهى كل يوم مع خدن ، وفى كل ليلة تذهب إلى السينما مع رفيق . . . ولو لم يكن الزوج متحللا منحلا لما سمح لزوجته بأن ترقص مع صديقه ، أو تسكر مع رفاقه ، أو تستحم فى البحر مع معارفه وهى شبه عارية ! ! . .

وإذا استجاب الإنسان لخالقه وواجبه فلن يضيره تخلف المتخلفين أو إهمال المهملين ، لأن ربه يقول : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » . أى الزموا إصلاح أنفسكم واشتغلوا بتطهيرها من عيوبها ونقائصها بما شرع الله لكم . ولا يضركم ضلال غيركم إذا اهتديتم لأنه لا تزر وازرة أخرى ، ونحن لا ننسى هنا أن الاهتداء إلى صراط الله يشمل الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتعاون على البر والتقوى : « وما أنت عليهم بجبار ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » .

ومن العجيب أننا نسمع الداعية يردد كلمة الخير أو عبارة التوجيه ، فلا نسارع بالاستجابة ، ولا نستفيد بما يقال من حق وصدق ، بل نبرع فى التعلل والتخلص من التبعة ، وقد نطالب الداعية وحده بتنفيذ ما يدعو إليه ، كأنه بترديده لدعوة الخير قد صار هو وحده المأمور بها المسئول عنها وعن تحقيقها وتطبيقها ، مع أنه فى الحقيقة فرد يهتف بدعوة إصلاح ليذكر بها ويوجه إليها : والله يقول لرسوله « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم

بمسيطر » ، والحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها ، أو من أى وعاء خرجت » والمسلم الحقيقى هو الذى يعتبر بما يقال ولا يتعلل بإهمال من قال ، فرب حامل توجيه إلى من هو أكثر منه توفيقاً فى الاهتداء به ، وهذا لا يتعارض مع علمنا بأن العظة تؤثر تأثيرها البليغ إذا صدرت ممن يلتزمها ويتقيد بها ، وأن الذين يعظون الناس ولا يتعظون هم أشد جرماً وأعظمهم إثماً ، والله يقول : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » ؟ . ويقول : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » . والشاعر يقول : يا أيها الرجل المعلم نفسه هلا لنفسك كان ذا التعليم ؟ ! وذلك لأن ذنوب هؤلاء على جنوبهم ولن يحاسبنا ربنا يوم القيامة عن ذنوب الذين قالوا ولم يفعلوا ، أو الذين وعظوا ولم يتعظوا ، وإنما سيحاسبنا عن أعمالنا نحن ، وسيعاقبنا على عدم الاستجابة لكلمة الحق ولو أنها خرجت من فم مجنون ، أو صدرت عمن لا يتقيد بها ، ولقد كان معاوية يقول للناس : « أيها الناس ، لا يمنعكم سوء ما تعلمون عنا أن تعملوا بأحسن ما تسمعون منا » والأول يقول :

اعمل بقولى ، وإن قصرت فى عملى ينفعك قولى ، ولا يضررك تقصيرى

وهذا هو الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه يرشدنا إلى أن الإنسان قد لا يكون كاملا ولا مستقيماً من كل وجه . ومع ذلك يعظ وينصح ، وأنه لو توقفت العظة على الكمال فلا تصدر إلا من كامل لوقع الحرج وضاع النصح والتوجيه . يقول : « لو أن المرء لا يعظ أخاه حتى يحكم أمر نفسه لتواكل الناس الخير ، وإذن لرفع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقل الواعظون والساعون لله بالنصيحة فى الأرض » ! .

ولو أن كل إنسان تعلل فى إهماله وتفريطه بإهمال غيره وتفريطه لما بقى

عامل لخير ، ولا مجاهد فى سبيل حق ، ولا متمسك بهدى ، لأن الناس لابد أن يوجد فيهم مهملون ومفرطون ، ولكن شعار المسلم هو أن يعمل ما وجب عليه وما سئل منه ، فهو أولا يدرس ويعرف ، فيعتقد ويؤمن ، ثم يثق ويوقن ، ثم ينطلق فى ميدان العمل ، لا يوئسه تخلف المتخلفين ، ولا يصده تحلل المتحللين ، بل يؤمن بأن الحق سيظل حقاً مهما قل متبعوه ، وأن الباطل سيظل باطلا مهما كثر مشايعوه ، وأن المسلم يعرف طريقه إلى الله، فلا يضيره جهل الآخرين به أو تجاهلهم له،والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « لا يكن أحدكم إمعة ، يقول : أنامع الناس ، إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم إذا أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم » ! . .

وحينما قال الرسول لأصحابه : بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء . سألوه : ومن هم يا رسول الله ؟ فأجاب : الذين يصلحون إذا فسد الناس . . .

وما أعظم الأنس الروحى الذى يحسه الرجل الغريب بحقه ودينه فى دنيا الباطل وعالم الإلحاد . . . إنه غريب حقاً ، لأنه لا يسايرهم ولا يتحلل معهم ، ولكنه فى دنيا التقوى والإيمان غير غريب ، بل هو أنيس ومن الله جد قريب لأنه خالف الناس وهو على يقين من رأيه وعمله ، فهو فى عالمه الذى يرحب به ويأنس له ، والناس بالنسبة لهذا العالم هم الغرباء ، وفى هذا يقول الشاعر :

قال لى صاحب : أراك غريباً بين هذا الأنام دون خليل
قلت : كلا بل الأنام غريب أنا فى عالمى وهذا سبيلى !

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

فلنتذكر جيداً أنه فى فترات الانحلال وأوقات الاختلال يكون التماسك الفردى مفتاحاً لإبقاء الخير واستعادة مكانته القائدة السائدة بعد قليل من الزمن

أو طويل ، ويكون الثبات على العقيدة لوناً كريماً من ألوان الجهاد فى الله والثقة به والإقبال عليه ، دون مبالاة بمن غير وبدل أو تولى أو عرض : « فإن تولوا فقل حسبى الله ، لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » فلنستمسك بديننا ، ولنثبت على عقيدتنا ، نكن من المفلحين « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطو واتقوا الله لعلكم تفلحون » . وليتذكر كل منا قول ربه : « وأن ليس للانسان إلاما سعى ، وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى » . فعملك وحدك هو الذى ينفعك ويشفع لك ، وهو الذى تجعله ذريعة أمامك ورصيداً بين يديك ، وذخراً عند الله ، وهذا العمل هو الذى ستراه يوم تلقى الله جل جلاله ، وسيحاسبك على أساسه وبمقتضاه إن خيراً فخير . وإن شراً فشر « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . . . » واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

تدرج ومتابعة(١)

الحمد لله عز وجل ، خلق الحياة وزان بها الأحياء ، ورسم لها طريق السعادة والهناء، « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » . أشهد أن لا إله إلا الله ، لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، إمام الصلاح والإصلاح ، فعليه من ربه الصلاة والسلام ، وعلى آله وذريته ، وأنصاره وأهل صحبته ، والمستمسكين بهديه وسنته : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

لقد أخذ الإسلام يتدرج فى نقل الناس من حياة الجاهلية إلى حياة الإيمان خطوة خطوة ، ومرحلة بعد مرحلة ، وظل جبريل الأمين يغدو ويروح بين ربه ونبيه ثلاثة وعشرين عاماً . يحمل ما يحمل من القرآن الكريم ، تثبيتاً لقلب الرسول ، وتوطيداً لدعوته :

والآى تترى ، والخوارق جمة   جبريل روّاح بها غدّاء

وفى ختام التنزيل جاءت آية التمام والكمال : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » . والتدرج المستمر هو سنة الحياة ، يكون الإنسان فى رحم أمه ، فيتطور من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى أن تكسى بالعظام ، إلى خلق آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم يخرج الجنين إلى الحياة وليداً فطفلا فيافعاً فشاباً فكهلا فشيخاً يرد إلى أرذل العمر ، والنبات

(١) الجمعة ٢٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٨١ هـ أول ديسمبر سنة ١٩٦١ م .

كذلك يمثل قصة التدرج فالبذرة تلقى فى الأرض ، وتسقى بالماء ، فتشق التربة وتزج وتنمو شيئاً فشيئاً فيكون لها ساق أو جذع ، ثم يمتد إلى فروع ، والفروع إلى أغصان وأوراق ، ثم تأتى الأكمام والبراعم ، ثم يكون الحصاد ، والطباع والعادات فى نفس الإنسان بتدرج مستمر وتتابع خطوات ، يتكلف الإنسان العادة من العادات ، أو الخلق من الأخلاق ، ونشعر بتعب أو صعوبة أول الأمر ، ثم يتطبع به شيئاً فشيئاً حتى يعتاده ، ثم تصبح العادة فيه وكأنها طبيعة مكينة مستقرة فى نفس صاحبها وصدره .

والله جل جلاله حين خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، أراد وهو القادر على كل شئ ، والقائل للشيء كن فيكون — أن يقول لنا بالرمز والإشارة إن الله العلى الكبير الذى يقدر على إيجاد السموات والأرض بمجرد تعلق إرادته وقدرته بإيجادها ، والذى لا يحتاج إلى زمان لإبداع ما يريد ، قد جعل خلق السموات والأرض على ستة أيام لكى يتعلم العباد منه أن كل عمل له وقت وله زمن ، ولكى نحسن أداء العمل على وجهه ينبغى ألا نتعجل فى أدائه ، وإلا جاء غير ناضج وغيرسليم ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله يحب من العبد إذا عمل عملا أن يتقنه » . وإذا كان العمل يستلزم وقتاً ، فيجب أن يكون هذا الوقت مناسباً لهذا العمل ، لا ينقص عن اللازم فيقضى على جودة العمل وإتقانه ، ولا يزيد عن حده فيؤدى إلى الكسل والتراخى ، أو إلى تأخير الأعمال عن مواقيتها التى يجب أن تتم فيها ، وسبحان من قال : « « وكل شيء عنده بمقدار » .

فلنأخذ من سيرة الدعوة الإسلامية فى بدئها وصدر حياتها عظة وعبرة : بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم دعوته بتكليف من ربه ، فيأخذ أولا فى تحرير الحياة والأحياء من ضلال الإشراك وعبادة الأصنام ، ويأخذ فى نشر

أضواء التوحيد ، ويظل السنوات الطوال يجاهد الكفر والوثنية ، ويوطد دعائم الإيمان الوحدانية ، ويطهر المجتمع من رواسب الماضى ورذائل الجاهلية ، وكانت أغلب جهوده منصرفة إلى تلك المهمة الكبرى خلال ثلاثة عشر عاماً قضاها فى مكة قبل الهجرة ، ولذلك تحدثت أغلب السور المكية عن إثبات الوحدانية ومجاهدة الوثنية وتحرير القلوب والعقول من الآثام والأوهام ، ولما تمت الهجرة ، وبدأ المجتمع الإسلامى فى التكون أخذت الأحكام والتشريعات تتوالى منظمة لشئون الفرد والجماعة والعلاقات المختلفة من مادية ومعنوية ، داخلية وخارجية ، وإذا كانت الصلاة هى العبادة التى فرضت قبيل الهجرة ، فإن الصوم والزكاة والحج وبقية العبادات قد فرضت ونظمت بعد الهجرة ، فقد بلغت الأمة حينئذ سن الرشد ، واجتازت مرحلتى التحرير والتطهير ، وبدأ عهد التكليف والبناء والتعمير .

وهذه هى الخمر مثلا كانت ذائعة متمكنة من المجتمع الجاهلى ، وجاء الإسلام وهى تعرف طريقها إلى أكثر البيوت وأكثر من فيها ، فأخذ الإسلام السبيل إلى تحريمها والقضاء عليها مرحلة بعد مرحلة ، ففى أول الأمر يلفت القرآن الأبصار والبصائر إلى ما فيها من أضرار أكثر مما يجدونه فيها من منافع ظاهرية أو صورية ، فقال : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » . وتدرج التشريع القرآنى فى طريق التحريم العام للخمر فقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » وأوقات الصلاة متقاربة ، والإفاقة من سكر حدث بينهما غير ميسور ، فشربها إذن من الذين يصلون غير ميسور ، ثم جاء الحكم النهائى الأزلى : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان

أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون » .

والإسلام حين يسن قاعدة التدرج والمتابعة فى البناء والإصلاح لا يريد أن يقنع أهلوه بالزاد القليل أو البناء الضئيل ، بل هو يريدكم عمالقة فى الخير والبناء والإصلاح ، ولكنه يريد فى الوقت نفسه أن يحقق كل منهم فى ذاته صفات هذا العملاق الجدير بالتشييد والتعمير ، وأن تحكموا وضع حجر فى موضعه من البناء الشامخ الضخم ، وأن يتابعوا خطواتهم على الطريق ، فهم لا يقطعونها بالوقوف ، ولا يزهقونها بالاعتساف ، وصدق الرسول حين قال : « إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » وحين قال : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » . وفى الوقت نفسه يقول : « إن الله يحب معالى الأمور ويكره سفسافها » والإسلام فى هذا الباب يضع أمام الناس المثل الأعلى فى قمة الحياة ، ويحرضهم على السير نحوه ، ومتابعة الخطوات لبلوغه ، وكل واحد منهم يبذل غاية جهده لينال من قرب هذا المثل الأعلى ما يستطيع ، وكل ميسر لما خلق له ، ولذلك نجد القرآن فى موضع يقول : « اتقوا الله حق تقاته » فيجعل هذا مثلا أعلى تبلغه الصفوة ، وقال فى موضع آخر : « فاتقوا الله ما استطعتم » فيجعل هذا تحريضاً على متابعة الخطوات فى باب التقوى بقدر الاستطاعة ، حتى يبلغ المؤمن القمة يوماً أو يدانيها ، وهى تقوى الله حق تقاته ، بأن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، فالمنهج مرسوم ، والعمل مطلوب ، والإتقان لازم ، ومتابعة الخطوات صفة المحسنين .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إنما يثمر التدرج إذا صحبته المتابعة ، وإنما يجدى العمل ولو كان محدوداً إذا لزمته المداومة ، والأمة المؤمنة تستلهم معالم رشدها ، وحوافز خيرها وصلاحها ، من دينها وتاريخ دعوتها وأعلام إسلامها ، فتستضئ بنور ربها الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . . .

الخيار والشرار(١)

الحمد لله عز وجل ، فيه العطاء وفيه الرجاء : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » . أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، الباقى الذى لا يزول ، الدائم الذى لا يحول : « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شئ قدير » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ناصر الحق وداعى الخير « بالمؤمنين رءوف رحيم » . فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وشيعته وأصحابه وأنصار دعوته : « وما عند الله خير وأبقى للذين اتقوا وعلى ربهم يتوكلون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

هناك كثير من الناس لا يزالون يظنون ظن السوء بالدين ، فيحسبونه مجموعة من القيود والحدود . أو الاصفاء والاغلال . أو الكبت والحرمان ، مع أن الدين سماحة وسهولة وتيسير ، والقرآن يقول : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » ويقول : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . والدين يدعو إلى تهذيب النفس البشرية وتطهيرها ، مع تمكينها حظوظها المعقولة ورغباتها المقبولة : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ، قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق . . . » . وهناك كلمة بليغة رائعة للصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبى بكر رضوان الله عليهما تقول فيها : « ما تمتع الأشرار بشىء إلا تمتع به الأخيار وزادوا عليه رضى الله » . وهذا حق من صميم الحق ،

(١) الجمعة ٢٨ صفر سنة ١٣٩٤ هـ ٢٢ مارس سنة ١٩٧٤ م .

فإن الله العلى الكبير الذى يمقت الشر وأهله ، وتؤاخذ به ويعاقب عليه ، يرتضى الخير وأهله ، ويهديهم ويصلح بالهم ، وقد أعلن أن الخير هو طريق الفلاح والنجاح ، وأن الشر هو طريق الخسار والدمار : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » . وأرشد إلى أن الإنسان إذا اهتدى بهدى ربه ، فإنه يمضى به إلى جميل العواقب ، ولو حمل نفسه على شىء مما تكرهه أو تضيق به : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

وكل من الأشرار والاخيار فى هذه الحياة يتمتعون كما تحدثنا الصديقة بنت الصديق ولكن شتان بين تمتع وتمتع ، إن تمتع الأشرار تمتع وبيل متصدع ، فيه الإثم والانحراف ، فيه الاعتساف والإسراف ، وفيه القلق وسوء المصير : « ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير » ، « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون » ، « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » . إما تمتع الأخيار فتمتع عاقل فاضل ، وفيه الامتثال والاعتدال ، وفيه الهدى والرضى ، « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » ، « قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » ، « كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور » . وهذا التمتع السليم القويم هو الذى يناسب كرامة الإنسان الذى رفع الله شأنه وزكى قدره حين قال : « ولقـــد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ، وكأن القرآن المجيد يشير إلى عقد مقارنة بين التمتع الرخيص الدانى ، والتمتع الكريم السامى حين يخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم قائلا : « يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين

أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً » .

وهناك مجموعة من الملذات يستمتع بها الإنسان على وجه من الشر فتسوء عاقبتها وتخبث ثمرتها ، ولكن لو استمتع بها على وجه من الخير لكانت نعمة وبركة ، فهذه مثلا لذة العلم ومتعة المعرفة والاطلاع ، يستغلها الشرير للتخريب أو التدمير ، ولكن الإسلام يدعو الأخيار إلى ممارسة هذه المتعة على وجه كريم طيب ، فيقول القرآن : « وقل رب زدنى علماً » ويقول الحق جل جلاله « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » وقال : « إنما يخشى الله عن عباده العلماء » وقال الرسول عليه الصلاة والسلام ، « اطلب العلم من المهد إلى اللحد » .

وهناك لذة البصر والمشاهدة ليستغلها الأشرار فى التطلع إلى العورات ، والتطاول على الأعراض والحرمات ، وإلى بواعث الشهوات ومحرضات الفتن ، وأما الأخيار فيتمتعون بلذة النظر فى ملكوت الله العلى الكبير : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » ويتمتعون بها فى مشاهدة كتاب الله المنظور وهو الكون الطويل العريض ، حيث يتمتعون بمشاهدة الأنهار والبحار والأشجار والأطيار والثمار : ، وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد .

وهذه صفة السماع تفسدها الأشرار عن طريق التحلل والتفسخ والفجور ، والاستماع إلى الفحش وبذىء الغناء ، ولكن الأخيار يتمتعون بهذه اللذة فى استقامة واعتدال ، ودينهم يرتضى لهم هذا ، فالرسول يقول : « الله أشد آذاناً (أى استماعاً) إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته » . ولقد استمع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبى موسى الأشعرى وهو يقرأ القرآن دون أن يراه أبو موسى ، فأعجب النبى بقراءته وقال له

فيما بعد : « لقد أوتيت مزماراً من مزامير داود » فقال له أبو موسى : لو أعلم يا رسول الله أنك تسمعه لحبرته لك تحبيراً . والإسلام لا يأبى على المسلم أن يستمع إلى الغناء ما دام عفيف اللفظ شريف المقصد .

وهذه لذة الجنس يتمتع بها الأشرار عن طريق الفحشاء والإثم ، فتسور العواقب وتتكاثر المصائب ، ولكن الأخيار يتمتعون بلذة الجنس من طريق شريف طهور ، يرتضيه الدين والعقل والمجتمع ، وهو طريق الزواج ، وفى هذا يقول القرآن : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ويقول القرآن عن عباد الرحمن : « والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً » .

ولذة الأكل يستغلها الأشرار بإسراف واعتساف حتى تسبب التخمة والمرض ، ولا يفرقون بين طيب وخبيث ، ولكن الأخيار يتمتعون بها فى نطاق الحلال والطيب : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » ، « كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً » . ولذة التنافس بين الناس يباشرها الأشرار بإجرام وعدوان وانحراف ، ولكن الأخيار يتنافسون فى الطاعة والبر وخدمة الناس والجهاد « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » ويقول القرآن « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » « ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إنها كلمة بليغة عميقة قالتها الصديقة بنت الصديق : « ما تمتع الأشرار بشىء إلا تمتع به الأخيار وزادوا عليه رضا الله » فلينظر كل منا أين يجب أن يكون : أمع الأشرار أم مع الأخيار ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

طريق الخلود[1]

لله الحمد ، هو أعدل الحاكمين ، وخير الوارثين ، يقلب الليل والنهار . ويقدر الآجال والأعمار ، وما عند الله خير للأبرار ، « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا » ، نشهد أن لا إله إلا أنت تضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فتخسف بالجبارين ، وتعطى الصالحين مقاليد الكرامة ، وهكذا لا تضيع أجر من أحسن عملا ؛ ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك الذى كره الخلود فى دار الهوان ، واختار ما عند الله من نعيم وإحسان ، وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله الباقين بذكراهم على ممر الليالى والأيام ، وأصحابه الماثلين بتاريخهم كالشواهق الأعلام ، وأتباعه المستمسكين بعروة وثقى لا تنال ولا تضام ، ومن يكن الرحمن ناصره فقد فاز فوزاً عظيماً ! . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

تعارف الناس على أفكار خاطئة فى تخليد الذكر وإبقاء التاريخ ، فهم يظنون أن العلو فى الحياة بالسيطرة والجاه ، والتحكم فى عباد الله ، وحيازة الكثير من الأموال والأولاد والأتباع ، والحديث المستمر الموصول عن النفس والذات ، والاسراف فى المديح والشكران والثناء ، هو كل ما يؤدى بهم إلى الخلود ، والبقاء بعد الممات على أفواه العباد ، وتراهم لا يكتفون بما يصطنعون لأنفسهم فى حياتهم من وسائل التخليد والأدكار ، بل يهيئون من يعمل للتذكير بهم بعد وفاتهم ، فينصب هؤلاء الأخلاف لأسلافهم

---

(١) الجمعة ١٢ صفر سنة ١٣٦٩ هـ الموافق ٢ ديسمبر سنة ١٩٤٩ م .

الجنائز العظمى والمآتم الكبرى ، والعزاء الشامل والرثاء المتواصل ، ويبنون لهم الأضرحة ينفقون فيها الآلاف ، وينصبون لهم التماثيل واللوحات ، وغير ذلك من وسائل ومصطنعات ، ومع كل هذا لا تتخلف سنة الله ، فما هى إلا عشرات من السنين أو أقل من ذلك ، حتى تنتقل أسماء أولئك العظماء المجوفين إلى قائمة النسيان ، ما داموا لم يقدموا من العمل الصالح أو السعى الناجح ، أو الجهاد المرير أو الخير الكثير ،ما يحرض الجماهير ويدفعها إلى ذكرهم وتخليدهم عن طواعية واختيار ! . . .

وعلى النقيض من ذلك ترى فى التاريخ أشخاصاً لم يكن لهم سطوة أو سلطان ، ولم ينعموا بإمارات أو تيجان ، بل كانوا أفقر الناس وأقلهم مالا ، وأهونهم شأناً وأضعفهم رجالا ، ومع ذلك أمدهم الله بعونه ، ونفخ فيهم من روحه وجعلهم من أجناد كلمته ، فباعوا نفوسهم رخيصة لبارئها ، وعافوا النوم والراحة ، وانطلقوا فى سبيل الله سعاة دائبين ، يجاهدون ويناضلون ، ويهدون ويرشدون ، ثم أسلموا أرواحهم هادئين بلا طبل أو مزمار ، وبلا تجميع أو تشييع ، وبلا رثاء أو بكاء ، ولكن يد الله التى لا تغلب ، رفعت لهم فى العالمين ذكراً ، وأبقت لهم بين الخالدين أثراً ، ودالت دول ، وبادت ذكريات طواغيت ، ثم طلب سير أولئك المجاهدين الصادقين الموقنين شمساً لا يخفيها سحاب ، ولا يطمسها حجاب ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ! . .

من أمثلة أولئك الخالدين رغم أنوف الجبارين أبو ذر الغفارى رضى الله عنه وأرضاه . . . رجل فقير قليل ضئيل ، يقبل وحده إلى رسول الله عليه صلوات الله من مكان بعيد ، فيسلم بين يديه بلا تردد ، والكفر شامخ البنيان متطاول الأركان ، وينصحه الرسول بأن يعود إلى قومه ، ويبشر بينهم بالإسلام

سراً حتى يأتى أوان الإعلان ، فيأبى المسلم المتوقد أن يكتم نورا أشرق فى قلبه ، فيصرخ بكلمة التوحيد ودعوة السماء ، بين شياطين الوثنية وعمالة الإشراك ، ويتألب عليه أولئك الكلاب الأوغاد ، فيضربونه ويعذبونه ، فلا يفتنه ذلك عن دينه ، بل يعاود الهتاف بكلمة الإيمان ، فيعاوده التنكيل والعذاب ، فيرضى كأنه يسقى الرحيق من الشراب ، ثم ينقلب أبو ذر إلى قبيلته غفار ، فيظل يدعو ويرشد ، حتى يسلم بسببه نصفها ، ويسعى النصف الآخر ليسلم على يدى الرسول ، ويظل أبو ذر مثال المسلم العامل والمؤمن الكامل ، والمجاهد الناصح لله ولرسوله ، ولعامة المسلمين وخاصتهم ، حتى يشهد عهد عثمان رضوان الله عليه ، فيرى المال وقد أخذ يتدفق فى جيوب المسلمين ، والترف وقد بدأ يدب فيهم دبيب الداء فى الأعضاء ، والحرص على الشهوات والملذات ، وقد صار يغالب الحرص على الشهادة فى المواقف والغزوات ، فهتف بدعوته الاشتراكية الإسلامية التى ليست بشيوعية مجرمة ، ولا فوضوية أثيمة ، بل صوت منذر محذر ، يعلو به لسان الزاهد الغيور ، حين يرى أمة محمد ، وقد أخذ الترف والنعيم والمال والشح ، يمسخ فيها معانى الفتوة والقوة والتضحية والإيثار ، فجعل أبو ذر يتلو فى المجامع والمحافل : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون » . . . وظل يدعو إلى فكرته الجريئة الحازمة بين عنت المعارضين وتعويق المجادلين وإيقاع المغرضين ، حتى سعى السعاة به إلى عثمان ، فأمر بنفيه إلى قرية « الربذة » لتنقطع صلته بالناس حتى لا يجد من يدعوه إلى فكرته ، وأصدر عثمان أمراً بأن لا يكلمه أو يشيعه أو يتبعه أحد ، وهو خارج إلى عزلته ومنفاه ، وتخوف الناس فأطاعوا ، وأمر عثمان مروان بن الحكم أن يتولى ترحيل أبى ذر ، حتى لا يتصل به أحد ، ولكن

على بن أبى طالب وأخاه وولديه وعمارا خرجوا يودعونه ويشيعونه ، وقال له على يثبت فؤاده ، ويقوى عماده :

« يا أبا ذر ، إنك غضبت لله فارج من غضبت له ، إن القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك ، فاترك فى أيديهم ما خافوك عليه ، واهرب بما خفتهم عليه ، فما أحوجهم إلى ما منعتهم ، وما أغناك عما منعوك ، وستعلم من الرابح غداً ، والأكثر حسداً ، ولو أن السموات والأرض كانتا على عبد رتقاً ثم اتقى الله لجعل الله له منهما مخرجاً ، لا يؤنسنك إلا الحق ، ولا يوحشنك إلا الباطل ، فلو قبلت دنياهم لأحبوك ، ولو قرضت منها لأمنوك » ! . .

وهناك فى قرية « الربذة » لاقى أبو ذر آلام العزلة والوحدة ، ومصائب الجوع والفقر ، وتبعات الأسرة والأولاد ، وأهوال الانقطاع عن التبليغ والدعوة إلى الله ، والتذكير بحقه وحق عباده ، وما زالت الأيام تلح عليه بكهلها وهولها مجاهد وعليها صابر ، حتى مات ميتة رخيصة فى نظر الناس ، إذ أسلم روحه الطاهرة على قارعة الطريق العام ، دون أن يجد بجواره من أصفيائه أو أحبائه من يتولى أمره أو يهيىء جدثه ، ودون أن يستطيع أهله القيام بتشييعه ودفنه ، حتى مر عليهم جماعة فيهم عبد الله بن مسعود ، وكانوا على سفر ، فغسلوه وكفنوه ودفنوه ، وخيل إلى الذين تزلزلت قواعد شحهم وكنزهم من دعوة أبى ذر الصريحة الجريئة ، أن هذا المصير من هوانه على الله ، أو من أسباب نسيانه بين الناس ، ولكن طاشت أحلامهم ، فأبو ذر هو الذى قال فيه محمد : ما أظلت الغبراء ولا أقلت الخضراء أصدق لهجة ولا أوفى من أبى ذر ، وقال فيه : إنه يسعى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده ، وإذا كان لم يجتمعوا لتجهيز أبى ذر وتكفينه ، فقد تولى ذلك ولدان

النعيم وحور الفراديس ، وإذا كان لم يحمل على الأعناق أو على العربات فقد حملته أجنحة الملائكة وشيعته عباد الرحمن المكرمون ،وإذا كان لم يقم له سرادق ولا ضريح ولا تمثال ولا تأبين ، فقد أقيم له أكرم من ذلك وأعظم فى قلب كل مسلم محب للعدالة والقسطاس ، وإذا لم يكن له جدث كبير يزار ، وتنثر حوله الأزهار ، فإنه حى بذكراه وهداه فى صدر كل غيور على الحقوق والحرمات وسيمر بالدنيا جبارون وعيارون ومتسيطرون وسيكسبون ما يكسبون ، ويحتالون لتخليد ذكراهم بما يحتالون ، ثم يرحلون فتسحقهم أقدام الإهمال والنسيان ، لأن عظمتهم الكاذبة قامت على الجبروت والطغيان ، والاستبداد الأثيم بحقوق الإنسان ، ثم تبقى بعد ذلك ذكرى الهداة والدعاة المرشدين الفقراء ، عاطرة باهرة فى سائر الأوقات والأرجاء ! . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن أشخاصنا الحسية لا ميزان لها فى التاريخ أو سجل الخلود ؛ فلنصل أسبابنا بواهب المجد والسناء ، ولنقذف بأرواحنا فى لجة دعوته وخضم شريعته، لنكسب من حماة الطهارة والصفاء ، والرفعة والعلاء ، ولنعرض مترفعين عن تمجيد من لا يستحق التمجيد ، مهما اصطنعوا من تهويل أو تخليد ، ولنذكر على الدوام قوماً سقطوا من أجلنا وأجل خالقنا وفى أيديهم اللواء ، فذلك أولى بالمنصفين من الرجال ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون .

وجهة الخير(١)

الحمد لله عز وجل ، أباح لعباده الطيبات ، وضاعف لهم النعم والخيرات وآخذهم بمقاصد العزائم والنيات ، ونظر إلى القلوب والأرواح ، لا إلى المظاهر والأشباح : « إنه عليم بذات الصدور » ، أشهد أن لا إله إلا الله ، يبغض الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ويحب من الأمور ما استعلن منها وما سكن ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ابتغى حبه ، وآثر بابه ، فكان إمام المتقين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إنما الأعمال بالنيات ، ونية المرء خير من عمله ، وغايته أهم من وسيلته ، وكم من مظاهر تغر ببريقها وتخدع ببهرجها ، ومن خلفها أشياء مفجعة وحقائق مروعة ، وكم في الحياة من أمور تسير بلا ضجة أو إعلان ، ولكنها تضم الخير الوفير والنفع الكثير ، ونواحي العيش في الدنيا مزيج عجيب من الخير والشر ، والصلاح والفساد ، وأغلب الأشياء لها وجهان ، أو لها حدان : يؤخذ الأول فيكون آلة تطهير ، ويؤخذ الثاني فيكون معول هدم وتدمير . والمسلم الصحيح الإسلام يستطيع بإخلاصه في نيته ، ونبله في غايته ، واتجاهه دائماً إلى ربه ، أن يستخلص على الدوام عصارة الخير من مواقف الدنيا وأعراض الحياة ، كما يعتصرها من مواقف الدين وظروف العبادة ، فإذا أكل الغافلون كما تأكل الأنعام ، ورعوا في حقول اللذات كما ترعى الأغنام ، وضلوا في شعاب

(١) الجمعة اول ذى القعدة سنة ١٣٨١ هـ الموافق ٦ ابريل سنة ١٩٦٢ م .

الإسراف بلا انتظام ، أقبل المسلم على الحياة إقبال الربيع ، يحيل الجدب خصباً ، والترب ذهبا ، والملح الأجاج ماء عذباً ، فهو يأخذ من الدنيا ويعطيها ، ويتمتع بطيبها دون أن يذل لدواعيها ، ويلمح النور حتى بين الظلمات ، ويحس الغبطة حتى فى الأزمات ، ويستخرج وجهاً للاحسان والحكمة حتى فيما تعارف الناس على أنه من السيئات ، ومثل المسلم حينئذ كمثل الصوفى المخلص الذى سمع أحد الناس ينشد قوله :

إذا العشرون من شعبان ولت فواصل شرب ليلك بالنهـار
ولا تشرب بأقـداح صغـار فإن الوقت ضاق عن الصغـار

فزلزل زلزلا شديداً ، وأحس كأنها نفخة الصور ، أو كأنه مأخوذ محصور ، فلا فوت ولا فرار ، ولا فرصة للتعويض أو الاستدراك ، بل ضيق فى الآجال ، وتراكم فى الواجبات والأعمال ، فما ذكر حين سمع ذلك إلا خمرة الإيمان التى تنسيه الدنيا بما فيها ومن فيها ، وتغمره فى رحاب خالقه الأعلى وتصهره بأنوار بديع السموات والأرض ، ولعل صاحب الشعر حين أنشده خمراً دنيوية مسكرة ، وأكواباً حسية قذرة ، ولكن المؤمن الذى يطوى قلبه على نية الخير . ولا يرى فى الأمور إلا وجهات النور ، أخذ المعنى على أن العمل القليل فى حق الله لا يكفى ، وأن الاغتراف من ينابيع الطاعات وبحار القربات ، بأكواب صغار وأقداح دقاق ، لا يليق بالعمر القصير والسفر الطويل والحساب العسير ، وإذن فلابد من الاجتهاد فى الطاعات ، ومضاعفة الحسنات ، والانتهال من شراب الصلاح والتقى . وسلاف الرشاد والهدى ، وهكذا لله فى خلقه شئون ، ولكل وجهة هو موليها ، فاستبقوا الخيرات ، كما يقول القرآن الكريم .

وهذا مؤمن آخر ، قد وثق أسبابه بربه ، واحتمل كل ما يلاقيه أو يعانيه برضا وتسليم ، وسمع قائلا يقول :

أيدركنى ضيم وأنت ذخيرتى ... وأظلم فى الدنيا وأنت نصيرى ؟
عار على راعى الحمى وهو قادر ... إذا ضاع فى البيدا عقال بعير !

سمع المؤمن هذا فلم يتصور راعياً حسياً فى مرعى ، ولا صحراء ذات طول وعرض ، ولا عقالا لبعير قد ضل أو ضاع ، بل استحضر فى عقله وقلبه وروحه قدرة الله تعالى التى شملت كل شئ ، وسلطانه الذى سيطر على كل أمر ، ورعايته التى عمت كل حى ورحمته التى وسعت كل مخلوق فآمن بأن الله هو الواهب الخلاق ، وأنه الحافظ الرزاق : وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل فى كتاب مبين » ، « إن ربى على كل شىء حفيظ » .

وهذا مسلم متبصر آخر ، يدخل على قوم يسمعون لحناً يطربون بنغماته ، ويهيجون عند وقفاته ، ولا يعبأون بالمعنى أو إرشاداته ، فأخذ يسمع بإذن غير آذانهم ، ويهيم فى واد غير واديهم ، فهو مع المعانى الجليلة يدور ، وباللمحات السامية يضىء قلبه ، وما كاد يسمع اللحن يقول عن شرعة الرسول :

والدين يسر ، والخلافة بيعة ... والأمر شورى ، والحقوق قضاء

حتى فاضت به شجونه ، وأخذ يقرع أسماع من حوله ، بما تنطوى عليه هذه الألفاظ القلائل ، من تصوير بديع رائع . للأصول الأساسية والدعائم الأولية التى نهضت عليها شرعة القرآن ودعوة السماء وهدى محمد ، والتى ارتفعت فوقها جدران المجتمع الإسلامى الفاضل الرشيد ، فدين الإسلام لين لا شدة ، وتيسير لا تعسير ، وتخفيف لا تعنيف : «لا يكلف الله نفساً

إلا وسعها » ، « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ، « فإن مع العسرا يسرا ، إن مع العسر يسرا ، فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب » ، « يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا ، وسددوا وقاربوا » ، « إن هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق » إلى غير ذلك من النصوص والآثار .

وولاية المسلمين خلافة رشيدة حميدة ، تقوم على البيعة الطيعة الخالصة وتنهض على الجدارة والاستحقاق من جهة صاحبها ، والرضا والاتفاق من جهة معطيها ، وبذلك يتوافر فى الأمة تبادل الثقة وتعاون الجميع ، وأمر المسلمين يقوم على التناصح والتشاور ، لا على التحكم أو الاستبداد : « وأمرهم شورى بينهم » ، وبذلك أمر نبيهم من ربهم حين قال له : « وشاورهم فى الأمر » وغير النبى أولى بالخضوع لمفهوم ذلك التنزيل ، فلا إطلاق للهوى أو الرأى أو الاختصاص فى الإسلام ، بل الأمر كما قال سيد الأمة ونبى الملة محمد عليه الصلاة والسلام : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » . . . وحقوق الأفراد والجماعات المشروعة محترمة مصونة ، كأنها قضاء مقدس لا يمس ولا يبدل ، فحقوق كل فرد فى الإسلام يجب أن تصان له ، بل يجب أن تحمل إليه ، لا أن يتعب هو فى سبيل الحصول عليها . . . وهكذا استطاع ذلك الداعية باتجاهه إلى وجهة الخير أن يقلب المكان من حلقة صغير وتصفيق ، وإعجاب بالنغمات والنبرات ، إلى رحبة ادكار واعتبار ، والمقام هو المقام ، والكلام هو نفس الكلام ! .

وهناك كثيرون من العامة يسمعون آيات الله البينات فلا يفهمون منها إلا سطحى الفهم أو قليلة ، ولا يجاوزون ذلك إلى قريب أو بعيد ، بينما يفهم العلماء الأتقياء والمؤمنون المتدبرون من كلام الله الموجز المعجز ألواناً من

الفهوم والمعانى تهديهم إلى رقائق من العبادة وفضائل من العمل ، حتى قال أبو سليمان الدارانى : « ربما جاءت الآية خمس ليال (أى يديم النظر فيها) فلولا أنى أترك الفكر فيها ما جزتها أبداً ، وربما جاءت الآية من القرآن فيطير معها العقل ، فسبحان الذى يرده بعد ذلك » ! .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : المهم هو أن يقصد المسلم وجه ربه ، وأن يسمو فى مقاصده وأهدافه ، فيلتمس من كل موقف ثمرة ، ومن كل مقام ناحية خير أو إحسان ، ويومئذ سيكون عابداً لله قانتاً ، حتى فى طعامه وشرابه ، وزينته وثيابه ، وإن لله عابداً تجملهم النية الطيبة والقصد الشريف فيحيلون كل شىء فى أيديهم حثيث إلى ركاب جثث الخطا يدينهم من رضا الله الرحمن وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل .

الدم والمـال(1)

الحمد لله تبارك وتعالى ، هو الواهب للحياة الرازق للأحياء ، أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، بيده ملكوت كل شئ وهو على كل شئ قدير وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، بعثه ربه ليطهر القلوب ويزكى النفوس : « قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى » فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وعترته ، السابقين إلى دعوته ونصرته ، والمستجيبين لهديه وسنته « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين ».

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

هناك شيئان أعطاهما الإسلام مزيداً من الحصانة والصيانة والاحترام بين الناس ، وفى الوقت نفسه دعا إلى الجود بهما والمسارعة لبذلهما وعدم التردد فى التضحية بهما فى سبيل الله والحق والواجب ، وهذان الشيئان هما الدم والمال وعجيب أمر هذين الشيئين ، إن كلا منهما محمود مذموم ، فهو يشبه سلاحاً له حدان ، يستعمل أحدهما فيفيد ويثمر ، ويستعمل الآخر فيخرب ويدمر . فالمال الطيب فى اليد الطاهرة المستقيمة نعمة وأى نعمة ، وبركة أى بركة ، ولذلك يقول الرسول : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » . والمال الخبيث فى اليد الخبيثة مصيبة وبلوى : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » ، « ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر » . وكذلك شأن الدم إن الدم الزكى المعصوم له حرمته وكرامته ، وإن جوانب الأرض تهتز إذا اعتدى معتد على هذا الدم . « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » . وهذا الدم يصبح هيناً على صاحبه المؤمن إذا طالبه ربه ببذله وتقديمه :

---

(1) الجمعة ٧ جمادى الأولى سنة ١٣٩٣ هـ ٨ يونية سنة ١٩٧٣ م

ولست أبالى حين أقتــل مسلماً   على أى جنب كان فى الله مصرعى

ولقد أشار رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إلى حرمة الدم والمال حين قال : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » وحذر القرآن الكريم من الاعتداء على الدماء ، فقال : « وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم » . ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام مشيراً إلى خطورة سفك الدماء: « أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء » . ويقول : « لا يزال الرجل فى فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً » ويقول : لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا فى دم مؤمن لأكبهم الله فى النار » .

« قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » . وحتى فى موقف القصاص طالب القرآن بالاقتصار على قتل القاتل فحسب ، ونهى أن تسال قطرة دم واحدة من غير القاتل فقال جل جلاله : « ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً » . ولكن هذا الدم المصون يطالب الله ببذله وتقديمه هيناً رخيصاً فى سبيل الحرية والعزة والكرامة ، ولذلك كرر القرآن المجيد الأمر بالمجاهدة بالنفس ، وتمام هذا يكون بالاستعداد للجهاد حتى درجة الاستشهاد ، ومن أمثلة ذلك قول الله سبحانه : « انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » ، وكأن الإسلام قد أراد أن يعود المسلم على رؤية الدماء وهى تسيل فى قربة من القربات وطاعة من الطاعات ، فشرع الذبائح فى الفدية والهــدى والأضحية ، وقال القرآن : « فصل لربك وانحر » . ومجد النبى صلى الله عليه وسلم مكانة الدم الذى يراق فى سبيل الله ، فقال : « ليس شىء أحب إلى الله من قطرتين : قطرة من دموع فى خشية الله ، وقطرة دم تهراق فى سبيل الله » . ويصور النبى الدم الذى يسيل من جسم المجاهد الشهيد بأن لونه عند الله

لون الدم ، ولكن ريحه ريح المسك ، وهذا كناية عن عظيم الأجر وجليـــل الثواب .

وكذلك شأن المال ، لقد أمر الإسلام من جهة بتجنب الإعتداء على أموال الناس ، أقوياء كانوا أم ضعفاء ، أقرباء كانوا أم غرباء ، فقال القرآن المجيد « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن » ، ويقول : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا » ويقول : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » . ويقول : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً » . وفى الوقت نفسه حث الإسلام على بذل المال فى وجوه الخير واليسر ، فقال القرآن : « يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم » . وقال « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » . ويقول : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » ويقول : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » .

ومن لطيف التوجيه الإسلامى نحو العزة والكرامة أن الله تبارك وتعالى يرشدنا إلى أن هناك ميدانا هو أحق الميادين بأن نبذل فيه الدماء والأموال معاً ذلك هو ميدان الجهاد فى سبيل الله ، فتكرر أمر الله جل جلاله بالجهاد بالأموال والأنفس ، والجهاد بالأنفس يتضمن التضحية بالدم حتى درجة الاستشهاد ، ومن ذلك قول الحق عز شأنه : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون » .

وفى عصور الإسلام المزهرة النيرة ، كان المسلمون يعرفون جيداً كيف

يحافظون على أنفسهم ، وكيف يصونون دماءهم ، وكيف يذكرون حق الذكر قول نبيهم : « الإنسان بنيان الله ملعون من هدم بنيانه » ، ومع ذلك كانوا يسارعون عند صيحة الفداء ودعوة الفداء إلى بذل دمائهم رخيصة هينة ، وإلى تقديم أرواحهم ضحية طيعة ، مرددين شعارهم القرآني الجليل : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . وكان هؤلاء المؤمنون العاملون يعرفون جيداً كيف يكسبون المال ، وكيف يقتصدون منه ، وكيف ينفقونه فى وجوه الخير والبر ، على طريق وسط معتدل ، ضابطه قول ربهم : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً » .

ثم خلف من وراء هؤلاء الأماجد خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فإذا هؤلاء الأخلاف السوء يذلون فى أنفسهم حتى ذلوا على الله وعلى الناس ، وسيطر عليهم الجبن والهلع ، فلا يعرفون سكينة أو طمأنينة ، وإذا بذلوا دماءهم فإنما يسفكونها بطريق غير مباشر فى مذابح الشهوات وظلمات الأهواء والملذات « ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً » . وإذا هؤلاء الأخلاف يكسبون الكسب الحرام ، ويجمعون المال الحرام ، ويضنون به على حقوق وواجبات يدعون إليها ، وإذا بذلوه فإنما يبذلونه على شهوات الأخاء اللئام ، ثم يشحون به عن ميادين الحق والخير والبر : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إنما المسلمون ـــ حسبما أنذر الرسول ـــ حين حرصوا على طوال البقاء فى الدنيا وضنوا بدمائهم على الجهاد ، وحين شغلتهم الحياة بمالها ومتاعها عن متابعة المسير فى الصراط المستقيم ، والرسول

قد قال : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها . قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال بل أنتم حينئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن . قالوا : وما الوهن يا رسول الله ، قال حب الدنيا وكراهية الموت » وباب العودة إلى الماضى الكريم ما زال مفتوحاً ، مصراعاه أموال تؤخذ من حل وتنفق فى خير ودماء تصان عن الذل وتبذل فى سبيل العزة : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

دين ودنيا[1]

الحمد لله عز وجل تكفل لعباده بالنعمة ، وأوسع لهم أبواب الرحمة : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، كتب العاقبة للمتقين ، وضمن السعادة للمحسنين : « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ،ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » . . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من شكر ربه وأدى واجبه ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله، « فأولئك كان سعيهم مشكوراً » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

أراد أحد العقلاء أن يصور طرفى الخير والشر فى هذه الحياة ، فقال :

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا   وأقبح الكفر والإفلاس بالرجـــل

وهو يريد أن يقول إن خير الناس من وفقه ربه ليحسن الجمع بين دينه ودنياه ، وبين تقواه وغناه ، وإن شر الناس من يجمع بين الفقر والكفر ، أو بين خراب الدنيا وخراب الآخرة ، لأنه ليس بعد الكفران ذنب ، ولأن الفقر المنحرف يدفع الإنسان إلى بلا وسيئات ، ولذلك قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » ، إذ ما أجمل أن يصلح

---

(١) الجمعة ٢٩ ربيع الأول سنة ١٣٧٩ هـ ٢ أكتوبر سنة ١٩٥٩ م .

الإنسان في نفسه وخلقه، ثم يكون بين يديه مال طيب صالح ينتفع منه وينفع به . والمجتمعات المنحلة تصاب عادة بطائفتين منحرفتين تعملان على هدم الطاقات الإنسانية وتشويه المواهب البشرية ، وتقويض الدعائم الخلقية والإجتماعية ، والطائفة الأولى منهما هي طائفة الأثرياء المترفين المنحلين الذين لا خلق لهم ولا دين ، ففي أيديهم ثروة ، وفي نفوسهم شهوة ، وفي أرواحهم ظلمة ، وعندهم استخفاف بقواعد الإيمان ومبادىء الدين ، فهم ينطلقون على وجوههم ، بلا حدود و قيود ، يأكلون كما تأكل الأنعام ، ويشربون كما تشرب الهيم ، ويغرقون في المآثم والملذات ، دون أن يؤدوا واجباً لله أو الناس أو الوطن ، وقديماً قال الحكيم :

إن الفراغ والشباب والجدة   مفسدة للمرء أي مفسدة

والطائفة الثانية هي طائفة الصعاليك المفاليك ، الذين استمرأوا الكسل والبطالة والتشرد ، دون مال يملكونه أو عمل يؤدونه ، فليس بأيديهم ما يقيمون به كيانهم الاجتماعي على أساس نظيف شريف ، ومع ذلك يطلقون لأنفسهم العنان في مباءات من الفجور والضلال ، فهم يجمعون بين السوأتين ، إذ لا يملكون ولا ينتجون ، وهم في الوقت نفسه مخربون لأنفسهم ولغيرهم ، وقد تحتاج أسرة الواحد منهم إلى قروش تأكل بها خبزاً قفاراً ، ولكنه يحرمها ويذهب إلى الماخور فيسكر ، ثم ينصرف إلى مائدة الميسر فيقامر ، ثم يفشل فيه فيستر خيبته بجريمة يرتكبها أو سرقة يأتيها ، فيكون تلميذاً مطيعاً للشيطان الرجيم وتكثر على يديه وأيدي أمثاله الجرائم والأحقاد والعداوات بسبب الخمور والفجور ، والله جل جلاله ينذر ويحذر فيقول : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون » ؟ ! . . .

والإسلام يريد أهله أغنياء أقوياء ، لا مهازيل ضعفاء ، ولذلك مهد لهم وسائل الامتلاك المشروعة ، وحرضهم على العمل والكسب والربح ، فقال تعالى : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » ووصل الله وقت العبادة بوقت الاكتساب ، فأمر عباده بأن يتوجهوا عقب الصلاة إلى العمل والإنتاج فقال : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله لعلكم تفلحون » وجاء فى الحديث : « إذا صليتم الفجر فلا تناموا عن أرزاقكم » وفيه أيضاً : « اطلبوا الرزق فى خبايا الأرض » ، وإنما حرضهم الإسلام هذا التحريض لأنه يريدهم سادة لا مسودين ، ومعطين لا آخذين ، ومستعلين لا مستذلين ، ولذلك قال الرسول : « اليد العليا خير من اليد السفلى » وقال : « إن الله يحب معالى الأمور ويكره سفسافها » .

وما أسعد الرجل المسلم حين يعتــدل أمامه طريق الحيــاة ، فيعمل ويتصبب منه عرقه وهو يعمل فيزكيه هــذا العرق ويطهره من فضلات الحس وصمود النفس ، ويكسب الكسب الحلال الطيب ، فيشعر بلذة النجاح والفوز ، وتستقيم يده وهى تنفق من هذا الكسب الكريم ، فيأكل ويشرب ويلبس ، ويتمتع بما شاء من طيبات الحياة ويؤدى الواجب عليه فى ماله نحو الله ونحو الناس ، ويدخر لنفسه ما يحتاج إليه فى غده ، ويقف بين يدى خالقه وموفقه فى محراب الصلاة ومقام المناجاة ، يعبده ويشكره ، ويناجيــه ويذكره ، مستزيداً من فضله وتوفيقه ، متذكراً قوله جل جلاله : « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » . . .

وإذا كان الإنسان يحصل على المال فى هذه الحياة بطاقاته الذاتية ، وأسبابه المادية . ووسائله المعروفة ، فإنه لا يستطيع أن يصل ويبلغ وينجح

إلا إذا كانت يد الله فوق يده فالله هو الموفق وهو المؤيد وهو الخالق للأسباب والوسائل والطاقات ، ولذلك يذكر الإسلام الناس بأن الأموال التى فى أيديهم ليست ملكاً لهم ، بل هى فى الحقيقة والواقع ملك لله الواحد الأحد : « لله ملك السموات والأرض وما فيهن » ، وإنما هم خلفاء لله ووكلاء عنـــه ، ولذلك يقول لهم : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » ويسمى المال الموجود عند الناس مال الله ، فيقول : « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » ، وكان رسول الله يقول : « المال مال الله وأنا أعبده » . وإذا تذكر المسلم هذا جيداً واعتبر به استمسك بعروة الله الوثقى التى لا انفصام لها ، وسار على الطريق الواضح المستقيم الذى لا عوج فيه ، وابتعدت نفسه عن دواعى الشح والكزازة ، وانبسطت يده فى مجالات الخير والبر ، فاستطاع أن ينفع قومه ووطنه ، بأداء الزكاة لمستحقيها ، وبالإنفاق فى ساعات العسرة والضيق ، وبنجدة المضطر وإغاثة الملهوف ، وبعمل الإحسان المتعدد الألوان ، كبناء المساجد والمدارس والمستشفيات ، وإعانة هيئات الخير وجماعات الإصلاح ، وهنا أيضاً الإنفاق فى سبيل الدعوة الدينية ، ونشر العلوم الإسلامية ، ورفع شأن المسلمين . . .

وبهذه القربات ينال المسلم درجة الغنى الشاكر التى فضلها الكثيرون على درجة الفقير الصابر ، لأن الفقير قـــد يصبر عزاً أو انتظاراً لجزاء ، ولكن الغنى عنده أسباب اللهو والعبث ، فإذا قاومها وشكر ربه مع غناه كان ذلك دليلا على صحة دينه وقوة يقينه ، فيستحق عظيم الثواب ممن لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وإذا كان بعض الأديان يقول إن الغنى لا يدخل ملكوت السموات حتى يدخل الجمل فى سم الخياط فإن الإسلام الذى أحسن الجمع بين الروحية الواعية والمادية الصافية يجعل الغنى الشاكر أسبق إلى رضوان الله من الفقير الصابر ، وما أكثر أيادى الشاكرين من أغنياء المسلمين فى

السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين ، فلولا أموال أمثال عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف لتعطلت غزوات وجهود حققت للاسلام خيراً ونصراً، وإذا راجعنا تاريخنا الطويل المشرق وجدنا كثيراً من الأعمال الكبيرة والاصلاحات الضخمة قد تمت بتبرعات أفراد مسلمين أغنياء جمعوا بين الدين والدنيا ، ورأوا أن عليهم فروضاً وحقوقاً فى أموالهم ، ولم ينتظروا حتى يطالبهم بها مطالب ، أو ير غمهم عليها مرغم ، بل قاموا بأدائها طواعية واختياراً فأرضوا نزعة الخير فى نفوسهم ، وأدوا حق الله والناس عليهم ، وأشاعوا الرضى عنهم فيمن حولهم ، ومجدوا ذكرهم فى حياتهم وبعد مماتهم ، «وسيجزى الله الشاكرين» . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن الإسلام دين ودنيا ، وكسب طيب وإنفاق بصير ، فأقبلوا على حياتكم إقبال الأصحاء الأقوياء ، وخذوها أخذ المؤمنين الشرفاء، واعملوا لدنياكم كأنكم تعيشون أبدا ، واعملوا لآخرتكم كأنكم تموتون غداً ، وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . . .

وثيقة صلب المسيح[1]

الحمد لله عز وجل ، يؤيد الحق وصحبه ، ويخذل الباطل وحزبه : « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » أشهد أن لا إله إلا الله ، نصير الموقنين وخاذل المفترين : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ترك الناس على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله : « أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

يبدو أن خبث اليهود اللئام لا يريد أن يقف عند حد ، فإنهم قد شاهدوا فى الفترة الأخيرة من حياة العرب اهتماماً بادياً بفلسطين التى اغتصبتها الصهيونية فى ليل الدناءة والغدر ، وأن مؤتمر القمة العربى قد اجتمع مرتين ، وكانت أبرز قضية فيه هى قضية فلسطين التى أجمع على العناية بأمرها والعمل لاستردادها جميع الرؤساء العرب ما بين مسلمين ومسيحيين ، فإذا هؤلاء الصهاينة الأبالسة يسلكون طريقاً شيطانياً من طرق لؤمهم وإجرامهم ، ويستخدمون وسائلهم الثعلبية وحيلهم الأشعبية لكى يدفعوا فريقاً من مسيحى أوربا فيقولوا إن هناك وثيقة مسيحية تنص على تبرئة اليهود من دم المسيح عيسى بن مريم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، ويورطون هذا الفريق لكى يستغل مجمعاً مسيحياً فى أوربا ، ويدفعه إلى إقرار هذه الوثيقة والتصديق على ما فيها ونشرها بين الناس . وكان هذا السعى اللئيم الخبيث منذ شهور ، ومنذ بدأ أو ظهر أثره أخذت الصحف فى الشرق والغرب تتحدث عن هذه الوثيقة ، وتذهب

---

(1) الجمعة ٢٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٨٤ هـ الموافق ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٦٤ م .

مذاهب شتى فى أمرها ومصيرها . وأحس أبناء الإسلام بحرج عند إعلان الرأى فى هذه الوثيقة ، لأنهم أدركوا أن للموضوع زاويتين إحداهما دينيـــة والأخرى سياسية ، فمن الناحية الدينية نحن نؤمن بأن اليهود لم يقتلوا المسيح عليه السلام ، والقرآن الكريم صريح فى ذلك ، حيث يقول عنهم فى شأن عيسى : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » حيث إن الله تبارك وتعالى قد عمى أمامهم أمرهم ، وأفسد عليهم سعيهم ، فألقى شبه عيسى على يهوذا الأسخريوطى الذى كان فى أول أمره من تلاميذ المسيح ، ثم تلون وكاد له ووشى به ودل عليه اليهود ليقتلوه ، فلما ذهب اليهود إلى مكان عيسى ليفعلوا فعلتهم ويضربوا ضربتهم ، وجدوا أمامهم يهوذا الذى جعله الله تعالى بقدرته شبيهاً كل الشبه بعيسى ، فأخذوه وهو يصرخ دون جدوى قائلا لهم : لست أنا المسيح وإنما أنا يهوذا ، وهم يعتقدون أنه يكذب عليهم أو يسخر منهم ، وأذاقوه الهلاك ، بينما نجى الله تعالى نبيه عيسى ، وتوفاه إليه ، ورفعه مكاناً عليا .

فاليهود فعلا لم يقتلوا عيسى ، ولكن ليس معنى هـــذا أنهم أبرياء ، أو أنهم يستحقون التبرئة ، وكيف وقـــد أعطاهم الله فى أول أمرهم ما لم يعط أحداً من العـــالمين ، فلم يشكروا ولم يقدروا ، فما من نعمة جاءتهم إلا قابلوها بمعصية ، وحسبنا ما ذكره القرآن الكريم من بلاياهم من إنهم قتلوا الأنبياء بغير حق ، وأنهم عبدوا العجل ، وأنهم قدسوا المال ، وأنهم بطروا نعمة الله واستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير ، وزادوا فى إجرامهم فاتهموا أم عيسى مريم البتول المطهرة التى تقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً ورزقها بغير حساب ، واصطفاها على نساء العالمين ، اتهموها بأنها زانية وبأنها ارتكبت الفاحشة مع بعض الناس مع أن الله تعالى يمجدها بقوله : « وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » ، ومن وراء اتهامهم هذا اتهموا عيسى بأنه ابن سفاح ، ولما جاءهم

بالهدى من عند ربهم أعرضوا عنه وكفروا ، به ، ولم يكتفوا بالكفران والإعراض ، بل دسوا عليه الدسائس ، وكادوا له المكائد ، وأثاروا ضده السلطة الحاكمة ، وأوهموها أن عيسى يريد انتزاع الملك منهم لنفسه ، وظلوا فى كيدهم حتى أجمعوا أمرهم على قتله ، واتخذوا لذلك ما استطاعوا من الوسائل وشرعوا فى التنفيذ ، ولكن الله تعالى شاء أن يرد طغيانهم إلى نحر من يستحقها ، ولولا أن الله حال بينهم وبين الفتك بعيسى لما ترددوا لحظة واحدة فى مواصلة المسير على طريق الإثم والإجرام ، فكيف يقال بعد كل هذا إن هؤلاء أبرياء وكيف يتصور عاقل أن تأتى هذه التبرئة من جهة أحد ينتسب إلى المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ؟! .

وإذا كان كل المراد من هذه الضجة المصطنعة لمآرب خسيسة لئيمة هو تقرير أن اليهود لم يقتلوا عيسى ، فالقرآن الكريم الذى تنزل من لدن رب العالمين قد قرر هذا منذ قرابة ألف وأربعمائة عام ، وهناك أيضاً إنجيل « برنابا » وهو أقرب الأناجيل إلينا نحن المسلمين ، وهو الذى نص صراحة على تبشير عيسى بخاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام وهذا الإنجيل يورد بتفصيل قصة محاولة اليهود لقتل عيسى ، كيف ألقى الله شبهه على يهوذا فقتلوه وهم يظنون أنه المسيح ، وهذا الإنجيل قد طبع باللغة العربية فى بلادنا منذ قرابة سنتين بعد أن ترجمه إلى العربية أحد المسيحيين ، فلماذا يقومون الآن بإثارة تلك الزوبعة المسمومة النكراء ؟ .

هنا تأتى الناحية السياسية للموضوع لتتكفل بالإجابة على هذا السؤال ، فقد غاظ اليهود أن يروا العرب المسلمين والمسيحيين يجمعون على أن اغتصاب اليهود لفلسطين جريمة نكراء يجب أن تزول آثارها السود ، وغاظهم أن يدرك المسيحيون أن الإجرام الصهيونى فى فلسطين لم يكن مقصوراً على المسلمين ،

وغاظهم أن يمتلىء أتباع المسيحية كراهية وبغضاً لليهود الذين افتروا على المسيح وعلى أمه مريم ، فأخذوا يستغلون كل عوامل التأثير البادية والخافية ، لكي يجعلوا لهذه الوثيقة مكانة وشأناً ، لعلها تخفف حدة العداوة بين اليهود والنصارى ، وبذلك يتقاربون ويتفاهمون ، ويقفون صفاً واحداً أمام المسلمين وبذلك تهون قضية فلسطين على مر السنين ، وما نظن المسيحيين من البلاهة والغفلة بحيث يقبلون أن يضعوا أيديهم فى أيدى الذين وصفوا العذراء بالفاحشة ووصفوا ابنها بأنه من سفاح وإلا فياضيعة العقل والرشاد .

وإن علينا لواجبا أمام هذه المكيدة ؛ هو أن نواصل عرض التصوير القرآنى لمخازى اليهود وآثامهم وكيف جازاهم الله على إجرامهم بمسخهم قردة وخنازير وضرب عليهم الذلة والمسكنة ، وحسبنا قول الله : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » وأن نقابل هذا بعرض التصوير القرآنى لتمجيد مريم وتكريم المسيح ، وحسبنا أن الله جعله بفضله يحيى الموتى ويبرئ الأكمة والأبرص ، وأن القرآن يقول : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون » . ومن واجبنا أن نحذر أتباع المسيح من الانخداع بهذه المكيدة الصهيونية فإنها تضرهم وتضر غيرهم فى مجال السياسة وهى أيضاً تهدم الأساس الذى يقوم عليه اعتقادهم وإن كنا لا نؤمن به ولا نعتقد فيه .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : لن نراع كثيراً من أمر هذه الوثيقة من ناحية الدين ، فإن أعلنها أصحابها كان ذلك تكذيباً لأنفسهم وتصديقاً للقرآن ، وإن لم يعلنوها فالعداوة باقية على أشدها بين اليهود والمسيحيين ، وهذا مما يفيدنا فى معالجة قضية فلسطين ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

حاجتنا الى ابطال[1]

الحمد لله عز وجل ، هو الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . نشهد أن لا إله إلا الله ، وهب الإنسان الملك والطاقة ، وحرضه على السعى والعمل ، « ولكل درجات مما عملوا ، وليوفيهم أعمالهم ، وهم لا يظلمون » . ونشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، صنع الرجال وخرج الأبطال ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى الفروع الطاهرة من آله ودوحته ، والسابقين من أنصاره وأهل صحبته ، والقائمين بأمر دينه ودعوته : « فأولئك لهم الدرجات العلى » :

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . من طبيعة نهضة الأمة أن تتحقق فيها البطولات ويوجد الأبطال .

تحتاج كل أمة إلى بطولات وأبطال ، لأن البطولات أعمال عظيمة جسيمة تبهر النظر وتثير الفكر ، وتوجه الهمم إلى معالى الأمور ومكارم الفعال ، ولأن الأبطال يقدمون دلائل حسية حية على إمكان وجود هذه البطولات فى دنيا الحقيقة والواقع ، وبوجودهم يؤمن الناس بأن المبدأ النبيل مستطاع التحقيق ممكن الوقوع ، وحينئذ يقدم الكثيرون على تطلب البطولات والتحلى بها : وليس من السهل أن يكون أفراد الأمة كلها فى مرتقى بطولى سام رفيع ، بل إن العامة كثيراً ما تقنع بالقليل ، فكأن لابد من وجود ثلة من الأبطال يحرضون غيرهم على التعالى والتسامى ، فيأخذ كل فرد حظه ونصيبه ، ويبلغ كل منهم ما يستطيع من درجة وارتقاء : « ولكل درجات مما عملوا ، وما ربك بغافل عما يعملون » .

---

(١) الجمعة ١٨ من ذى القعدة سنة ١٣٧٩ هـ ١٣ مايو سنة ١٩٦٠م

هذه الأمة العربية المؤمنة المسلمة فى عهودها المزهرة كثيرة الأبطال كثيرة العمالقة من الرجال ، وكانت ذات بطولات فى الجاهلية والإسلام ، ففى الجاهلية كان للعرب ألوان من بطولات البيان والشجاعة والكرم ، وإن كان الغالب على هذه البطولات هو العنف والإسراف ، وجاء الإسلام فهذب هذه البطولات وزاد فيها ، وأقامها على سواء السبيل ، ونفخ فيها من روح الله ، بعد أن أزال عن جبهتها غشاوة الجاهلية ، كان هناك قلة من الناس حرصوا على مبادئهم وأخلاقهم فى الجاهلية ، ثم اهتدوا بنور الإسلام فازدادوا رشداً وتوفيقاً ، والحديث يقول : « الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » . ولقد صنع الإسلام من أهله فى عصورهم الحية المزهرة الناضرة نماذج عديدة مجيدة من الأبطال فى مختلف الميادين ، ونستطيع أن نعد عشرات بل مئات من الأبطال الإسلاميين الذين ازدان بهم تاريخ دينهم ووطنهم ، ولم يكن تألق فرد فى مجموعة كافياً لكى يسيطر عليها أو يطمس ضوء أفرادها ، بل كان يتألق معه أو إلى جواره هذا وذاك وذلك منهم ، لتتعاون الأيدى المتكافئة والمتماثلة أو المتقاربة على صنع المحامد وإتمام المكارم ، فإن الأمم تذل إذا غلبت على أبطالها صفة الفردية أو صبغة القلة ، وتعز وتقوى إذا تكاثر فيها الأقران والنظراء منهم وهذه هى المرأة العربية قد فخرت غاية الفخر حين رأت أبناءها الماجدين متماثلين ، لا تستطيع تفضيل واحد منهم على أخيه ، فقالت عنهم وهى مغمورة بنشوة الفخر والإعجاب : « هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها » ! .

نعم كان ماضى هذه الأمة عظيماً ولكنها قد مرت بها عصور ظلمات ، وأصابتها عوامل هدم وتفتيت ، فقلت هذه الكثرة من الأبطال ، وطافت بالأمة غفوة امتدت وطالت ، ثم استيقظت وهبت تستأنف خطواتها على طريق المجد ، وهى تتجه اليوم أكثر من ذى قبل إلى أبطال ، يمهدون سبيلها ،

ويحملون تبعاتها ، ويجعلونها أهلا لفضائل العروبة ومواريث الإسلام الضخمة ، وجديرة بالوساطة الفاضلة بين الناس : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » . ولتصير هذه الأمة صالحة مصلحة مختارة لحمل أمانة السماء : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » ، « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .

والإسلام دين يحرض على البطولة ويكرم الأبطال ، ولكنه لا يكرم لأشخاصهم ولا لذواتهم ، بل يكرم البطولة المتجلية فيهم ، وإذا كان التاريخ العام قد شهد أمماً تخلد أبطالها بعبادتهم كاليونان ، أو بتحنيط جثثهم كالفراعنة ، أو بإقامة تماثيل لهم كالأوربيين ، فإن الإسلام يكرم الأبطال تكريماً معنوياً باقياً ، إنه يكرمهم بتمجيد ما امتازوا به من بطولة ، فهو يكرم هذه البطولة وينوه بها ويدعو إليها ، وكلما اقتدى شخص لاحق ببطولة بطل سابق ، كان لهذا السابق أجر وثواب فى الإسلام ، بقدر ما هدى سواه إلى البطولة ، وحرض غيره على نبل الطريقة ، والرسول يقول : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً » . ولسنا فى الإسلام عباد أشخاص وذوات ، ولكننا نعبد الله وحده ، ونمجد ما ارتضاه لخيار عباده من قيم وفضائل وأخلاق ، فنحن نمجد محمداً برسالته ودعوته ، وأبا بكر بإيمانه وتضحيته ، وعمر بحزمه وصرامته ، وعثمان بحيائه وأريحيته ، وعليا بإقدامه وشجاعته ، وعمر بن عبدالعزيز بزهده وعدالته ، وأشخاص هؤلاء وذواتهم لا تأثير لها فى هذا التمجيد ، فقد يكون لسواهم من ضخامة الجسم ومتانة التركيب ما ليس لهم ، ولكن عظمة هؤلاء الأبطال تأتى من جهة أعمالهم وصفاتهم وجهودهم التى ينفعون بها الناس ، ومن هنا خلد الأدب الإسلامى أبطالا كثيرين ، لا بصورهم أو تماثيلهم أو ذواتهم ، بل بسيرهم العاطرة وصفاتهم الحميدة وأعمالهم الباهرة .

ومن فضل الله على عباده أنه جعل البطولات ذات ألوان وأنواع ، فمنها الحسية والنفسية والعقلية والروحية ، ليسلك كل امرئ فاضل طريق بطولة تلائمه وتناسبه و « كل ميسر لما خلق له » كما يقول الرسول ، والإسلام يحرض أمته على مختلف البطولات ، وعلى التنافس فيها بشتى الوسائل ، حتى تضرب المثل العليا لغيرها من الأمم ، فالإسلام يحرض على بطولة العلم والتوسع فيه ما استطاع الإنسان : « وقل رب زدنى علماً » ، وحينما قال القرآن : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » لم يرد لنا الاقتصار على القليل ، بل أثار هممنا لنزيد فى هذا القليل حتى يصير بفضل الله كثيراً : « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » والحديث الذى يقول : « منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا » يرمز إلى أن بطولة العلم ينفسح مجالها إلى مدى بعيد . والإسلام يحرض على بطولة الرحلة والاكتشاف حين يقول القرآن : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » وحين يقول : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » حين يقول : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » . والإسلام يحرض على بطولة التقوى والتعبد : وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، والذين يبيتون لربهم سجدا قياماً » ، « كانوا قليلا من الليل يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون » ، « نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه » . والإسلام يحرض على بطولة الدعوة وهداية الناس إلى الخير : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » ، « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » والإسلام يحرض على بطولة فعل الخير : « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » ، « وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إننا فى دور من أدوار البعث والتجديد ، ومن واجبنا فيه أن نصلح الفاسد ، ونحرك الهامد ، ونزيد فى البناء ، ونعمل للحاضر ، ونعد للمستقبل ، وتلك جلائل من الأمور ، تحتاج إلى رجال وأبطال ، ومن الواجب أن تتهيأ فى المجتمع الناهض الوسائل المؤدية إلى تكوين هؤلاء الأبطال وتخريجهم ، عن طريق التربية القويمة ، والقدوة الصالحة ، والعقيدة المكينة ، والإيمان الحافز ، وإتاحة الفرص للملكات والمواهب حتى تتبدى وتظهر ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

التطلع الى المستقبل(١)

الحمد لله عز وجل ، جعل الذكرى عبرة وعظة للمؤمنين البصراء ، وجعل الأمل عدة المستقبل لدى المجاهدين الأوفياء « إن الله مع الصابرين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يعلم بالمنحة ويقوم بالمحنة « ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا ترجعون » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جعل الحياة أملا وعملا ، ورجاء ومضاء : « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن عمر الإنسان فى هذه الحياة الممتدة يتكون من ثلاثة أقسام : أمس واليوم والغد ، وأمس هو الماضى الذى رحل وانتقل بما له وما عليه ، واليوم هو الحاضر الذى يواجه الإنسان بزمانه وكيانه ، والغد هو المستقبل المنتظر على المدى القريب أو البعيد . والدين الحنيف يرسم للمؤمن الطريقة المثلى التى يتبعها مع هذه الأقسام ، فأما أمس فإنه يتطلب من العاقل الفاضل باسم الدين مراجعة وتقويماً ، واستذكارا واعتبارا ، « والذكرى تنفع المؤمنين » ، والاستفادة من تجارب الماضى سواء أكانت طيبة أم سيئة شعار كل من رضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولا ، ذلك الرسول الكريم الذى قال له ربه : « فذكر إن نفعت الذكرى ، سيذكر من يخشى ، ويتجنبها الأشقى ، الذى يصلى النار الكبرى ، ثم لا يموت فيها ولا يحيى » وأما اليوم فإنه الفرصة المواتية التى يجب أن تعمر باليقظة والجد والعمل ، ولذلك جاء فى الأثر

---

(١) أذيعت بالتلفزيون يوم ٧ من المحرم سنة ١٣٨٨ هـ الموافق ٥ أبريل سنة ١٩٦٨ م .

الإسلامى : « المؤمن ابن وقته » . وجاء قول الإمام الحسن البصرى : « ما من يوم ينشق فجره إلا وينادى : يا ابن آدم ، أنا خلق جديد ، وعلى عملك شهيد ، فاغتنمنى وتزود منى ، فإنى لا أعود إلى يوم القيامة » . وأما المستقبل فهو الصفحة المطوية المحجوبة عن الأنظار ، وإن بدت ملامح عن علاماتها لأولى الأبصار والأفكار ، وللمؤمن فراسة تجعله عند تمام إخلاصه كأنه يرى بنور الله عز وجل ، ولذلك نجده يتطلع إلى هذا المستقبل بالرجاء الممد والعزم المجدد ، والتخطيط السديد والتطبيق الرشيد ، مهما كانت مرارة التجربة فى الماضى ، ومهما كانت وطأة التبعات فى الحاضر ، ومهما احتاج إلى استمرار المقاومة والمداومة على العمل فى المستقبل ، لأن ربه جل جلاله يقول : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » ويقول: « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . وما أروع الأثر الإسلامى الذى يقول إن لله عباداً إذا أرادوا أراد وإنما تزكو إرادة هؤلاء وتعلو بإيمانهم الراسخ ومبادئهم الرفيعة وقيمهم الدينية والروحية والخلقية التى تدفعهم إلى مواقف الأبطال وتمكنهم من جلائل الأعمال .

ولقد تعرض للانسان فى حياته متاعب أو شدائد ، فإن استنام لها أو ضعف أمامها داسته بنعالها ، وجعلته إحدى ضحاياها ، وإن أحسن استقبالها ، وأحسن احتمالها ، وأحسن معالجتها ، وأحسن التغلب عليها ، وأحسن التخلص منها ، وقذفها بعيداً عن طريقة وخطاه ، وأحسن المعاودة إلى العمل والنضال ، كان من أصحاب التوفيق الإلهى المجيد فى الدنيا والآخرة ، لأن رب الأرباب يقول : « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » . وهناك من يعكف على الماضى وحده ، يستعيده ويسترجعه ، ويظل يقتات

به ، ويدور حوله فى حلقة مفرغة لا يدرى أين طرفاها ، فيكون أشبه بدودة الحرير التى تحسب جهلا منها أن زادها من الحرير قد نفد ، لأنه قد خرج من جوفها ، وإن أحاط بها ، ثم لا تزال الدودة على ظنها الخاطئ الجاهل ، حتى تموت والحرير من حولها معقود وقريب :

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما   والماء فوق ظهـورها محمول

وشر الناس وأسوأهم حالا ومآلا من لم يعتبر بماضيه ، ولم ينتهز فرصة حاضره ، ولم يعد العدة لمستقبله ، وأفضلهم من اتخذ من ماضيه رصيداً يجدد علمه ، ويشحذ فهمه ، ويقوى عزمه ، ويحذره معاطب الطريق ، واتخذ من حاضره فرصة ذهبية ينتفع فيها بما جرب فى الماضى وتعلم منه ، ويربط بين هذا الماضى وهذا الحاضر برباط يحث خطاه دائماً إلى الأمام ، ثم يربط هذا الحاضر بالمستقبل ، بأن يجعل يومه الموجود الآن نقطة ارتكاز لدرجة يرتقيها فى هذا المستقبل المأمول الميمون .

وإذا كنا ما زلنا نعيش فى النفح الطيب العاطر لذكريات الهجرة النبوية الخالدة ، فإن من دروس هذه الهجرة التى لا يخبو لهبها ، ولا يزول نورها أن أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ذاقوا ما ذاقوا قبل الهجرة خلال ثلاث عشرة سنة من ألوان المتاعب وأنواع الشدائد التى صبت عليهم صباً من أهل الكفران والطغيان ، ثم تحملوا ما تحملوا من مخاطر وأهوال ، حتى أتموا هجرتم ، التى اضطروا إليها اضطراراً ، وأرغموا عليها إرغاماً ، وتركوا معها قطعة عزيزة غالية عليهم ، شهدوا فيها مولدهم ونشأتهم ومعيشتهم ، ولا يمكن أبداً أن ترخص عندهم أو تهون ، أو تنسى أو تضيع كما لا يمكن بحال من الأحوال أن توجد عندهم هذه الهجرة الموقوتة شيئاً من اليأس أو القنوط ، ولذلك ما كادت أقدامهم تستقر على أرض الهجرة فى المدينة حتى تلفتوا إلى المرحلة الماضية من نضالهم ، يتعرفونها ويقومونها ويستفيدون

منها ، ثم أخذوا يخططون ويرسمون ، ثم شرعوا يطبقون وينفذون ، ثم جمعوا ثمرات ما بذلوا : نصراً وأجراً ، وعزة وفتحاً ، لأنهم « الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ، الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ، لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم » . ومن خلال الهجرة المناضلة ، والوقفة الحازمة ، والخطة المحكمة ، والوحدة الشاملة ، والمقاومة الموصولة ، مهد المهاجرون المغتربون طريق العودة إلى الوطن العزيز ، وطريق النصر للمبادئ التى آمنوا بها ، والقيم التى عاشوا لها ، وتنزل قول الحق جل جلاله : « إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

فلنتطلع إلى المستقبل بإيمان وعزم وثقة ، ما أحلاها كلمة حين تقع فى الآذان الواعية ، ثم تباركها المشاعر المستجيبة الحية فى القلوب ، ويؤيدها الاقتناع الراسخ فى العقول ، وتشد أزرها العزمات القوية فى الأيدى ، والخطوات الرشيدة من الأقدام ، وتحيطها الروح الجماعية المتحدة القائمة على الثقة المتبادلة بين الجميع ، ويقود زمامها أولا وأخيراً الإيمان الوطيد الله الذى يقبل النصر من حماه : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » : واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

نقـــل القلب[١]

الحمد لله عز وجل ، برأ الكون من العدم ، وأنعم بالحياة على الأمم « وربك يخلق ما يشاء ويختار » ـ أشهد أن لا إله إلا الله ، هل من خالق غير الله ، أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ؟ وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، عزت بدعوته الحياة ، وشرفت بهديه الجباه ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

أقبل على أحد المتدينين غاضباً ، وقال : أرأيت كيف فجر الإنسان وكفر ؟ أرأيت كيف أسرف فى الاغترار والاستكبار ، فزعم أنه قادر على أن يتحكم فى حياة الإنسان، لأنه ينقل قلباً من شخص حديث الوفاة إلى شخص مريض القلب ؟ . فقلت له : هون عليك ، فما زال الإنسان ـ وسيظل ـ يتقلب فى نعم الله وينتفع بما خلق الله ، والإنسان حين ينقل القلب لا يخلق عضواً ، ولا يبدع حياة ، وإنما يأخذ قلباً خلقه ربه وأبدعه ، ثم ينقله من مكان إلى مكان ، ويبقى سر الحياة والخلق والإبداع بيد الله عز علاه ، وسيظل كتاب الله يردد على مسامعنا قول ربنا « يا أيها الناس ضرب مثـــل فاستمعوا له: إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز » . فعاد السائل الغاضب يقول وهو ما زال فى قلقه واضطرابه : وهل فى الدين دليل على أن عملية نقل القلب تجوز فى

---

(١) الجمعة ٢٦ جمـادى الثانيـة سـنة ١٣٨٨ هـ ٢٠ سـبتمبر سنة ١٩٦٨ م .

الشريعة الغراء ؟ ، فأجبته بأن الفقهاء القدماء لم يتعرضوا للحديث عن الحكم الشرعي فى مثل هذه الحالة ، لأنها لم تكن موجودة ولا معروفة ، فقد كانت الحياة سهلة غير معقدة ، ولذلك كانت الأمراض قليلة أو مستورة ، ولكن الحياة أخذت تتعقد وتتعقد ، وأخذ الإنسان يسرف فيها ويسرف ، فظهرت علل لم تكن موجودة ، وانتشرت أمراض لم تكن معروفة ، وبقدر ما اخترع الإنسان وابتدع من وسائل الحضارة أو المدنية والرفاهية ، أثار على نفسه ألواناً وألواناً من الأمراض والعلل . فسارع محاورى يقول : إذن هذه العملية لا تجوز ، وهى حرام بلا جدال .

فقلت له : لا تعجل ، فإنه ينبغى لنا أن نتذكر أن للدين قواعد عامة ، منها أن كل ما حقق خيراً ومنفعة مشروعة للانسان يكون حلالا ، وأن كل ما جلب شراً أو ضرراً بلا موجب يكون حراماً وممنوعاً ، ودفع الضرر عن الإنسان مقصد عظيم تقره الشريعة الإسلامية ، بل وتحث عليه ، لأن المحافظة على النفس البشرية من الأهداف الأساسية للشريعة الغراء ، وقد أباح الفقهاء المتأخرون نقل الدم إلى المريض أو الجريح الذى يتوقف إنقاذ حياته على هـذا الدم ، حتى لو كان الدم من غير مسلم ، وأباحوا أيضاً أن تنزع عيون بعض الموتى بقدر الضرورة لتنقل إلى أناس ينتفعون بها ، واستندوا فى هذا إلى القاعدة الشرعية المعروفة : « الضرورات تبيح المحظورات » ، وإذا كان الدم جزءاً من الإنسان ، والعين عضواً فيه ، فإن القلب أيضاً عضو من أعضاء الإنسان ، فلماذا لا يقاس حكمه على حكم غيره من الأعضاء ؟ . فعاد محاورى يقول : ولكن القلب هو مصدر الشعور والوجدان وهو أساس المحاسبة للانسان فقلت له : إن مبعث الشبهة فى هذا المقام هو أننا نخلط بين معنى القلب الذى يراد غالباً فى لغة القرن الكريم ، والمعنى المادى له ، فالقلب فى لغة علماء الأعضاء ، هو عضو عضلى أجوف بداخل القفص الصدرى ، مخروطى الشكل ،

أو صنبورى الشكل ، ينتظم به تحركات الدم فى الجسم ما بين إرسال واستقبال
وأما القلب فى لغة القرآن المجيد فإنه يعبر به غالباً عن المعانى التى تخص بوجوده
من الروح والعلم والشجاعة وغير ذلك ، فالقرآن مثلا يقول : « إن فى ذلك
لذكرى لمن كان له قلب» أى علم وفهم ، ويقول : « وبلغت القلوب الحناجر
وهو يقصد الأرواح ، ويقول : « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه »
أى على عقولهم ، وهكذا .

هدأ محاورى بعض الهدوء ولكنه قال : أو معنى ذلك أن نترك عملية نقل
القلب يجريها من يشاء لمن يشاء ؟ أجبته : كلا ، فما زالت عملية زرع القلب
عملية دقيقة خطيرة غير مأمونة ، ولم تحدث هذه العملية إلا مرات قليلة
معدودة فى العالم ، والكثير من هذه العمليات لم تنجح ، وهناك أجسام ينقل
إليها قلب غيرها فلا تقبله ولا تتلاءم معه ، بل ترفضه وتصده ، وما زلنا
فى حاجة إلى مراحل ومراحل من البحث والعلم والفن ووسائل الاحتياط
المختلفة لنستطيع أن نقول فى ثقة إن عملية زرع القلب قد صارت عملية عادية ،
ولا يجوز التهجم عليها دون حيطة وحذر ، فهناك فيما يرى الإنسان العاقل
شروطا وقيودا لابد من توافرها قبل الإقدام عليها ، فلابد أن يتأكد الطبيب
أن الظروف ملائمة تماماً لإجراء العملية ، وأن وسائل نجاحها متوافرة ، وأن
يقتصر فيها على حالات الضرورة القصوى التى نحتاج فيها إلى مثل هذه العملية
دون غيرها من طرق العلاج ووسائل التطبيب ، وأن يوافق صاحب القلب
السليم على نقله بعد وفاته إلى غيره ، وأن تكون هذه الموافقة اختيارية صريحة
واضحة ، ثابتة بتأكيد وبرهان ، وأن يقصد من هذه الموافقة نفع غيره بنية
خالصة عمادها احتساب ذلك التبرع لوجه الله عز وجل ، وأن نتأكد من
وفاة الشخص الذى سينقل منه القلب إلى غيره ، لأن بعض الأشخاص قد
يبلغ حالة النزع ، بل قد يظن أنه مات ، ويصنع به بعض ما يصنع بالموتى

ثم يتنفس وتظهر فيه الحياة من جديد ، ويعيش بعد ذلك طويلا ، وقد تكرر وقوع ذلك خلال التاريخ ، ويشترط أيضاً أن يقبل صاحب القلب المريض أن ينقل إليه قلب سليم ، أن تكون الموافقة صريحة وواضحة واختيارية ، بعد أن يكون هناك عجز تام عن علاج قلبه بأى صورة من الصور ، أو بأى وسيلة من الوسائل ، وينبغى أن نلاحظ هنا أن الطب يتقدم كل يوم ، وقد تكون هناك أمراض للقلب نعجز عن علاجها الآن ، ويوفقنا الله جل جلاله إلى علاجها غداً أو بعد غد ، ويخلق ما لا تعلمون . وهنا هدأ محاورى وسكن وقال : ألا ما أوسع رحمة الله رب العالمين . فقلت له : ينبغى أن نتذكر قول أحد الفقهاء الأعلام : إن الشريعة لا تضيق ذرعاً بحادث جديد ، بل تفسح له صدرها ، ما دام فيه الخير ، وما دام داخلا فى نطاق قواعدها الكلية ، ومبادئها العامة ، وصدق العلى الكبير حين يقول : ما جعل عليكم فى الدين من حرج .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

لا تخافوا من تقدم العلم ، فربنا هو العليم ، وقرآننا هو كتاب العلم ، ورسولنا هو نبي العلم ، وربنا الخلاق الوهاب هو الذى يقول : « علم الإنسان ما لم يعلم » ويقول : « وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما » أفسحوا الطريق لخطوات العلم السليم القويم ، فإن العلم من أوسع أبواب الإيمان ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

حرمة الموت(١)

الحمد لله عز وجل ، دعا إلى فضائل الأعمال ، وحث على مكارم الفعال ، « والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » ، أشهد ألا إله إلا الله ، أعز شأن الإنسان ، فجعله خليفته فى أرضه ، ومكنه من خيره وفضله « وكان فضل الله عليك عظيماً » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كان رحمة الله للعالمين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله ، « أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

قرأت فى بعض الصحف أن طائفة من أهل أوربة أساءوا التصرف مع جثة البحار العربى الذى مات فى حادثة الباخرة « صلاح الدين » ، حيث جروها على الأرض فى استخفاف وإهانة ، وتركوها حيناً كما تترك موتى الحيوانات فى العراء . قرأت هذا فسرى الألم فى كيانى مسرى الكهرباء فى بنيانى ، وقلت : يا لحسة الإنسان حين يتنكر لإنسانيته ، وينسى مكانة بشريته ، ويتصرف فى الحياة كأنه حيوان أعجم لم تصنعه يد الخالق البارئ المصور فى أحسن تقويم ، ولم يقل له حين ينحرف : « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك » ؟. ومن هؤلاء الذين يهينون كرامة الميت ، ويسخرون من جثة إنسان لا يستطيع الاحتجاج أو الدفاع ، فقد مات ؟ إنهم الذين يزعمون أنهم أهل الحضارة

---

(١) يوم الجمعة ٢ جمادى الأولى سنة ١٣٨٣ هـ الموافق ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٦٣ م .

والمدنية والتقدم ، وأنهم رواد عصر النور والرقى ، ألا ساء ما يزعمون ، وليتهم عرفوا الإسلام العظيم ، وفقهوا تعاليمه واستلهموا مبادئه . إذن لأدركوا أن القرآن الكريم يعلم الناس جميعاً أنهم أسرة واحدة ، تنتهى إلى أب واحد وأم واحدة ، فهو الذى يقول : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به الأرحام إن الله كان عليكم رقيباً » وهو الذى يقول : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » . وليت هؤلاء عرفوا هدى سيد الأنام محمد عليه الصلاة والسلام الذى يقول : « أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ألا لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر ، إلا بالتقوى ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ألا هل بلغت » ؟ والذى يعطى جسم الإنسان كرامة وأى كرامة حين يقول : « الإنسان بنيان الله ، ملعون من هدم بنيانه » .

إن هؤلاء لم يحترموا جلال الموت ولا هيبته ، فأين هذا من هدى الإسلام الذى علم الإنسان كيف يكون مؤدباً مهذباً مع الناس جميعاً ، وكيف يتعظ عند الموت ويخشع لذكره ، فقد روى جابر بن عبد الله قال : مرت جنازة، فقام لها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقمنا معه ، فقلنا : يا رسول الله ، إنها يهودية . فقال : إن الموت فزع ، إذا رأيتم الجنازة فقوموا (أى إن الموت له رهبته التى تخشع عندها القلوب ، وتعتبر لديها الألباب) . وفى رواية أخرى أن سهل بن حنيف وقيس بن سعد كانا قاعدين بالقادسية ، فمرت بهما جنازة فقاما لها ، فقيل لهما : إنما هو من أهل الذمة (أى ليس مسلماً)

فقالا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مروا عليه بجنازة فقام لها ، فقيل له : إنه يهودى . فقال : أليست نفساً ؟ ! . . يا لروعة التعبير ، نعم يا رسول الله ، ويا سيد الخلق ، إنها نفس لها حرمتها الإنسانية وكرامتها البشرية ، وأنت خير من دافع عن الإنسان ، وحرص على خيره فى كل زمان ومكان .

ولقد جاء فى فقه الإسلام أن للمسلم أن يغسل الميت الكافر القريب له أو غير القريب ، إذا لم يوجد من أقاربه من يغسله ، وجعل الإسلام للمسلم أن يتبع جنازة قريبه الكافر ، وأن يدفن غير المسلم ، ولقد كان من سنة النبى عليه الصلاة والسلام أنه إذا رأى ميتاً أمر بدفنه ، بلا إهانة أو تحقير ، لا يسأل عنه : مؤمناً كان أو كافراً ، وعقب غزوة بدر أمر الرسول بجمع القتلى من المشركين الذين حاربوه ودفنهم فى القليب (أى البئر) لعدم وجود مقبرة تسعهم ، ثم وقف عندهم وجعل يناديهم بأسمائهم ويقول : هل وجدتم ما وعد الله ورسوله حقاً . فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقاً . فقيل له : كيف تكلم أجساداً لا أرواح فيها ؟ . فقال : « ما أنتم باسمع لما أقوله منهم ، غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا شيئاً » . وحتى عظام الميت الذمى غير المسلم الذى يعيش بيننا ثم يموت لها احترامها وصيانتها ، والذمى هو من له ذمة وعهد عند المسلمين بحكم المواطنة والمعاشرة ، ولذلك يقول الإمام ابن عابدين : « عظم الذمى محترم ، فلا يكسر إذا وجد فى قبره ، لأنه لما حرم إيذاؤه فى حياته لذمته ، وجبت صيانة عظمه عن الكسر بعد موته » .

ولقد نهى الإسلام نهياً شديداً عن التمثيل بجثة ميت أو حى ، سواء أكان الحى أو الميت إنساناً أم حيواناً ، وكان كل خليفة يوصى المجاهدين أن يحذروا

الحذر كله من التمثيل بأحد ، لأن الخلق صنعه الله المبدع جل جلاله ، فتشويهها يعد تطاولا على صنع الله العظيم ، ولقد كان أحد المشركين يسب الرسول سباً شديداً فى كلامه وخطبه . وأسر المسلمون هذا المشرك فى غزوة بدر ، وأشير على الرسول أن ينزع بعض أسنانه ، حتى لا يستطيع الخطابة الآثمة ضده ، فرفض الرسول ذلك وقال : « لا أمثل به فيمثل الله تعالى بى وإن كنت نبياً » .

والإسلام قد ضمن حسن المعاملة فى القول والعمل والتصرف من المسلم من أهل الأديان السماوية الأخرى ، وحسبنا أن يقول الرسول صلى الله عليه وسلم عن الذمى : « من آذى ذمياً فأنا خصمه ، ومن كنت خصمه خصمته (أى غلبته) يوم القيامة » والذمى هو غير المسلم الذى يعيش مواطناً للمسلمين ، فله فى أعناقهم ذمة وعهد ، ويقول الإمام القرافى : « إن عقد الذمة يوجب حقوقاً علينا ، لأنهم فى جوارنا وخفارتنا ، وذمة الله تعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ذمة ودين الإسلام . فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة فى عرض أحدهم ، أن أى نوع من أنواع الأذية ، أو أعان على ذلك . فقد ضيع ذمة الله تعالى ، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذمة دين الإسلام» وضرب الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم أروع مثال فى معاملة الناس ، حتى المشركين منهم ، فقد كثر اعتداؤهم عليه ، فحرضه بعض من حوله على سبهم والدعاء عليهم ، فأجاب : « إنى لم أبعث لعانا ، ولكنى بعثت داعياً ورحمة ، اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن صغائر الأطفال لا تصرف عن المكارم خيار الرجال ، والإسلام

العظيم يعلمنا أن نحسن المعاملة لكل الناس ، فيقول الرسول : « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » ويقول : « أفضل الأعمال بذل السلام للعالم » فلنمض على الطريق محاولين إحسان القول والعمل مع الجميع ، لنفوز برضى من لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى انتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

فمتى نتعظ ؟(١)

الحمد لله عز وجل ، أنزل الآيات وفصل العظات وساق المثلات : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » . أشهد أن لا إله إلا الله ، هو وحده مصدر العزة والقوة : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، بشر وأنذر ، ووعد وأوعد ، فكان خير المرسلين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

يقول أحد أسلافنا ، وما أدق ما يقول :

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه … إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم ؟

ويبدو أن هناك أناساً لا يريدون للبنيان أن يتم ، ولذلك ينقضون فيه حجراً من هنا وحجراً من هناك بضلالة وجهالة ، أو بتعمد وسوء نية ، والواجب أن تتضافر الأيدى كلها على توطيد الأركان وتحصين البنيان ، حتى يتحقق الأمان والاطمئنان ، ولقد كتب بالأمس كاتب فينا عن الأسباب التى تدعونا إلى رفض الصلح مع إسرائيل ، فكانت فاتحة كلامه أن قال : نحن كمسيحيين ومسلمين بيننا وبين اليهود كل محبة » . فهل هذا كلام يقال ، وفى هذا الوقت بالذات ، ومهما تبعه من ذكر أسباب أخرى لعدم الصلح مع الأعداء؟

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٧ ربيع الآخر سنة ١٣٨٧ هـ الموافق ١٤ يوليو سنة ١٩٦٧ م .

وهل من الحق فى شىء أننا كمسلمين ومسيحيين بيننا وبين اليهود « كل محبة »؟ أعطونى عقولكم أيها الأخوة الأحبة لأدرك بها فقد ضاع منى رشادى ، ودون ذلك يذهب حلم الحليم ، وإذا كانت « المحبة كلها » متوافرة بيننا وبين اليهود . فلماذا نتلو إذن فى كتاب ديننا وقرآن ربنا : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون » ؟ . ولعل هذا الزاعم أراد أن يفهمنا أن اليهود فى العالم غير اليهود المحتلين لفلسطين ، أو أن اليهود هم غير الصهاينة الإسرائيليين ، وطالما خدعنا المخادعون بهذه الأكذوبة ، فالكفر كله أمة واحدة ، واليهود فى العالم كله متضامنون على ارتكاب أبشع جريمة فى التاريخ ، وهى احتلال أولى القبلتين وثالث الحرمين ، وتشريد أهل فلسطين والعرب كل مشرد ، وإعادة مملكة اليهود المزعومة التى تمتد من النيل إلى الفرات ، وتشمل الحجاز وفيه المدينة وما حولها ، وهل استطاعت الصهيونية فى فلسطين أن تفعل أفاعيلها إلا بمساندة اليهودية العالمية وتبرعاتها ، ومعاونة الدول الاستعمارية الباغية التى يسيطر على سياستها ومراكز أنشطتها عبدة الطاغوت من اليهود ، وهل استطاع الصهاينة أن يحولوا فلسطين المحتلة إلى « ترسانة أسلحة » إلا بالتأييدات والمعونات والإمدادات تأتيهم عن يمين وشمال من اليهود فى أوربا وأمريكا ، فيجعلونها ناراً محمومة يوقدونها على المسلمين والمسيحيين من العرب المساكين ؟ .

وكيف يقال إننا كمسلمين ومسيحيين بيننا وبين اليهود كل محبة ، وهم الذين كفروا بالله وتمردوا على أوامره ، وعصوا رسوله موسى ، وقتلوا أنبياءه ثم كذبوا رسوله عيسى ، وحرضوا على اغتياله ، وكذبوا رسوله محمداً ، وخانوا عهوده ، وتآمروا ضده ، واشتركوا مع أعدائه فى محاربته ، وسموا له الطعام ، ودبروا له الاغتيال ، وحرضوا عليه المشركين وقالوا إن

دينهم خـــير من دين محمد : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً » . وهل نسينا الفظائع والجرائم التى ارتكبها ضد الإسلام وأهله يهود بنى النضير وبنى قريظة وبنى قينقاع ويهود خيبر ؟ . وهل نسينا قول الله جل جلاله : « ها أنتم هؤلاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم ، إن الله عليم بذات الصدور » .

والعداوة بين اليهود وأتباع المسيح عليه السلام عداوة لا مثيل لها فى غابر التاريخ أو حاضره ، فاليهود قد اتهموا مريم البتول العذراء الطاهرة المطهرة بالخطيئة ، ونسبوها إلى الزنى « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً » ، مع أن القرآن يتحدث عن مريم الحديث الجميل الرائع . فنجد فيه مثل هذه الآية الكريمة : « وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » . واليهود يصفون المسيح عيسى بأنه ثمرة الفاحشة ، وبأنه وثنى مرتد ، وأن مصيره إلى الجحيم بين القار والنار ، وما زال اليهود إلى اليوم يشوهون شخصية عيسى ويفترون عليه ، ومنذ حين قصير أصدرت إحدى دور النشر اليهودية فى أمريكا واسمها « دار سيمون وشوستر » كتاباً بعنوان « التجربة الأخيرة للمسيح » يقول إن المسيح كان يرتكب الفاحشة مع المجدلية ، ويقول إن يهوذا قال للمسيح : « الويل لك ، هكذا تقهر الموت بمضاجعة النساء » . وفيمن يقال هذا الكلام الدنئ السافل ؟ . إنه يقال فى عيسى بن مريم روح الله وكلمته التى قال القرآن المجيد على لسانه : « قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً ، وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ، وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً ، والسلام على يوم ولدت

ويوم أموت ويوم أبعث حياً ، ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون » .

ولو رجعنا إلى الإنجيل – حتى على حالته الحاضرة – لوجدناه مليئاً بما يشير إلى العداوة العميقة المتأصلة الباقية بين اليهود والمسيحيين ، فالإنجيل يذكر الحكم الصارم الذى أصدره يسوع – وهو المسيح – على اليهود ، ونصه : « قال لهم يسوع : الحق أقول لكم إن العشارين والزوانى يسبقونكم إلى ملكوت الله » أى إن الناهبين لأموال الناس ومرتكبى فاحشة الزنى قد يدخلون الجنة وأنتم لا تدخلونها . وكذلك يخاطب الإنجيل اليهود قائلا لهم : « أيها الحيات أولاد الأفاعى ، كيف تهربون من دينونة جهنم » . أى لن تستطيعوا أن تفروا من الحكم اللاصق بكم المحتوم عليكم وهو أليم العذاب فى السعير ، فكيف يقال بعد كل هذا : « نحن كمسلمين ومسيحيين بيننا وبين اليهود كل محبة »؟ .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن أجهزة إعلامنا يجب أن تكون على مستوى المعركة ، وأن تتذكر جيداً أن قضيتنا مع الصهيونية واليهودية الغاشمة قضية دينية قومية وطنية ، ولن نستطيع أن ننتصف من هذا الإجرام الغاشم المتوقح إلا إذا امتلأت عقولنا وقلوبنا بأن أعداءنا هم أعداء ديننا وقرآننا ورسولنا ومقدساتنا وحرماتنا ومن واجبنا جميعاً أن نعبر عن هذا بمختلف وسائل التعبير المشروع ، حتى يتأكد المسئولون والمختصون أن هناك رأياً عاماً يطالب بأن يكون الوعى الدينى العميق أساساً لتعبئة النفوس وحشد العزائم ، على الهدف الجليل والواجب الثقيل ، وهو تطهير الأرض المؤمنة من دنس الاحتلال والإجرام . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

عيـــون جريئة[1]

الحمد لله عز وجل ، كتب ثوابه للصالحين المصلحين ، وتهدد بنقمته الآثمين الفاسقين : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » . أشهـــد أن لا إله إلا الله ، يؤيد المتقين ويخذل المتحللين : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، نبي الخشية والحياء ، وإمام البررة الأتقياء ، فعليه صلوات ربه وسلامه ، وعلى آله الكرام ، وأصحابه الأعلام ، والناصرين لكلمة الإسلام : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يقول الاجتماعيون إن حياة الأمم يجب أن تتكيف بحسب ما يعرض لها من ظروف عامة أو أحداث هامة ، فظروف الهول والخطر غير ظروف السلام والهدوء ، وأوقات الشدة والبأساء غير أوقات النعيم والرخاء ، وفترات النضال والكفاح غير فترات الدعة والراحة ، فلا يليق أن يعبث الناس والدنيا تجد ، ولا أن يقهقهوا والأهوال تصرخ ، ولا أن يضيعوا وقتاً أو جهداً ومعركة الحياة والموت تغمرهم ليتكشفوا عن بطولة فيعيشوا ويخلدوا ، أو عن تفاهة فينخذلوا ويبيدوا . . . ونحن الآن في حومة الوغى وميدان المناضلة والمصاولة ، تشغلنا مشكلات التحرير والتطهير والتعمير ، ونصفي حسابنا مع الاستعمار . وننادي بالقومية العربية المؤمنة ، ونتلمس الأسباب لحفظ

---

(١) ألقيت في يوم الجمعة ٢٨ صفر سنة ١٣٧٨ ١٢ سبتمبر سـنة ١٩٥٨ م .

ما بقى من التدين والتخلق ، ونجاهد لنخفف من تيار التحلل والانحلال ، وهناك معركة فى الجزائر ، ونضال فى عمان وجنوب الجزيرة ، وهناك جنود احتلال فى أجزاء من الوطن الأكبر ، ومؤامرات ضد العرب والمسلمين ، ونذر حرب تهدد بالويل والثبور . أفيليق مع هذا أن نقرأ ونسمع أنه قد أجريت مسابقة على شاطئ الإسكندرية لاختيار الشاب الذى له عينان أجرأ من عيون سواه ، وأن حكام هذه المسابقة من النساء ، وأن الشاب كان يدخل على لجنة القاضيات الفاتنات فيحملق فيهن بنظره ، ويتوقح ويتبجح ، ويسرح فى النحور والصدور والخصور وغيرها ، واللجنة تشاهد وتراقب لتقدر له الدرجة ! . . فى أى بلد نعيش ؟ أفى مصر الإسلامية ، ومركز القومية العربية أم فى ملهى من ملاهى باريس ؟ . أفى بلد يناضل ويكافح أم فى بلد يضرب بعض أبنائه أمثلة فى العبث والمجون ؟ . .

العالم يغلى من الاهتزاز والاضطراب ، والدنيا تعيش على حافة بركان ، والقنابل تدوى فى جوانب من الأرض بعشرات الآلاف ، وشبح الحرب المخيف يطل على الناس هنا وهناك ، وعامة الكادحين مشغولون بلقمة العيش ومطالب الحياة ؛ ولكن طائفة مترفة متحللة تلهو هذا اللهو ، وتعبث هـــذا العبث ، فتقيم فى بلادنا وتحت أسماعنا وأبصارنا رعاة ورعية — مسابقة لاختيار الشاب صاحب العيون الجريئة ، ويتم هذا الاختيار بوساطة نساء ثم تنشر أنباء هذه المسابقة وتفاصيلها على الناس ، فأى شذوذ وأى نشاز ؟ . . وما الأثر الذى توحيه مثل هذه المسابقة العابثة فى نفوس الفتيان والفتيات ؟ . ألا توحى إلى الفتيان بأن يتعودوا الجرأة الوقحة السمجة فى النظرات ، والتطلع المتبجح إلى العورات ، حتى يتدربوا ويستعدوا لمسابقات مماثلة قادمة ؟ . ألا توحى إلى الفتيات بأن يتتبعن نظرات الوقحاء حتى يبرعن فى المقارنة بين أصحاب العيون الجريئة لعلهن يصبحن قاضيات فى مسابقات مقبلات ؟ . ألا يشعرنا

ذلك بتفاقم خطب التحلل أصبحنا نتوقع أن تكون المسابقة القادمة لاختيار صاحبة العيون الجريئة على أن يكون حكامها من الشبان الرقعاء . ومصر كما قالوا بلد العجائب .

ليتهم أقاموها مسابقة لاختيار من يحافظ على الآداب العامة ، أو يتجمل بالأخلاق الفاضلة ، أو يحسن صيانة جسمه بالنظافة والرياضة ، أو يقدم لوطنه خدمة من الخدمات ! . إن عشرات من شبابنا المتقدمين إلى الجامعات يرسبون فى الكشف الطبى لتداعيهم البدنى وعدم تصونهم الرياضى ولأمراض فيهم وعلل تتمكن منهم ، فهلا أنهضوا هذه الشبيبة بالرياضة والاستقامة بدل أن يهدموها حسياً ونفسياً بالتجرئة على الوقاحة والمجون ؟ . أو ليت هذه العيون المتسابقة فى تبجح النظرات إلى العورات كانت جريئة على المطالعة فى العلوم والفنون والآداب ، أو ليتها كانت جريئة على البحث فى المعامل ومخابير البحوث والكشوف . أو ليتها كانت عميقة النظر فى ملكوت السموات والأرض لتتدبر وتعتبر ، أو لتستنبط وتستخرج الدفائن والكنوز . ليتهم أقاموها مسابقة فى وجه من وجوه الخير أو البر ، فقد كان الصالحون من أسلافنا يألفون التسابق فى الفضل ، والتنافس فى الخير ولقد أقبل عامر بن قيس مثلا من جهة مكان التسابق على الخيل ، فظن رجل أنه قد شهد السباق ، فقال له : من سبق ؟ . قال عامر : سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال الرجل : فمن الذى كان بعده ؟ . قال عامر : أبو بكر الصديق . فقال له الرجل : إنما أسألك عن الخيل . قال عامر : وأنا أجيبك عن الخير ! . . فقد كان ذهن عامر يدور حول التسابق فى الطيبات والباقيات . .

ولكنهم مع الأسى والأسف أقاموها مسابقة فى اختيار صاحب العيون الجريئة الوقحة ، وكأنهم يتحدون بهذا أمر العزيز القهار الذى يخاطب نبيه

بقوله : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم » وبقوله : وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن » . والقرآن الكريم يعلمنا أن نحسن استخدام هبات الله لنا فيما خلقت له ، لأن الله تعالى سيحاسبنا عنها أدق الحساب : « ولا تقف (تتبع) ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » . وعن جرير الصحابى قال : سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجأة ، فقال : اصرف بصرك ، وقال النبى لعلى : لا تتبع النظرة النظرة ، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة . والمشاهد أن المسلم الذى يريد الآن أن يحافظ على دينهوعفة بصره يتعب كثيراً فى عدم إتباع النظرة نظرة ، لأن العورات المعروضة كثيرة متلاحقة ، فنى الشوارع والسيارات والترامات والقطارات والمكاتب والدواوين وكل مكان يصطدم نظره بعورات وأشياء يجب أن تحفظ وتصان ! . والعجيب فى أمر هؤلاء المتحللين الذين يسمون أنفسهم بالمتمدنين المهذبين أن الواحد منهم إذا كان معه امرأة فى الترام أو السيارة أو الطريق ، ونظر إليها شاب نظرة فيها شىء من الجرأة التى قد يكون مبعثها أن اللحم الشهى معروض أمام القط الجائع ، اتهموه بالوقاحة وقلة التمدن والتربية والذوق ، وبأنه لا يحافظ على الآداب الاجتماعية ولا قواعد الاختلاط ، فكيف يتفق هذا يا بنى آدم مع تنظيمهم مسابقة لاختيار الشاب صاحب العيون الجريئة ؟ ! . .

والأعجب من هذا أن الرقابة على الصحف التى منعت منذ قليل نشر ردود لعلماء على فتنة تلحين القرآن الكريم بالآلات الموسيقية ، سمحت بنشر الإعلان عن هذه المسابقة ، وسمحت بنشر أوصافها وصورها وتفاصيلها فى الصحف والمجلات ، تطلعها النساء والرجال ، والكبار والصغار ، والمراهقون والمراهقات ، فما هذا التطفيف فى المكاييل والتفاوت فى الموازين يا هؤلاء ؟

أفما كان الواجب أن نمنع نشر هذا لأن فيه ضرراً على الأخلاق والآداب العامة وله أسوأ الأثر فى نفوس القراء

إن من الكلام المأثور : « إذا بليتم فاستتروا » . وفى الحديث : « كل أمتى معافى إلا المجاهرين » . فلنفرض أن هؤلاء متحللون أو منحلون أو مصابون بما أصيبوا به ، وأنهم يريدون أن يعبثوا ما شاء لهم العبث ، فهل من المصلحة العامة أن ينشر هذا على الناس ، وأن يعلن عنه مرات ومرات ، وأن يكون تحت الأسماع والأبصار ؟ هل لهذا النشر فائدة فى ميدان الأخلاق أو الوطنية أو القومية ؟ . أفتونى يا ناس يا عالم يا خلق ! . . أفما سمع هؤلاء بقول الرسول : « الحياء من الإيمان » وقوله : « الحياء لا يأتى إلا بخير » . وقوله : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » ؟ ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . قد تقولون : ولماذا توجه إلينا الحديث ونحن لم نشهد ولم نشترك ؟ . وقد ترون من حقكم أن تقولوا هذا ، لأنكم بقية الخير ، وأنتم الذين تبذلون للاحتفاظ بدينكم وأخلاقكم ، ولكن الحديث يقول : « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » . وفيكم بحمد الله قادرون على التوجيه والتأثير الطيب بالمكانة واللسان والبيان ، فلا أقل من تذكيركم بواجب الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر حتى لا يجرفنا تيار التحلل والانحلال ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

قسم الجنود(١)

الحمد لله عز وجل ، ينصر الحق ويؤيده ، ولعلى الإيمان ويمجده ، والله بكل شيء عليم . أشهد أن لا إله إلا الله ، أنقذ من الجهالة ، وهدى من الضلالة والله ذو الفضل العظيم ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ربى فقوم ، وأرشد فأحكم ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

بالأمس وقف جميع إخوتنا وأشقائنا من الضباط والجنود ، ورددوا قسم الثأر الذى عاهدوا فيه على مداومة الجهاد والنضال حتى تتحرر الديار ويمحى العار ، وقد قالوا فى هذا العهد : « نقسم بالله العظيم ، نقسم بالله العظيم ، نقسم بالله العظيم ، أننا قد عقدنا العزم على تقديم أرواحنا فداء لتحرير أرضنا المغتصبة مؤمنين بالله وبالوطن ، وبعدالة قضيتنا ، مؤمنين بأن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة ، واثقين أشد الثقة بأنفسنا وبقادتنا وبسلاحنا . سبيلنا هو الجهاد المقدس . شعارنا هو النصر أو الشهادة » . أؤكد لكم أننى فرحت بهذا القسم فرحاً كبيراً ، لأن فيه تصحيحاً لخطواتنا ، وتقويماً لمفاهيمنا ، ونصاً على ما يجب أن نقوم به جميعاً من فريضة الجهاد فى سبيل الحق حتى يعاد إلى أهله ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ، ولقد بدأ هذا العهد بقول الجنود : « نقسم بالله العظيم » وهذا قسم عظيم كريم ، من مقتضيات الصدق فيه والوفاء له أن ترتبط أسباب المرددين له بأسباب

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ١١ ربيع الأول سنة ١٣٨٨ هـ الموافق ٧ يونية سنة ١٩٦٨ م .

قيوم السموات والأرض ، إيماناً ويقيناً ، وطاعة وعبادة ، وثقة ورجاء : « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » . وتكرار القسم بالله العظيم ثلاث مرات فيه معنى التأكيد والتوطيد ، وكل قسم مؤكد موطد يحتاج إلى مزيد من الارتباط به والوفاء له ، لأنه يصير أمانة ثقيلة التبعة لا ينبغي أن تضيع أو تهون عند المؤمنين الذى قال فى صفتهم ربهم : « والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون » .

ولقد قال المقسمون بربهم جل جلاله : « إننا قد عقدنا العزم على تقديم أرواحنا فداء لتحرير أرضنا المغتصبة ، مؤمنين بالله وبالوطن » والإيمان بالله تبارك وتعالى هو الأساس وهو القاعدة ،بل لا يتحقق الإيمان الدينى الحقيق إلا فى الإيمان بقيوم السموات والأرض ، ومن وراء هذا الإيمان بالله عز شأنه تأتى محبة الوطن ، وحب الوطن من الإيمان كما يقول الأثر الإسلامى الحكيم ، أى أن حب الوطن أثر من آثار الإيمان بالله ، وثمرة من ثمراته ، لأن الله تعالى يعلم عباده أن يعيشوا فى حرية وكرامة وعزة : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ، « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

ولقد أشار القسم الجليل إلى الثقة بالنفس ، وهذه الثقة بالنفس لا يجوز بحال من الأحـوال أن تكون اغتراراً أو اعتزازاً بشئ مادى معزول عن عناية الله ورعايته ، فمهما أوتينا من قوة حسية فى الأجناد والعتاد ، فلن نستغنى بحال من الأحوال عن الاستمداد الروحى والمعنوى من رحاب العون الإلهى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شئ قدراً » ولذلك ينبغى أن نفسر الثقة بالنفس على أنها عرفان بصير واع لما يمد به عباده المجاهدين من ألوان القوة التى يعدونها ويستزيدون منها ، وإلى هذا المعنى

أشار بيان رئيس الجمهورية فى ذكرى اليوم الحزين الأسود اليوم الخامس من يونيه سنة ١٩٦٧ ، حيث قال : « إن الثقة بالنفس على الحق هى الثقة بالله صاحب حق وناصره » .

ثم جاء فى القسم قولهم : « سبيلنا هو الجهاد المقدس » . وما أحلى كلمة « الجهاد » هنا ، وما أجمل وقعها فى نفوس المؤمنين العارفين ، وما أروع وصف هذا الجهاد بأنه مقدس ، ولقد آن الأوان وآن لكى نعبر عن نضالنا بكلمة « الجهاد » القرآنية الدينية الإسلامية ، وأن نصرخ بأن جهادنا فى سبيل حريتنا وكرامتنا وعزتنا وحرماتنا جهاد مقدس ، يفرضه علينا قرآننا ، ويوجبه ديننا ، ويباركه خالقنا الذى يستنفرنا ويعبئ قوانا ويحرضنا على الحشد الكامل فى سبيل المعركة المقدسة فيقول : « انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » . وصلوات الله وسلامه على رسوله يوم هتف بين أصحابه وهم فى ميدان الجهاد : « اللهم إن العيش عيش الآخرة ، فاغفر للأنصار والمهاجرة » فكان الرد الإجماعى الواثق المؤمن من كل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين هو :

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبدا

ثم كان الختام فى القسم الجليل هو : « شعارنا هو النصر أو الشهادة » وأنعم بالشعار وأكرم به حين يتحول إلى تطبيق ماثل وحق واقع ، فإن تحقيقه يكون خير استجابة لهدى الله القائل : « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ، إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً » . والقائل : « قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون » . وفى ضوء هذا الشعار نستطيع أن نتذكر رجلا مثل عمرو بن الجموح الذى كان

أعرج شديد العرج ، وكان له أبناء أربعة كالأسود ، يشهدون الغزوات مع الرسول صلى الله عليه وسلم فأراد الخروج للجهاد فى غزوة أحد ، فرفضوا إشفاقاً عليه وقالوا له : إن الله قد عذرك « ولا على المريض حرج » . فذهب عمرو إلى النبي غاضباً وقال له : يا رسول الله ، إن أبنائى يريدون أن يحبسونى عن الخروج معك ، ، ووالله إنى لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه فى الجنة فقال له النبي : أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك . ولكن الرسول رأى قوة رغبته فى الجهاد على قدر ما يستطيع ، فقال لأبنائه : « ما عليكم ألا تمنعوه لعل الله أن يرزقه الشهادة» . وتحقق ما توقع الرسول ، فبذل عمرو جهده ، وصدق وعده ، ولقى ربه شهيداً مجيداً ، والله عنده حسن المآب .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

لقد عرفنا الطريق ، ورسمنا المنهج ، ورددنا القسم ، وبقى العمل لتحقيق الأمل ، والله جل جلاله من وراء المقصد الكريم ، نسأله أن يبارك الخطوات وأن يضاعف الثمرات ، وأن يدفعنا فى طريق الإيمان الوطيد والجهاد المقدس حتى يتحقق وعد الله لعباده . ولن يخلف الله وعده ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ..

مقـاومة البغى[1]

الحمد لله عز وجل ، حكم بالعدل ، وتكرم بالفضل ، « وكان فضل الله عليك عظيماً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، لم يرض الدنية فى دينه ، ولا المذلة فى دنياه ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه « أولئك هم الراشدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

من المبادئ الثابتة المؤكدة فى هدى الله عز وجل أن العدل واجب ، وأن الانصاف لازم ، وأن البغى مرتعه وخيم ، وأن الظلم ظلام يؤدى إلى حسرة وندامة ، وأن المظلوم منصور وإن طال المدى ، ما دام لا يرضى الظلم ، ولا يقبل الهوان ولا يفتر عن المقاومة ، فهو حين يدافع أو ينتصف لنفسه المهضومة يريد أن يوطد فى الأرض ما أراده الله من حق وعدل ، ولذلك يكون موصول الأسباب بحمى ربه ، يستمد من عونه ما يهديه إلى أسباب نصره واسترداد حقه ، والقرآن المجيد يقول : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون » ، ومن هنا قال الإمام على لابنه الحسن رضوان الله عليهما : « لا تدعون إلى مبارزة ، فإن دعيت إليها فأجب ، فإن الداعى إليها باغ ، والباغى مصروع » ، فالإمام لا يريد لابنه أن يجعل الصراع هواية عنده ، يمارسها كلما دعاه إليها داع من هوى النفس أو وسوسة الشيطان ، ولا يريد لابنه أن يكون كهؤلاء المرتزقة الذين يتكسبون من

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٢٦ شوال سنة ١٣٨٧ هـ الموافق ٢٦ يناير سنة ١٩٦٨ م .

الحروب ويستغلون المعارك لتحقيق مطامعهم ومغانمهم ، فإن وراء المؤمن فى حياته واجبات وتبعات تجعله مشغولا بتحقيق الصلاح لنفسه والإصلاح لغيره ، « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » . وإذا كان الإمام على يعلم ابنه أن لا يتحرش بغيره ، أو يتعرض للعدوان على سواه ، أو يستثير غضباً عند مسالم ، فليس معنى هذا أنه يريد منه أن يكون جباناً أو رعديداً ، بل كل ما يريده منه أن يكون عادلا مستقيما ، يملأ أيامه بالصالحات والقربات ، ويزينها بالتعمير والتثمير ، فإذا أثاره مثير ، أو تطاول عليه متطاول ، صار لينا كاسراً وبطلا مقدماً ، ولذلك قال له : « فإن دعيت إليها فأجب » أى سارع إلى مواجهة من يعتدى عليك أو يستخف بك ، وإلا ضاعت كرامتك وثبتت ذلتك ، ثم يفتح أمامه أبواب الفوز والفلاح ، فيقول له : : « فإن الداعى إليها باغ ، والباغى مصروع » والبغى هو مجاوزة الحق إلى الباطل وترك الإنصاف إلى الأجحاف ، والبغى مرتعه وخيم ، وعلى الباغى تدور الدوائر ، وفى الحديث — موقوفاً — : لو بغى جبل على جبل لاندك الباغى » وما دام الباغى مهدداً بالدمار والخسار ، فإن المبغى عليه موعود بالغلبة والانتصار ، وكأن هذا إيحاءللمهضوم الحق المعتدى عليه بأن يملأ حسه ونفسه بحوافز الأمل والثقة ، ثم يقدم إلى غسل عاره وأخذ ثأره ، بلا ضعف أو خور فهو صاحب الحق ، والله معه يؤيده ما دام أهلاً للتأييد بصدقه فى الجهاد والنضال ، وهذا بعض ما يلحظ من قول القرآن المجيد : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » .

والتضحية العلوية الجليلة يزكيها هدى الله جل جلاله حين يقول : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » وقوله : « وقاتلوا فى سبيل

الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » وقوله : « ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور » . كما يزكيها رسول الله عليه الصلاة والسلام حين يقول : «لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاثبتوا واصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » وقوله : « إذا استنفرتم فانفروا » . فليس المؤمنون إذن هواة حرب ولا غواة عدوان ، فوراءهم من شئون الخير ووجوه البر ما يجعل واجباتهم أكثر من أوقاتهم ، ولكنهم لا يقبلون بحال من الأحوال أن يسكتوا على ضيم أو يرضوا بهوان ، بل يتحولوا إلى عمالقة باذلين يحبون الموت أكثر مما يحب غيرهم الحياة ، ولم لا وربهم جل جلاله يقول لهم آمراً ومعلماً : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » ويقول عن الرجال الأبطال من عباده : « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » وتاريخ الجهاد على عهد النبوة يذكرهم بأن أبناء الإسلام لم يسمحوا لأنفسهم يوماً من الأيام أن يكونوا بادئين بعدوان أو سابقين بطغيان ، فقد احتملوا من الأذى فى أول الأمر ما احتملوا ، ثم سعى المشركون الباغون يوم غزوة بدر ليتطاولوا على المؤمنين ويهزأوا بهم ، فصبر الإيمان فى وجه الطغيان ، فكان للمؤمنين نصر مبين وفوز عظيم ، وتلاقت أحزاب الشرك والكفر وتآمرت وسعت مجتمعة إلى غزوة الخندق تريد القضاء على الإسلام ، فثبت المجاهدون وقاوموا ، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وحتى فتح مكة قدم المشركون بخيانتهم وغدرهم وعدوانهم ونقضهم عهدهم المسوغ الواضح للفتح الكبير الذى كان خيراً وبركة على العالمين .

والإمام على صاحب النصيحة الغالية لم يعرف عنه فى نضاله وكفاحه أنه تعجل أو دعا إلى مبارزة أو مقاتلة قبل أن يكشف عدوه القناع عن لؤمه وبغيه

بل كان على ينتظر حتى يكون غيره هو البادئ بالدعوة إلى القتال ، ولقد دعى على إلى المبارزة فى غزوة بدر وغزوة أحد فاستجاب وبارز وانتصر ، وهذا هو الكافر المشرك اللعين عمرو بن عبد ود نراه يوم غزوة الأحزاب يدل بقوته ويعتز بنفسه ، ويتجارأ على حمى المسلمين ، ويستثيرهم قائلا ومكرراً : هل من مبارز ؟ ويسأل على رسول الله أن يأذن له بالخروج إليه ، فلا يأذن له الرسول فى أول الأمر ، وكأنه كان يريد أن يفخر فى على كوامن من الغضب على هذا المتطاول الأثيم الذى عاد يقول فى شراسة وفجور : أيها الناس ، إنكم تزعمون أن قتلاكم فى الجنة ، وقتلانا فى النار ، أفما يحب أحدكم أن يقدم على الجنة ، أو يقدم عدواً له إلى النار ؟ . وهنا بلغ الكتاب أجله وقد طفح الكيل وتنمر الباطل ، فأذن النبي للفتى على ، فخرج والنبي يدعو له قائلا : « اللهم أعنه عليه » وما هى إلا جولة حتى انخذل الطغيان المتطاول وانتصر الحق المناضل « ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون » . ولعل الإمام عليا كان يذكر فى ذلك الوقت قول رائد عليه الصلاة والسلام : « ثلاث هن رواجع على أهلها : المكر والنكث والبغى » ثم تلا رسول الله قول الله : « يا أيها النـاس إنما بغيكم على أنفسكم [1] » وقوله : ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله » وقوله : « ومن نكث فإنما ينكث على نفسه » . بل لعله كان يذكر أن رجلا قال للرسول : أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالى ؟ قال : فلا تعطه مالك . قال : أرأيت إن قاتلنى ؟ . قال : قاتله : قال : أرأيت إن قتلنى ؟ . قال : فأنت شهيد . قال : أرأيت إن قتلته ؟ . قال : هو فى النار . بل لعله كان يذكر قول رائده : « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد ، ومن قتل دون قومه فهو شهيد . ومن قتل دون دينه فهو شهيد » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : لقد سقينا علقم الطغيان ، وحوربنا

---

(١) فى الحديث : « لا تبغ ولا تكن باغيا ، فان الله يقول انما بغيكم على انفسكم » .

فى أكثر من ميدان ، وتعرضت حرماتنا ومقدساتنا للذل والهوان ، ودون ذلك يتحرك الجماد وتنفطر قلوب الأحياء ، فمن أوجب الواجبات علينا ألا يهنأ لنا مطعم ولا مشرب ولا منام إلا إذا خرج العدو وزال العدوان ؛ وهذا واجب لا يتم أداؤه إلا بالقوة نوفر أسبابها ، والوحدة ندعم أركانها ؛ والعزيمة نوطد بنيانها والعقيدة نعزز اليقين والإيمان بها ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر الله من يشاء وهو العزيز الحكيم ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون.

الشجرة الملعونة فى القرآن[1]

الحمد لله عز وجل ، يمن بالرحمة ، ويؤدب بالحكمة : « ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، بيده المقادير ، وإليه تصير الأمور ، وفوق تدبيرنا لله تدبير ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خضع لمولاه ، ففاز برضاه ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى الأطهار من آله ، والأخيار من أصحابه ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله : « فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

سألنى أخ من المصلين معنا عن اسم الشجرة الملعونة فى القرآن ، وكان من الممكن أن أوجز له الرد فأقول إن الشجرة الملعونة فى القرآن هى شجرة الزقوم وكفى ، ولكنى آثرت أن استعرض جانباً من حديث القرآن الذى يرينا عظمة الله وقدرته وحكمته ، فالقرآن يذكر لنا أن الشجرة نعمة من نعم الله تعالى وآية من آياته : « وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها » ، كما أنه يجعل الشجر رمزاً من رموز تسبيح الله وتمجيده فيقول : « والنجم والشجر يسجدان » والنجم هو النبات الذى لا ساق له ، والشجر هو النبات الذى له ساق ، والمراد بسجودهما انقيادهما لله تعالى كانقياد الساجد لربه جل جلاله ، والقرآن يجعل الشجرة جزءاً من التشبيه الذى يقرب الله به نوره لعباده : « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٢ رجب سنة ١٣٨٤ هـ الموافق ٦ نوفمبر سنة ١٩٦٤ م .

ولو لم تمسسه نار ، نور على نور » ، وقد عنى القرآن بشجرة الزيتون هـــذه فذكرها فى آية أخرى قائلا : « وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين » وذلك لأن شجرة الزيتون كثيرة الفوائد فى ثمرها وزيتها وورقها وخشبها . والقرآن الكريم جعل حمى الشجرة موطناً لمبايعة كريمة عظيمة خالدة فى تاريخ الإسلام : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » . والقرآن يذكر لنا أن الشجرة كانت محلا لتكليم الله تعالى نبيه موسى حين ذهب ليلقاه : « فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين » . والقرآن الكريم يذكر لنا أن الله تعالى جعل بقدرته النار كامنة فى الأشجار : « أفرأيتم النار التى تورون؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون » ، « الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون » . والله القوى القادر الذى جعل النار وهى حمراء تكمن فى الشجرة الرطبة الخضراء هو الذى جعل من الشجر ما يثمر وينفع فيكون مثلا للكلمة الطيبة الهادية ، ومنه ما يخبث ولا يثمر فيكون مثلا للكلمة الخبيثة الضالة : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار » . وكأن الله خلق هذه وتلك ليرينا أنه قادر على خلق المتناقضات وإيجاد الأضداد .

ونعود بعد هذا إلى « الشجرة الملعونة » فى القرآن وقانا الله شرها وجنبنا دارها ، فنجد القرآن الكريم يقول عنها لرسوله : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ، والشجرة الملعونة فى القرآن » أى أن الله تعالى جعـــل رؤيا العين التى رأيتها ليلة الإسراء اختباراً وابتلاء للناس ، ليعرف المؤمن من

الكافر ، والمصدق من المكذوب ، وكذلك جعل شجرة الزقوم اختباراً وابتلاء ، وكأن الله العلى القدير الذى جعل من الشجر مظاهر رحمة وأسباب نعمة كما عرفنا ، أراد أن يرينا أنه قادر كل القدرة على أن يجعل النعمة نقمة ، وأن يجعل سبب الرحمة سبب عذاب ، وأن يحيل بعض الشجر الأخضر الناضر الطيب المثمر إلى شجرة خبيثة فظيعة ملعونة أعدها الله للمجرمين فى النار ، وظاهر تعبير القرآن يدل على أنها شجرة كريهة الطعم ، منتنة الرائحة ، شديدة الخشونة ، وقد روى أنها تنبت فى قعر الجحيم ، وترتفع أغصانها إلى دركات جهنم ، وثمراتها مخيفة مرعبة كأنها رءوس الشياطين : « إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين » ، ومن هذه الشجرة الخبيثة يكون طعام الكافرين : « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم » والمهل هو عكارة القطران النحاس المذاب ، وقد أشار القرآن المجيد إلى أن هؤلاء الضالين المكذبين يملئون بطونهم من هذه الشجرة ، لأنهم لا يجدون غيرها ، ولأن الجوع يشتد بهم ، أو لأن زبانية جهنم ترغمهم إرغاماً على الأكل منها ، فإذا امتلأت بطونهم اشتد ظمأهم وعطشهم ، وتلهفوا على أى شراب ، فلا يجدون أمامهم إلا الحميم ، وهو الماء الذى يفور ويغلى ، فيشربون شرب الهيم ، أى الإبل التى أصابها داء الهيام ، وهو ما يسمى بمرض الاستسقاء . فالجمل المصاب به يظل يشرب ويشرب حتى يموت أو يمرض مرضاً شديداً ، يقول القرآن : « ثم إنكم أيها المكذبون الضالون » وقد وصفت هذه الشجرة بأنها ملعونة لأنها أعدت لقوم ملعونين مطرودين من رحمة الله تعالى .

ووجه الفتنة فى هذه الشجرة أن القرآن الكريم حينما أخبرنا بأن فى النار شجرة تسمى شجرة الزقوم سخر المشركون وقالوا : كيف يعقل أن تنبت شجرة فى جهنم مع أن النار تحرق الشجرة ، ونسى أولئك الضالون أن خالق

النار وواهبها قوة الإحراق يستطيع أن يسلبها تلك القوة عندما يشاء ، وأن الذى جعل من الشجر الأخضر ناراً يقدر أن يجعل فى النار الموقدة شجراً ، وهو على كل شىء قدير ، فكيف يقول كبير الكافرين أبو جهل بعد هذا : زعم صاحبكم أن فى النار شجرة والنار تأكل الشجر ، وإنا واللات والعزى ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد فتزقموا منهما ؛ أى كلوا منهما أكلا كثيراً حتى تمتلىء منكم البطون ؟ . . ألا إن بعض الجواب على تلك السخرية نجده فى قول الله تعالى : « إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين » .

هذا وبعض المفسرين كالرازى يروى قولا فى معنى « الشجرة الملعونة » إذ يفسرها بأنها اليهود ، لأن الله تعالى يقول فى موطن آخر : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » وكأن اليهود حينما أنعم الله تعالى عليهم فى أول الأمر بما أنعم ، ثم كفروا بالنعم كفراناً مبيناً قلب الله لهم النعمة نقمة ، والرحمة عذاباً ، جزاء بما كانوا يكفرون . وهذا قول لا يتعذر قبوله ، وإن كان أكثر المفسرين يرون رأياً سواه وهو أنها شجرة الزقوم ، ولا يستطيع أى عاقل بصير بأسلوب القرآن أن يقبل القول المفترى الذى يقول إن الشجرة الملعونة فى القرآن هم بنو أمية ، وأغلب الظن أن يداً معادية لبنى أمية دست هذا القول على كتب التفسير وفوق كل ذى علم عليم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

العظة الأساسية التى نخرج بها من هذا الحديث أن الله القوى القادر يهيىء

أسباب النعم ، وييسر وسائل المتع ، فإذا أحسن الناس استخدامها ، وشكروا الله عليها ضاعفها لهم وأبقاها بأيديهم ، وإن أساءوا عاقبهم بقدر إساءتهم ، فجعل لهم الخير شراً ، واليسير عسيراً ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . وصدق العلى الكبير إذ يقول : « لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » . وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

دفاع عن العرض[1]

الحمد لله عز وجل ، هو الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، والله بكل شىء عليم . أشهد أن لا إله إلا الله ، يتولى المتقين بلطفه ورحمته ، ويأخذ الفاسقين ببأسه ونقمته : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ ما لكم كيف تحكمون » ؟ . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، رعى أمانته ، وصان عفته ، فكان إمام الخائفين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

نشرت الصحف منذ قليل أن امرأة شابة قتلت صديقاً لزوجها ، لأنه حاول اغتصابها ، متهزاً فرصة غياب زوجها عن البيت ، حيث طرق الباب عليها ، ولما أطمأن إلى غياب الزوج أخذ يغازلها فنهرته ، فلم ينته ولم ينزجر ، بل تحرك فيه الثور الهائج ، فحاول اغتصابها بالقوة ، فما كان منها إلا أن دافعت عن نفسها ، ولم تجد وسيلة أمامها إلا شاكوشاً تناولته وأخذت تضرب به رأسه ، وهو مصر على جريمته البشعة ، وهى انتهاك عرضها بالإكراه والقوة ، حتى أزهقت روحه .

وهذه الحادثة تدلنا على أنه ما زال فى الأمة المؤمنة من يحافظون على الشرف ، ويغضبون للعرض ، ويدافعون عنه بكل ما يستطيعون وكأن هـــذا من المعنى الكبير الذى أشار إليه سيد الخلق محمد صلوات الله وسلامه عليه حين قال : « لا تجتمع أمتى على ضلالة » وحين قال : « لا تزال طائفة من

---

(١) الجمعة ١٩ مايو سنة ١٩٦٧ م .

أمتى على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى تقوم الساعة » . وهـــذه الزوجة التى غضبت لكرامتها ليست غنية ، وليست صاحبة شهادة جامعية ، وليست على جانب كبير من الحضارة أو المدنية ، لأنها من صميم الشعب ، ومن سواد الأمة الكادحة ، ومع ذلك ثارت لشرفها ، ودافعت عن عرضها ، وهكذا يتوافر الشرف حتى فى أقل الطبقات مستوى ، بل لعل هذه الطبقات ترى للشرف والعرض من الحرمة ما لا تراه طبقات عرفت حفلات الكأس والطاس ، ومجون الرقص المزدوج والاختلاط الفاجر ، وحياة التحلل والانطلاق مع شياطين الأهواء والشهوات . واللافت للنظر أن الزوجة بعد أن ثأرت لكرامتها ، وقفت فى هدوء تعترف بما فعلت ، وتذكر الدافع الذى دفعها إليه ، وكأنها كانت تستحضر فى ذهنها قول القائل من أمتها :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

وإذا كانت المرأة قد حوصرت وتعرضت للاعتداء الأثيم عليها ، ولم تجد أمامها للخلاص من وسيلة سوى الدفاع ولو أدى إلى القتل ، فإنها تكون فى حالة دفاع مشروع عن أغلى ما تعتز به ، ولو أنها لقيت حتفها وهى فى ميدان الدفاع لتصون شرفها . فإنها تكون شهيدة بمقتضى قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « من قتل دون ما له فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد . ومن قتل دون عرضه فهو شهيد » . وعلى الباغى تدور الدوائر ، والبغى مرتعه وخيم . ولقد جاء رجل إلى رسول الله عليه صلوات الله وسلامه وقال له : أرأيت يا رسول الله . إن جاء شخص يريد أخذ مالى ماذا أفعل ؟ فأجابه النبى : قاتله . قال الرجل : أرأيت إن قتلنى ؟ . فأجابه الرسول : فأنت شهيد . قال الرجل : أرأيت يا رسول الله ، إن قتلته ؟ . فأجابه الرسول : فهو فى النار . ونحن نعلم أن المال غادورائح ، وما أسهل تعويضه بعد فقدانه .

ولكن الشرف المسلوب لا يعوض ، والعرض المنهوك لا يسترد ، فإذا أجاز الإسلام الدفاع عن المال حتى الموت ، فمن باب أولى أن يجيز الدفاع عن الشرف عن الموت .

وينبغي أن نتدبر الأسباب التي تؤدى إلى مثل هذا الاعتداء الشنيع على الأعراض ، ولاشك أن من أهم أسبابه سياسة الباب المفتوح الذى يسمح باتساع الاختلاط بين الرجال والنساء بلا حشمة أو صيانة ، فيتساهل الزوج مثلا فى إدخال أصدقائه ومعارفه على زوجته فى حضوره أو غيبته ، ويكون من وراء ذلك ما يكون بعد أن يتسع الخرق على الراقع ، فتصبح البيوت من الأخلاق بلاقع . ومن أسبابه كذلك أن الصداقات تقوم فى الغالب على غرض أو عرض أو دخل ، فهى لا تنهض كما يريد الإسلام على ذلك الأساس الوطيد من الطهارة القلبية والنزاهة النفسية والأخوة فى الله والإخلاص لوجه الله الذى يؤدى إلى التقوى والصلاح والإصلاح ، وكأن أغلب الأصدقاء اليوم قد نسوا قول الله تبارك وتعالى : « الأخلاء يؤمئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » .

وهناك سعار الشهوة الجسدية المجنونة التى تعاون على هياجها واضطراب أمواجها قلة الدين ، وانعدام اليقين وتبجح التبرج والتهتك وميوعة التربية والأخلاق ، وهذا السعار يحتاج فى إصلاحه أول ما يحتاج إلى مقاومة الاختلاط الفاضح الذى يسرى ويستشرى بلا حدود ولا قيود ولا رصيد من التربية والأخلاق ، ويحتاج إلى غرس التعاليم الدينية الواقية بصدق وإخلاص ، وإلى تعزيز الضمير الدينى بالتهذيب الأخلاقى العملى المثمر ، وإلى وسائل التلطيف والتوجيه للغريزة عن طريق الزواج متى كان مستطاعاً ، أو الاشتغال بأى شاغل كريم يستنفد الطاقة الحسية ، أو الأخذ برياضة جسدية أو نفسية تهذب

وتؤدب ، وصلوات الله وسلامه على رسوله يوم قال : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة (القدرة على الزواج) فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » أى مهذب ومؤدب .

أين هذا الثور الهائج المنتهك للأعراض مما أخبر به رسول الله أن سبعة يظلهم الله يوم القيامة فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، وذكر منهم رجلا دعته إمرأة ذات جمال وحسب إلى نفسها فقال : إنى أخاف الله رب العالمين ؟ وأين هو من تنويه الرسول الكريم برجل كانت له ابنة عم من أحب الناس إليه ، فراودها عن نفسها فامتنعت حتى افتقرت فجاءته مستعينة فأعطاها على أن تخلى بينه وبين نفسها ، فاضطربت فى موقفها ثم قالت له : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه . فخجل من نفسه وانصرف عنها . وهذا عبد الله ابن عباس يقول : « من أحب فعف فكتم فمات مات وهو شهيد » وما أكثر الذين يسيئون فهم هذا الكلام ، فابن عباس يريد أن يقول : لو فرضنا ووقع الهوى فى قلب إنسان ، فلم يستجب له بسوء ، بل اعتصم بالعفاف والتقى ، وفوق هذا كتم هواه فى قلبه ولم يتحدث عنه ، ولم يلتفت إلى دواعيه حتى مات فإنه يكون شهيداً ، لأنه كان يجاهد أهواءه وشهواته ، والحديث الشريف قد أخبر عن جهاد الميدان بأنه الجهاد الأصغر ، وأخبر عن الجهاد لهوى النفس بأنه الجهاد الأكبر .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : لا حياة بلا دين ، ولا أمان بلا أخلاق ، ولا كرامة بلا شرف ، وطريق الأبرار يحتاج إلى عزائم الأبطال وطريق الفجار لا يتطلب سوى التحلل والانهيار ، وقد حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات ، فلننظر فى أى طريق نسير ، وإلى الله المصير ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

دعائم النجاح(١)

الحمد لله عز وجل ، جعل العاقبة للمتقين الصابرين ، وكتب الخيبة على المبطلين المفسدين : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يبشر برحمته المحسنين ، ويمن برضوانه على المؤمنين الصالحين : « وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كشف به الغمة ، وأسعد بهديه الأمة ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه الموقنين ، وأتباعه المجاهدين : « فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

نحن نعيش فى عصر المدنية والحضارة والتقدم ، وقد اخترع فيه الإنسان ما اخترع ، وابتدع فيه ما ابتدع ، واستخدم قوى البر والبحر والجو ، وتوسع فى طموحه فأراد بلوغ السماء ، ومع هذا كله لم يسعد الإنسان ، ولم يشعر بالطمأنينة وراحة النفس ، وها هوذا العالم يعيش على حيرة وقلق ، وما يتخلص من أزمة أو مشكلة إلا ليتقبل أزمة أو مشكلة ، وما ذلك إلا لأن التقدم المادى الحسى لم يصاحبه ما يماثله من التقدم الروحى النفسى ، بل هنالك فى العالم كثيرون لا يدينون بالمثل العليا ، ولا يخضعون للقيم الروحية ، وقد انفصمت عرى الإيمان فى نفوسهم ، وضاع لديهم صوت الحق فى زحمة الباطل ولم يستطيعوا برغم ما بذلوا أن يسعدوا أنفسهم فضلا عن أن يسعدوا غيرهم من الناس . . .

---

(١) أذيعت من مسجد الرفاعى فى يوم الجمعة ٤ ديسمبر سنة ١٩٥٩ م

وهذا الشقاء الإنسانى بحاجة ملحة إلى العلاج ، وقد يتفلسف البعض ويتعمق فى وصف هذا العلاج فيطيل ويرهق ، ثم لا يأتى بما يغنى أو يفيد ، ولكن الحق تبارك وتعالى أنزل فى كتابه سورة تتكون من ثلاث آيات فقط ، ومع ذلك يوجد فيها تشخيص العلة وتحديد الدواء ، وتلك السورة هى سورة « العصر » التى يقول فيها الإمام الشافعى : لو لم ينزل إلا هذه السورة لكفت الناس . . . والتى كان الصحابة رضوان الله عليهم إذا اجتمع منهم اثنان لم يتفرقا حتى يقرأها أحدهما على صاحبه ، ثم يسلم أحدهما على الآخر ؛ وذلك ليذكر كل منهما صاحبه بما فى هذه السورة من منهج السعادة وطريق الفلاح...

يقول الحق جل جلاله فى هذه السورة : : « والعصر ، إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر » . فأقسم الله سبحانه بالعصر ، وهو الزمان الواسع المبهم ، والله لا يقسم إلا بما له منزلة ومكانة ، وكأن الله أقسم بالعصر لينبهنا على قيمة الوقت وكرامته ، وأنه يجب علينا أن نملأه بالسعى الحميد والفعل المجيد ، وأن نستغله أطيب استغلال ، وأن نعمره بالصالحات والطيبات حتى لا نخسره أو نغبن فيه ، فالرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » . وكم من مستخفين بقيمة الزمان مستطيلين له حرموا فائدته ؛ وأصابتهم الخيبة والخسران :

أليس من الخسران أن لياليا ... تمر بلا نفع ، وتحسب من عمرى؟

وينبهنا كذلك إلى أن الزمن له طهارته وصلاحيته ، إذ لا عيب فيه ، لأنه صالح لكى نملأه بما نريد ، وإنما يصلح أو يفسد أهل الزمان :

نعيب زماننا . والعيب فينا ... وما لزماننا عيب سوانا

« والعصر . إن الإنسان لفى خسر » أى فى ضلال ونقصان وحرمان ،

لأنه بسوء تصرفه وقبح عمله يخسر الكثير . ويفقد السعادة والطمأنينة ورضا الله . . . وقد خلق الله الإنسان وميزه بكثير من المواهب والملكات والعطايا ، وسخر له ما فى هذا الكون ، وهداه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ، وأعد له امتحاناً هو هذه الحياة بتجاربها ودروسها وألوان الخير والشر فيها ، فرسب كثيرون فى ذلك الامتحان ، وحكم عليهم ربهم بجزاء الرسوب وهو الخسران والحرمان ، ونجح فيه أهل الخير الذين أحسنوا الاستعداد له ، واتصفوا بالصفات الكريمة التى تؤهل للفوز المبين فى هذا الميدان ، ولذلك استثناهم ربهم فقال :

« إلا الذين آمنوا » أى أيقنوا بوجود مبدع للكون مسيطر عليه ، يرضى الخير ولا يرضى الشر ، وأيقنوا بجمال الفضيلة فتحلوا بها ، وأيقنوا بقبح الرذيلة فتخلوا عنها .. « وعملوا الصالحات » أى ترجموا عن عقيدة الإيمان بأعمال تزكيها وتنميها ، والصالحات هى كل عمل جميل حميد جاء به الدين ، وقبلته الفطرة الطاهرة ، واستحسنه العقل السليم ، وانتفع به الفرد أو الجماعة فى الدنيا أو الأخرى ، كالعبادات المشروعة ، وخدمة الناس ، وبذل الأموال فى وجوه البر ، والعدل فى الحكم ، والاستقامة فى التصرف ، والجد فى الحياة ، والتحلى بمكارم الأخلاق ، وكلما اتسعت فائدة العمل الصالح فى الأفراد والجماعات ارتفعت مكانته عند الله عز وجل ... وإنما تظهر ثمرة الإيمان وقيمته بالعمل الصالح الملائم له ، ولذلك اقترن ذكر الإيمان فى القرآن بذكر العمل الصالح فى أغلب المواطن ، ولا تكاد تذكر كلمة « الذين آمنوا » فى القرآن إلا وتذكر معها كلمة « وعملوا الصالحات » حتى تكررت عبارة « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » أكثر من خمسين مرة فى القرآن الكريم . . .

« وتواصوا بالحق » . . . أى أوصى كل واحد فى الأمة غيره بلزوم الحق ، وثبت هذا الحق فى نفسه ، وحضه على اتباعه والدعوة إليه والدفاع عنه ، والحق هو الشيء الثابت فى ذاته لاعتداله واستقامته ، وهو ضد الباطل فالمؤمنون الفائزون يتبادلون الوصية والتضحية والتوجيه ، كل منهم يكون ناصحاً ومنصوحاً ، وموجهاً ، ولا يستكبر موص منهم أن يوصيه غيره ، فالمسلمون كما قال الرسول تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ، وعمر الفاروق – وهو من هو – كان يدعو لمن يأتيه بالنصيحة والتوجيه ، فيقول : « رحم الله امرأ أهدى إلينا عيوبنا » .

« وتواصوا بالصبر » . . . أى أوصى كل منهم أخاه بأن يصبر على الطاعات ويجد فيها ، وبأن يصبر عن الرذائل بدوام هجرها والبعد عنها ، ولن يكون للتواصى بالحق والتواصى بالصبر قيمة إلا إذا كان من يوصى بهما خاضعاً لها داخلا فيهما ، فلا جدوى لوصية من ينصح بالحق وهو على الباطل مقيم ، ولا ثمرة لمن يوصى بالصبر وهو يتحلى به . . . وهى إذن أربعة عوامل للنجاح والسعادة الحسية والنفسية فى هذه الحياة والفوز برضا الله : الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصى بالصبر ، فالإيمان فى صدر الإنسان كشجرة ناضرة مورقة ، تحتاج إلى رى وغذاء موصول ، وهذا الغذاء هو العمل الصالح ، كما يحتاج الإيمان إلى تثبيت وتأكيد ، وهذا هو التواصى بالحق ، كما يحتاج الإيمان إلى حصانة وحفظ ، وهذا هو الصبر ، والله مع الصابرين . . . « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » . ..

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . لقد رسم القرآن منهاج الحياة الفاضلة ، وبين دعائم النجاح فيها ، وبقى علينا التطبيق ، فلنؤمن ، ولنعمل

عملا صالحاً طيباً مثمراً ، ولنتمسك بالحق ونتواص به ، ولنلتزم الصبر وندع إليه ، نكن من الفائزين ، والله يهدى العاملين : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعباده ربه أحداً » ، « واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

بين الانسـان والانسـان[1]

الحمد لله عز شأنه ، بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير ، أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله القائل : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، هدى الإنسانية إلى طريق الإيمان والأمان ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آل بيته وأهل صحبته وأتباع دعوته ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

يستطيع المسلم أن يقرر ويؤكد — وهو مطمئن إلى تقريره وتأكيده — أنه لا يوجد دين مثل الإسلام كرم الإنسانية ورفع من قدرها ، وأعز من شأنها ، وثبت بين أبنائها روابط الألفة والمودة ، حسبنا قول خالقنا : « ولقد كرمنا بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ولقد جعل الإسلام هذه الروابط متنوعة شاملة ، فهي إما قرابة نسب ومصاهرة ، أو قرابة نسبة ودم ، أو قرابة دين وعقيدة أو قرابة آدمية وإنسانية ، وجعل لكل رابطة من هذه الروابط حقوقاً وتبعات إذا قام بها صاحبها زادت الإنسانية كرامة وعزة ، وقرابة النسب والمصاهرة هي القرابة التي تنشأ عن الزواج ، فهذا ذكر وأنثى ، يلتقيان فيتعارفان فيتآلفان فيرتبطان باسم الله واسم دينه ارتباطاً زوجياً له حرمته ومكانته فإذا حقوق وواجبات يتبادلها الطرفان في محبة وإخلاص ، ويصور القرآن ذلك بمثل قوله :

(١) ألقيت في يوم الجمعة ١٣ من المحرم سنة ١٣٩٣ هـ الموافق ١٦ فبراير سنة ١٩٧٣ م .

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » بل أشار القرآن إلى أن هذه المشاركة العاطفية والمادية بين الزوج وزوجته كانت منذ بدء الخليقة ، وينبغى أن تستمر إلى نهايتها ، « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما » وكرر القرآن ذكر هذا المعنى عدة مرات ، كما كرر أن الزوجة خلقت من الزوج عدة مرات ، وأبان أن عماد الحياة هو الزوجية : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » .

فإذا انتقلنا إلى قرابة النسب والدم التى تقوم على الأمومة والأبوة والنبوة وجدنا الإسلام يحكم الروابط بين الأصول وهم الآباء والأجداد ، والفروع وهم الأولاد والأحفاد ، وما حول هؤلاء من قربات ، فيقرر القاعدة الأصيلة الجليلة : الأقربون أولى بالمعروف ، ويقول القرآن المجيد « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » . ويأمر المؤمنين بأن يحرصوا على صيانة أسرهم وعائلاتهم ، ورعاية أقاربهم وأهليهم ، فيقول : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم عن الأقارب وذوى الأرحام فيما يرويه عن ربه فى الحديث القدسى : « أنا الرحمن وهذه الرحم ، شققت لها اسماً من اسمى ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته » . وصب الإسلام اللعنة على من يقطع رحمه ويهمل أقاربه ، فقال التنزيل : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ، أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » .

ثم تأتى قرابة الدين والعقيدة ، فنجد الإسلام يعطى هذه القرابة أشرف الأماكن وأسمى المنازل ، بل ويعطيها أروع صورة من صور التطبيق التضامنى فى تاريخ الإسلام ، حيث كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار مثلا خالداً

على الدهر للوفاء بحقوق القرابة فى الإيمان واليقين ، ويزكى القرآن الكريم هذه القرابة فى أكثر من موطن ، فيقول : « إنما المؤمنون إخوة » ، « فأصبحتم بنعمته إخواناً » ، « وإن هذه أمتكم أمة واحدة » ، « ربنا أغفر لنـــا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان» « فأصلحوا بين أخوانكم » « فإن تابوا وأقاموا الصلاة فاخوانكم فى الدين » ويأتى الرسول عليه الصلاة والسلام فيزيد هـــذه القرابة تكريماً وتأييداً ، فيقول : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه » ، « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم . . » ، ويقبل البصراء من أبناء الإسلام ليظهروا تفاخرهم واعتزازهم المتين بهذه القرابة فيقول قائلهم :

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

ويقول الآخر مفضلا نعمة الإسلام على كل شئ :

ولست أبالى حين أقتـل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى

وكان سلمان الفارسى يعتز بنعمة الإسلام كل الاعتزاز حتى يجعله والده وأباه فيقول : « أنا سلمان ابن الإسلام » .

وقرابة الإيمان هى التى جعلت أخت عمر بن الخطاب تفضل زوجها المؤمن على أخيها المشرك يؤمئذ ، وتقول لأخيها إنه بإشراكه نجس ، وكان من فضل الله عليه أن أسلم وتطهر ، فصار لديها عزيزاً كريماً ، وقرابة الإيمان هى التى جعلت أم حبيبة زوجة الرسول تمنع والدها أبا سفيان أن يجلس على فراش الرسول لأن والدها فيه نجاسة المشرك حينئذ ، وقرابة الإيمان هى التى جعلت عبد الله بن عبد الله بن أبى سلول يعرض على الرسول أن يقطع بيده رأس والده المنافق ويقدمه إلى الرسول ، وقد فضل الإسلام علاقة الدين والإيمان على علاقة الأبوة والنبوة والمعاهرة قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم . .

وقد ذكر القرآن أن الصداقة القائمة على الاتفاق فى الإيمان والتقوى هى أبقى الصداقات وأزكاها : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون » .

ثم تأتى أخيراً قرابة الآدمية والإنسانية ، فإذا الإسلام يعلم البشرية أن كل إنسان بينه وبين أخيه الإنسان رابطة قرابة من ناحية الأصل الواحد ، والأب الأول الواحد ، والأم الأولى الواحدة ، فيقول القرآن فى مفتتح سورة من أطول سور القرآن وهى سورة النساء : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً » . ويقبل معلم الإنسانية محمد عليه الصلاة والسلام فيعلم المسلم أن يرعى حقوق هذه الأخوة الإنسانية العامة ، فيقول : « خير الناس أنفعهم للناس » ، ويقول : ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » . بل ويعلمه أيضاً أن هذه النفس الإنسانية لها حقها وحرمتها حية أو مية ، فقد أدب الإسلام المسلم بأن يقف للميت إذا مرت عليه جنازته حتى ولو كان الإنسان غير مسلم ، ولقد حدث أن وقف رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لجنازة شخص غير مسلم مرت عليه ، فقالوا إنها لغير مسلم ، فاستنكر الإعتراض وقال : أليست نفساً ؟ ! . وما دام الإنسان لا يطغى ولا يبغى فإن الإسلام يدعو إلى انصافه وبره مهما كان لونه أو جنسه ، ولو كان غير مسلم (لا ينهاكم الله . . .) .

وهكذا يقيم الإسلام علاقة طيبة كريمة بين الإنسان وغيره من بنى آدم فى أنحاء الأرض ، سواء أكانوا أقارب بالنسب والمصاهرة كالأزواج ، أو بالنسب كالآباء والأبناء ، أو الأصول والفروع ، أو بالعقيدة والدين ، أو برابطة الآدمية والإنسانية . والإسلام يطالبك أيها المسلم بأن تكون مصدر

عدل وخير لكل الناس ، لنفسك وأهلك « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » . . لجيرانك : « مازال جبريل يوصيني بالجار » ، لأهل دينك « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » ، بالإنسانية المستحقة للمعاونة « تصدقوا على أهل الأديان كلها » . وليس وراء ذلك سماحة أو إكرام .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

ترى لماذا فسدت بين الناس كل هذه الروابط ؟ الزوج يتربص بزوجته الدوائر ، والزوجة تكن لزوجها المكائد ، والناس يرددون « الأقارب كالعقارب » والمسلمون غرباء لا يتآلفون ولا يتعارفون ، والإنسان يفزع من أخيه الإنسان « عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى . . . » السر فى ذلك أن الأرض قد قطعت أسبابها بالسماء ، ولو عاد الإنسان إلى الله لعاد الله عليه بالأمان والاطمئنان (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) . . . ليس المهم أن نقول إن الله معنا ، فالله مع كل كائن ، ولكن المهم هو أن نكون نحن مع الله ، وأن نعود إلى حماه ففى ذلك سعادة الحياة وجمال الحياة ، أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم

بين الانسان والثعبان(١)

لله الحمد ، نحمده وحده فى السراء والضراء ، ونشكره وحده على النعماء والبأساء ، فلا يحمد على المكروه سواه ، ولا يقصد فى الشدائد من عداه ، ونشهد أن لا إله إلا أنت سبحانك ، أنت المطلع على سرائر القلوب ، العليم بخفيات النوايا والغيوب ، « وأسروا قولكم أو أجهروا به إنه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ؟ . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، ما داهن يوماً فى دينه ، ولا تزعزع لحظة عن يقينه ، بل كان سيد الثابتين وإمام المخلصين ، فعليه منك الصلاة والسلام ، وعلى آله البررة الكرام ، وأصحابه الأئمة الأعلام ، وأتباعه الداعين إلى دار السلام ، أولئك لهم البشرى ولهم جنات الخلود . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

ما أكثر وجوه الشبه بين الإنسان فى هذا الزمان وبين الثعبان ، وما أكثر العبر التى يجنيها العاقل حين يتدبر فى هذه الوجوه ، لا على وجه التفنن فى البحث أو التشقيق للحديث ، بل على وجه الاعتبار والادكار ، « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

إن أول ما يطالعك ويخدعك فى الثعبان زركشة تشمل ظاهرة ، فيها نقوش وتقسيمات ، وقد يكون منظرها جميلا وتقسيمها بديعاً تتمنى العروس لو صنعت مثله من نسيجها فى ثوب الزفاف ، ولكن هذه الزركشة تخفى وراءها حيواناً خبيثاً ومخلوقاً خطيراً ، يخشاه الكبار والصغار ، ويخافونه فى

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ١٤ رجب سنة ١٣٧٠ هـ الموافق ٢٠ ابريل سنة ١٩٥١ م .

الليل والنهار ، وقد يقال لهم إن ما تخشونه ناعم الجلد لين الملمس رقيق البشرة ، لا شوك فيه ولا لبد ، فلا يزيل ذلك خشيتهم ، ولا يقضى على خوفهم ، فلا يعلمون أن من وراء الملمس اللين أسناناً تقرض وتقطع ، وأنياباً تؤذى وتضير ، وكذلك الكثير من الناس يا بنى آدم ، ما هم إلا ثعابين بشرية ، إن رق ملمسها فقد خبث مطمعها ، وإن لان مظهرها فقد إلتوى وتعقد مجبرها بكل ما أوتوا من قوة وحيلة واصطناع يزخر فوق ملابسهم ومظاهرهم ، ثم ينطوون على السوء والسواد ، وقد تكون لهم زلاقة اللسان أو براعة التملق ، ولكنهم من الداخل ظلمات بعضها فوق بعض ، وقد يتظاهرون بأنهم جنود إنقاذ أو رواد إصلاح أو زعماء مجد ، وقد يجدى زورهم وبهتانهم فى خداع الناس وغشهم حيناً أو أحياناً ، ولكنه لا ينفع عند من لا تخفى عليه خافية ، ولا تغيب عنه قاصية ولا دانية ، فإنه لهم بالمرصاد ، يرتقبهم بسوء العذاب فى الدنيا ويوم المعاد ، ولذلك يقول الحديث الشريف : « يكون فى آخر الزمان أناس يختلون الدنيا بالدين ، ويلبسون للناس جلود الضأن من اللين ، لهم ألسنة أحلى من العسل ، وقلوبهم كقلوب الذئاب ، يقول الجليل تبارك وتعالى : أبى تغترون ؟ أم على تجرئون ؟ فبى حلفت لأبعثن عليهم فتنة يصير الحليم فيها حيران » .

والثعبان تتطلع إليه فتجد له رأساً صغيراً دقيقاً ، لا يكاد يمتاز عن سائر جسمه بثقل أو ضخامة ، ولكن حذار أيها الساذج ، إن الداء كله هنا ، إن البلاء أجمعه قد استقر هنا . . . هنا العينان اللتان تكشفان ، وهنا الفم الذى يضم الأسنان والأنياب ، وهنا منبع السم الزعاف الناقع ، فلا تحتقر أمر ذلك الرأس وإن دق وصغر ، فالداء هنا يا صاحبى ، وكذلك الكثير من الناس ، ترى الواحد منهم وقد اختفى خطره فيما خف وزنه وقدره ، فقد يحمل رأساً نحيلا قليلا ، فيه عينان دقيقان غائرتان ، وفم ضيق بداخله لسان صغير ،

ولكن الشيطان اللعين أو الإنسان الخبيث يستخدم هذا الرأس فى تدبير المآثم ، أو تهيئة المناكر والمقابح ، فليس فى ذهنه إلا كيف يحتال على هذا ، وكيف يوقع بذلك ، وهكذا ، وتلمح عينيه فاذا هما يقدحان عما هناك من حسد للناجحين ، وحقد على النابغين ، وضيق لئيم خسيس بفوز الفائزين ، ووقاك الله شر اللسان فى ذلك الإنسان ، نعم إنه صغير دقيق ، ولكنك لن تستطيع أن تحصى جراحاته أو عثراته ، وكأنما جهل ذلك الأثيم أن دقائق الأعضاء فيه هى التى تعلو به إذا طهرت ، وتخسف به إذا تعذرت ، ولذلك جاء : المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، وقال الرسول : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » . ولقد سأل أبو موسى رسول الله فقال : أى المسلمين أفضل ؟ . فأجاب الرسول : من سلم المسلمون من لسانه ويده ... فذكر اللسان واليد وهما من أصغر الأعضاء والأطراف فى جسم الإنسان ... وانظر كيف قدم الرسول ذكر اللسان على اليد ، كأنه يريد أن يقول إن اللسان أخطر من اليد وإن كان أصغر منها ، ولا عجب فالأول يقول :

جراحات السنان لهـــا التئـــام ولا يلتئـــام ما جرح اللســـان

وهنالك نوع من الثعابين كبير هائل ، يزحف على الأرض بطيئاً متهادياً ، كأنه فى نزهة أو فى حيرة من أمره ، ولكنه فى الواقع يفتش عن صيده المأمول هنا أو هناك ، وقد يصادف فى الطريق شاة فيلف جسمه الطويل حولها فى رقة وهدوء ، حتى يحيط بها تماماً ، والشاة تحسب أنه صديق أو رفيق ، يعبر بذلك الالتفاف عن حبه أو شوقه ، ولكن الثعبان الماكر « يمط » جسمه ، ويضغط بعضلاته قليلا قليلا على الشاة ، ثم يضاعف الضغط بلا رحمة أو هوادة ، حتى يقسم جسم الشاة نصفين ، ثم يبدأ فى التهام الفريسة ..

وكذلك الكثير من الخائنين في الناس ، يسعى إليك الواحد منهم خافض الصوت مطأطأ الرأس ، مظهراً التعفف عن مالك ، والزهد في جاهك ، مبدياً تمام استعداده ليكون أخاك الذي لم تلده أمك ، ولا يزال ينصب شباكه ويلقي حباله ، وهو الخاضع المتواضع المتحبب ، حتى يصيب منك مقتلا ، أويصادف مغنماً ، فيضرب الضربة ، أو ينهب النهبة ، ثم يولى الأدبار ، تاركاً لك تصطلي بنيران غدره وخيانته ، وكأنه لم يسمع قول الحق تبارك وتعالى : « إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً » أو لم يسمع قول الرسول : « من غشنا فليس منا » وقوله : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء ؟ ، فيقال : هذه غدرة فلان بن فلان » . . .

ومن عجب أن تجارب المجربين أثبتت أن الثعابين لا تؤذى الأشخاص الذين تمر بهم إلا إذا أحست منهم بخطر ، ويقولون إن السبب في عضة الثعبان أنه حين مروره على جسم الإنسان يخاف المرء منه ويتقلص جلده في حركة اهتزازية وهيئة قشعريرة ، فيحسب الثعبان أن هذا بدء العدوان عليه فيعض ، والدليل على ذلك أن الثعبان يمر على النائم المستغرق في نومه فلا يعضه ، وأن الهنود كثيراً ما يتركون الثعابين تجرى على أقدامهم دون أذى ، لأنهم عودوا أنفسهم عليها ، فلا تقشعر أبدانهم حين مرورها فوقها ، ومعنى هذا أن الثعبان غير مغرم بالعدوان ، ولكن الكثير من بنى آدم على العكس من ذلك ، ففيهم من لا تطمئن نفوسهم ، ولا ترتاح قلوبهم ، إلا إذا هدموا بناء ، أو أطفئوا سراجاً ، أو شوهوا جمالا ، أو ساعدوا الشيطان في أى مكان .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن دينكم الذى حمله إليكم رسولكم عن خالقكم لا يريدكم ثعابين خبيثة تزحف على الأرض ، بل يريد كلا منكم شجرة طيبة عاقلة أصلها ثابت

وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ولا يريدكم أذلة كالحشرات تزحفون على الأرض ، وتقنعون بظلام الأحجار أو الأوكار ، بل يريدكم شموساً ساطعة وبدوراً مشرقة ، تعز فى نفسها ، وتسمو فى سعيها ، وتهدى بنورها وضيائها ، فاستجيبوا لربكم وأنيبوا إليه ، فإن رحاب السماء بهديها أعلى وأصفى من حضيض الغبراء ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم . . .

بين الناس والأغنام[1]

لله الحمد ، لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعضوضة فما فوقها ، وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون ، نشهد أن لا إله إلا أنت ، ملأت الكون عظات وعبرا ، وجعلت فى كل آية حديثاً وخبراً ، ومن أصدق من الله قيلا ، ونشهد أن سيدنا محمداً ومولانا عبدك ورسولك ، رق مع المرجوين حتى كان غيثاً مدراراً ، وشق على المعاندين المارقين فكان سيفاً بتاراً ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله ، والمهتدين بسنته وأعماله والمستظلين فى طريقهم بظلاله ، أولئك الذين هدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إذا لاحظت عناية العلى القدير فريقاً من الناس ، سمت بهم ورفعت من أقدارهم ، ودفعتهم إلى المكارم والعظائم ، وباعدت بينهم وبين المناكر والمآثم ، فتراهم أشعة فى الظلام ، وجلاء لسحب القتام ، بهم تشرف الإنسانية وتعلو قيمة الحياة ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . . . وإذا تولت الشقوة طائفة أخرى أضلت سعيهم وأفقدتهم وعيهم ، وجعلتهم كالأنعام ، بل هم أضل ، وصيرتهم كالحشرات بل هم أقل ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ، ومن يهن الله فما له من مكرم ، إن الله يفعل ما يشاء ! .

ومن نكد الدنيا على الحر أن يعيش بين العبيد ، ومن محن الأيام أن يقيم

---

[1] ألقيت فى يوم الجمعة ١٩٥١/٣/٣٠ م .

الإنسان بين مراتع الحيوان ، وإذا كان الأول قد قال قبل عصور وعصور: إن الناس كانوا ورقاً بلا شوك ، فأصبحوا شوكاً بلا ورق ، فإن اللبيب اليوم يتمنى لو ظل الناس أشواكاً رغم ما فى الأشواك من دواعى الأذى والهلاك ، إذ أنهم قد انقلبوا على وجوههم ، فخسروا كل شىء حتى قوتهم الممثلة فى شوكتهم ، وغدوا قطعاناً يرتعون وما يشعرون أيان يبعثون ، ولو أراد متدبر أن يحصى وجوه الشبه بين كثير من الناس وبين الأغنام لوجد من هذه الوجوه الكثير . . . إن الأغنام ترتع لتشبع ، دون فكرة تهديها ، أو عقيدة تبنيها ، أو مكرمة ترتجيها ، وكذلك أغلب الناس اليوم ، شغلهم نداء البطن وموسيقى الأمعاء وشهوة البدن عن رفيع المبادئ وكريم الرسالات ، واستبد بهم تنافسهم الأثيم حول خسيس المآرب وكاذب المراتب ، فجعلهم كالكباش تتهارش وتتطانح بلا تعقل أو ارعواء ، «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون» ؟ . .

والأغنام تنفش فى مرعاها ، ثم لا تكتفى بما سبق إليها ، بل تحوم حول الحمى وتقع فيه ، فتنال من شىء سواها ، وتجترىء على حق من عداها ، وكذلك الناس يتيح لهم ربهم باحات الحريق والمتاع ، ويحل لهم الطيبات ، ولا يحرم عليهم إلا الخبائث ، ويؤتيهم من رزقه كل جميل وكل مقبول ، فلا يقنعون به ولا يقتصرون عليه ، بل يمدون أعينهم إلى الحرام ، وتتطلع قلوبهم إلى البعيد الخسيس ، فيتركون المال النظيف والعمل الشريف إلى سحت المكاسب وذلة الإجرام ، فإذا ما عبهم عائب على كثرة التردى فى الهاوية وتكرار الوقوع فى المنحدر ، تعللوا بوسوسة الشيطان واشتباه الأمور ، مع أن رسولهم يقول : الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ،

ومن واقع الشبهات وقع فى الحرام، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه !.. ومن عجيب الشبه هنا بين الناس والأغنام يصدها راعيها مراراً وتكراراً عما ليس لها ، ولكنها تتأبى عليه وتنفر منه وتسىء به الظنون ، وكذلك الناس كلما جاءهم واعظ أو مرشد ليصدهم عن خنا أو يدعوهم إلى علا ، سخروا منه واستهزأوا به ، أو تظاهروا له بالاستجابة والخضوع ، ثم ولواعنه بعد ذلك معرضين ، كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » .

والأغنام يأتيها صاحبها المتاجر فيرقدها على الأرض ، ويجز منها شعرها ليبيعه أو يستغله فى مصلحته ، وقد يوهمها أن ذلك تخفيف عنها ورحمة بها ، وقتل الإنسان ما أمكره ، فإنه فى الحقيقة يمتص دماءها ويستلب خيراتها ، وكذلك الدواب من الناس ، تهون عليهم نفوسهم ، وتذل فى صدورهم قلوبهم وتخشع فى الحياة هممهم ، فيعيشون أشباهاً للرجال ، يقضى الأمر فلا يستشارون ، ويسامون الخسف فلا يغضبون ، وتستغلهم فى الكون جبابرة يسلبونهم الغذاء ، ويمتصون منهم الدماء ، والضحايا الذليلة المهينة تبش لسالبيها ، وتقبل راحات قاتليها ، مع أن الحق يقول : « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » ويقول : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » ويقول الرسول عليه صلوات ربه العزيز : « من مات دون ماله فهو شهيد » .

والكبش فى دولة الأغنام يسطو بالنعجة ، فيعاشرها ويواقعها على مرأى من الأغنام والناس لأنه حيوان ، وكذلك من الناس من يأخذ المرأة الغريبة عنه

المحرمة عليه فبخاللها ، ويذرع بها الطرقات متبججاً فى دعارة وفجور ، بلا خجل أو حياء ، وقد ينادى عليه صبيان الحى أو أطفال الحارة بلغتهم العامية : « سيب النعجة يا خروف » فلا تستحى ولا يبالى التيس الصفيق ! . .

والأغنام تلد خرافاً كثيرة العدد ، وقد تظن أن هؤلاء الأولاد سيكونون قرق عين لها ، ولكنها بعد قليل تفرط فيهم وتبعد عنهم وتستخف بهم وتصبح الخراف الجديدة مكسباً بارداً للجزار الذى لا يلين ، وقد تشهد النعجة مصرع وليدها على شفرة الجزار ، فلا تحرك ساكناً ولا تثير غضباً ، وإذا ما تحركت فإنما تتحرك لتنجو بنفسها بعيدة سالمة من ذلك المصير ، وليذهب الوليد العزيز إلى ألف جحيم ، وكذلك الكثير من الناس أصبحوا كمعامل التفريخ فحسب ، يلدون أولادهم وهم يحسبونهم قرة أعين لهم ، ولكنهم بعد قليل يتركون لهؤلاء الأولاد حبالهم على غاربهم ، فلا تربيه ولا تقويم ، ولا خلق ولا تأديب بل يتركونهم طعاماً لخبيث النزعات وخسيس المبادئ وجامح التيارات وطائش الاتجاهات ، وتطول شقة البعاد والخلاف بين الآباء والأبناء ، فتتقطع بينهم الأسباب والروابط ، فيستهين الوالد بولده ، ويستخف الولد بأبيه ، فلا رحمة عند الوالد لولده ، وقد يساق الوالد مساق الأخطار فلا يغار الولد ولا يثور ، وقد يساق الولد إلى الشقاء فلا ينجده والده ، وقديماً كان الآباء يراقبون الله والأبوة فى أبنائهم ، فيحفظونهم فى صغرهم ، وينشئونهم أكرم تنشئة ، ويرعونهم أفضل رعاية ، فإذا شب الأبناء عن الطوق رأوا أثمار التربية فيهم فشكروا أصحاب الفضل عليهم ، وذكروا أن للوالدين حقوقاً تؤدى ، فهتف كل منهم : رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً ! . .

يا أتباع محمد عليه السلام : : :

إن ربكم الرحمن ، وكتابكم القرآن ، وشرعتكم الإيمان ، وطريقتكم

الإحسان ، ووالله ما جئتم إلى الكون لتكونوا أغناماً بل لتكونوا أعلاماً ، وما دخلتم أمة محمد لتذلوا أو تقلوا ، بل لتكثروا وتعلوا ، فإن يكن أصابكم هوان بعد تكريم فمنكم وبأيديكم ، وحسبكم تأديباً قول الله لرسوله : « ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ، وأرسلناك للناس رسولا ، وكفى بالله شهيداً » . ولن يعز إنسان فى الوجود إلا إذا عرف ربه ، وعرف نفسه ، وعرف حقه ، وعرف واجبه ، ثم هتف : إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، إن صلاتى ونسكي ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، ولا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ـــ أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم . . .

مهزلة فى الأزهــر[1]

الحمد لله عز وجل ، هو ولى المؤمنين ، وخاذل الفاسقين : « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم » . أشهد أن لا إله إلا الله : « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جاهد فى سبيل الله أفضل الجهاد ، فهدى إلى ا لحق وإلى صراط مستقيم ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، أولئك لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

فى وسط الأسبوع الماضى[2] حدث ما يشبه المهزلة فى الأزهر الشريف الذى نحبه ونغار عليه ونتمنى الخير له ، فقد أرادوا أن يجددوا فيه فاستدعوا سيدة لتحاضر فى قاعة المحاضرات أمام العلماء والطلاب ، وهى أديبة باحثة ، وأكثر حشمة من مثيلاتها ، ولكنها حينما وقفت لتتكلم فى عقر الأزهر كانت كما قالوا مكشوفة الرأس ، فقام أحد العلماء وقدم إليها « الشال » الذى كان معه لتضعه فوق رأسها ، لأن شعر المرأة عورة كما يقول الفقه الإسلامى ، فأبت السيدة وألقت « الشال » أمامها ، وهنا نهض عالم آخر وأيد زميله فى اقتراحه ، فحدثت ضجة أخرجوا خلالها العالمين اللذين اعترضا من القاعة فى صورة غير كريمة ، وبدأت السيدة تتكلم ، فحملت حملة شديدة على العلماء ، لأنهم غضبوا لكشف شعرها ، قائلة إن العلماء توجد أمامهم المخازى والمنكرات

---

(١) القيت فى يوم الجمعة ١٢ من جمادى الأولى سـنة ١٣٧٩ هـ الموافق ١٣ من نوفمبر سنة ١٩٥٩ م .

(٢) يوم الاثنين ٩ نوفمبر سنة ١٩٥٩ م والسيدة هي الدكتورة بنت الشـاطىء .

تملأ الأرجاء ومع ذلك لا ينكرونها ولا يغضبون منها ، وتوسعت السيدة فى ذلك حتى ضج الحاضرون وطالبها بعضهم بالسكوت ، وقام أزهرى آخر بعد هذا كله فحمل على زميليه وتعرض لها بشىء من التجريح ، وانتهت الندوة بهمهمات الأسف وتمتمات الألم مما حدث فى رحاب الأزهر المسكين ..

ويلاحظ المسلم الغيور هنا أن الحادثة مؤسفة من بدايتها إلى نهايتها ، ولقد علق الناس تعليقات ثائرة أو ساخرة على ما وقع ، فمن مؤيد للعالمين اللذين اعترضا لأنهما أمرا بمعروف ونهيا عن منكر ، ومن منتقد لها لأنهما كانا يستطيعان أن يتصرفا بحكمة أكثر ، ومن مؤيد لحملة السيدة على رجال الأزهر لأنهم يفرطون فى واجباتهم ، ومن معارض لها لأن الأسباب المادية والمعنوية الموجودة فى أيدى العلماء لا تكفى لتمكينهم من مقاومة المنكرات ومحاربة المآثم ، وقد يستطيع رجل بوليس الآداب بسلطته مثلا أن يكون أقدر من كوكبة من العلماء بلا سلطان والله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ... ولاشك أن إحراج سيدة سمحوا لها بالدخول ، ودعوها رسمياً لتحاضر أمر فيه نظر وتصرف يحتاج إلى مراجعة ولا شك أن إخراج عالمين بالقوة من قاعة أزهرية لأنهما أبديا رأيهما شىء مهين للكرامة ، ولاشك أن تجريح العلماء على «طول الخط» لا ينبغى ولا يفيد ولذلك كانت الحادثة مؤسفة من بدايتها إلى نهايتها . . .

كذلك نلاحظ أن الأزهر الرسمى يقف موقف التناقض بين ما يلقنه لأبنائه من تعاليم الدين وأحكام الفقه ، وبين التصرفات العملية التى يقوم بها رجاله فى مجال هذه الأحكام ، فالأزهر مثلا يعلم أبناءه فى مختلف المذاهب الفقهية المعتمدة أن شعر المرأة عورة يحرم كشفه ، ولكن الأزهر نفسه يسمح لمئات من النساء الشرقيات والغربيات المكشوفات الرأس وغيرها من أعضاء الجسم بزيارة الجامع الأزهر والاختلاط بمن فى داخله ، ويسمح لمثلهن

بالدخول إلى إدارة الأزهر ، وأخيراً دعا سيدة مكشوفة الرأس لتحاضر فى قاعته الكبرى ، ولقد نشرت الصحف منذ حين صورة لطائفة من السيدات فى شكل لا يناسب الحشمة والوقار ، وهن فى مكتب رئيسى بإدارة الأزهر ، فإما أن يقولوا لنا إن هذه الأحكام الفقهية غير صحيحة ، وإما أن يقولوا لنا إنهم غير مؤمنين بها ، وإما أن يحترموها إن كانوا بها مؤمنين . . . نعم لقد اتسع نطاق التناقض بين ما نقرره فى الدروس الدينية بالمعاهد الإسلامية من أوامر الدين وأحكام الفقه ، وبين ما نراه مطبقاً فى الحياة ، حتى على أيدى الذين يقررون هذه الأحكام ، فأصبحت الحياة بلا دين ، فانطلقت وتحللت إلا من رحم الله ، وأصبح الدين بلا حياة ، لأن صلاته وروابطه بالحياة قد انقطعت أو ضعفت ، فصار الدين عندنا مجموعة من النصوص تضمها كتب مطورة فى المكاتب والأدراج ، أو تضمها رءوس ترددها وتعيدها ، دون أن تستطيع نفخ الحياة العملية فيها ، وأصبح المستمسك بدينه الملتزم له كالقابض على الجمر كما جاء فى بعض الآثار . . . وإذا أصبحت الحياة بغير دين فهى والفوضى سواء ، لأنها تخلو حينئذ من وازع الضمير ومراقبة الله وخوف الحساب الدقيق ، فيفعل كل امرىء ما يهوى وما يشاء ، بلا صاد أو رادع وإذا أصبح الدين بلا حياة أو تطبيق أدركه الجمود والركود ، فيخيل إلى الناس أنه غير صالح للتطبيق والتنفيذ ، مع أن العيب ليس منه ، بل من هؤلاء الذين حالوا بينه وبين التطبيق ، والحق لن ينقلب باطلا مهما قل متبعوه ، والباطل لن ينقلب حقاً مهما كثر مشايعوه ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ومن مظاهر التناقض بين ما نقرره من أحكام الدين وما يفعله الناس فى الحياة أن الدولة جرت على تقليد عجيب غريب ، لا ندرى كيف ظل

المسئولون ساكتين عليه راضين به إلى اليوم ، وهو أنه كلما صدر حكم بالإعدام على متهم بالقتل حولوا أوراقه إلى مفتى الدولة ليقول رأى الدين فى الحكم ، فإن وافق على هذا الحكم نفذوا الإعدام ، وإن عارض رأيه الحكم نفذوا الإعدام أيضاً . . . وما دام الحكم منفذاً فى كلتا الحالتين ، فلسنا ندرى لماذا يحولون الأوراق إلى المفتى ، ولماذا يؤخذ رأيه إذن ؟ . . . إنهم يقولون : إن الرأى هنا استشارى ؛ ونجيب بأن المستشار يجب أن يطاع ما دمنا قد وثقنا به ، وإلا كان معنى هذا أننا نوهم الناس أننا نحترم رأى الشريعة والواقع أننا هنا لا نقيم له وزناً ، وكان مقتضى أخذ الرأى من المفتى ألا ينفذ الإعدام إلا إذا كان حكم الدين الذى نؤمن به صريحاً فى استحقاق المتهم للقتل . . .

ونلاحظ بمناسبة الحديث عن الأزهر أن مناهج الدراسات الإسلامية فيه وفى فروعه قد أخذت تتقلص يوماً بعد يوم ، وأخذت مواد مختلفة تزاحم الثقافة الدينية الصحيحة هناك ، فأصبح الطلاب حائرين ، يأخذون أمشاجاً من تراث الإسلام العربية ، ويأخذون معها أخلاطاً من مواد أخرى ، فيظلون حائرين بين هذه الأمشاج وتلك الأخلاط ، مع أنه يجب أن تبقى للأزهر شخصية علمية إسلامية عربية متميزة ، تقوم على التبحر فى دراسات الدين ، والتمكن من ثقافة الإسلام ، وعدم طغيان المواد الأخرى على الدراسات الإسلامية والعربية السليمة ، وإلا صار الأزهر مدرسة كسائر المدارس . وهذا ما يتمناه الحاقدون على الإسلام والعروبة ، إذ يريدون ألا يبقى لهاتين الدعامتين صرح شامخ يمثل الحرص على دراسات الإسلام وبحوث العربية . . . والمؤسف أن أبناء الأزهر يعيشون حول جامعهم فى مقبرة كبرى تسمى تلال الدراسة ، حيث يستنشقون الهواء ممزوجاً بغبار الأقذار والخرائب ،

وحيث يقضون أيامهم فى مال وكلال وشبه عزلة ، وحيث لا يحسبون بأنهم قد نالوا حظوظهم من العناية والتقدير ، فهم لأجل هذا لا يتمكنون من ميادينهم على الوجه المطلوب ، وهم أيضاً يرددون نصوصاً وأحكاماً لا يجدون صداها فيما حولهم من المجتمع ، ولا يجدون من يتلقاها عنهم تلقى الرغبة فى التمسك بها والالتزام لها ، وكلما علونا فى سلم التبعة والمسئولية وجدنا المسئولين هناك مشغولين بشواغل أخرى غير هذه الميادين ، وكلما حدثهم بما يجب أن يكون منهم ، أو ما يجب أن يكون لهم ، خيل إليهم أن الناصح يتربص بهم الدوائر . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن تعاليم الإسلام وتقاليده وثقافته تتعرض اليوم لابتلاء شديد وامتحان عصيب ، فالجماهير منصرفة عنها ، ودعاة الخير قد ضعفت منهم العزائم أو كادت ، والأزهر بتاريخه ومواريثه الإسلامية والعربية هو الحصن الذى يجب أن يصون تراث الإسلام والعروبة ، ويجب ألا يتخلى عن وظيفته ، أو يتنكر لرسالته ، وواجب المسلمين جميعاً أن يعمل كل منهم بما استطاع ليظل لواء اليقين مرفوعاً ، وعماد العربية شامخا والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . . .

من اجل الفضـــيلة[1]

الحمد لله عز وجل ، يرضى لعباده الخير والاستقامة والصلاح ، ويكره لهم السوء والبغى والفساد : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » . أشهد ألا إله إلا الله ، وعد بالثواب أهل الفضيلة والرشاد ، وتوعد بالعقاب أهل الغى والضلال : « والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، باعد نفسه وقومه عن الرذائل والآثام ، وزان حياته وحياتهم بالتقوى وصالح الأعمال ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، وصحبه ورجاله ، ومن استضاء بأعماله وأقواله : « أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يا لغربة الإسلام فى بلاده ، ويا صنيعة الحق فى دنيا الباطل ، ويا هوان الأخلاق فى عصور الفوضى والانطلاق ، ويا شدة ظلمنا لهذا الدين الكريم الذى ننتسب إليه وقد نتاجر به وقد نستغله أسوأ استغلال فى بعض الأحيان ، ثم لا نعمل به ولا نغار على حرماته . . هذا أحد المصلين يكتب إلى والعهدة فى الرواية عليه أن قريباً له غير متزوج شكا مرضاً فى خصيته ، فذهب إلى طبيب مسلم ينشد لديه العلاج ، فلم يجر الطبيب له عملية جراحية ، ولم يعطه حقنة ، ولم يصف له دواء ، ولم يختر له علاجاً ، بل قال له إنك مصاب بكبت جنسى وعليك أن تعالجه عن طريق مخادنة النساء مخادنة غير شرعية حتى يزول

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٢١ جمادى الأولى سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ١٣ من ديسمبر سنة ١٩٥٧ م .

هذا الكبت وتستقيم الحال . . . هكذا والله ربي وربكم كتب إلى أحد المصلين وهو يسمعني الآن فيما أعتقد ، وقد ذكر لي أن قريبه المريض استنكر هذا الرأي من الطبيب ورفض أن ينفذه ، وأراد أن يسمع كلمة الإسلام في الموضوع .

أكنت إذن مسرفاً حين قلت : يا لغربة الإسلام في بلاده ؟ . . هذا طبيب مسلم في بلد يصف نفسه بالإسلام يحرض مريضاً مسلماً على ارتكاب جريمة الزنى وهي الجريمة البشعة والفعل الشائن الذي يقول فيه ربي وربكم : « ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا » . . . يحرضه على هذه الفاحشة وهو يعلم أنها بشعة محرمة بنص القرآن والسنة ، وأنها لو لم تحرمها الشريعة لحرمها العقل وحرمتها الغيرة ، ومحمد سيد الخلق صلى الله عليه وسلم قد أنبأنا بأن الله جل جلاله لم يجعل دواء أمته أو علاجها فيما حرمه عليها ، حتى لقد سئل صلوات الله عليه عن التداوي بالخمر فأجاب : إنها داء وليست بدواء . . ولقد قال طارق بن سويد للنبي عن الخمر : يا نبي الله إنها دواء ، فقال له : لا ، ولكنها داء . وعن أبي هريرة قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الدواء الخبيث وخبث الدواء أن يكون نجساً ، أو مسكراً ، ضاراً ، أو محرماً ، وفي الحديث : « تداوا ولا تتداووا بحرام » .

وقد كان في استطاعة هذا الطبيب لو اهتدى إلى سواء السبيل أن يعالج هذا المريض بطريق من طرق الطب ، أو يزيل عنه هذا الكبت بوسيلة من وسائل التخفيف الصناعية ، أو ينصحه بالرياضة البدنية ، أو ينصحه بالزواج ، حتى يهتدي في هـــذا بعلاج محمد عليه الصلاة والسلام الذي يقول : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم البـــاءة (أي تبعات الزواج وتكاليفه) فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليـــه بالصوم ، فإنه له وجاء » أي علاج وتنفيس . . . وليت شـــعري

من أين يأتى الطبيب لهذا المريض بالنساء اللواتى نصحه بمضاجعتهن ، وليس فى المجتمع اليوم بغايا محترفات ظاهرات ؟ . . أيقبل هذا الطبيب مثلا أن يعتدى هذا المريض على عرض امرأة من أهله أو قريباته ؟ . أغلب الظن أن جوابه على ذلك هو الغضب والاستنكار والنفى . وإذا كان يكره هذا فكيف يحب لغيره ما لا يحبه لنفسه ، والرسول يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . وماذا يحدث لو سمحنا لكل شاب عنده كبت أو قوة فى غريزته أن يسطو على ما يصل إليه من أعراض ؟ . . ماذا تكون النتيجة ؟ . . ألا ينقلب المجتمع إلى حظيرة تضم شياها تنزو عليها الذئاب ويقف التيوس من خلفهم يهزون قرونهم ذات اليمين وذات الشمال ؟ . . ألا يجعلنا هذا ننشد البيتين المشهورين :

مررت على الفضيلة وهى تبكى ... فقلت علام تنتحب الفتاة ؟
فقالت : كيف لا أبكى ، وأهلى ... جميعاً دون خلق الله ماتوا ؟

وهذا مصل آخر يقدم إلى مجموعة من صور نسائية فاضحة ، إذ ظهرت فيها بعض النساء عاريات تماماً فى أوضاع جنسية مثيرة للرشيد والغوى على السواء ، وذكر لى أن هذه الصور تباع هنا وهناك فى الطرقات والميادين ، ويشتريها الرجال والنساء ، والطلاب والطالبات ، فكيف يصح هذا ياعالم ؟. أو لم يكف هؤلاء ما هناك من تبرج المتبرجات وفجور الفاجرات وتبذل المتبذلات ، فجاءوا بسافل المحرضات وقذر المثيرات لتزداد الدنيا فوضى ، ويصبح الأمر خليطى ، ويضيع ما بقى من الدين والأخلاق ؟ . . ولكن لماذا لا يفعلون وهذه هى الصحف تخبرنا بأن بعض الكليات الجامعية تقيم مسابقات من نوع جديد طريف ، ولكنه نوع أثيم سخيف . . . إنها ليست مسابقات فى العلم . . . لا فى العلم ولا فى الأدب ولا فى البحث ولا فى الاجتماع – بل فى

الرقص بين الطالبات . . . إى والله ربى وربكم فى الرقص بين الطالبات ، كما تخبرنا هذه الصحف بأن هذه الكليات تقيم مسابقات بين الطالبات فى السباحة ، وأنتم قد تعرفون أو تسمعون عن ثياب الرقص و« مايوه » السباحة ، وتعرفون من هذا أن أجساد الطالبات وهن فى عز الشباب — وأفخاذهن وظهورهن وبطونهن ومفاتنهن ستكون معرضاً ظاهراً مكشوفاً لأنظار المشاهدين من أساتذة وطلاب وضيوف كرام أو غير كرام ! . . سيقول هؤلاء — بل لقد قالوا — إن هذا لون من تهذيب الغرائز بالقضاء على الحساب وبخلط البنات مع البنين ، لأن فصل الذكور عن الإناث — فيما يزعمون — يؤدى إلى الكبت الحسى والتعقيد النفسى والانحراف الجنسى ، ولو حاربنا هؤلاء وأخذنا بنظام الاختلاط وتخفف النساء من الحجاب والثياب ، لكانت النتيجة كما يقول الباحثون أحد أمرين : إما أن تزداد الغرائز ثوره عند الكثيرين فتنطلق ، وتكثر المصائب والفضائح ، وهذا هو المنتظر بحكم الطبيعة وشاهد التجربة ، وإما أن يتحقق زعمهم وهو خمود الشهوة وجمود الغريزة بسبب الألفة فيؤدى ذلك إلى مصيبة البرود الجنسى ، وهو علة اجتماعية مستعصية ، يحار المصابون فى علاجها ، لأنها تفقدهم رجوليتهم وفحولتهم ، وتشعرهم بهوانهم أمام أنفسهم وأمام غيرهم ، ولأنها ستخرج لهم — إن أخرجت — نسلا ضعيفاً هزيلا ، ثم تكون النتيجة مع هذا أن يتأنث الرجال وتسترجل النساء ، فيستنوق الجمل وتستأسد الناقة فيشقيان معاً .

وهذه بلايا الاختلاط تأتينا من بلاد الاختلاط . . . من بلاد المدنية والحضارة والنور والثقافة والرياضة والتهذيب الاجتماعى — هكذا يزعمون لأنفسهم وربك أعلم بما يصنعون . . . فقد نشرت صحفنا منذ أيام أن ثلاثة آلاف شاب مراهق هجموا فى حفل عام على الفتيات الجميلات المتسابقات على لقب ملكة الجمال للرياضة فى كولومبيا بأمريكا ، وحدثت

معركة بسبب ذلك ، تحطمت فيها سيارات ، واستعملت مسدسات ، وجرحت فتيات ، وكانت النتيجة طبيعية ، فلم تنفع الحضارة ولا الرياضة ولا حفلة التسابق فى منع الهر الجائع من التهام اللحم الشهى المعروض بين يديه ! ! . . فهلا كان لنا من عبرة وعظة يا أمة تريد أن تنسى دينها وأخلاقها وعفتها ليقال لها : لقد أصبحت مثل أوربا ؟ . . .

هذه صرخة رجل عاش فى فرنسا ، وتربى فى باريس ، واشتغل بالأدب واختلط بالأوساط المختلفة واحترف الصحافة قرابة أربعين ، فلن يتهمه متهم بالرجعية والجمود . . .

هذا هو الأستاذ أحمد الصاوى محمد يصرخ فى جريدة « الأهرام » صباح ١٥ ديسمبر ١٩٥٧ فيقول :

على الآباء والأمهات أن يفتحوا عيونهم ، ولا يكونوا كالنعام الذى يدفن رأسه فى الرمال زاعماً أن الصياد لا يراه ! . .

لقد رأينا فى إحدى الزميلات- طلبة وطالبات إحدى الكليات الجامعية يرقصون الروك — أند — رول ! .. والفتاة الحسناء الهيفاء فى حضن الفتى الرشيق الجميل ، وقد انثنى ظهرها ، وتركت له ظهرها ، وقد أسند بركبته غصنها ، والتوت الأصابع ، والساق على الساق . وكانت الرقصة تقول هل من عناق ؟..

إننا لا نلوم الفتى فهو لن يمسه السوء . . . لكن أين أهل البنت ؟ . . متى تعلمت هذه الرقصة الفاجرة ؟ . . هل هى طالبة جامعية نرجو منها خيراً لوطنها ولأهلها ، ثم نرجو منها أن تكون يوماً عماد بيتها ، وأما مثالية لأولادها ؟.

إننا لا نكره النزهات الخلوية والمرح البرىء يرفه به أولادنا وبناتنا عن أنفسهم ، ويستمعون بالهواء الطلق ، والحديث الشجى ، والنقاش الذى يزيد المعرفة ويصقل الفطنة ، ولكن . . . هل الرقصة التى تبرأت منها كثير من

الدول الأوربية ، ومنعتها ، وأدخلت فى السجن من كانوا يرقصونها فى الشوارع . . . هل هذا هو المرح البرىء واللهو المنشود ؟ ! . .

ولقد قرأنا منذ شهرين أو ثلاثة أن أستاذاً جامعياً يقيم حفلا فى بيته يحضره شبان من طلاب كليته ليرقصوا رقصة روك أندرول . . . مع . . . مع من ؟ . . مع الآنسة كريمته التى بلغت العشرين ربيعاً ! ! . . فهل هـذه هى التربية المرجوة من الأستاذ ومن الوالد ؟ . . أم ترى أننا نعيش فى زمن غير زمننا ولم نعد ندرك ما يدور حولنا ؟ ! » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . قد يقول لى بعضكم : إنك تؤذن فى مالطة ، ولكنى فى الواقع أؤذن فى مصر بلد الإسلام وبلد الأزهر وزعيمه المسلمين كما يقول . . . وقد يقول لى بعضكم : إنك تصرخ فى واد ، ولكنى أصرخ فى وادى النيل الخصيب ، الوادى الذى عرف الله منذ أقدم العصور . . الوادى الذى نبتت فيه شريعة موسى ، ولجأت إليه شريعة عيسى ، واعتزت بجهوده وجهاده شريعة محمد ، فحذار يا قوم ، حذار أن يضيع على أيديكم تراث محمد . . . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . .

اين الأمة الشاهدة(١)

الحمد لله عز وجل ، جعل الثواب والعقاب نتيجة لعدالة الحساب ، وهو أحكم الحاكمين . أشهد أن لا إله إلا الله ، يكره مخالفة الأعمال للأقوال : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله القائل : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأقوالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

ما أبعد هذه الأمة الإسلامية اليوم عما أراده لها ربها ، ودعاها إليه رسولها ، وطالبها دينها ، وأوجبته عليها كرامتها ، ثم ما أوسع دعواها ، وما أوجع بلواها ، فالله جل جلاله يقول لأمته مثلا : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » ، والأمة كما يقول المفسرون هي الجماعة التى تؤم أى تقصد جهة واحدة ، فتكون موحدة الصف موحدة الهدف ، والوسط هو العدل والخير ، لأن وسط الشئ هو خياره ، ووسط الوادى هو خير موضع فيه وأكثره ماء ونباتاً ، وواسطة العقد هى خير جوهرة فيه ، والرسول أوسط قريش نسباً أى خيرهم ، والقرآن يقول : « قال أوسطهم » أى أعدلهم وأفضلهم ، والرسول يقول : « خير الأمور أوساطها » . والوسط فى الحقيقة هو البعد عن الطرفين بعداً متساوياً ،والطرفان

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٣٠ اغسطس سنة ١٩٦٨ م .

هما الإفراط والتفريط ، فالإنسان الوسط يبعد عن الإسراف بعداً مساوياً تماماً لبعده عن التقصير ، فكأن الوسط يوجد فيه معنى الانضباط والاستقامة والاستواء على الصراط المستقيم ، والمؤمن الحقيقى هو الذى يمضى فى طريقه على خط معتدل ، لا يميل عنه ولا يضل فيه ، فلا هو يغلو ويسرف ، ولا هو يقصر أو يجحف ، ولذلك علم الله عباده أن يدعوه كل يوم عدة مرات قائلين فى الصلوات : « أهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » . وحين قال الله لأمته : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » كأنه يقول لأبنائها وهو أعلم بمراده : لقد أردتكم خياراً عدولا ، يزكيكم العلم والعمل ، وتجمعكم كلمة التوحيد ، ويعزكم توحيد الكلمة ، وتزينكم خصالكم الحميدة التى تضبط خطوات أصحابها ، فتجعلهم فى الوسط الصحيح السليم القويم ، فهم ينهضون بكل الواجبات ، وهم يحذرون كل المنهيات ، والله من وراء الجمع مرشد ومعين .

ثم قال الله تعالى لأبناء الإسلام : « لتكونوا شهداء على الناس » . والشهادة درجة خطيرة ومنزلة جليلة ، فيها يقبل حكم الإنسان على غيره فى دينه وعمله ، والرسول يقول : « من اثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة ، ومن أثنيتم عليه شراً وجبت له النار ، أنتم شهداء الله فى الأرض ، أنتم شهداء الله فى الأرض ، أنتم شهداء الله فى الأرض » ثم تلا قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » . وهذه الشهادة تقتضى أن يكون الشاهد صالحاً لها جديراً بها قادراً عليها ، فيكون فاضلا عادلا له شمائل ينفرد فيها وفضائل يتحلى بها ، حتى تكون له مزية على غيره ، فيصلح لإبداء الشهادة على سواه ، شهادة الأمة الإسلامية على غيرها من الأمم فيها معنى الإشراف والتوجيه والقيادة ، فلابد لها من منهج وخطة ، ولابد أن يكون لديها قيم وموازين ، فهى الأمة الحاكمة الفاصلة ، التى تقضى بين الأمم ،

وتقوم اعوجاجها ، ولن يستقيم الظل والعود أعوج ، وفاقد الشيء لا يعطيه ، فإذا كانت هذه الأمة الاسلامية مسئولة عن تقويم غيرها ، فلابد أن تكون قويمة فى نفسها ، وأن تكون كما أراد لها خالقها أمة وسطاً ، أى معتدله فى أمورها مستقيمة فى اعتقادها وتفكيرها وتصرفها ، فقد هيأ الله لها أسباب الوسطية فى كل شئ حتى فى مكانها ، فجعلها وسطاً بين الشرق والغرب لتكون بعقلها وفضلها وعملها الصمام والزمام والإمام لمن فى الشرق ومن فى الغرب ، وتلك مكانة عليا لها تبعاتها وواجباتها ومشقاتها : « إن العظائم كفؤها العظماء » .

وإذا كانت هذه الأمة الإسلامية مطالبة بأن تكون شاهدة على الناس ، فإنها فى الوقت نفسه مشهود عليها ، وهى مشهود عليها من أكرم شاهد ، وأكمل نموذج للانسانية الطاهرة الفاضلة ، إن الشاهد عليها هو الصادق المصدوق رسول الله عليه الصلاة والسلام : « ويكون الرسول عليكم شهيداً » فالرسول يشهد لكم وعليكم ، وهو يشهد بأنه قد بلغكم فأدى الرسالة وصان الأمانة ، ولعل هذا هو بعض السر فى تكريره قوله : « ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد » . وهو يشهد بالإيمان لمن استجاب واهتدى واستقام ، ليكون ذلك تزكية للمتقين عند ربهم ، والأمر من بعد هذا ومن قبله بيد الله وحده ، يفعل ما يشاء ويختار ، ورسول الله الشاهد على أمته هو الذى يقول لها : « أنا فرطكم على الحوض ، من مر على شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبداً ، وليرن على أقوام أعرفهم ويعرفوننى ثم يحال بينى وبينهم ، فأقول يارب إنهم منى (أى يقولون إنهم من أمتى) فيقال : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك ، فأقول : سحقاً سحقاً لمن غير بعدى » . وهو الذى يقول لأمته : « خيركم

قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون (لا يدعون للشهادة لعدم أهليتهم لها) ويخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السمن » . وما أشد الموقف وأعظم الهول حينما تقف الأمة أمام رسولها ليشهد عليها عند ربها : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » .

ومن المعروف فى فقه الإسلام أن الإنسان لا يصلح للشهادة فى الأمور القضائية الدنيوية بمجرد كونه مسلماً أو قوله أنا مسلم ، بل لابد أن يكون مرضياً فى أخلاقه وسلوكه ، وأن يكون عادلا منصفاً ، لأن الله يقول فى وصف الشهداء « ممن ترضون من الشهداء » ويقول : « وأشهدوا ذوى عدل منكم » والعدالة هنا كما قال المفسرون هى صفاء السريرة واستقامة السيرة وتجنب الكبائر والتزام الفضائل ، فكيف إذن بشهادة أمة على غيرها من الأمم ؟ وهل تجرؤ هذه الأمة حقاً على أن تقف موقف الشهادة على سواها قبل أن تسأل نفسها . أتستحق أن تكون شاهدة أم لا ؟ . وهلا يكون من العدل إن كان لابد لها من شهادة — أن تشهد على نفسها قبل أن تحاول التعرض للحكم على من عداها ؟ . ها هى ذى اليوم تبدو وكلها ثغرات صالحة لتوجيه الطعنات والضربات ، فهل لها صف موحد ، أو هدف موحد ، أو جيش موحد ، أو قيادة موحدة ، أو خطة موحدة ، إن فيها من يقدر على أن يضرب عدوها ثم يتقاعس ، وفيها من يعجز عن الضرب ثم تتوالى عليه الضربات بلا نصير ، وفيها من يقول كثيراً ولا يعمل قليلا ولا كثيراً ، وفيها من يصمت صمت الأموات حتى عن الكلمة الطيبة ، وفيها من تبلد حسه وتجمد شعوره فصارت أنباء العدو المتكررة عنده كأنها حديث « عن التغير الذى لا يذكر فى درجات الحرارة » وفيها من يرون الإباحية مدنية ، ومن يرون التعرى حضارة

ومن يرون التعبد رجعية ، ومن يرون التدين ضيق أفق ، فكيف تجرؤ أمة هذا شأنها على أن تقول إنها هى التى يصدق عليها قول ربها « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : أنتم بقايا الخير فى حنايا المجتمع ، فكونوا بفضل ربكم ومعونته همزة الوصل بين ماض كريم لأمة الإسلام ومستقبل مأمول لها ، ومن سار على الدرب وصل واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

شــعبان والحســين(١)

الحمد لله عز وجل ، يرفع درجات من يشاء من عباده إلى أعلى عليين ، ويخفض شأن الوضعاء إلى أسفل سافلين ، وما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، بث شواهد العبر وحث النظر : « فذكر إن نفعت الذكرى » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، طاب أصله ، وزكا فرعه ، فكان المثل الأعلى للناس أجمعين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « إن للمتقين لحسن مآب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

نحن الآن فى شهر شعبان ، وذكريات هذا الشهر كثيرة ، فهو يذكرنا مثلا بقرب شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، وهو يذكرنا برفع الأعمال فيه إلى الله عز وجل ، وتقبله للطيب الخالص عنها حتى قال سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه حين سئل عن كثرة صيامه فى شعبان تطوعاً : « هو شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان ، ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين ، وأحب أن يرفع عملى وأنا صائم » . وهو يذكرنا بليلة النصف منه التى يستحب فيها الدعاء ، والتى تم فيها تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة الحرام ، وذكريات شعبان بعد هذا كثيرة غزيرة كالزهرات المنثورة خلال تاريخ الإسلام والمسلمين ، ولكن الله تعالى ألهمنى اليوم ذكرى من ذكريات هذا الشهر تناسب أن تكون محوراً لحديث ، فنحن اليوم فى الخامس من شهر شعبان ، وفى هذا اليوم نفسه ولد الشهيد ابن الشهيد أبو الشهداء الحسين بن على رضوان الله تعالى

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٥ شعبان سنة ١٣٨٦ هـ الموافق ١٨ نوفمبر سنة ١٩٦٦ م .

عليهم ورحمته وبركاته ، فقد ولد الحسين فى اليوم الخامس من شعبان سنة أربع من هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وما أطيب الحديث حين يدار عن الحسين بن على الإمام البطل باب مدينة العلم ، ربيب بيت النبوة ، وابن فاطمة الزهراء البتول سيدة نساء العالمين ، وسبط الرسول وريحانته الذى أخبر عنه الرسول وعن أخيه الحسن بأنهما سيدا شباب أهل الجنة ، وأنهما ريحانتاه من الدنيا ، وقال عنهما : « اللهم إنى أحبهما فأحبهما » ، وقال عن الحسين : « حسين منى وأنا من حسين ، أحب الله من أحب حسيناً ، حسين سبط من الأسباط » والسبط معناه الجماعة فكأن الحسين أمة فى مكانته وأخلاقه .

ولقد كان الحسين مثلا رائعاً من الأمثلة التى يقتدى بها ويحتذى ، وقد توافرت له الأسباب التى تجعله كذلك ، فهو حفيد خير الأنام وهو ابن على الإمام ، وابن فاطمة عاطرة الذكر على مدى الأيام ، وهو الذى نشأ فى الجو الطهور العاطر بأطيب الأنام ، ولذلك كان تقياً نقياً ، يكثر من الصلاة والصوم والصدقة ، ويتذرع بألطف الأساليب لإيصال بره وكرمه إلى من يراهم محتاجين إلى البر والإحسان ، دون أن يعرضهم لشئ من الحرج أو الهوان ، وهو كذلك يتذرع بأرق الوسائل فى تقديم نصيحته وإرشاده ، فقد رأى مع أخيه الحسن رجلا كبيراً فى السن يتوضأ ، ولكنه لا يحسن الوضوء فأراداً أن يرشداه دون أن يحرجاه ، فأقبلا عليه وقالا له : «نحن شابان وأنت شيخ ، وسنحتكم إليك ، فانظر إلى وضوء كل منا ، ثم اذكر حكمك » وتوضأ كل منهما فأحسن الوضوء ، فتنبه الرجل إلى عيبه وتقصيره ، دون أن يحس فى قليل أو كثير بأن الشابين قد أرادا تظاهرا بعملهما أو تفاخرا بفهمهما ، وصدق العلى الكبير : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » .

وأعطانا الحسين رضى الله عنه دروساً بليغة فى الإيمان بالله ، والرجوع إليه والاعتماد عليه ، والثقة فيه ، ولقد كان يستطيع أن يحيا حياة المترفين الأغنياء ، وأن يعيش عيشة الطاعمين الكاسين ، ويترك حياة الجهاد والتعب والمشقة لسواه ، وكان هناك من الحاكمين والظالمين والغانمين من يحرص على أن يشغل الحسين بمتاع الحياة ، وأن يغمره بملذاتها وشهواتها ، ولكنه أبى واستعصم ، وآثر أن يحيا حياة المؤمنين الأتقياء الأوفياء ، ولذلك كان يردد كثيراً قوله :

اغن عن المخلوق بالخالق — تغن عن الكاذب والصادق
واسترزق الرحمن من فضله — فليس غير الله من رازق
من ظن أن الناس يغنونه — فليس بالرحمن بالـــواثق

ولعل أسطع موقف خالد يدل على إيمان الحسين ويقينه وإيثاره ما عند الله على ما عند الناس ، هو موقف خروجه المشهور المشهود لمقاومة دولة الباطل ، وإقامة دولة الحق ، فقد رأى أن الخلافة الراشدة قد صارت عند بعض الناس حكماً عضوضاً وأن البهتان قد استطال حتى حجب أضواء الإيمان ، فخرج والمسلمون هنا وهناك يؤمنون بوجوب خروجه ، ويتمنون نجاحه فى مسعاه ، وإن كانوا فى الظاهر يخافون ظلم الطغاة وعسف البغاة ، حتى قال الفرزدق : «قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بنى أمية ، ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء » . ومضى فى طريقه لا يريد بمسعاه المحفوف بكل الأخطار أن يكون مغامرة من مغامرات الطامحين إلى المكاسب الدنيوية أو السياسية ، أو مغنما يتاجر به ليكسب من متاع الحياة وزخرف العيش ، بل خرج ليضرب المثل الأعلى فى التضحية والثبات على الحق ومقاومة ما يعتقد أنه منكر والاستشهاد فى سبيل ذلك ، تاركاً من ورائه سيرة فيها عبرة باهرة لـــكل

أصحاب المبادئ والعقائد والدعوات ، وإن الروح الطاهرة التى جاد بها الحسين شهيداً يوم عاشوراء سنة إحدى وستين فى بلاء قد كتبت له الخلود المجيد عند الله ، وكتبت لدعوة الحق نصراً تقبل به الأيام حيناً بعد حين ، وأقر بذلك كثيرون ومنهم غير مسلمين ، كذلك المستشرق الألمانى الذى قال : « إن حركة الحسين فى خروجه على يزيد إنما كانت عزمة قلب كبير عز عليه الإذعان ، وعز عليه النصر العاجل ، فخرج بأهله وذويه ذلك الخروج الذى يبلغ به النصر الآجل بعد موته ، ويحيى به قضية مخذولة ، ليس لها بغير ذلك حيـــاة ».

ومن طرائف حياة الحسين أنه كان حاذقاً للغة العربية ، عليماً بأسرارها ، مقتدراً على فهم غرائبها ، وكان الناس يقصدونه ليسألوه عما يصعب عليهم فهمه من كلمات اللغة وتراكيبها ، وهذا يذكرنا بما يجب علينا نحو هذه اللغة الكريمة العظيمة ، إذ يجب علينا أن نتعبد لله بخدمتها وصيانتها وتفهمها ، لأنها لغة القرآن ، ولغة الإسلام ، ولغة محمد عليه الصلاة والسلام ، وليت كلا منا يفرض على نفسه أن يطالع كل يوم أى قدر من شئ مكتوب بهذه اللغة المقدسة ، وليت هذا القدر يكون فى مرجع يذكره بدينه وإيمانه وأخلاقه ، وليت الحظ الأوفر يتحقق لهذا المطالع فيجعل مطالعته فى خير بيان وأفضل إمام للغة العرب وهو القرآن .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : اليوم هو الخامس من شعبان ، وفى هذا اليوم ولد الحسين ، وميلاده فى شعبان ينبغى أن يكون ذكرى من ذكريات هذا الشهر العظيم ، والذكريات إنما تجدى بالتأثر والاهتداء ، « فذكر إن نفعت الذكرى سيذكر من يخشى » فلنذكر فى يوم ميلاد الحسين ما كان عيه فى دينه وعبادته ، وكرمه وشجاعته ، وثباته وتضحيته ، ولنعتبر بما نتذكر والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

ملامح القـــوة فى الاسراء والمعراج[1]

الحمد لله عز وجل ، يحب معالى الأمور ويكره سفسافها ، « إن الله لقوى عزيز » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يوسع فضله للمؤمنين الأتقياء ، ويؤيد بعزته المناضلين الأوفياء : « إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، هو بالمؤمنين رءوف رحيم ، وللكافرين مقاوم خصيم ، فصلوات الله عليه وسلامه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

نحن نتطلع الآن إلى نفحات ذكرى الإسراء والمعراج ، وهى ذكرى تضم الكثير من العبر والعظات ، واللائق بالمعتبرين أن يأخذوا من هذا الكثير الغزير ما يناسب ظروف حاضرهم ، وما يحتاجون إليه فى إصلاح أمرهم ، ونحن الآن فى مرحلة من الزمن تتطلب منا أن نكون أقوياء فى كل جانب من جوانب حياتنا ، أقوياء فى إيماننا ، أقوياء فى بنياننا ، أقوياء فى أوطاننا ، أقوياء فى عتادنا وجهادنا ، أقوياء فى أخلاقنا وأرواحنا ، حتى نحقق فى أنفسنا قول خالقنا جل جلاله : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » . وللقوة فى حادث الإسراء والمعراج ملامح ماجدة متعددة ، تتوجها قوة الله العلى الكبير ، رب العزة والجبروت ، وصاحب الملك والملكوت ، الذى مجد نفسه ، وعظم شأنه ، وقدس ذاته ، وأظهر قدرته على ما لا يستطيعه غيره ، فقال مصوراً جلال سطانه ، وعظيم فضله على إمام رسله فى معجزة الإسراء : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٢٥ رجب سنة ١٣٨٨ هـ الموافق ١٨ أكتوبر سنة ١٩٦٨ م .

إلى المسجد الأقصى الذى باركنا من حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » ، ثم عاد فزكى رسوله صاحب المعراج عليه الصلاة والسلام بالقوة الربانية والعصمة الإلهية التى تجعله يعلو إذا هوت النجوم ، ويهدى حين تضل العقول والقلوب فقال : « والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى » .

وهذا صفوة الخلق محمد تحيط به وهو يسرى إلى ربه مظاهر القوة المادية والمعنوية ، الحسية والنفسية ، القلبية والروحية ، ليكون المثل الأعلى لأمته التى يطالبها ربها بأن تتحلى بكل ما يزينها من قوة ، وأن تعد كل ما تستطيع من قوة ، وأن تأخذ كل ما أتاها ربها بقوة ، وأن تصون عزتها وكرامتها بالقوة : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » . هذا رسول الله فى ليلة الإسراء والمعراج يتدرع بقوة القلب ونقاء الصدر ، فيأتيه جبريل ليطهر أحناء قلبه بأمر ربه ، ويملأه إيماناً وحكمة ، ونوراً ورحمة كما حدثنا نبأ الشق للصدر الكريم من النبى العظيم عليه الصلاة والتسليم ، ثم انتظم موكب الرحلة ، فى جلاله وجماله ، فجبريل يقوم مقام الرفيق ، وميكائيل يمسك بالزمام ليقود ، وجبريل وميكائيل علمان من أعلام الملائكة ، والملائكة فيهم غلاظ شداد ، وهم أيضاً عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ووسيلة الركوب والانتقال هنا ترمز إلى الخفة والسرعة والاقتدار على قطع المسافات فى أقل الأوقات ، وهذه الوسيلة هى « البراق » والبراق يذكر بالبرق الخاطف السريع المضىء ولذلك قالت السيرة إن البراق لونه أبيض ، فى فخذيه جناحان يحفز بهما رجليه ، ويخطو الخطوة فإذا حافره فيها يقع عند نهاية بصره ، فكأن سرعته أكثر من سرعة انتشار الضوء ، وما هى إلا لحظات حتى حل سيد الخلق ضيفاً كريماً على بيت المقدس والمسجد

الأقصى ، ليتسلم مواريث النبوات وألوية الرسالات ، بحكم أنه الرسول الخاتم ، وأنه لا نبي بعده ، وهناك تجلى عليه ربه بغرة القيادة وقوة الزعامة ، فجمع له كيفما شاء جموع الأنبياء والمرسلين ، ليبايعوه ويقدموه فيكون لهم إماماً فى صلاة ردد ذكراها لسان الزمان كأنها ترنيمة الوحدة فى هذه الحياة ، « وربك يخلق ما يشاء ويختار » .

ثم بدأت الرحلة لارتياد الفضاء وزيارة السماء ، والصعود إلى أوج العلا والسناء ، بدأت رحلة المعراج فكانت أول إشارة فى تاريخ البشرية تعلم أمة نبي العلم والرفعة « محمد » أن تستجيب لهدى ربها حين يحثها ويدفعها إلى دراسة السماء مع الأرض ، فيقول : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » ، وتدثرت روح محمد عليه الصلاة والسلام بما تدثرت به من سمو ، وتدرعت ذاته بما تدرعت به من حصانة ، وركب المعراج بقوة منهيأ له ربه الانعتاق من كثافة الحس البشرى الأرضى ، والانطلاق إلى آفاق الملكوت الأعلى الربانى وأخذ يعلو ويعلو ، وظل يسمو ثم يسمو ، حتى جاوز مراتب الأنبياء كلهم فى السماء ، وبلغ ما لم يبلغه سواه ، وهو فى حال من الثبات العظيم والأدب الكريم ، فالعقل مكين مجيد ، والحس وقور وطيد ، والبصر مستقيم رشيد : « إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى » . ولقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يتنقل فى رحلة الإسراء والمعراج يرى جموعاً من الملائكة وراء جموع ، وتحدث عن كثرتهم الهائلة ، ثم استشهد على ذلك بقول ربه : « وما يعلم جنود ربك إلا هو » وكلمة « الجنود » هنا تذكر بالجيش ، والجيش مظهر للقوة ، فكأن معانى القوة كانت تحيط برسول الله صلى الله عليه وسلم عن يمين وشمال .

وعاد صلوات الله وسلامه عليه إلى مكة مغموراً بفضل الله ، مؤزراً بعناية مولاه ، محفوفاً بحراسته وقوته وهداه ، عاد إلى مكة ، وأصبح كما تروى

السيرة ، وهو فى غاية الثبات والسكينة والوقار ، بعد أن شاهد فى تلك الليلة من المشاهد والآيات ما لو رآه غيره لطاش منه العقل وتزلزل الفؤاد ، ولكنه النبى الفتى القوى العلى ، الذى كان من أمر ربه على يقين ، فلا تخيفه معارضة المعارضين ، ولا يزلزله شك المرتابين ، ولقد تعلقت بثوبه بنت عمه أم هانئ مشفقة من مواجهته المشركين بحادث الإسراء والمعراج ، وقالت له راجية : يانبى الله ، لابد تحدث الناس بهذا الحديث لئلا يكذبوك ويؤذوك ، فيقسم لها بالله مؤكداً أنه لابد أن يحدثهم به ، لأنه الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ ومضى فأعلن النبأ وقص الخبر ، لا يبالى لومة لائم ، ولا سخرية كافر ، وصارت معجزة الإسراء تكريماً لرسول الله أى تكريم ، وتمحيصاً للمؤمنين أى تمحيص ، وتمييزاً بين من يصلح للجهاد والهجرة فى سبيل الدعوة ومن لا يصلح ، وكثر المكذبون ، وقل الموقنون ، ولكن القلة المؤمنة تزايدت مع الأيام ، وتضاءلت الكثرة الكافرة حتى أصبحت كالهباء ، وأبى ربك العلى الكبير إلا أن ينصر عبده ، ويعز جنده ويهزم الأحزاب وحده ، وجاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً ، وهكذا كانت ملامح القوة تحيط برحلة الإسراء والمعراج من كل جانب ، لتكون تصديقاً لقول الحق : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

لا ينبغى الاقتصار فى ذكرى الإسراء والمعراج على الانبهار بجلال المعجزة وروعة الخوارق ، بل ينبغى مع ذلك أن نستلهم فى هذه الذكرى كل معانى القوة لنحققها فى حياتنا فنلقى بها عدونا غداً ، فنكون من المفلحين : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شئ فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

دورس من الحــديبية(١)

الحمد لله تبارك وتعالى ، يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا الألباب » أحمده سبحانه، وأشهد أن لا إله إلا الله ، زان الأخيار من عباده بفطنة العقول وحياة القلوب ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور « ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جاهد بهمة وساس بحكمة فصلوات الله وسلامه عليه وعلى ذريته وأهل صحبته ، وأتباعه وأنصار دعوته ، « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

نحن كأنه مسلمة ينبغى لنا دائماً أن نأخذ من تاريخنا الإسلامى العظيم ، وسيرة رسولنا الكريم ، القدوة أو العبرة التى تهدينا الطريق أمام الأحــداث التى تمر علينا ، والوقائع التى تنزل بنا ، ونحن الآن نمر بمرحلة شديدة الحساسية عميقة التأثير ، لا نرفض فيها السلام الحقيقى العادل ، بل نحرص عليه إذا توافرت الكرامة بين يديه ، ولكننا فى الوقت نفسه يجب علينا أن نأبى الاستسلام ونرفض الهوان ، ولعلنا نجد العظة والعبرة والرائد لنا خلال غزوة الحديبية التى وقعت فى شهر ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة ، فقد خرج الرسول إلى عمرة الحديبية لا يريد قتالا ، بل يريد ممارسة حق يجب أن يكون مكفولا للمسلمين ، وهو زيارة بيت الله الحرام : الكعبة المشرفة ، والطواف حوله لله وباسم الله ، ولكن الشرك الباغى أبى ذلك الحق على المسلمين ، فماذا كان ؟ ارتفع النبى بالمسلمين إلى أعلى مستوى للتضحية والإقدام ،

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٢٢ من شوال سنة ١٣٩٣ هـ الموافق ١٦ نوفمبر سنة ١٩٧٣ م .

فعاهدهم على الثبات فى الميدان حتى الموت أو النصر ، وبايعهم بيعة الرضوان والإيمان ، بيعة الوفاء والفداء ، وقال فيما قال : « والله لا أزال أجاهد على هذا الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله ، أو تنفرد هذه السالفة » أى تنفصل رقبتى عن جسمى ، كناية عن الموت ، وهنا أحس الأعداء بالخطر الجسيم من هذا التصميم .

وتأتى عمرة الحديبية بعد أن مر المسلمون بأقسى تجربة ، وهى غزوة الأحزاب حيث تمالأت قبائل الشرك واليهود على سحق المسلمين بتطويق المدينة من كل جانب ، وثبت المسلمون ثبات الجبال ، واحتملوا احتمال الأبطال ، وجاء عون الله ففك الحصار ودفع الأخطار ، وقال الرسول عندها لأصحابه ، « لن يغزونا القوم بعد ذلك ، نحن نغزوهم باذن الله » . وخرج المسلمون إلى الحديبية وقد أحسنوا الجمع بين الرغبة فى السلام والحرص على استرداد الحق ، فقد خرجوا يريدون استرداد حق مسلوب هو دخول مكة وطوافهم بالكوفة وقد خرجوا فى الوقت نفسه يريد ون السلام ، فخرجوا محرمين ناوين عبادة العمرة ، مرددين كلمات التلبية وفيها معنى الاتجاه إلى الله : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » . ولم يحملوا معهم إلا أقل السلاح الشخصى الذى يراد به الدفاع عن النفس عند الحاجة وهو السيوف فى الأغماد .

وبتوجيه من الله السلام قبل النبى فى عهد الحديبية شروطاً لم يرتفع إلى تعمق فهمها بعض الناس ، ولكن الرسول وافق عليها ببعد نظره ودقة فكره وتطلعه إلى غده مع تقدير حاضره ، وكان هناك أمر الله وتوجيهه وتصريفه لرسوله : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى » . وكانت شروط العهد تنص على أربعة أمور ، أولها وقف القتال لمدة عشر سنوات ، وثانيها حرية القبائل الأخرى فى الانضمام إلى حلف المسلمين أو حلف المشركين ،

وثالثها أن من خرج من مكة إلى المسلمين أعادوه ، ومن ارتد وفر إلى المشركين لم يعيدوه ، وأن يعود النبي هذا العام ويأتى للعمرة فى العام المقبل .

هكذا كانت الشروط ، وكانت قاسية فى ظاهرها ، ولكنها بفضل الله وتوجيهه أدت إلى الخير الكثير والفتح المبين فوقف القتال حينئذ كان فرصة ذهبية لنشر الإسلام وتبليغ الدعوة هنا وهناك وعقد روابط مودة وتعاون بين المسلمين وغيرهم ، وحرية التنقل أمام المسلمين فى أرجاء الجزيرة ، ولقد دخل فى الإسلام خلال عامين عقب عهد الحديبية عدد يبلغ عدد جميع من دخلوا فى الإسلام خلال خمس عشرة سنة ، أى منذ بدء الدعوة حتى عهد الحديبية وتفتحت الأبواب المغلقة أمام الناس ليدرسوا الإسلام ويفهموه فيدخلوا فيه على هدى وبصيرة ، وحسبنا أن نتذكر أن الرسول خرج إلى الحديبية ومعه ألف وأربعمائة فقط ، وبعد عامين اثنين فقط خرج إلى فتح مكة ومعه عشرة آلاف .

وأما الشرط الذى أباح لكل من أراد الانضمام إلى محالفة أحد الفريقين ، فقد أعقب خيراً وبركة ، لأن كثيرين انضموا إلى المحالفة مع المسلمين ، وكان هذا الشرط سبباً كما نعرف فى فتح مكة ، لأن قبيلة خزاعة انضمت إلى حلف المسلمين ، فاعتدى عليها المشركون ، فكان هذا الاعتداء مسوغاً للتأديب والانتقام ، فجاء فتح مكة ، وتحقق به النصر العظيم : « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً » . وأما الشرط الذى ينص على أن من خرج من مكة إلى المسلمين يجب رده ، ومن يرتد من المسلمين ويخرج إلى المشركين فإنه لا يجب رده ، فقد كان سبباً فى بدء حركات الفداء والوفاء فى صدر الإسلام ، وكان أول من أقبل مسلماً هو أبو جندل بن سهيل بن عمرو ، ولما رده الرسول اشتد الأمر عليه وقال صارخاً : يا معشر المسلمين ، أرد إلى المشركين يفتوننى

فى دينى » ؟ . فقال له الرسول موجهاً : « يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً » . وكانت هـذه العبارة إشارة بليغة فى التوجيه إلى المقاومة الفدائية التى ضاق بها المشركون أنفسهم ، وطلبوا بأنفسهم التنازل عن إعادة هؤلاء الذى نظموا فرقاً للمقاومة التى قطعت على المشركين الطريق ، وأما من ارتد عن الإسلام وهرب إلى المشركين ، فلم يبق فيه خير للاسلام ولا للمسلمين ، فماذا يعنيهم حتى يطالبوا برده إليهم . والله يقول : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين» . ولذلك قال الرسول : من ذهب إليهم كافراً مرتداً ، فلا ردّه الله ، وقد وقى الله المسلمين خبثه ! .

وأما الشرط الرابع وهو تأجيل العمرة إلى السنة القادمة ، فقد أعقب خيراً كذلك ، لأن العمرة تمت بعد ذلك على سمع الدنيا وبصرها ، وأخلى المشركون مكة للمسلمين ، فدخلوها وقضوا فيه ثلاثة أيام ، وملأُوا من شاهدها عيونهم . وأعدوا أنفسهم لزيارة آتية يعلم الله ميقاتها وثمرتها ، وهى ذلك الفتح العظيم : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً . . . » . ولذلك نرى كثيراً من الأئمة يعدون الحديبية نصراً كبيراً ، لأنها كانت مفتاحاً لهذا الفتح العظيم . ولذلك يقول البراء بن عازب : « تعدون الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعد الفتح يوم الحديبية » .

وهكذا استطاعت كتيبة الإيمان بقيادة نبى الرحمن أن تحسن معالجة الأمور وتصريف الأوضاع ، لتنتزع الفتح من خلال الظلمات ، وأن تكسب النصر وسط الأهوال والأزمات والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

ماذا نستفيد من هذا الدرس ؟ . نستفيد أنه يجب علينا أن نصمم على النصر أولا وأن نكون يقظين حذرين ثانياً : « خذوا حذركم » « والذين كفروا . . . وأن نواصل الإعداد بلا انقطاع « وأعدوا . . .

يوم الانتخـاب[1]

الحمد لله ، هو رب المشارق والمغارب ، والعليم بكل حاضر وغائب ، والمحيط بكل مقبل وذاهب ، « ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم ، وأن الله علام الغيوب » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، تحب معالى الأمور ، وتلعن كل خائن وغدور ، ومن يكن الشيطان له ولياً فبئس القرين ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، أخر القرابة وقدم الدين ، وأخلص وجهه لله رب العالمين ، وحكم ميزان الإسلام فى سائر الموازين ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى الصفوة المختارة من آله وذريته ، والخلاصة الطاهرة من صحبه وشيعته ، والعصبة المؤمنة من جنده وكتيبته ، أولئك الذين ثبتوا وصبروا ، فعزوا وظفروا ، وكان حقاً علينا نصر المؤمنين . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن هذا اللسان الإسلامى الذى ينبعث صوته من منبر الجمعة فى المسجد الكريم كل أسبوع ، لا يتبع حزباً ولا هيئة ولا طائفة ، ولا يستهدى فى إرسال نبراته برغبة عظيم أو رهبة غليظ ، فإنه بفضل الله وعزته أعلى من ذلك وأكبر ، ولكنه يعرف رباً ورسولا ، وقرآناً وإسلاماً ، فيحذر من الفانية ويذكر بالباقية ، ويدعو بدعوة السماء ، ويبصر بقواعدها الشماء : « ربنا آمنا بما أنزلت ، واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » . وهو لذلك يرى من ألزم واجباته أن يصدع بكلمة الحق فى مواطن الفصل ، لينذر ويعذر ؛ « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ، وما كانت رسالة الواعظ فى الحياة ندباً للأموات أو تكريراً للآيات أو اجتراراً للذكريات ، وإنما رسالته غوص

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ١٠ ربيع الأول سنة ١٣٦٩ هـ الموافق ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٤٩ م .

إلى الأعماق ، وتقويم للأخلاق ، ومهاجمة للمحدثات ، وحكم فى المشكلات ، ونصر لدعوة الله دون خوف من سواه : « حسبي الله ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم » .

ويوم الانتخاب يا أبناء الإسلام هو يوم القرار ، ولحظة الفرار من إسار البشرية إلى رحاب الربانية ، وموقف الفصل لتصحيح الأوضاع وشفاء الأوجاع ، وتقويم الأخلاق ومقاومة الضلال ، ونفى الخبيث الدون ونصرة الطيب الكريم ، وكأنما تساق لحظة الانتخاب إلى الأمة من حين لحين ، ولتهجر غفوتها ، وتسترد أمانتها ، ثم تقول كلمتها ، فتختار بها رعاتها وقادتها ، فإن ألهمها ربها فى ذلك صوابها ، وجنبها زللها وعابها ، داست بأقدامها المستغلين المفسدين ، ورفعت فوق هامها المصلحين المخلصين ! . . ولكن معركة الانتخاب فى بلادنا الحزينة المسكينة ، لا تقودها أعنة المبادئ أو أنوار العقائد ، أو قانون البقاء للصالح والخسران للطالح ، بل تتحكم فيها مع الأسف المؤلم المحض الحزبية الطاغية أو العصبية الباغية ، أو الوعود الكاذبة أو الأغراض العاجلة ، أو الرشوة المدمرة أو الرهبة الفاجرة ، أو غير ذلك مما يعف عن تفصيل مخازيه ومآسيه لسان الغيور ، وتضيق بكتمانه الصدور . . . وما على المسلم أمام هذه الزلازل والظلمات إلا أن يستمسك بدينه ، ولو تعرض لبعض الصعاب ، وأن ينصر ربه ، ولو ذاق فى سبيله طعم العذاب ، وإن من أفضل الجهاد فى سبيل الله أن ينتهز كل مسلم هذه الفرصة التى تمهد لاختيار الولاة والرعاة ، فلا يناصر أو يؤيد إلا من يعمل لإعلاء كلمة الإسلام ، ويعتز بشرعة القرآن ، ويهتدى بهدى الرسول ، ويتمسك بمكارم الأخلاق ، ولا يؤيد إلا من يعزم عزماً يؤيده حاضره وماضيه على أن يجاهد وثنية أبى لهب وعسف زياد ، وطغيان الحجاج وتأله فرعون ، وأن يسترجع شفقة أبى بكر وعدالة عمر ، وإحسان عثمان وجرأة على ، وإقدام خالد وجهاد صلاح الدين ، أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون .

ستقولون – وما أكثر المعاذير – : لقد عمت البلوى فصار كل بلا دين ، وما أمامنا أحد يتمثل فيه ما تذكر من صور الكمال والجلال ، التى كانت لأسلافنا الأبطال ، وما نرى متقدماً إلينا إلا وفيه مغمز من هنا أو هناك ، ثقيل أو خفيف ! . . فنقول : افرضوا هذا حقاً ، مع أن الخير لا ينعدم وإن قل ، فلنتبع الوسيلة التالية لذلك ، وهو أن نفاضل بين هؤلاء ، وفى الشر خيار كما يقولون فنقدم الأقرب منهم إلى روح الإسلام ، والأدنى منهم إلى هدى الرسول عليه الصلاة والسلام : وبذلك يدرك القاصى والدانى أن الميزان هو ميزان القرآن ، وأن المقياس هو دعوة الرحمن ، وبذلك يعلم السفهاء من الجبارين والمتغطرسون من الباغين أن الأمة قد استردت وعيها ، وعرفت سبيلها وهديها ، وأن الذين كانوا يسوقونها سوق العبيد ، ويشترون ضمائرها وأصواتها شراء الرخيص من المتاع ، ويرغمونها على أهوائهم إرغام الدواب، يجب أن تقصف بكبريائهم سواعد التطهير وقواعد المساواة والقسطاس ! . .

حذار يا أتباع محمد عليه السلام ، ويا أكرم أمة فى الوجود ، ويا سلالة أفضل الجدود ، ويا جنود أحق رب معبود ، حذار أن تكونوا غنماً أو تبعاً أو سلعاً أو لعباً فى يد الهوى والتعصب ، وما أخرجكم الله من بطون امهاتكم أحراراً إلا لتأنفوا من كل جبروت ، وتكفروا بكل طاغوت ، وتجعلوا حريتكم أمانة فى أيديكم تردونها حينما يطلبها واهبها منكم : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » . . . سيسعى إليكم ثعالب المكر وشياطين الغدر ملوحين لكم بالمال رشوة وإغراء فأجيبوهم : خسئتم ، إن الراشى والمرتشى فى النار ، وما عندكم ينفد وما عند الله باق ، ولله خزائن السموات والأرض ، والله خير الرازقين . . وإن حرضوكم باسم الحزبية الغالبية أو الطائفية المتكاثرة دون أن يكون لهم خلق ولا دين ، وخوفوكم من القلة أو الذلة فأجيبوهم : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ! . . وإن دعوكم

إلى تأييدهم باسم العصبية أو القرابة أو الجوار دون أن يكون لهم شفيع من خلق أو دين أو سعى مشكور ، فاكفروا بعصبيتهم وجوارهم وصداقتهم ، وذكروهم بقول الأول :

أبى الإسلام ، لا أب لى سواه   إذا افتخروا بقيس أو تميم

وقول الآخـــر :

باسم الكنانة واسم شعب ناهض   لا باسم أحزاب ، ولا زعماء
كل يزول وينقضى ، أما الحمى   فوديعة الآباء للأبنـــاء !

فإن خوفكم بالإهانة أو التنكيل ليردوكم عن دينكم وعقيدتكم ، فرددوا فى مسامعهم قولة الحق : واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور . . ما أنت إلا أصبع دميت ، وفى سبيل الله ما لقيت ! . .

ولست أبالى حين أقتل مسلماً   على أى جنب كان فى الله مصرعى

ثم اذكروا جيداً صفحات الماضى القريب والبعيد التى فاضت بالآلام والأحزان . . . اذكروا تاريخ الجبارين القهارين المتسيطرين على أعناق العباد ، الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ، إن ربك لبالمرصاد . . . اذكروا جيداً أولئك الذين استبدوا بأقواتكم ، واستخفوا بكراماتكم ، وعبثوا بحرياتكم ، وروعوا نساءكم وبناتكم ، وشردوا صفوة شبيبتكم ، وهتكوا حرمات بيوتكم ، وأتوا فى نواديكم المنكر ونشروا بينكم الفزع الأكبر ، وتطاولوا على قداسة القرآن وهزئوا بشعائر الرحمن . . . اذكروا الذين مكنوا الأجانب من بلادكم ، وقطعوا عليكم طريق جهادكم ، وأضاعوا مصر والسودان وفلسطين والإسلام ، وما نخص لوناً دون لون ، ولا نعنى شخصاً دون شخص ، ولكنها القاعدة يوحيها

دستور الإسلام ، أن أيدوا من كان للدين نصيراً ، واخذلوا من كان للطغيان ظهيراً ، فمن وافق القاعدة عز وارتفع ، ولو كان عبداً حبشياً ، ومن خرج عليها ذل واتضع ، ولو كان شريفاً قرشياً ، ولله در الإسلام الذي محق الأحساب والأنساب وجعل التقى مقياس السبق إلى رحاب العزيز الوهاب ! . :

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

أقسم بالله الذى لا إله إلا هو إنها الأمانة ، وإن الله سائلكم عنها فمشدد فى السؤال ومدقق فى الحساب ، وقد بلغنا ونصحنا ، وما بنا إليكم من رغبة أو رهبة ، وما لنا عندكم ناقة ولا جمل ، وما تعلقنا فى سوقكم هذه برجاء أو أمل ولكنها النصيحة الخالصة لله وللرسول ولخاصة المسلمين وعامتهم ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، اللهم فاشهد أنه لا عذر لمعتذر ، فإما وقفة الحق والصدق يصفع بها كل جبار ، وتنصر بها كلمة الأبرار ، وإما الخلد وذل الأبد ، فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون :

بين القمـة والحضيض[1]

لله الحمد ، هو أعدل العادلين ، وأحكم الحاكمين ، وهو قاصم الظالمين ونصير المظلومين ، وهو عدو المسرفين وولى المهضومين ، « ولوترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، تقسم ولا وتفاضل ولا تهضم ، وانك لغنى عن العالمين ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، خير من شكرك ، وأفضل من ذكرك ، فى السراء والضراء ، والنعماء والبأساء ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله أئمة الهدى واليقين ، وأصحابه خيرة الرشدين ، وأتباعه المعتزين بعزة دينهم بين العالمين ، « وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

لو أنصف الناس استراح القاضى . . . هذه حكمة مسلمة لو عمل بها الناس وخضعوا لها لنجحوا وأفلحوا ، وعزوا وسعدوا ، ولما احتاجوا إلى قانون يؤدب ، أو عقاب يرهب ، ولكن كيف ينصف الناس والظلم من شيم النفوس ، وكيف نتوقع منهم عدلا ، وقد سولت لهم أهواؤهم وأولياؤهم من شياطين الإنس والجن ، بأن لا يفترقوا افتراقاً مقبولا ، أو يتفاوتوا فى حظوظ الحياة تفاوتاً معقولا ، بل لابد من البون الشاسع والبعد الواسع بين هؤلاء وهؤلاء ، فكل منهم يتمنى ويعمل جاهداً ليحقق ما يرجوه ويتمناه ، وهو أن يكون وحده العزيز الغنى الممتلئ المحظوظ ، وليكن نصيب من خلفه

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٧ جمادى الأولى سنة ١٣٦٩ هـ الموافق ٢٤ فبراير سنة ١٩٥٠ م .

الحرمان أو الطوفان ؛ وكيف يتحقق بين الناس إنصاف أو شبه إنصاف وهم قد بدلوا خلق الله وحرفوا كلمه وحاربوا نظمه وأهملوا شرعه ، فصار منهم قلة قليلة ترتفع وترتفع ، وتجمع وتتمتع ، وتمتلئ وتضخم ، حتى بلغت عنان السماء ، فهى تتبختر فى مطارف النعيم ، وهى تمشى على أفواه السعادة وهى تتقلب فى بحار الهناء فلا شقاء ولا تصور للشقاء ولا تخوف من الشقاء ، ثم هناك بعد هذا أغلبية مفزعة ، أبى لها الوضع المختل ، والنظام الشاذ إلا أن تهوى وتهوى ، حتى تصل أعمق أعماق الحضيض ، فهى تمشى ولكن فى أوحال أو رمال ، وهى تتقلب ولكن على جمرات الحرمان ونيران الشقاء . وهى لهذا لا تعرف نعيم من ارتفع ، ولا تطمع فيه ، وبين أهل الحضيض المعدمين وأهل الرفعة المترفين ، يوجد صنف ثالث استبدت به الحيرة ، واستولى عليه الاضطراب والزلزال ، فهو بين الفريقين يحاول جاهداً أن يبلغ ما بلغ أهل الترف والنعيم ، ولكن جاذبية الحضيض تشده إلى أسفل ، وبذلك يعانى من زلزلة وبلبلة ، فلا هو ارتفع فاستراح وتمتع ، ولا هو نزل إلى حضيض غيره فقط ويئس ، لأن اليأس عند كمال الحرمان إحدى الراحتين كما يقولون ! . . .

سيعجب بهذا الأسلوب من الكلام قوم استبد بهم الفقر فطمعوا أن يكونوا أغنياء ، وسيعجب به أيضاً قوم لا يزالون فى طريق الصعود ، وهم يبغون الوصول إلى عنان السماء ، ولكنه سيؤلم بلا شك أولئك الهائمين فى رياض نعيمهم وآفاق لذائذهم ، وسيقولون : أليست تلك مشيئة الله وإرادته وهو الذى فضل بعض الناس على بعض ، وجعلهم درجات ومنازل ، ورفع قوماً بالغنى كما وضع آخرين بالفقر ؟ . . . والواقع أن تلك عبارات حق يراد بها باطل ، فالله قد قسم حقيقة للناس معايشهم ، ولكن بطرق سليمة قويمة ، لا بطرق السلب والنهب والسرقة والاغتصاب ؛ وفضل بعضهم على بعض

فى الرزق ، ولكن بأسلوب البغى والعدوان ، وجعلهم درجات ومنازل ، ولكن ليبلوهم فيما آتاهم وليستبقوا الخيرات لأن مردهم جميعاً إليه ، فمن أحسن التصرف فيما سيق إليه فقد فاز فوزاً عظيماً ، ومن أساء فقد خسر خسراناً مبيناً : « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » . . والله قد أغنى وأفقر ، ولكن ليستقر بذلك التفاوت المعقول المقصود نظام الكون ، وليصبر الفقير عاملا مجتهداً ، وليشكر الغنى متواضعاً متبرعاً ، ومن هنا يتآلف الغنى والفقير فلا عداء ولا شحناء ، بل تعاون وصفاء ، « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . ولذلك جعلت الحياة ميدان اختبار وابتلاء ، يقول القائل : هذا رزقى ومالى ، فيقال له : وأين زكاته ، وحق السائل والمحروم فيه ؟ . ويقول ثان : وهذا يخصنى فلا دخل لغيرى فيه ، فيقال له : ومن أين لك هذا ، وبأى طريق مشروع حصلت عليه ؟ . ويقول ثالث : وهذا أوتيته على علم عندى ؛ فيقال له : وأين حق المجتمع عليك ، وأين شكران الذى تفضل بسوق النعم إليك ؟ وهكذا . وهكذا وبدون هذه الحواجز الملطفة للتفاوت المقربة للطبقات لا يمكن أن يسلم المجتمع من بذور الفتن وقرون المحن وخبيث النزعات ! ! . .

هذا نبأ صغير تنشره الصحف فى عجلة وإهمال ، ولكنه نذير أى نذير ، يرينا كيف يتجسم الإجرام والفساد حينما تترك أمور الناس فى لذاتهم وأغراضهم للهوى المستبد والحرية المطلقة . . . فقد اشتعلت النار فى مزرعة أحد الفلاحين ، وسارع الفلاح إلى « تليفون » عام ليطلب من رجال المطافئ الإسراع لإخماد النار ، وكان « التليفون » حينئذ مشغولا بحديث سيدة مترفة لعلها كانت تسلى نفسها أو ترضى نزواتها بمحادثة عاطفية أو ثرثرة فارغة ، فتوسل إليها الفلاح المسكين أن تقطع محادثتها حتى يتسنى له مخاطبة المطافئ على عجل ، فرفضت السيدة لأن هذا من حقها ، وظلت تتكلم حتى أنهت

محادثتها حسب رغبتها وهواها ، وكانت النتيجة أن تأخر إخطار المطافىء ، فلما جاء رجال الإنقاذ وجدوا كل ما كان فى المزرعة قد سوى بالأرض ، بعد أن صار إلى رماد ! . .

هكذا يتبجح الأحمق الأرعن فى استعمال حقه ، وإطلاق حريته إطلاقاً يجعله لا يحسب حساباً لسواه ، ولا يقيم اعتبارا لأهل دنياه ، مع أن الأثر الحكيم يقول : « ما استحق الحياة من عاش لنفسه فقط » . وكم فينا أيها الناس من أصنام متحجرة تشبه تلك السيدة الرعناء ، فيفضلون أن يشبعوا وهم أفراد ، ولو كان شبعهم سبباً فى جوع الملايين أو موتهم ، ويعملون لتعمير بيت من بيوتهم ولو خرب فى سبيل ذلك آلاف البيوت ، ويجمعون ما استطاعوا جمعه من حل ومن حرمة ، وبطرق غير مشروعة فى أغلب الأحيان ، إن لم تكن فى جميع الأحيان . ثم تتصلب أيديهم الآثمة على ما جمعوا — وما أكثره — ولا ينفقون إلا حيث يأمر الشيطان ، فهو لهم ولى وسلطان ! . . .

وهذا مثل آخر . . . استدان أحد العابثين بحقوق البشر — وما أكثرهم — ديناً من شخص متوسط الحال ، ومرت مدة الدين ، ، ولاحت على المدين مظاهر النعمة والثراء ، فأخذ الدائن يطالبه بحقه ، فراوغ الغنى المترف فى رد ما عليه من دين ، فأراد الدائن الفقير المحتاج أن يؤثر فى قلب هـذا الحيوان المنسوب إلى بنى الإنسان ، فأرسل إليه صورة ابنته المريضة ، وكتب للمدين تحتها هذه العبارة : « تلك يا سيدى هى ابنتى ، وهى سبب حاجتى إلى النقود»! فرد عليه المدين الغنى القادر المراوغ رداً عبث وإجرام ، إذ بعث إليه بصورة خليلته التى يحبها وكتب تحتها هذه العبارة : « وتلك خليلتى الجميلة وهى سبب تأخرى عن دفع المال » ! ! . .

وهكذا أيها الناس ، يوجد من يمتص دماء الشاحبين المهزولين من فقراء البشر ، لا لينفق هذه الحقوق على ضرورة مفاجئة أو أمر لازم أو مصلحة

عامة ، بل لينفقها على موائد الخمر ، أو ليالى النساء ، أو ميادين السباق ، أو وسائل الترف المهلك المبيد ! . . . وكم فينا من أثرياء فحشوا فى الثراء وتطاولوا فى البناء وأسرفوا فى الكبرياء ، ولو حللنا أموالهم وثراءهم إلى الأصول الحقيقية والمنابع الأساسية لوجدنا هذه الأموال تتحول إلى دماء تصرخ وتصيح ، وكل قطرة من قطرات هذه الدماء تنادى مطالبة بالرجوع إلى جسم صاحبها المظلوم ! . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به ، وقد حرم الله الظلم على نفسه فلا أقل من أن نجعله بيننا محرماً ، وإن قليلا يأتى من طريق شريف ومصدر كريم لأنفع وأبقى من كثير جاءت به يد الشيطان ثم استبدت به أهواء الشيطان وثقوا أن مجتمعا يرضى بأن يموت فيه بعضه بداء التخمة ، بينما يموت فيه بعضه من الجوع لا يمكن أن ينهض على أساس ، حتى ولو خيل إلى الجاهلين أنه قائم إلى حين ، فهل يستطيع كل منا أن يخلو بنفسه ليتعرف فى صدق وحق من أين يأتيه ما فى يده ؟ وهل يرضى الله عن طريقة اكتسابه وإنفاقه ؟ .وماذا يكون جوابى لو جئ بى يوم الدين إلى قيوم السموات والأرض ، وديان العالمين أجمعين ، فسألنى عن مالى : من أين اكتسبته وفيم أنفقته ؟ ! . . تلك والله محاسبة لازمة واجبة ، فاللبيب اللبيب من حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره ، والعاقل كل العاقل من تجنب العاصفة الهوجاء قبل هبوبها وما بعد شرعة الإسلام العادلة المنصفة ، المقربة بين هؤلاء وهؤلاء ، من هدى أو رشاد ، فعودوا إن شئتم صلاحاً وإصلاحاً إلى الإسلام ، ففيه الشفاء وفيه الدواء وفيه الغذاء ، وفيه المنقذ من مخوف الزلزال ومرهوب البلاء .

واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم . . .

تدبير الأمور [1]

الحمد لله ، يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، ويوصى بالفطنة والتصرف الحكيم « يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » . « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب » نشهد أن لا إله إلا أنت ، العزة رداؤك ، والحكمة دواؤك ، « وكل شيء عنده بمقدار » . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك فكر ثم صمم ، ودبر ثم أقدم ، وشاور ثم عزم ، « وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » . فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى ذريته الطاهرة المطهرة ، وشيعته القوية الظاهرة ، والواثقين بربهم فى الأولى والآخرة « فأولئك كان سعيهم مشكورا » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

من صفاتنا الغالبة علينا ، وعيوبنا الشائعة فينا ، أننا نرتجل فى تصرفاتنا الفردية والعامة ، نبدأ فى الأمر قبل تدبره ، ونقوم بالعمل قبل تحكيم العقل فيه ، وقد نتحمس لفكرة طارئة عاجلة ، فنقبل على تنفيذها قبل تمحيصها ، أو تقليب وجهات النظر فيها ، أو إحكام الخطة لتطبيقها . . . وبعد حين نصاب بمخلب أو نقع فى معطب ، فنأسف بعد أن يسبق السيف العذل ، ونعض بنان الندم ولات ساعة مندم ، ونقول : لو كان كذا أو لو كان كذا ، «ولو» هذه تفتح باب الشيطان كما يقول الرسول ، والذكى اللبيب من درس واحترس ، ثم عرف هدفه وغايته ، ثم رسم طريقه وخطته ، ثم سار يقدر لرجله قبل الخطو موضعها ، حتى يأمن العثار وينأى عن البوار [2] ،

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٥ جمادى الاولى سنة ١٣٧١ هـ الموافق اول فبراير سنة ١٩٥٢ م .

(٢) لابن هانى :

وما الرأى الا بعد طول تثبت ... ولا الحزم الا بعد طول تلوم

ويقول :

ذو الحزم لا يتدبر الراى فى ... اعقـابه ، ما الراى الا الأول

والمجنون المخبول من يستجيب لنعقة الناعق ، فيسلك طريقاً لا يدرى منتهاه ، أو يتصرف تصرفاً لا يحدد نتيجته ومغزاه ، ومن ثم تراه مطواعاً لا يثبت على رأى ولا يستقر على فكرة ، بل هو كالريشة فى الهواء ، تحركها الريح كيف تشاء ، وهو عرضة للتقلبات ووساوس النفس وتبدل المؤثرات ، ولذلك كان أساس الدين أن تعرفه أولا ثم تؤمن به ، وتعتقد أن الخير فيه بدءاً ونهاية ، ثم تلتزم هذه العقيدة المسلمة فى أعمالك وتصرفاتك ، تحيا عليها وتموت فى سبيلها : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » ، « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ » .

والإسلام الحنيف دين يقوم على التعقل والتبصر ، فالله المتصف بكل جمال وجلال وكمال يصف نفسه بالتدبير فيقول : « يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » ، ويذكر بأن العقل هو أساس التلقى عنه والفهم لآياته : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » ، « ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون » . وهو يجعل عدم الاستماع إلى صوت العقل سبباً إلى الشتات والضعف فيقول : « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » . ويضم الذين لا يعقلون ولا يتدبرون بالرجس والعذاب : « ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » ، « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ، فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » . والرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم يقول بعد ذلك : « لكل شيء دعامة ، ودعامة المؤمن عقله ، فبقدر عقله تكون عبادته » .

وإنك لترى الأحمق الأهوج من ضلالة وخباله يتقحم فى مهالك قد تخدعه ببريقها ، ولكنه بريق اللظى الكاذب ، قد يبعث الضوء أولا ، ولكنه يجلب الموت أخيراً ، وقد يكون فيه بعض النفع لو كان الرائد فى استخدامه هو

الحكمة وحسن التدبير ، ولكن المتهور المندفع يخلط النور بالنار . ويعيث بينهما فساداً ، فيتولد عن ذلك دخان كثيف تضيع معه معالم الطريق ، وتنتج عنه الحسرة والضلال ، حتى يصدق على ذلك الأحمق ما قاله الأوائل : إن الأهوج تتمنى أمه لو ثكلته ، وتتمنى زوجته لو أنها عدمته ، ويتمنى جاره أن يبعد عنه ، ويتمنى جليسه أن يفر منه . . . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . . .

وأما الحاذق الألمعى ، والفطن اللوذعى ، فإنه يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا ، يطيل فى أمره الفكرة حتى تلوح له العبرة ، ويزن الأمور بميزانها الدقيق الصادق ، ثم يقدم بعد ذلك واثقاً بنفسه وربه ، صادقاً فى يقينه وإخلاصه ، فإن بلغ — وكثيراً ما يبلغ إرادته — فبها ونعمت ، وإن حالت الأقدار بينه وبين ما يريد ، بعد هذا التدبير — وقليلا ما يحدث ذلك — فقد أدى واجبه فأحسن الأداء ، ومبلغ نفس عذرها مثل منجح ، وهناك الحكمة الإلهية العليا التى قد تبدو وقد تخفى حين تعلو ، يجب أن يكون لهـا حساب واعتبار ، وقد رسم ابن العميد صورة ذلك الحاذق فقال : العاقل من استنتج من كل أمر خاتمته ، وعلم من كل بدء عاقبته ، وطالع بقلبه من كل غض ما يخفى منه ، ومن كل زرع ما يحصد عنه وصدق رسول الإسلام : « إنما الأعمال بالخواتيم » .

وهذا علم من أعلام الإسلام يترجم عما وهبه الله من دهاء وذكاء ، وفطنة وألمعية ، حتى تستطيع أن يصرف الأمور حسبما تقتضيه المواقف ، وهو معاوية بن أبى سفيان ، فيقول : « إنى لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى ، ولو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت . قيل له : وكيف ذلك ؟ قال : إن جذبوها أرخيتها ، وإن أرخوها شددتها » . فليعتبر بذلك أقوام يسرقون فى حمقهم حتى يجعلوا أنفسهم

وقوداً لفتنة ماحقة ، وليعتبر به أناس يسرفون فى هوانهم حتى يصبحوا عبيداً فى الدنيا وقد خلقهم ربهم أحراراً .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن أمتكم لا تجتمع على ضلالة أبداً ، ما دامت معتزة بعزة ربها ، مهتدية بهدى رسولها ، وليس بين الإحجام المخزى والاندفاع الأهوج ، إلا الثبات الحازم العازم ، إذا وقف فهو الجبال رسوخاً واطمئناناً ، وإذا أقدم فهو قبس من قدر الله قوة وإيماناً ، فثقوا بما وهبكم خالقكم فى نفوسكم ، ثم ارجعوا إلى عقولكم ، ثم تبينوا الثغرات من حوالكم ، ثم آمنوا بفكرتكم وأعمالكم ، ثم خذوا مسلك القصد من سبيلكم ، والله يؤمئذ مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير ، واتقوا الله الذى أنتم به موقنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

اثر الشمس فى الكون[1]

أحمدك يا بارئ النسم ، ومبدع الكون من العدم ، وواهب الأمم جزيل النعم : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، ملأت الكون على الإنسان نعمة وخيراً ، وأوسعته بفضلك تكرمة وبراً ، وأنت الرءوف الرحيم ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، وهبته النفس الكبيرة والعين البصيرة فكان لك ذكوراً شكوراً ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله النجوم النيرة ، وأصحابه العصبة الطاهرة ، وأتباعه الكتيبة الطاهرة ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم الغالبون ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

يقولون : إن كل ممنوع مطلوب ، وكل مألوف غير مرغوب ، وإن النعمة الجميلة العظيمة باتت فى يد الكل فقدت روعتها ، وأصبحت من شيوعها وذيوعها معروفة مألوفة ، لا يلتفت الناس إليها ولا يحتفلون بها ، وهذا جد صحيح ، فما أكثر نسيان الإنسان ، وإنك لتجد مصداق ذلك فى موقف الناس من مظاهر الطبيعة الرائعة الشائعة ، كلون السماء الأزرق مثلا الذى هيأه الخلاق وأبدعه بصورة لا تمل العين من إدامة النظر إليها ، وهناك أيضاً الأسرار والعجائب المستورة والمبتدية فى الماء والهواء والخضرة والضوء ، قل من يعكف عليها دارساً مستنبطاً ، أو معتبراً متدبراً ، ومن هنا ضعفت روح اليقين

(١) لم يذكر استاذنا الدكتور احمد الشرباصى رحمه الله تاريخا لالقاء هذه الخطبة ، والسيد محمد ديب .

والإيمان ، واستأسدت نوازع الغفلة والكفران ، وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ؟ ! .

ومن أمثلة ما ضاع تأثيره فى عامة الناس لأنه شاع ، مع أنه من جليل الآيات ونفيس المتاع ، تلك الشمس الكبرى التى نراها فى الصباح والمساء ، وفى ساعات النهار المتباعدة والمتتابعة ، فقد جنت رؤيتنا المتكررة لها على جلالها وسلطانها ، فأصبحت كالكنز الثمين ألقى فى طريق الناس ، ولكنهم يمرون عليه وهم عنه غافلون . . .

هذه الشمس السامقة العالية هى مصباح الله فى كونه العريض المديد ، جعلها الله سراجاً لعباده ، تبدو فوقهم من مستقرها الرفيع بضخامتها التى لا يتصورها عقل الإنسان ، فتنير المسالك وتبدد الغياهب ، وتجلو ضحوة النهار ، وتفيض على القمر المعتم بالأشعة والأنوار ، فيهدى بفضلها الحائرين ويسدد بمددها خطوات السارين ، وتتبدى بذلك فى السماء والأرض صورة لا تماثل لجلال البديع الخلاق ، مما يفضى بمتأمله إلى الاستقامة والسداد : « والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » . . . ولو ذهبنا نفصل الحديث عن حجم الشمس وعلوها ، وبعد المسافة الهائل بيننا وبينها ، وكيف تنبعث الأشعة عنها ، وكيف تشمل هذه الأشعة الوسيع من البقاع والأصقاع ، لانبهرت العقول وتضاءلت الفحول ! .

والشمس هى مصدر الحرارة الإلهية ، تبزغ من خدرها على العالم الراكد الآسن الرطب البارد ، فتحركه وتثيره وتجففه وتنأى به عن الوصب والعطب ، ولست أدرى ماذا يكون حال الناس عند الشتاء والصقيع وبرودة الجو ،

لو انعدمت الشمس فلم تطلع عليهم من حين لحين ، لتمدهم بجانب من الدفء والحرارة ، تتهيأ به الأحياء لمواصلة السير فى مختلف الأنحاء ؟ . . وليس هذا فحسب ، بل إن الجو الرطب العفن الملوث تتفشى فيه الجراثيم والديدان والحشرات والميكروبات ، وإن استتر ذلك عن العيون والأبصار ، فإذا ما مدت الشمس خيوطها البيضاء كانت كأنها أنامل الطبيب الحازمة ، تطهر لتعمر ، وتبتر لتثمر ، وتقضى على الداء وحملته بلا إبطاء ! . . .

والكثيرون منا يتأففون ويتضجرون ويشكون من حرارة الشمس إذا قست ، مع أنهم يستطيعون التحفظ منها فى أغلب الأحيان بغطاء أو وقاء ، ثم يحسبون هذه القسوة فى الحرارة شراً ، وما ذلك إلا لأنهم يحكمون نفعهم الذاتى ومصلحتهم الشخصية فى أمر عام ، فهذه الحرارة القاسية نفسها هى التى تطهر الأجواء من الفساد ، وهى التى تنضج النبات الخارج من الجماد ، وهى التى تجذب إلى الجو ما يستخلصه عذباً من مياه البحار والمحيطات ليكون مطراً بعد ذلك ، ثم يبقى ما ينفع الناس فى الأرض مما فصلته عن تلك المياه ، وهى التى تؤثر فى نسيم البر والبحر المترتب عليه كثير من المصالح والأمور... والشمس فى الوقت نفسه تؤدب بحرارتها من يصطلى بها ، فتعلمه ضعفه وتقفه على عجزه ، وترمز له إلى هول ما سيلقاه من حر السعير إن كان من الضالين ، وفى كل هذا آيات وعبر ونعم بعضها منشور وأغلبها مستور ، ولعل القرآن الكريم يشير إلى هذا ومثله حين يقول : « وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار » .

والشمس بجريانها ودورانها هى التى تكون بأمر الله تتابع الليل والنهار ، وتوالى الظلمة والإبصار ، فهى تطلع هنا فيكون صباح وإشراق وضاح ، بينما ترحل عن هناك فإذا فيه ظلام وإعتام ، وفى كلتا الحالتين إنعام وإكرام ،

فالنهار معاش ومجال للكدح والاكتساب ، والليل لباس وسكن ورقاد ، ومن هنا كان إيلاج الليل فى النهار وإيلاج النهار فى الليل آية عظمى يمتن الله بها على عباده فيقول : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » .

ودورة الشمس هى العماد فى الحساب وضبط الأوقات ، تلف الأرض حول الشمس أو تلف الشمس حول الأرض لفة ظاهرة كاملة ، فيتم بذلك عام عن حياة الناس ، وتنتقل من فلك إلى فلك ، فتبدأ الفصول أو تنتهى ، وتشرق فيبدأ النهار ، وتغرب فينتهى النهار ويبدأ الليل ، فإذا عادت إلى الإشراق مرة ثانية فقد تم بذلك يوم كامل . . . بل ونحن نحدد بها أعمالا جليلة تتخلل اليوم نفسه كالصلاة مثلا ، فبشروقها ينتهى وقت الصبح ، وبزوالها يدخل وقت الظهر ، وبتصييرها ظل الأشياء مثلها يدخل وقت العصر ، وبغروب قرصها يدخل وقت المغرب ، وبزوال ما يتخلف عنها من شفق يدخل وقت العشاء ، وهكذا . . . وحينئذ فما أبلغ القرآن حين قال : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون » .

ولو شئنا لأطلنا الحديث أيضاً عن أشعة الشمس وخصائصها فى تنمية الأجسام وتقويتها ، وشفائها لكثير من العلل والأمراض ، وبنائها للأبدان الفتية المتسقة ، ثم إيحائها من جهة أخرى بالحرص على العلو فهى فى منتهى السمو والارتفاع وبتحريضها على الصفاء فإننا لا نرى فيها كلفاً ولا دخنا ، بل هى المثل فى الوضاءة والنقاء ، وكيف لا تكون منيرة العالم كله مثلا فى النور والبهاء ؟ ! .

يا أتباع محمد عليه السلام . . :

تلك بعض آيات الله فى الشمس التى لا تحتجب عن دنيانا يوماً من الأيام ، والتى نحس بها على الدوام ، ومنها تعرفون ما لها من جلال وجمال وخطورة شأن ، ولسنا ندعوكم بهذا إلى عبادتها أو تقديسها ، فقد قال القرآن : « ومن آياته الليل والنهار و الشمس و القمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون » . . وإنما ندعوكم إلى أن تخصصوا من أعماركم لحظات أو فترات تولون فيها وجوهكم شطر الطبيعة محراب الله الواسع لتدرسوا آثارها الباقية ومظاهرها الخالدة ، فمن وراء ذلك علم واكتشاف ، واكتساب وارتشاف ، ومن وراء ذلك إيمان ويقين ، ونور مبين ، فسيروا وانظروا ، وفكروا واعتبروا ، إنما يتذكر أولو الألباب ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

العجلة[1]

الحمد لله عز وجل ، يمهل ولا يهمل ، ويحلم ولا يغفل : « وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلماً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، القائم على كل نفس بما كسبت ، المثيب لها بما أحسنت : « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضما » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أخلص لعقيدته ، وثبت على طريقته ، فكان إمام الصابرين وشيخ المجاهدين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الناطقين بالحكمة ، وأصحابه أعلام الأمة ، وأتباعه الشاكرين للنعمة : « للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ، ولنعم دار المتقين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

من عيوب بعضنا الواضحة عيب الاندفاع والعجلة والتسرع ، فبعضنا فى كثير من الأحيان يندفع ذات اليمين أو ذات الشمال بلا تبصر أو تدبر ، وبلا تمهل أو اعتدال ، وقد يمضى وقت قليل ثم يبدو له خاطر أو يعرض أمامه عارض ، فإذا به يندفع إلى اتجاه مناقض أو موقف مقابل ، بلا تبصر أو تدبر ، وبلا تمهل أو اعتدال أيضاً ، ومع أن أسلافنا قد قالوا لنا : « الأناة حصن السلامة والعجلة مفتاح الندامة » وقال قائلهم وهو المهلب بن أبى صفرة : أناة فى عواقبها درك خير من عجلة فى عواقبها فوت . وقال الآخر : إياك والعجلة ، فإنها تكنى أم الندامة ، لأن صاحبها يقول قبل أن يعلم ، ويجيب قبل أن يفهم ، ويعزم قبل أن يفكر ، ويقطع قبل أن يقدر ، ويحمد قبل أن يجرب ، ويذم قبل يخبر ، ولن تصحب هذه الصفة أحداً إلا صحب الندامة

(١) ألقيت بمسجد الرفاعى فى يوم الجمعة ٢٣ شوال سنة ١٣٧٨ هـ الموافق أول مايو سنة ١٩٥٩ م .

وجانب السلامة . نجد أن هذه العجلة بادية فى كثير أعمالنا وتصرفاتنا ، نجدها فى الحكم على الأشياء قبل البحث والتأكد ، وفى سوء الظن دون تثبت ويقين ، وفى الاغترار بالناس قبل الاختبار والتجربة ، وفى طلب الشهوات دون حكمة أو اعتدال ، وفى الغضب والاستجابة لثورة النفس ونزواتها ، وفى أداء الواجب دون إحكام أو إتقان . . . .

وقد نرى كثيرين وهم يؤدون أعمالهم وواجباتهم الفردية أو الجماعية يقومون بها فى صور آلية ، لا يتلبثون ليجيدوا ، ولا يتأنون ليتقنوا ، وكأنهم بداخل اغلال أو أطواق يحاولون فى سرعة وعجلة أن ينطلقوا منها ويبتعدوا عنها ، مع أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول لنا : « إن الله يحب من العبد إذا عمــل عملا أن يتقنه » ، وإذا كان الحق جل جلاله يقول فى قرآنه : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » فإن المرء العاقل يستحى ويخجل أن يقدم بين يديه عملا يراه الله والرسول والمؤمنون وهو غير محكم أومتقن ، وبخاصة أن المرء سيراجع فى عمله وسينبأ به وسيحاسب عليه : « وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

ونحن نراجع حديث القرآن الكريم عن العجلة فنجد تنفيراً منها ونهياً عنها ، فالقرآن يقول : « خلق الإنسان من عجل ، سأريكم آياتى فلا تستعجلون » أى إن الإنسان من تسرعه وقلة تمهله كأنه قد خلق من هذه العجلة ، وقريب من هذا قول القرآن المجيد : « وكان الإنسان عجولا » أى يسارع إلى كل ما يخطر بباله ، لا يبحث فى فائدته ، ولا ينظر إلى عاقبته ، ولقد علم الله جل جلاله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يثبت على خطته ، وأن يدوم على طريقته ، وأن يصبر الصبر الجميل فى أداء واجبه ، وأن يكون صاحب عزم رشيد وطيد حديد فى تبليغ رسالته ، فقال له : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولاتستعجل لهم » . . . وإنما أراد الله من هذا

التعليم والتوجيه أن يصنع نبيه على عينه ، ليكون المثل الأعلى لعباده ، والقدوة الكريمة أمامهم ، فيتعظ بهديه أولئك الذين لا يقر لهم على مبدأ قرار ، ولا يدوم لهم ثبات فى اتجاه ، بل يتأرجحون ويتذبذبون ، وقد يوهمون الناس أنهم يؤدون ألواناً من الأعمال وهم فى الواقع لا يحسبون منها عملا ، وكل همهم من وراء عجلتهم وسرعتهم أن ينالوا شيئاً من المتاع ، أو يجمعوا جانباً من الحطام ، مع أن سنن الله فى كونه تريهم أن البقاء للأصلح ، وأن الدوام للأنفع : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال » . وكأن الحق تبارك وتعالى يشير إلى أمثال هؤلاء الذين يفضلون الوصول إلى مآربهم ومطالبهم من أقرب طريق وبأقل مجهود وبأعجل عمل ، ولا يفكرون فى النتائج والعواقب ، فيقول عنهم : « إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلا » .

وليس معنى تنفير الإسلام من العجلة أنه يريد أن يعلم أتباعه البطء فى الحركة ، أو الضعف فى الإنتاج ، أو التماوت فى العمل ، أو الكسل فى أداء الواجبات ، وكيف وهو الذى يدعوكم دائماً إلى التكبير فى الخير ، والمسارعة إلى البر ، والمبادرة إلى الطيبات والحسنات ، والإقبال على صراط ربهم الهادى إلى الفضل والنبل ، وإلى ما يبقى ويدوم : « ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين » ، وكيف والرسول صلوات الله عليه يقول : « باكروا فى طلب الرزق والحوائج ، فإن الغد بركة ونجاح » ! . . وقال النبى : « اللهم بارك لأمتى فى بكورها » .

وإذا كانت العجلة مكروهة فى مواطن كثيرة ، لما فيها من افتعال أو ارتجال ، فإنها قد تكون محمودة فى مواطن تناسبها وتلائمها ، وهناك أمور ومواقف تتطلب من التصرف الحازم والعمل السريع ما لا يناسبه التأجيل

والتسويف ، أو التأنى والتمهل ، فصد الشر الزاحف ، وإغاثة من يحتاج إلى نجدة وإنقاذ ، وأداء الواجب الموقوت بوقت محدود ، كل هذا وأشباهه تكون المسارعة إليه خيراً وفضلا ، ويكون التأخر فيه نقصاً وخدمة ، ومن هذا القبيل ما ينسب إلى حاتم الأصم الصوفى حيث يقول : « العجلة من الشيطان إلا فى خمس : إطعام الطعام إذا حضر ضيف ، وتجهيز الميت إذا مات وتزويج البكر إذا أدركت ، وقضاءالدين إذا وجب ، والتوبة من الذنب إذا أذنب » . وإنما عد حاتم هذه الأشياء مما تستجيب فيه المبادرة والعجلة لأن تعجيل الطعام الموجود للضيف الجائع دليل على عدم التكليف والتصنيع ، وفيه مسارعة بإكرام النازل وإزالة الجوع عنه ، ولأن أول الحقوق المتعلقة بالميت هو حق تجهيزه ، حتى قيل إن تجهيز الميت عقب وفاته كستر عورته بالثياب فى حياته ، ولذلك تقول العامة فى أمثالها « إكرام الميت دفنه » . وتزويج الفتاة البكر إذا بلغت واستحقت الزواج ووجدت الكفء والشخص المناسب لها هو من الخير الذى تحسن المبادرة به متى تهيأت أسبابه وإبعاد لها عن مواطن الزلل والانحراف ، والمبادرة إلى أداء الدين إذا جاءه وعد أدائه مكرمة « تحفظ للانسان ماء وجهه وتصون سمعته عند غيره ، لأن الدين هم بالليل وذل بالنهار ، والوفاء به فى ميقاته من شيم الكرام الأحرار . والمسارعة إلى التوبة والتعجيل بها من هدى الإسلام فإن الأجل مجهول وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، ولذلك يقول القرآن الكريم : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتين » . ويقول مصورا سرعة المتقين إلى الرجوع والإنابة : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » .

وليست الأشياء التى ذكرها حاتم الأصم هى كل الأشياء التى تحسن فيها المسارعة والمبادرة ، فهناك غيرها كثير ، حتى قال الفاروق عمر بن الخطاب :

« التؤدة فى كل شئ خير ، إلا فى أعمال الخير للآخرة » . ولا شك أن أحسن الأحوال للانسان هو أن يجمع فى عمله بين الإتقان والجد ، وبين التبكير والتبصر ، وبين الإحسان والمثابرة ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ... إن من البلايا التى نزلت بالأمة الإسلامية أن كثيرين من أبنائها يتعجلون فى مواطن تحتاج إلى الأناة والروية ، ويتباطأون عن مجالات تتطلب المبادرة والإسراع ، ومن المؤسف أنهم يسارعون عادة فيما فيه مغنم لأنفسهم أو مطمع لشهواتهم ، ويتقاعسون عما فيه نصرة لدينهم أو نفع لغيرهم ، مع أن الرسول قد أعظم المدح والتقدير للأنصار حين قال لهم : انكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع » . فليت أمة الإسلام تهب عليها نفحات من صفات الأنصار الذين كانوا يسارعون فى الجهاد والخيرات ، ويتباطأون عن المغانم والشهوات والذين كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

اطالة العمر[1]

الحمد لله عز وجل ، هو واهب النعم والبركات ، ومفيض الآلاء والخيرات : « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يؤيد عباده بنصره وخيره : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، عمر حياته بالصالحات ، وزان أيامه بالقربات ، فكان مثلا أعلى للناس أجمعين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ، وأنصاره وأحبابه ، ومن تمسك بدعوته وملته : « أولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

الملاحظة أن أكثر الذين تتقدم بهم السن يبحثون فى لهفة عما يعيد الشباب ويجدد الصحة ويمد أجل الحياة ، (وعلى الرغم من الدعاية البادية المقصودة فى هذا المجال،ومن تكررالتصريح من المسئولين بأن نتيجة هذا الدواء[2] غير مضمونة أو غير متيقنة ، فقد اهتم الناس كثيراً بأمره ، وتهافتوا عليه ، وتمنى الكثيرون لو تهيأت لهم الفرصة كى يعالجوا أنفسهم بهذا الدواء) وهذا التهافت يدل على الرغبة القوية فى إطالة العمر ومد فترة الشباب ، كما يدل على حب الخلود الكامن فى نفس الإنسان ، فالإنسان يتمنى بكل حيلة أو وسيلة لو خلد فلم يصبه الموت أو لم يلحقه الفناء ، ولذلك يخاف الموت خوفاً شديداً مع علمه بتحتمه وتأكد وقوعه ، ومع رؤيته له فى كل يوم . . . والإسلام لا يستنكر أن يتطلع المرء إلى طول العمر أو امتداد الحياة ، ولكن المهم فى نظر الإسلام هو أن تكون هذه الحياة ذات قيمة ومنفعة ، وإلا كانت عبئاً

---

(١) الجمعة ٨ شعبان سنة ١٣٧٩ هـ الموافق ٥ فبراير سنة ١٩٦٠ م

(٢) كثر حديث الناس والصحف فى الأيام الأخيرة عن دواء جديد قادم من الغرب قالوا عنه : انه يعيد الشباب ويجدد الصحة ، ويمد اجل الحياة .

ثقيلا وتبعة مرهقة ، وازدياداً مما يشقى الآن ويشقى فيما بعد ، ولقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل بقوله : يا رسول الله ، ، أى الناس خير ؟ فقال النبي : من طال عمره وحسن عمله ، قال فأى الناس شر ؟ قال : من طال عمره وساء عمله . . .

والقرآن الكريم يحدثنا عن موقف لإبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ، وهذا الموقف يشعرنا بأن الله قد يهب الأخيار الأبرار من عباده بعض متاع الحياة وزينتها ، وهم طاعنون فى السن ، فهؤلاء هم الملائكة الذين جاءوا إبراهيم يبشرونه وزوجته بذرية جديدة مباركة وقد طعنا فى السن ، فقد روى أن عمر إبراهيم فى ذلك الوقت كان مئة سنة ، وأن زوجته سارة كان عمرها حينئذ تسعين سنة : « وامرأته قائمة فضحكت ، فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ، قالت : يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً ، إن هذا لشىءٌ عجيب ، قالوا : أتعجبين من أمر الله » ؟ . كما أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كان يستعيذ بربه من زوال النعمة والصحة والرضى ، فيقول : « اللهم إنى أعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحول عافيتك وفجأة نقمتك وجميع سخطلك » . ولكن الإسلام فى الوقت نفسه يعلم المسلم أن يجيد الانتفاع بحياته ، فيجعلها مزرعة مثمرة له فى دنياه وأخراه ، وأن يبذل جهده لإصلاح شأنه ، ثم يتوكل على الله فى سعى ودأب وإيمان ، راجياً منه أن يهديه سواء السبيل ، ولذلك علم النبي أتباعه أن يدعو كل منهم ربه فيقول : « اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وأمتنى إذا كان الموت خيراً لى » . وليس عليه بأس فى أن يتطلب حسن المعيشة وطيب المتعة وزيادة الخير ، فمن الدعوات الواردة فى الحديث النبوى الشريف : « اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى إليها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر » .

كما أن الإسلام يذكر الإنسان بما هو مغروس فى أعماقه من حب الحياة ، والإسراف فى الطمع والتوسع فى الأمل ، فيقول الرسول : « يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان : الحرص على المال ، والحرص على العمر » ويقول : «لا يزال قلب الكبير شاباً فى اثنتين : فى حب الدنيا وطول الأمل » وكأن الإسلام بهذا يريد من الإنسان ألا يسىء استغلاله هذه الرغبة العميقة ، حتى لا يفاجأه الموت وهو فى إسرافه واعتسافه ، قبل أن يتوب وينيب ، فيكون من ورائه الحساب والعقاب ، ولذلك يقول الرسول : « لو كان لابن آدم واد من ذهب لتمنى معه الثانى ، ولو كان معه الثانى لتمنى معه الثالث ، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » . ولو أن الإنسان تذكر وهو فى شبابه وصباه أن من وراء الشباب شيخوخة وضعفا ، فاعتدل فى شبابه واقتصد فى ملذاته ، وكان فى أموره وسطاً ، لبلغ العمر الطويل دون أن يحس لواذع الحرمان أو التداعى ، وكم من أناس اعتدلوا فى حياتهم ، واستقاموا على طريقتهم ، وامتدت أعمارهم ، دون أن يتألموا أو يتحسروا أو يتعجبوا ، وأما أولئك الذين ينفقون شبابهم إنفاق السفهاء فى أثيم الشهوات والأهواء ، فإنهم يشيبون قبل الأوان ، ويكتوون بنيران الحسرة والجزع حينما تحيط بهم ثلوج الشيخوخة الخالية الوفاض . وما أحكم قول الذى قال : « من جار على صباه جارت عليه شيخوخته » . والقرآن الكريم يشير إلى المرحلة الثقيلة فى حياة الإنسان ، وهى مرحلة الشيخوخة المتداعية فيقول : « والله خلقكم ثم يتوفاكم ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم بعد علم شيئاً إن الله عليم قدير » . وأرذل العمر أردأه الذى ينقض فيه عقل الإنسان وقوته ، ويصير فيه إلى الخرف ، فيصبح كالصبى الذى لا عقل له ، ومن هنا كان الرسول يدعو فيقول : « اللهم إنى أعوذ بك من الهرم » وفى حديث

سعد بن أبي وقاص أنه كان يدعو ربه بقوله : « وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر » ولا عجب فى هذه الاستعاذة فإن الشيخوخة تأتى بمرضها وضعفها ، فهناك سعال الصوت وارتعاش اليد ، واهتزاز القدم وتلعثم اللسان ، وتهدج الصوت وبطء الحركة ، ولعل هذا هو سر التعبير القرآنى البليغ : « ومن نعمره ننكسه فى الخلق ، أفلا يعقلون » وهناك ضيق الناس بالشيخوخة ولهذا أوصى القرآن الإنسان بوالديه حسناً عند كبرهما وشيخوختهما : « إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً » .

وأما مسألة الخلود التى تشغل بال الإنسان منذ فجر التاريخ البشرى ، والتى أراد أن يعبر عنها بالبناء والنقوش والآثار والذرية وغير ذلك من الوسائل ، فقد حلها الإسلام أقوم حل ، وذلك بأن جعل الحياة الدنيا مزرعة وقنطرة نعبر عليها إلى حياة أخرى ، هى أبقى وأعلى : « بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » ، « وللآخرة خير لك من الأولى » ، « يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع إن الآخرة هى دار القرار » ، « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » . وبهذا يؤمن الإنسان أن الموت ليس زوالا أبدياً وليس فناء دائماً ، وإنما هو ضجعة ينامها الإنسان ، ثم ينهض بعدها من قبره ليلقى ربه ، فينال ثوابه بقدر ما أسلف من عمل صالح : « للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ، ولنعم دار المتقين » .

ويقول أبو العلا المعرى :

خلق الناس للفناء فضلت ... أمـــة يحسبونهم للبقـــاء

إنمـــا ينقلون من دار أعما ... ل إلى دار شقوة أو رشاد

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

فلنتذكر أن الشباب فى الحس والجسم لا يجدى إذا لم يكن معه شباب فى الروح والعزيمة ، ولقد كان أجدادكم يبلغون من العمر ما يبلغون وصدورهم عامرة بالرضى والإيمان والعزم ، ويرددون فى صدق قولهم : « تشيب نواصينا ولا تشيب قلوبنا » ، فلنبتغ الخير فى هذه الحياة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، وإذا أرضينا حواسنا فلا يليق بنا أن نغفل نفوسنا ، ورب يوم فى حياة عامل مؤمن خير من عام فى حياة عابث غافل ، وسبحان من لوشاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل . . .

أمة تصهرها التجارب[1]

الحمد لله عز وجل ، جعل أمته وسطاً ليكونوا شهداء على الناس ، وأمر بالوحدة والتوحيد فقال : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » . وأشهد أن لا إله إلا الله يثيب ويعاقب ، ويؤدب ويهذب : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا ترجعون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أدبه ربه فأحسن تأديبه فكان قدوة للعالمين . فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطاهرين وصحابته السابقين وأتباعه العاملين : « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

للأمة المؤمنة أعداؤها الذين يتربصون بها الدوائر عن يمين وشمال ، وهؤلاء الأعداء لا يغيظهم شيء كأن يروا هذه الأمة متآلفة متماسكة ، ولا يسرهم شيء كسرورهم حين يرونها متفرقة متمزقة ، لأنهم حين ائتلافها واتحادها لا يستطيعون أن ينالوا منها منالا أو يكيدوا لها كيداً ، ولكنهم حين تفرقها وتمزقها يجدون الثغرات التي ينفذون منها إلى مآربهم الخبيثة التي يريدون . . . ولذلك أرسل الله رسوله ليكون نبي الوحدة والتوحيد ، فيثبت كلمة التوحيد ، ويحقق توحيد الكلمة وقال في محكم تنزيله : « إنما المؤمنون إخوة » وقال : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » وقال : « وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين » وعلم الرسول أتباعه أن يكونوا يداً واحدة وقلباً واحداً في مادياتهم ومعنوياتهم ، وحركاتهم وسكناتهم ، حتى روى أن الصحابة كانوا في أول أمرهم إذا نزلوا

---

(١) الجمعة غرة ربيع الأول سنة ١٣٧٩ هـ الموافق ٤ سبتمبر سنة ١٩٥٩ م .

منزلا أثناء سفرهم توزعوا فى الشعاب والأودية ، فقال الرسول لهم : « إن تفرقكم هذا من الشيطان » . فصاروا لا ينزلون بعد هذا منزلا إلا انضم بعضهم إلى بعض حتى يقال : لو بسط عليهم ثوب لعمهم .

ولقد طافت بأمتنا منذ حين طوائف من أعاصير الإحن والمحن ، ووجد الشيطان فيها منفذاً ينفذ منه هنا أو هناك ، محاولا التفريق أو التمزيق ، وكانت لكيده عواقب وخيمة ونتائج أليمة ، ولكن التجارب التى مرت بالأمة بعد ذلك صهرتها فذكرتها ، وأدبتها فعلمتها ، وخرجت الأمة من هذه التجارب وهى مؤمنة بأن الفرقة ضعف ، وأن الوحدة قوة ، وأن العوارض الطارئة التى تعرض للأمة من حين لحين لتنال من قوتها أو هيبتها يجب أن تمحى عن طريق الاصطلاء بجذوة الكفاح المخلص ، والتطهر بعرق العمل الموصول ، فإن المجهود المخلص المضنى كفيل بأن يمحص النفوس ويصفى القلوب ويعيد الجموع إلى طريق الهدى والرشاد . وهؤلاء مثلا هم المسلمون الأولون يعودون من إحدى الغزوات (وهى غزوة بنى المصطلق) وقد انتصروا انتصاراً باهراً وغنموا غنائم كثيرة ، ولم يستشهد إلا رجل واحد قتل خطأ ، وعادوا عودة الظافرين الظاهرين على أعداء الله وأعداء الدين ، ولكن حكمة العليم الخبير وضعت فى طريقهم درساً ليؤدبهم به ويهديهم ، فقد ازدحم على سقى الماء خادمان أحدهما من المهاجرين والآخر من الأنصار فاقتتلا ، فصاح الأول : يا للمهاجرين ، وصاح الثانى : يا للأنصار ، وهمت الدعوة الجاهلية المنتنة أن تتحرك وتثور بين قوم أسلموا لله وجوههم ، وأخلصوا للاسلام جهودهم ، فهذه عوامل الشر تتجمع ، وهذه حوافز الفتنة تتأهب ، وبخاصة أن بعض المنافقين استغلوا الحادث الذى سببه الصغار فكاد يقع فيه الكبار كما يعبر العامة ، فأخذو هؤلاء المنافقون يحاولون بعث الفتنة النائمة من مرقدها ، وفى طليعتهم عبد الله بن أبى رأس المنافقين ، فما كان من الرسول إلا أن عجل

بالدواء والعلاج ، فأمر بارتحال الجيش فى وقت لم يكن محدداً للرحيل ، وظل يسير بالجيش طيلة نهاره وليله ، وصدرا من طليعة اليوم التالى ، ثم أذن بالراحة ، فما كاد القوم يمسون الأرض بجنوبهم حتى ذهبوا فى سبات عميق ، وقاموا بعد نوم طويل ، وقد كان الشديد الذى تعبوه ، والعرق الذى تصبب من جباههم خلال مسيرهم ، فاصلا قوياً بين الحادث العارض وبين الحاضر المشرق ، فنسى القوم ما كانوا فيه ، وأصبحوا بنعمة الله متحابين . .

وهكذا شأن المسلمين ، أو هكذا يجب أن يكون ، يعرض لهم العارض من زلل أو خلل أو تقصير ، فيتخلصون من ذلك ويتطهرون بالمجهود يبذلونه ، فيصلح ما كان من فساد ، ويعوض ما فات ، وبالعرق يتصبب جباههم ، فيكون طهوراً يتطهرون به من عيب التقصير أو الانحراف ، ويخرجون منه ظاهرين متطهرين ، مخلصين لله حنفاء . . .

ولقد تصاب الأمة فى بعض الأوقات بشدة أو أزمة ، فيصبر أبناؤها عليها حتى ترحل عنهم ويخرجوا منها أقوياء أشداء ، مهما ظنت الظنون أن صبرهم على هذه الشدة سيؤدى بهم إلى مضاعفة الأذى لهم ، ونحن نتذكر موقفاً يشير إلى هذا المعنى ويرمز له ، وهو حال المسلمين حين ذهبوا إلى مكة فى عمرة القضاء ، وأخذوا يطوفون حول الكعبة ، وكانت الحمى قد فعلت بهم الأفاعيل ، فانتهزها المشركون السفهاء فرصة ليسخروا من المسلمين ويشمتوا بهم ، فجعلوا يتهامسون قائلين : إن محمداً وصحبه قد أنهكتهم حمى يثرب ، فأراد الرسول أن يقضى على أثر ذلك الهمس الخبيث ، فشمر ثيابه واستعد للهرولة وهو يسعى ويطوف ، وقال لأصحابه : رحم الله امرأ أرى القوم قوة من نفسه اليوم . . واستجاب الأصحاب مسرعين ، فعجلوا وهرولوا برغم ما بهم ، وتصبب العرق الطهور من الجباه الشريفة السامية ، فكان خير رد على هؤلاء السفهاء ، وكان علاجاً أى علاج لنفوس البررة الأوفياء . . .

وإذا كانت الأمة كما رأينا تطهر نفسها من زللها بسبحها فى بحر الجهاد والنضال والعمل ، فكذلك الفرد ، قد يزل زلة ، ثم يفىء ويندم ، ويلقى بنفسه فى غمار العمل الكريم والتكفير الصادق ، حتى يرتفع فى مراقى الصلاح والطاعة درجات فوقها درجات ، وربما صار بعد هذه الهفوة وما أعقبها من ندم ومجهود وعرق أحسن شأناً مما كان عليه من قبل ، ولعل هذا ما يشير إليه ابن عطاء الله السكندرى حين يقول : « رب معصية أورثت ذلا وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً » .

وإذا كانت السيئات تأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، فإن المباهاة الكاذبة أو الكبرياء الحمقاء تمحق عمل الإنسان كله ، فلا هو لآخرته ادخر ، ولا هو بحاضره انتفع ، وذلك هو الخسران المبين ، وأفضل المسلمين شأناً من علم علم اليقين أن حياته أجل مضروب له ، وهو مدعو فيه إلى أن يبذل أقصى جهده ليكون صالحاً سعيداً فى حاضره ، ومقبولا مرضياً فى غده يوم يلقى ربه جل جلاله ، فهو لا يقصر ما دام قادراً على التمام ، إذ ليس هناك عيب كنقص القادرين على التمام ، وهو لا يغتر بمجهود يقدمه لئلا يمحق عمله بغروره وفجوره ، وهو يتذكر دائماً قول الحسن البصرى : « ما من يوم ينشق فجره إلا نادى مناد من قبل الحق : يا ابن آدم ، أنا خلق جديد ، وعلى عملك شهيد ، فتزود منى بعمل صالح ، فإنى لا أعود إلى يوم القيامة » . ومن شأن المسلم أن ينتهز الفرصة قبل فواتها وإلا انقلبت عفته ، وأن يحسن استغلال الوقت ، لأن الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك ، وأن يحسن استغلال قواه البدنية والمعنوية قبل أن تتحطم فيه تلك القوى فيقول : يا ليتنى قدمت لحياتى ، وصلوات الله على رسوله يوم قال : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ::: ما قيمة الأمة إذا لم تكن بنياناً مرصوصاً شامخاً ، لها مكانتها وحرمتها ، ولها فى الحياة هدفها ورسالتها : «كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤ منون بالله » . وما قيمة الفرد إذا لم يكن كائناً حياً صالحاً مصلحاً يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً ، ويعمل لأخراه كأنه يموت غداً ، فلتعمل الأمة على جمع كلمتها وصيانة وحدتها وتحقيق رسالتها ، وليعمل كل فرد لله ولوطنه ونفسه حتى يكون المجموع فى خدمة الفرد ، ويكون الفرد فى خدمة المجموع ، فيسعد الجميع ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

من هدى الصوفية[1]

الحمد لله عز وجل ، مد الآفاق وبسط الأرزاق ، وهيأ للانسان الزمان والمكان : « يقلب الله الليل والنهار ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » . أشهد أن لا إله إلا الله ، الحق الذى لا يقبل غير الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، الداعى إلى الهدى واليقين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وذريته ، وأنصاره وأهل صحبته ، وأتباعه وأجناد دعوته : « أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

من سلفنا الصالح إمام تكلم كثيراً فى تربية النفوس وتهذيب الأخلاق ، وهو الإمام سهل بن عبد الله التسترى الذى كان يقول : « لا معين إلا الله ، ولا دليل إلا رسول الله ، ولا زاد إلا التقوى ، ولا عمل إلا الصبر » ، ويقول : « العيش على أربعة أوجه : عيش الملائكة فى الطاعة ، وعيش الأنبياء فى العلم وانتظار الوحى ، وعيش الصديقين فى القدوة ، وعيش سائر الناس فى الأكل والشرب » . ومن كلامه عبارة دقيقة عميقة ، تثير الفكر وتشغل العقل ، يقول فيها : « الفتن ثلاث : فتنة العامة من إضاعة العلم ، وفتنة الخاصة من الرخص والتأويلات ، وفتنة أهل المعرفة من أن يلزمهم حق فى وقت فيؤخروه إلى وقت ثان » . والمراد الفتنة هنا هو الابتلاء المؤدى إلى التقصير فى تحمل التبعة ، وإذا كان الحديث الشريف يقول : « المؤمن خلق مفتناً » أى ممتحناً يمتحنه الله من حين إلى حين ، فإن الحديث الآخر يقول : « المسلم أخو المسلم يتعاونان على الفتان » أى يعاون أحدهما الآخر على التخلص

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٢٢ ربيع الأول سنة ١٣٨٤ هـ الموافق ٣١ اغسطس سنة ١٩٦٤ م .

من وساوس الشيطان الذى يفتن الناس عن الهدى ، ويريد أن يضلهم الضلال فتعالوا بنا نتعاون فى ضوء هذه العبارة على معرفة الفتنة ، ونتلمس الطريق إلى الابتعاد عنها : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » .

يقول الإمام المربى : « فتنة العامة من إضاعة العلم » ، وهو يقصد بالعلم هنا العلم النافع الموصل إلى الله تعالى ، وكأن هذا الإمام كان ينظر بقلبه إلى زمان كزماننا ، فإن كثيراً من الناس اليوم يضيعون على أنفسهم ما يجب أن يعرفوه من أمور دينهم ، وأحكام شريعتهم وهدى نبيهم وطرق تعبدهم ، ولقـــد دخلت على المجتمع الإســـلامى ألوان كثيرة من الثقافات الطارئة التى تدور حول الشهوات والملذات ، أو الأهواء والرغبات ، أو مطامح النفس ومطالب الحسد ، وأصبحت الثقافة الدينية بين هذه الألوان كالغريبة المضيعة ، وهناك آلاف الأطنان من الورق تتحول كل شهر إلى كتب ومجلات ومنشورات ، وأغلب هذا المنشور إما أن يميل إلى بحث الأمور المادية البحتة ، وإما أن يجنح إلى موضوعات الجنس والأدب المكشوف ، المنحرف ، وصارت المجلة المشهورة بالتبذل أو التحلل تطبع عشرات الألوف من كل عدد ، وتمتد إليها الأيدى تتخاطفها فى الشوارع والمكاتب والأندية والمخادع ، على حين أن مجلات الدين والأخلاق تصاب بكساد وإعراض ، وهكذا تضاءلت قيم الروح فى دنيا البطون والفروج ، وتسببت إضاعة العلم الدينى فى فتنة الكثيرين وإضلالهم عن سوء السبيل .

ثم يقول الإمام المربى : « وفتنة الخاصة من الرخص والتأويلات » . وهذا القول له شواهد عديدة فى دنيا المسلمين ، فنهم كثيرون إذا أوتى الواحد منهم حظاً من الذكاء أو العلم أو المكانة ، أساء استغلال ذلك ، فهو يبحث

أوسع عن الرخص الدينية هنا وهناك ، حتى يتحلل من أغلب العزائم والواجبات ، ويتخلص أكثر من القيود والتبعات ، وهو يشتط فى التأويل والتفسير ، فيتعلل حيناً بأن هذا الحكم كان لزمن معين لا لكل زمان ، وأن ذاك الحكم قد نسخ بحكم آخر ، وأن هذا الحكم يتطور بتطور الإنسان والزمان والمكان ، حتى سمعنا من يدعو إلى تفسير النصوص القرآنية والنبوية تفسيراً يخضعها لأهواء العصر ، حتى تتفق هذه النصوص مع ما يحبه الناس أو يشتهونه وبذلك يصبح الدين تابعاً لا متبوعاً ، لا يقود الحياة ومن فيها وإنما يقوده أهلوها كما يريدون ، مع أن هدى الله تعالى يجب أن يظل مهيمناً وموجهاً : « قل أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شيء ؟ » « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

ثم يقول الإمام المربى : « وفتنة أهل المعرفة أن يلزمهم حق فى وقت فيؤخره إلى وقت ثان » ، والمراد بأهل المعرفة هنا هم الذين عرفوا ربهم ، وأدركوا حقوقه ، وأقبلوا عليه ، واستعانوا به فلم ينصرفوا عنه ، ولذلك قال أبو يزيد البسطامى « علامة العارف ألا يفتر عن ذكر الله تعالى ، ولا يمل من حقه ، ولا يستأنس بغيره » . وقال الجنيد : « العارف من لم يأسره لحظة ولا لفظه » وكأنما يعنى أنه تلقنه عن الله تعالى شهوة النظر ولا شهوة الكلام ، وهؤلاء العارفون السائرون على صراط الاستقامة يرون أن الواجبات أكثر من الأوقات ، وأن كل جزء من أجزاء الزمن له حق وعمل وواجب ، وشأن العارف بالله المراقب له أن يؤدى كل عمل فى وقته ، ولا يؤخره إلى غيره ، وإلا اجتمع حقان أو أكثر على وقت واحد ، وإذا فعل العارف ذلك تعرض للفتنة والابتلاء ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين ، وهذه الفقرة من كلام الإمام المربى تذكرنا بقيمة الوقت فى نظر الإسلام والمسلمين ، فهم يشبهون الوقت بالسيف ، إن لم يقطعه صاحبه بالعمل المبرور والسعى المشكور قطعه

الوقت بالهوان والضياع ، وإن الوقت يطول ويستعرض أمام اللاهين أو الغافلين ، فيرتعون ويمرحون ، ويلهون ويلعبون كأنهم مخلدون ، وكأنهم إلى ربهم لا يرجعون ، ولكن حينما تذهب السكرة وتأتى الحسرة ، يتضاءل هذا الزمان الطويل العريض فى أنظار من استطالوه بالأمس ، فكأنه طيف مر ، أو خيال عبر ، وما أدق الرمز إلى هذا وأعمقه فى قول الله عز من قائل : « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ، كذلك كانوا يؤفكون» وقوله عن القيامة : « كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » . والرسول يقول معبراً عن قيمة الوقت وتبعته : « لا تزول قدماً عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

هناك إذن فى الأمة المسلمة كثرة جاهلة يرجى منها أن تتعلم وتتفقه وتدرك واجبها نحو ربها ودينها ، وهناك خاصة أتاها الله جاهاً وذكاء وعلماً ، ويرجى منها ألا تحرف الكلم عن مواضعه ، وألا تشوه المبادئ بالتحويروالتغيير ، وهناك فى أمة محمد قلة تمثل الاستقامة والخير ، وواجبها أن تظل سائرة على طريق الهدى ، لتكون مناراً للورى ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

فى ركاب الصــوفية[1]

الحمد لله عز وجل ، « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولو الألباب » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يهدى النفوس من ضلالها ، ويكسوها بأثواب جمالها ، والله ذو الفضل العظيم ، ونشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كان خير قدوة وأفضل أسوة ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

تعالوا نشطح قليلا مع الصوفية الصادقين المخلصين ، لنتسامى إلى مراتب أولئك الأعلام الذين أرادوا أن يضربوا للناس المثل العليا ، بإعراضهم عن شهواتهم ، وإقبالهم على الله وحده ، يدعونه ويعبدونه ، ويرجون منه العون والسداد ، والصوفية الصادقون طائفة من البشر ، وهبهم الله قلوباً طاهرة ، ونفوساً بالخير عامرة ، وأرواحاً اربها ذاكرة ، فهى تهيم فى ملكوت السموات والأرض ، وتتدبر فى اختلاف الليل والنهار ، وتعتبر بسواطع الدلائل والآثار فتهتف من الأعماق : « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » . وتراهم مثلا يعلمون المرء ألا يزهو بقربة من القربات ، لأن الاغترار بما يقدمه الإنسان نحو ربه من أعمال قد يكون سبباً لمحقها ورفضها وعدم الإثابة عليها ، وكم من أناس تاهو على غيرهم افتخروا بأنهم أكثر منهم طاعة ، فكان افتخارهم محبطاً لما قدموا من عمل ، حتى صار هباء منثوراً ، ولذلك نجـد الصوفية يذكرون بالتواضع ويدعون إليه ، لأن من تواضع لله رفعه ، ومن

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٣١ مارس سنة ١٩٥٠ م .

تكبر عليه قصمه ووضعه ، ويرون أن من أخطأ فندم وتاب واستقام ، أخف شأناً ممن أطاع ثم تطاول على العباد بطاعته ، ولذلك قال ابن عطاء الله السكندرى « رب معصية أورثت ذلا وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً » . ومن هنا كان الصوفى الصادق يعمل ، ما يعمل من الخيرات ، ويقدم ما يقدم من الصالحات والقربات ، فإذا قيل له : أنت من أهل الجنة ، خاف وارتعش وقال : إنى لا آمن مكر الله ، اللهم اغفر لى ما لا يعلمون ، ولا تفضحنى على رءوس الأشهاد يارب العالمين .

والصوفى الصادق رجل رزين هادئ ، لا يكثر من الادعاء والتظاهر ، ولا يحاول أن يكشف للناس ما استتر من تقواه ، وإلا كان مرائياً ، والرياء هو الشرك الخفى الذى يدب دبيبه المستتر إلى الإيمان فيفسده ، بل يظل الصوفى يعبد ربه مخلصاً له الدين ، يحتجب عن عيون الناس ما استطاع ، ويرى أن الناس كانوا ورقاً بلا شوك فأصبحوا شوكاً بلا ورق ، فهو يجلس مع العامة بجسمه ، ولكن قلبه يهيم فى أودية أخرى ، وقد يبدو هادئاً ساكناً فى ظاهره ، ولكنه فى داخله يميد خوفاً ورهباً ، وهذا شيخ الصوفية الجنيد الذى صافى المعاملة مع ربه ، وعمر ليله ونهاره بالتقوى ، كان يجلس مع الناس يسمع آيات الذكرى والاعتبار ، فتضطرب لها نفسه ويقشعر فؤاده ، ولكنه يظل وقوراً ثابتاً كأنه لم يصبه شئ ، لأن هذا أمر بينه وبين خالقه ، يريد أن يتحقق فيه الإخلاص الذى جعله الله سراً من أسراره ، يودعه قلب من يشاء من عباده ، فلا يطلع عليه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، حتى يلقى ربه بإخلاصه يوم القيامة ، فيثبته عليه ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ولقد سأل بعضهم الجنيد عن سر هذا السكوت فقالوا له : لماذا لا نراك تتحرك بشئ عند السماع ؟ . فقال الجنيد : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب » ! . . . ولو فرضنا واشتهر التقى

بين قومه بالصلاح لانتشار الخير عنه ، أو سطوع النور منه ، فإنه لا يغتر بذلك ، بل يسأل ربه السلامة من آثاره ، وهذا هو بشر الحافى — الصوفى الإمام — كان يرتعد خشية من مثل هذا ، فيردد هذا الدعاء : « إلهى ، رفعتنى فوق قدرى ، ونوهت باسمى ، وشهرتنى بين الناس ، فأسألك بوجهك الكريم ألا تفضحنى غداً يوم القيامة » ! .

والصوفى الأصيل رجل ينتزع من كل مقام عظة ، ومن كل موقف عبرة ، بل قد ينتزع اللؤلؤ من بين التراب ، ويستخلص الرحيق المصفى من درن الشراب ، فهذا مثلا شاعر عابث يريد أن يزداد من الخمر أضعافاً فوق أضعاف قبل حلول رمضان فيقول :

إذا العشرون من شعبان ولت ... فواصل شرب ليلك بالنهار

ولا تشرب بأقداح صغار ... فإن الوقت ضاق عن الصغار

ويسمع صوفى هذين البيتين فيهتز لها ويميد منهما ، لأنه يفهم أن البقية الباقية من الأجل قصيرة ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ، وإذن فالواجب عليه أن يشمر عن ساعد الجد فى العبادة والتقوى .

« وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقونى يا أولى الألباب » .

ومن أخلاق الصوفية الصادقين أيضاً أنهم لا يتطلعون إلى ما فى أيدى الناس ، ولا يتكالبون على متاع الحياة الدنيا ، بل يتجهون بهممهم وعزائمهم إلى خالقهم ، ويسألونه من فضله العميم فى الدار الآخرة ، لأنها دار البقاء والهناء والنعيم المقيم ، ولذلك نرى سفيان بن سعيد الثورى — وهو الصوفى الإمام — يعزف عن الدنيا ويزهد فيها ، وتشغله العبادة والعمل الصالح عن الطعام والشراب والثياب ، وكان يحذر أن يناله شىء من سحت الدنيا أو باطل

الناس ، ويفعل ذلك انتظاراً لما هو أجدى وأبقى وهو متاع الفردوس العظيم فى ظلال العظيم الكريم ، ولما مات رآه بعضهم فى النوم فسأله عن حاله وعما فعل به ربه ، فقال :

نظرت إلى ربى عياناً فقال لى : هنيئاً رضائى عنك يا ابن سعيد
لقد كنت قواماً إذا اظلم الدجى بعبرة مشتاق وقلب عميـد
فدونك فاختر أى قصد أردته وزرنى فإنى منك غير بعيد !

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

قد لا تتسع هممنا أو لا تقوى عزائمنا على أن نبلغ ما بلغه هؤلاء الرواد الأعلام ، فلا أقل من أن نتنسم شذاهم العطر ، محاولين التشبه بهم إن لم نكن مثلهم ، وأن نولى وجوهنا شطر التذكر والاعتبار ولو من حين إلى حين ، فإن الذكرى تنفع المؤمنين ، وإن الروح لتصدأ كما يصدأ الوعاء إذا لم يكن له تطهير ، فلنطهر أرواحنا بخير ما تتطهر به الأرواح ، وهو نور خالقنا وبارئنا الذى يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويهديهم بإذنه إلى صراط العزيز الحميد ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

مكانة الصحبة(١)

الحمد لله عز وجل ، حث على التعارف والتآلف ، ودعا إلى الهدى ، وأعز بالتقوى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يبارك الصادق على الخير والبر ، ويمحق السيء من القول والفعل ، « إنه بما تعملون بصير » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كان مثلا لكرم الصحبة والإخاء ، وكان خير داعية للمحبة والصفاء فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله والمهتدين بأعماله وأقواله ، « أولئك هم على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه ، وهو لا يستطيع أن يحيا فى هذا الكون وحده مهما أوتى من بسطة الجسم والعلم والمال ، بل لا بدله ممن يصاحبه ويعاونه ، ويتبادل معه المؤازرة والمساعدة وكثير من الناس يعتبرون الصحبة مجرد التقاء لغرض أو مناسبة ، ثم تنتهى بانتهاء هذا الالتقاء ، مع أن الصحبة عند الإنسان الأصيل الكريم رابطة روحية لها مكانتها وقيمتها ، ولها آثارها المعنوية فوق مظاهرها الحسية ، والقرآن الكريم يزكى الصحبة ويسمو بحديثها حين يعبر عن الرسول العظيم بأنه صاحب : « ما ضل صاحبكم وما غوى » ، وحين يعبر عن الرابطة بين الابن وأبويه وأكرم بها من رابطة بأنها مصاحبة : « وصاحبهما فى الدنيا معروفاً » ، وحين يعبر عن شريكته فى حياته بأنها صاحبة : « وصاحبته وبنيه » ، « والصاحب بالجنب » . يقصد الزوجة .

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٢٢ ذو القعدة سنة ١٣٨١ هـ الموافق ٢٧ ابريل سنة ١٩٦٢ م .

ولقد نهضت دعائم الدعوة الإسلامية فى عصرها الأول على الصحبة والصحابة، فما كاد ابن عبد الله وسيد خلق الله يبشر بدعوة السماء حتى استجاب له نفر كرام فازوا بشرف السبق إلى صحبته ومعاونته ومؤازرته ، حتى استحقوا بهذه الصحبة التى حفظوا جانب حرمتها ورعوها حق رعايتها صادق التكريم والتمجيد ، فقال فيهم الرسول : « أصحابى كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم » وقال فيهم : « الله الله فى أصحابى ، لا تتخذوهم غرضاً بعد (أى لا ترموهم بألسنتكم) فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه ».

ولقد تمثلت الصحبة عظيمة كريمة رائعة فى تلك العلاقة النبيلة الجليلة الطاهرة التى وثقت يد الله تعالى أسبابها بين نبيه وخليفته أبى بكر ، الصديق الذى وفى للرسول بقلبه ولسانه وماله وأعماله ، وجازاه النبى وفاء بوفاء ، وإخلاصاً بإخلاص ، واعتز الرسول بهذه الصحبة اعتزازاً عميقاً واضحاً فقال : « إن من آمن الناس فى صحبته أبا بكر » ، وكان النبى يصفه بقوله : « أخى وصاحبى » ، وكان يدافع عنه إذا أوذى ويقول : « فهل أنتم تاركون لى صاحبى » ؟ وكان يقول له : « أنت صاحبى على الحوض ، وصاحبى فى الغار » . ولم يفت القرآن الكريم أن يسجل لقب « الصاحب » لأبى بكر ، ويبين كيف يكون إخلاص الصاحب وإشفاق الصديق ، فيقول : « إلا تنصروه فقد نصره الله ، ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » .

ولو رجعنا إلى السنة النبوية المطهرة لوجدناها ترشدنا إلى مبادئ فى الصحبة لها قيمتها وجلالتها ، فنحن نفهم منها أولا أن طبيعة الصحبة أن تكون بين متماثلين يتلاقيان فيتفاهمان ويتعاونان فى مجالات الحياة المختلفة بروح التوافق والتماثل ، حتى كأنهما قد صارا من اتفاق طباعهما شخصاً واحداً

أو روحاً واحدة ، فيقول عليه الصلاة والسلام : « الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تذاكر منها اختلف » . ولذلك يعتبر الصديق فى نظر الإسلام ، بل وفى نظر الناس صورة من صاحبه وترجماناً عنه ، فيلزم الإنسان أن يختار لصحبته من يزينه لا من يشينه ، ومن يؤيده فى الحق ويعينه ، لا من يضله أو يفسده ، ولذلك قال الرسول : « الصاحب رقعة فى الثوب ، فلينظر الإنسان بم يرقع ثوبه » وقال : « المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم إلى من يخالل » .

ولعل أول أساس للصحبة المرضية من الله ورسوله ، ومن الإسلام ومنهجه ، هو أن تكون خالصة لوجه الله ، حتى تكون شريفة القصد نبيلة الهدف كريمة المستوى ، وحتى تخلد وتبقى ، لأن ما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير الله زال وانفصل ، وهذا الخلوص فى الصحبة لوجه الله هو المعبر عنه فى أدب الإسلام بالحب لوجه الله تبارك وتعالى ، وحسبنا فى تمجيده قول من تمم الله به مكارم الأخلاق : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » . وليس هناك أعلى ولا أسمى ولا أنقى من جعل الصحبة خالصة لوجه الخالق جل جلاله ، لأن عمادها حينئذ سيكون قائماً على الطهر والتقوى والإخلاص ، وإذا كان هناك متصافحون مفسدون يتصاحبون على طريق الإثم والرذيلة ، أو يتزاملون فى مجالات الشر والباطل ، فإن صداقات هؤلاء لا تبقى ولا تدوم ، وما أسرع أن تنقلب هذه الصداقات إلى عداوات ، لأنها معلقة بأغراض خسيسة أو أهداف دنيئة أو مقاصد تافهة ، فإذا تحقق لصاحبها ما أراد زهد فيها أو تنكر لها أو انقلب عليها ، وقد يتعسر عليه أن يبلغ ما يريد ، وهنا يتحول إلى أفعوان يلدغ أول ما يلدغ ذلك الذى صاحبه بالأمس على قاعدة

الانتفاع أو الإيقاع ، ولذلك أشار القرآن المجيد إلى أن ألوان الصحبة التى تنشأ فى ظلمات الإثم والغش والخداع وإيثار الباطل ، تصير — إن عاجلا وإن آجلا — إلى عداوات ومضرات ، ويبقى الأتقياء الأنقياء الذين نهضت صحبتهم على أساس الإخلاص والصدق كما هم ، يتحلون بنعمة الأمن والاطمئنان فى الدنيا والآخرة ، فيقول القرآن : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون » .

وهذه هى نتيجة الصحبة الضالة المضلة يصورها كتاب الله عز وجل : « ويوم يعض الظالم على يديه ، يقول: « يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتا ليتنى لم اتخذ فلاناً خليلا ، لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى ، وكان الشيطان للانسان خذولا » .

وحتى إذا تصاحب المؤمن مع المؤمن ، فالله راعيهما ، والرسول قدوتهما ، والإسلام قانونهما ، والإخلاص رائدهما ، ومن ثم لا يدعو أحدهما الآخر إلا إلى خير ، ولا يدله إلا على بر وفضل ، ولذلك كان على كل منهما أن يطيع صاحبه ويستجيب له ، ويتجنب معه الجدال والخلاف والعصيان ، ولعل هذا هو ما أراده بعض الصوفية حين صور تطاوع الصاحبين ، واستجابة كل منهما للآخر فى مبادرة ومسارعة ، بقوله : « إذا قال لك صاحبك : هيا ، فقلت له : إلى أين ؟ فلست بصديق . وذلك لأنه حين يقول لك : هيا ، لا يقولها إلا داعياً إلى سبب من أسباب الحق أو الخير أو العدل . لأنه الصاحب المؤمن المخلص الطهور ، وإذا كان الحديث يقول : « المؤمن مرآة أخيه » فمعنى هذا أنه لا يخادعه ولا يرائيه فى قليل أو كثير ، كما أن المرآة تخفى شيئاً عمن ينظر فيها ويتطلع إليها ، ولقد قال يوسف بن الحسين لذى النون المصرى : من أصاحب ؟ فقال : من لا تكتمه شيئاً يعلمه الله تعالى منك . ورضوان الله تعالى على خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز حين حدد إطار

الصحبة النافعة المخلصة فقال : « من صحبني منكم فليصحبني بخمس خصال : يدلني من العدل إلى ما لا أهتدى إليه ، ويكون لى على الخير عوناً ، ويبلغنى حاجة ، من لا يستطيع إبلاغها ، ولا يغتاب عندى أحداً ، ويؤدى الأمانة التى حملها بينى وبين الناس ، فإذا كان كذلك فحيهلا (١) ، وإلا فقد خرج من صحبتى والدخول على » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : ما أحوج الحياة الصاخبة اللاغبة إلى النسمات الطيبة الطاهرة التى تنبعث من روضة الصحبة النقية الخالصة ، وما أحوج المرء فى هذه الحياة إلى صاحب له أمين ، يذكره إذا غفل ، ويعينه إذا ذكر ، ويشاركه إذا فرح ، ويشاطره إذا حزن ، ويخلص معه الصحبة لوجه الله عز وجل ، حتى يطيب مذاق هذه الحياة ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

جهلة بالسنة(١)

الحمد لله عز وجل ، « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » ، أشهد أن لا إله إلا الله ، القائل : « من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أرسله ربه شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الطيبين ، وأصحابه المخلصين ، وأتباعه المؤمنين : « وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

نعق ناعق منذ حين فى بلد عربى فتهجم على سنة سيد الأنام محمد عليه الصلاة والسلام ، وحاول التشكيك فى أصح كتاب بعد كتاب الله عز وجل وهو صحيح الإمام البخارى الذى أجمعت الأمة المؤمنة على أنه أصدق كتاب بعد القرآن الكريم ، ومن أعجب العجب أن هذا الناعق افترى على الإمام البخارى فى أكثر من جهة ، فألقى ظلا على صدقة فى الرواية مع أن البخارى هو رجل الثقة الأمين الحافظ ، الذى قضى حياته فى خدمة السنة ، وسهر الليالى فى تمحيصها ، وطوى الفيافى والقفار فى سبيل التثبت من نصوصها ، ونسب هذا الناعق إلى الإمام البخارى ما لم يقله ، فكان مفترياً فوق تطاوله وخبث مقصده ، ثم تقاصر عقله عن فهم نصوص نبويه ، فشطح فى تفسيرها ونطح ، فجمع على نفسه أكثر من سبة ، وكسب لها أكثر من مذمة ، ولعله حسب أنه سيهدم شيئاً من جلال مكانة البخارى فى أنظار المؤمنين ، ولكن كيده ارتد إلى نحره ، وكانت نعقته سبباً فى مسارعة الكثيرين من المؤمنين

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ١٧ من ذى الحجة سنة ١٣٨٥ هـ الموافق ٨ أبريل سنة ١٩٦٦ .

إلى تمجيد البخارى والدفاع عنه والترديد لسيرته العاطرة ، ولو كان البخارى اليوم حياً لما ساءه مثل هذا التطاول ، فهو القائل رضى الله عنه : « المادح الذام عندى سواء » ، والبخارى وهو فوق هذا قد أعطى أمثال ذلك المتطاول درساً فى أدب الحديث وصيانة الحرمات ، وبخاصة حرمة من مات ، فقال : « أرجو أن ألقى الله عز وجل لا يطالبنى أنى اغتبت أحداً » ، وليت هؤلاء يعتبرون ويتعظون ويذكرون قول من قال :

لا تظلموا الموتى وإن طال المدى　　　إنى أخاف عليكم أن تلتقـــوا

ومن خلط هذا الناعق الذى يهرف بما لا يعرف أنه قال إن البخارى روى حديثاً لا يمكن قبوله ولا تصور معناه ولا نسبته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو قوله : « اختلاف أمتى رحمة » ، وهذا الحديث أولا غير موجود فى صحيح البخارى ، لأن الذين رووه أئمة آخرون غير البخارى ، وهو حديث حسن ، ومعناه لا غبار عليه ، وإذا كان ذلك المتهجم على السنة لم يستطع فهمه فما أجدره بأن يتذكر قول القائل :

وكم من عائب قولا صحيحاً　　　وآفتـــه من الفهم السقيم

إن الحديث يقول : « اختلاف أمتى رحمة » ، وهذا النص لا يصعب
تتلاف الموصوف فى الحديث
ل او العقائد والفرائض ، وإنما هو اختلاف
فى الفروع ووسائل التطبيق التى تختلف باختلاف البيئات والعصور والأزمان ولا جدال فى أن الناس قد اختلفوا فى الفهم والإدراك ، وأنهم يختلفون ، وأنهم سيختلفون ، ولو أردنا أن نحمل الناس على أن يكونوا جميعاً فى كل شئ « صوراً طبق الأصل » من نموذج واحد ، لما سار دولاب الحياة ، ولا تجلت الهمم والعزائم ، ولا ظهرت الحقائق أو الدقائق ، ولا تبدت سماحة

الإسلام الذى جاء بالنصوص العامة الكلمة الصالحة لكل زمان ومكان ، وترك أمام الأفهام والعقول مجالات فى فهمها واستنباط مدلولاتها ، ومراعاة ظروف الحياة عند تطبيقها ، وبذلك تتوافر عناصر البقاء والخلود أمام شريعة أرادها الله أن تظل قائمة دائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها،ولذلك قال خامس الراشدين عمر بن عبدالعزيز : « ما سرنى لو أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يختلفوا ، لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة » أى لم تظهر سماحة الدين وسهولته ، لأن هذا راعى ظروف القوى ، وذاك راعى ظروف الضعف ، وهذا لاحظ حالة الصحيح ، وذاك لاحظ حالة العليل ، وهكذا ، ومن وراء هذه الجهود المتعددة المستقصية لألوان الاستنباط بقدر الطاقة تكون هذا التراث الإسلامى الضخم الذى تفخر به أمة محمد صلى الله عليه وسلم حتى تقوم الساعة ، وهذا هو الإمام مالك يضع كتابه العظيم « الموطأ » الذى ضمنه ما جمع من السنة وما اهتدى إليه من الرأى ، فيطلب منه الخليفة هارون الرشيد أن يعلقه له على الكعبة ، وأن يحمل جميع الناس على ما فيه من آراء ، فيرفض الإمام ذلك ويقول للخليفة : «لا تفعل فإن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا فى الفروع ، وتفرقوا فى البلدان ، وعند كل منهم علم ، وكل منهم على صواب » .

ومن الميسور أيضاً أن نفهم هذا النص : « اختلاف أمتى رحمة » على أساس أن اختلاف مذاهب الناس فى البحث والإدراك والاستنباط يؤدى إلى خير ، لأن هذا يتيح فرصاً أمام حرية التفكير ، فيكون هناك استعراض واسع لوجهات النظر المختلفة ، والحقيقة بنت البحث ، وكل باذل جهداً فى التفكير مشكور مأجور ، ما دام مخلصاً طاهر النية ، ومن هنا ظهرت القاعدة الإسلامية المشهورة : من اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر ، وهى قاعدة تعد أروع الأمثال فى تكريم التفكير ، وتقدير

المجتهدين للوصول إلى حقائق الأمور ، وفوق هذا نجد حجة الإسلام الغزالى سنة ٥٠٥ هـ يفسر هذا الحديث تفسيراً آخر (١) بقوله : « الصناعات والتجارات لو تركت بطلت المعايش وهلك أكثر الخلق ، فانتظام أمر الكل ، وتكفل كل فريق بعمل ، ولو أقبل على صنعة واحدة لتعطلت البواقى وهلكوا ، وعلى هذا حمل بعض الناس قوله صلى الله عليه وسلم : (اختلاف أمتى رحمة) أى اختلاف هممهم فى الصناعات والحرف » . وهذا تفسير يذكرنا بما ينادى بـه المجتمع المعـاصر من التزام « التخطيط » الذى يقتضى أن تتوزع الهمم والطاقات على مختلف الحرف والصناعات ، حتى تتحقق للناس الأسباب اللازمة لتوفير مطالب الحياة وضرورات العيش ، ومن هنا ندرك ما فى حديث الرسول من رمز بليغ وإشارة دقيقة ، وما تفسير الغزالى السابق له من براعة وذكاء ، فلولا اختلاف الناس فى مذاهب العمل ومسالك الحياة لتعطلت شئون ، وفسدت للمعايش وجوه وأسباب ، وهذا سخر الله العباد فيما أراد ، وكل ميسر لما خلق له ، وفوق تدبيرنا لله تدبير .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إن من الأغرار من يحسب أنه يستطيع إفناء الجبل الشامخ إذا عجز عن صعوده ، ولو أن من جهل شيئاً تلمس الأسباب إلى تعلمه ، بدلا من المسارعة إلى إنكاره لكان هذا أليق بالعقل وأجدى على الإنسانية ، ولن يضير سنة رسول الله عليه صلوات الله
ـنرون ، فستظل بإذن الله عالية
: « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين
من بعدى » . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

---

(١) انظر كتاب الاسلام والاقتصاد ص ٧٧ .

بطانة السوء(١)

الحمد لله ، يقول الحق وهو يهدى السبيل ، ويحذر من التمويه والتضليل ، ويتوعد المبطلين بالعذاب الوبيل : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، فتحت للنفوس الكريمة معارج الفضيلة والكمال ، وأركست فى الظلمات أهل المنكر والضلال ، وما عند الله خير للأبرار ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، نصح الأمة ، وجمع الكلمة ، ولم يخش فيك لوم اللائمين ولا عنت المتكبرين ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله وصحبه ، وجنده وحزبه « أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

ما أكثر درجات الناس فى هذه الحياة ، منهم الضعيف القليل ، ومنهم المتوسط المكانة والرتبة ، ومنهم الذى يسبق ويتقدم ، ومنهم الذى يسود ويتزعم ، وكلما علت درجة المرء بين الناس زادت مسئوليته وثقلت تبعته ، وقد تعودت الجماهير حين الشكوى أو الحساب أن تتجه إلى هؤلاء الكبراء ، فتجعل صغيرتهم كبيرة ، وتشتد فى مؤاخذتهم ، ولو بينها وبين نفسها ، ونحن نلمس حين البحث فى المجتمعات المختلفة سخطاً زائداً على الكبراء والعظماء ، وحملة عنيفة على ما لهم من هفوات وأخطاء ، ولا شك أن للساخطين معذرة وبرهاناً ، ولكن لماذا لا نستقصى النظر حتى لا نقصر

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ١١ رمضان سنة ١٣٧٠ هـ الموافق ١٥ يونية سنة ١٩٥١ م .

سخطنا على أناس دون أناس ؟ . . إن هؤلاء الكبراء والعظماء مفرطون ومخطئون بلا ريب ، ولكن لهم شراء فى الإثم ، بل لهم عيون وسواعد ، رأت لهم وحرضتهم بالسعى اللئيم والاحتيال ، وهؤلاء الشركاء هم بطانة السوء التى يعدها الحكماء والمصلحون أصل الداء ومصدر البلاء فى تضليل الكبار وتضييع الصغار ، لأن بطانة العظيم هى عينه التى ترى ، ويده التى تبطش ، وناصحه الذى يشير ، والرئيس أو الكبير لا يستطيع أن يدرس كل شىء بنفسه ولا أن يطلع على كل أمر بعينه ، ولا أن يتصل بكل موطن يحتاج إلى إصلاح فهو يستعين بهذه البطانة ، فإن اتقت الله وأخلصت النصيحة وصدقت فى التوجيه ، وغارت على الحرمات وراقبت ديان الأرض والسموات ، استطاعت أن توجه كبيرها خير وجهة ، أما وإن كانت من مدرسة الشيطان وبيئة المنكر والبهتان ، ألقت كبيرها فى هاوية مصائبه وأحزانه ، وحفرت له قبره قبل أوانه ، وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام إذ يقول : « ما بعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان ، بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، فالمعصوم من عصم الله تعالى » . ويقول الأحنف بن قيس : « من فسدت بطانته كان كمن غص بالماء فلا مساغ له ، ومن خانه ثقاته فقد أتى من مأمنه » .

وإذا كان الواجب يقضى على الكبير أو العظيم بأن يحسن اختيار بطانته ، وأن يصطفيهم من أهل الدين والحكمة ، فإننا من جهة أخرى نستمطر اللعنات متتابعة على ذلك اللعين المجرم ، الذى يندس فى بطانة الكبير فلا يتقى الله فى قول ، ولا يخشاه فى عمل ، ولا يخلص لسيده فى النصيحة والتوجيه ، بل يخدعه ويزور أمامه الأشياء ، ويشوه فى نظره الحقائق ، فيرفع من مناصب الفجار ، ويكيد الكيد الرخيص للأبرار ، ويظل بمكره ونكره ، وكيده وصيده ، حتى يؤثر فى نفس الكبير الغافل أو الساذج أو المخدوع ، فيرتكب

الجرائم وهو يحسبها إصلاحاً ، ويسرف فى البغى وهو يظنه تأديباً ، ويكرم من لا يستحق التكريم وهو يتوهم ذلك تقديراً ، وهكذا . . . ومن هنا تجنى البطانة على نفسها أولا إذ توردها موارد الهلاك والسخط من الله ، وتجنى على الكبير إذ تخدعه وتغرر به وتشوه سيرته بين الناس ، وتجنى على الضحايا الذين ينكل بهم أو يعتدى عليهم ، بل وتجنى على الذين يحابيهم ذلك الكبير بالإشعار أو الإعطاء لأنهم إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً . . .

وقديماً كان المسلمون يؤمنون بأن مصاحبة الولاة والكبراء تستوجب الإخلاص فى النصح ، والصدق فى العظة ، والحكمة فى التوجيه ، فقد اختار عمر بن الخطاب عبد الله بن عباس ليشير عليه ، فقال له أبوه العباس : يابنى ، إن أرى هذا الرجل – يعنى عمر – يستشيرك ويقدمك على الأكابر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنى موصيك بخلال أربع : لا تفشين له سراً ، ولا يجربن عليك كذباً ، ولا تطوين عنه نصيحة ، ولا تغتابن عنده أحداً . وهذا رجل فى مجلس هشام بن عبد الملك ينصحه فيقول له : يا أمير المؤمنين احفظ عنى أربع كلمات فيهن صلاح ملكك ، لا تعدن عدة لا تثق من نفسك بإنجازها ، ولا يغرنك المرتقى وإن كان سهلا إذا كان المنحدر وعرا ، وأعلم أن للأعمال جزاء فاتق العواقب ، وأعلم أن للأمور بغتات فكن منها على حذر . . . والتاريخ الإسلامى يفيض بمئات العظات والنصائح التى قالها المرء المرءوسون للرؤساء ، والمحكومين للحاكمين ، والبطانات الطيبة للكبراء ، لأنهم كانوا يطبقون قول رسولهم عليه الصلاة والسلام : « الدين النصيحة . . . قالوا : لمن يارسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ». وقوله : « أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر » وقوله : « الساكت عن كلمة الحق شيطان أخرس » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

لا يمكن لأمة أن تسعد إلا إذا أحاط بكبرائها وقادتها بطانة نقية طاهرة ، تريد الإصلاح لا تكثير الجراح ، وتبغى فى عملها وجه الله لا الرياسة أو الجاه ، وتكفكف غلواء الكبرياء أو البغى عند القادرين من العظماء ، لا لأن تزيد النار اشتعالا ، أو الأمر فساداً وإضلالا ، ويومها يتبصر الكبار مواقفهم ، ويتدبرون نتائج أعمالهم ، فلا يشتطون ولا يسرفون ، بل كثيراً ما يهتدون ويفلحون بسبب الحكمة والموعظة الحسنة والهدى القويم ، وأما أن يكون فى الكبار استعداد للتحالل والفساد ، ثم تأتى بطانة السوء فتساعد التيار ، وتضاطف الخسار ، فتلك هى اللعنة ، وذلك هو سوء القرار ، فليتق الله كل فرد فى الأمة ، إن كان كبيراً أو رئيساً أو قائداً فليستعن بالله وليحسن اختيار الناصحين والمشيرين ، وإن كان مرءوساً فليكن ذا خلق وضمير ، لا يرائى ولا ينافق ، ولا يضلل ولا يخدع ، بل ينصح لله ، ويرشد بأسلوب الهداة ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده والله ذو الفضل العظيم ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولى هـذا واستغفر الله لى ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

فى بلاد المسلمين[1]

الحمد لله ، بسط فى الكون آياته ، ونشر فى العالمين بركاته ، « رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا » . نشهد أن لا إله إلا أنت سبحانك ، رب المشارق والمغارب ، ومقعد الآمال والمطالب ، ومرجع الغايات والرغائب ، ألا إلى الله تصير الأمور ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك عمر الأرض بخطوات الإيمان واليقين ، ورفع فى الآفاق لواء المتقين ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وصحابته الساعين المحتسبين ، وأتباعه الواثقين بيوم الدين « ولكل درجات مما عملوا ، وما ربك بغافل عما يعملون » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

أنا عائد إليكم من رحلة إسلامية جامعة ، زرنا فيها اليونان وتركيا وسوريا ولبنان ، وقد رأينا خلالها ما يستحق طويل الحديث والتعبير ، ليوقظ مشاعر الاعتبار والتفكير ، ولنكتف الآن بالقليل عن الكثير ، والله يهدى من يشاء صراط مستقيم . . .

إن من واجبات المسلم فى حياته أن يرحل من مكان إلى مكان ، وأن يسير فى الأرض ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، لا ليلهو ويلعب بل ليرى ويدرس ، فيزداد بالله وجلاله إيماناً ، وبالحياة والأحياء علماً وإدراكاً ، وبسنن الكون تبصراً واقتناعاً ، والناس يتهمون المسلمين عامة ، والمصريين خاصة ، بأنهم يقبعون فى ديارهم طيلة أعمارهم ، ولا يحبون الارتحال عنها

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٨ من ذى الحجة سنة ١٣٧١ هـ الموافق ٢٩ اغسطس سنة ١٩٥٢ م .

ولو إلى حين ثم يرجعون إليها ، وهذا نقص يجب تلافيه ، حتى ندفع المسبة عنا ، ونستجيب لدعوة الله إيانا أن نسير فى أرجاء كونه باحثين ومعتبرين : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » .

بدأنا أولا بزيارة اليونان ، ولم تشغلنا مظاهر البساطة والمساواة فيها طويلا إذ فى الإسلام – لو طبقة أهلوه – ما هو أسمى وأعلى ، وقد تساءلنا عن المسلمين فى اليونان ، فعلمنا أن هناك منهم أقلية تبلغ خمسين ألفاً ، ولكنهم متفرقون موزعون هنا وهناك ، بلا رابطة أو ثقافة إسلامية جامعة ، وأكبر الظن أن المسلمين فى العالم لا يعرفون عنهم شيئاً ذا بال ، وقد كان الواجب أن يدرسوا أحوالهم ويعاونوهم على فقه دينهم ويوثقوا الروابط معهم ، لأن الأقليات الإسلامية تضيع أو تتفتت إذا لم يسندها بنيان الأمة الإسلامية الأكبر : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .

وفى تركيا وجدنا أيها السادة شعباً مؤمناً قوياً ، لم تغير يقينه الحوادث أو الأحداث ، بل ظل واثقاً بربه ، محباً لرسوله ، معتزاً بقرآنه ، محافظاً على صلواته ، ولقد اختلفت بيننا اللغات ولكن القلوب لم تختلف ، وكانت الإشارات كافية فى تناجى الأرواح وقد تقاربت الأشباح ، وكانت رؤية العمامة وحدها كافية لجمع الجموع وحشد الحشود ، وإذا سئل أحدهم : أمسلم أنت ؟ أجاب مسرعاً : مسلم والحمد لله . . . ثم اسمعك شيئاً من القرآن بترتيل وتجويد . . . ولقد وقفنا أمام شيخ الإسلام فى تركيا نتحدث عن الملة المحمدية ووحدة أهليها ، فبكى الشيخ الأكبر وبكى من حوله ، وفاضت عواطف الأخوة الإسلامية بين الجميع بصورة أخاذة مؤثرة ، وكذلك كان الحال فى كل موطن ذهبنا إليه أو تحدثنا فيه عن الإسلام أو خطبنا عن تعاليمه ، ويحق لكم أن تستبشروا بعودة تركيا إلى الإسلام ، فالآذان بالعربية فى كل

أوان ، والقرآن يتردد فى كل مكان ، وكاية الشريعة الإسلامية بأنقرة تنهض شاهقة البنيان ، ومظاهر الاعتزاز بالعقيدة تبدو واضحة للعيان ، وكل هـذا يريكم أن تركيا المسلمة الشقيقة لم تنفصل عنا ، وهى اليوم تعود إلينا ، والله خير جامع لأمة محمد على كلمة الحق والتقوى .

وفى سوريا وجدنا الإسلام كذلك قوياً ، وإن كانت تسايره روح الاعتزاز بالعروبة ، وقد وجدنا من يحذر المعالنة بالفكرة الإسلامية السافرة ، فيقول مثلا : الدين لله والوطن للجميع ، وهذا كلام حلو المنطق عذب الرنين ، ولكنه دقيق الأثر خطير الثمر ، فالدين كله لله ، والوطن أيضاً كله لله ، والأرض بيد الله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، وإذا كان المراد بهذا التعبير أن نجامل غير المسلمين ، فخير من هذا أن نفسح الطريق للاسلام ، وفيه الضمان كل الضمان لحقوق غير المسلمين ، ولن تستطيع الأقليات غير المسلمة أن تجد أرحم أو أعدل من الإسلام يوم يسود ويقود ، « اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » . والإسلام لا يمنعنا أن نعتز بالعروبة ، ولا أن نقوى الشرق ، فالعربية لغته ، والعرب ناشروه ، والشرق مهبطه ومدرجه ، ولكن الإسلام بعد هذا هو الأساس وهو خير نبراس : « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين » .

وفى لبنان مع الأسف مسلمون كثيرون ، ولكنهم ضائعون مضيعون ، وليس كل السبب فى ذلك صبغة الدولة غير الإسلامية ، تفرق المسلمين إلى ما يسمونه سنية وشيعية ودروز وعلويين وغير ذلك ، وتلعب الأهواء والمآرب والمكايد أدوارها الكبرى فى إيقاد نيران العداوة والبغضاء بين هؤلاء حتى يبدوا وكأنهم أهل لأديان مختلفة ، مع أن الجميع يقولون : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، ولو أدوا لهذه الشهادة حقها لما وجد بينهم

شقاق ولا فراق ، لأن الله هو الذى يقول : « إنما المؤمنون إخوة » ولأن محمداً هو الذى يقول : « وكونوا عباد الله إخواناً » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

هذا حديث العاجل المسرع عن بعض بلاد الإسلام ، وما استحق الحياة من عاش لنفسه فقط ، ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم ، ولعل هذه اللمحة تثير فى صدر كل مسلم عزماً على أن يزداد للأمة الإسلامية درساً وتفهماً ، فلا سبيل إلى عزة المسلمين حقاً إلا بالتدارس والتعارف والتآلف والتعاون « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

ايام فى الاقليم السورى[1]

الحمد لله عز وجل ، هو واهب النعم وواسع الكرم : « وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » . أشهد أن لا إله إلا الله ، دعا إلى السعى والعمل ، وحسن الإعداد للدنيا والآخرة : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من علم قومه الانتفاع بالصحة والفراغ ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إنى عائد إليكم من الإقليم السورى بعد المشاركة فى رحلة نظمتها الدولة عن طريق المجلس الأعلى لرعاية الشباب لتوثيق الروابط الأخوية بين الشباب فى إقليمى الجمهورية ، وهذا هدف عظيم من غير شك ، لأن الأشقاء فى جزئى الوطن الموحد يجب أن يكمل تعارفهم وتآلفهم ، ولا ريب أن تحقق الوحدة بين هذين الشطرين كان تصحيحاً لجانب من أوضاع الوطن الكبير الذى يجب أن ترفرف عليه راية الوحدة والأخوة ، لأن الله تبارك وتعالى يريد أمته المؤمنة متكتلة متحدة متعبدة : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » . وكم من مرة ركب فيها الإنسان الطائرة قاصداً سورية قبل تحقق الوحدة ، فكان يشعر بما يشعر به الخارج من دولة إلى دولة ، أو من قطر إلى قطر ، بسبب الحواجز والقيود المفروضة ، ولكننا نركب الطائرة اليوم والوحدة قائمة ، وتتجه بنا إلى دمشق ، فلا نحس بالغربة ولا بالرحلة

---

(١) نشرت هذه الخطبة بمجلة لواء الاسلام . (التاريخ غير مذكور) .

خارج ديارنا ، بل نشعر فى وضوح وقوة بأننا نسبح فى جو بلادنا ، ونرحل فيها من جزء إلى جزء آخر ، وإذا كانت الفرقة والخيانة ومكائد الاستعمار والصهيونية قد أوجدت فى جسم وطننا الكبير شوكة خبيثة مسمومة ، وأطلقت عليها اسم « إسرائيل » فإننا نوقن بأن يوماً سيأتى ننزع فيه هذه الشوكة بإيماننا وأيماننا ، ونطهر وطننا من سمومها وجراثيمها ، ويتنقل المسلم فى أرجاء وطنه الواسع الفسيح ، لا تصده حواجز ولا تمنعه حدود ، بل جواز مروره أنه عربى فى أرض العرب ، أو مسلم فى وطن الإسلام ، يفتتح مغاليق الطرق أمامه بالكلمة السامية الشاملة : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

ولابد فى أثناء الرحلة من خواطر تثور وسوانح تعرض ، ومن هـــذه الخواطر أن الأمطار فى هذا العام كانت شحيحة نوعاً ما فى الإقليم السورى ، ولذلك يستعملون الماء بحساب وتدقيق ، والأشقاء هناك يحرصون على الانتفاع بكل قطرة من قطرات الماء ، ويعلمون أبناءهم كيف يقتصدون فى استعماله ، وهناك مساحات واسعة صالحة للزراعة ، وهى مساحات بكر عذراء خصبة التربة قوية الإنتاج ، ولكنها تتطلب الماء وتنتظر المطر ، فإذا أقبل أخرجت الأرض من خيراتها بمقدار ما ينزل من هذا المطر ، ولو تضاعف لضاعفت إنتاجها فلديها من الخيرات مزيد . . . وهذا الخاطر يجعلنا نتذكر نعمة الله الكبرى على إقليم مصر بهذا النيل الوفى المبارك ، الذى يفيض بهذه المقادير الكبيرة الضخمة من الماء ، ويزداد إيماننا بوجوب الحرص على استغلال هذه المقادير وصيانتها من التبدد والضياع ، لنحسن استعمالها ، ولنزيد بها المساحة المزروعة فى هذا الوادى الخصيب الذى لا يدرك قيمة خيراته وبركاته وآيات الله فيه إلا من رأى غيره من بلاد الدنيا ليقارن فيعرف أن الله قد خص بلاده بالمزيد من الفضل والبر ، فيستوجب ذلك منه الشكر لربه حتى

يحفظ له النعمة ويزيد فيها : « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » .

ومن الخواطر أيضاً أنهم ذهبوا إلى ضاحية من ضواحى دمشق ، حيث زرنا ضريحاً قالوا إنه ضريح السيدة زينب رضى الله عنها ، وعجب الزائرون من ذلك ، فهنا كما يقال ضريح للسيدة زينب ، وهناك فى القاهرة ضريح لها ، وقد يكون فى مدينة إسلامية أخرى ضريح ثالث لها ، وهكذا . . يوجد أيضاً بجوار الجامع الأموى فى دمشق ضريح يقولون إن رأس الحسين رضى الله عنه مدفون فيه ، وفى القاهرة ضريح لسيدنا الحسين ، وفى بلاد إسلامية أخرى أضرحة يقولون إنها للحسين ! ! . . وهذا موضوع يثير الجدل والمناقشة والاستغلال ، وطريق الخلاص منه هو أن نؤمن إيماناً بصيراً بأننا عباد لله وحده ، ولسنا عباد أضرحة ولا قبور ، وأننا نحب النبى صلى الله عليه وسلم لأنه سبب الرحمة ومنقذ الأمة ، وكاشف النعمة وموحد الكلمة ، ونحب آل بيته الطاهرين الطيبين رضوان الله عليهم أجمعين ، والحب يستتبع التشبه والاقتداء ، ومن أحب شخصاً لنبل أخلاقه وسمو أفعاله وعاطر سيرته سار على طريقته واقتدى بمنهجه ، وليست معرفة الضريح أو زيارته هى كل شئ ، بل الأهم من ذلك من ذلك أن نحب النبى باتباع سنته والعمل بملته ، ونحب آله الكرام العظام بالتشبه بهم فى يقينهم وإيمانهم :

وما لى إلا آل أحمد شيعة وما لى إلا مذهب الحق مذهب

وقد لاحظنا مع شديد الأسى والأسف أن الناحية الدينية مهملة عند كثير من الشباب الراحلين إلى هناك ، أو هى مفقودة غير موجودة ، وكأن هؤلاء قد أضيفوا إلى مجموعة المسلمين بحكم الموقع الجغرافى أو بحكم شهادة الميلاد ، فهم مثلا لا يؤدون الصلاة ، وقد لا يعرفون كيفيتها ، وهم يزهدون

فى الثقافة الدينية ويعرضون عنها ، وهم إذا فتحوا باب مزاجهم ترددت على ألسنتهم ألفاظ خارجة وعبارات متبجحة ، والقائمون على شئونهم لم يعطوا هذه الناحية الدينية حقها من الرعاية والعناية ، فلم يضعوا لهم ما يربطهم بهذه الناحية ، أو على الأقل يقربهم منها ، وهذا أمر يجب التنبيه عليه ولفت الأنظار إليه ، لأن شبيبتنا هم عدة الغد ورجاء المستقبل ، وهم ودائع غالية بين أيدينا ، نعدهم لحياة يجب أن تكون أشرف وأفضل من حياة التحلل والانطلاق ، ولن يستقيم أمر هؤلاء الشباب إلا إذا عمرت صدورهم بالإيمان ، وألفت أرواحهم السبح فى آفاق اليقين ، وتعددت ألسنتهم كلمات الدعاء والمناجاة والثقة بالله ، ومرنت أعضاؤهم على التعبد وأداء الصلوات ، وامتلأت نفوسهم بأضواء التدين السليم القويم ، وحينئذ يعصمون قلوبهم من الخور ، وأخلاقهم من التدهور ، وأبدانهم من العلل والمهلكات ، وإنها لأمانة كبرى فى عنق كل والدهى أن يصون ولده ويحسن تنشئته وتأديبه بالأدب الإسلامى الرفيع ، حتى يكون فى مثل هذه الرحلات عنواناً كريماً لأسرته وبيئته ومجتمعه ، والولد وديعة من الله عند والده، وهو عجينة نقية صافية بين يديه ، قابلة فى بدء أمرها للتشكيل والتعديل ، فمن الواجب على الوالد أن يعلمه ويؤدبه ويهديه سواء السبيل ، ليصونه عن الأذى والعذاب فى الدنيا والآخرة والله تبارك وتعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا قو أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة » والولد من الأهل ، أو هو أغلى من فى الأهل ، ووقايته من النار التى تذكرها الآية الكريمة تكون بتدينه وإيمانه واستقامته ، ولقـد جاء رجل إلى رسول الله صلوات الله عليه فقال له : يا رسول الله ، قل فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً غيرك فقال له الرسول : « قل آمنت بالله ثم استقم » ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن رعاية الشباب لا تقتصر على رحلات تنظم أو مباريات تقام أو اجتماعيات تعقد ، بل يجب أن تكون رعاية الشباب تقوية لأبدانهم ، وتنمية لعقولهم ، وتهذيباً لأخلاقهم ، وتعميراً لصدورهم بالدين والإيمان ، وبدون هذه الأصول لا تتحقق رعاية سليمة للشباب ، وإذا كانت الدولة تبسط يدها بالنفقة الكريمة على شئون هـذه الرعاية فيجب أن نحسن الإحسان كله فى استخدام هذه النفقة لتكوين جيل صالح من الشباب يؤمنون بربهم ووطنهم ومثلهم العليا ومبادئهم الإنسانية الرفيعة ، ويومئذ يصدق فى هؤلاء الشباب الأثر الإسلامى الكريم الذى يقول : « ريح الجنة فى الشباب » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . . .

صــوت من الجــزائر[١]

الحمد لله عز وجل ، له الحكم وإليه ترجعون ، تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، أشهد أن لا إله إلا الله ، العدل صفته ، والحق شريعته : « « الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، سعد من تبع طريقته ، وشقى من هجر ملته : فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ، ويسلموا تسليماً » ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ، وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

يزور وادينا الآن وزير الدولة الجزائرى ، وقد ألقى أول أمس محاضرة قال فيها : « إن انتصارنا فى الجهاد المسلح كان من أهم أسبابه تمسكنا بالدين ، لأننا رفضنا الجنسية الفرنسية ، وتمسكنا بتقاليدنا الدينية ، وبذلك حافظنا على شخصيتنا ، وحافظنا على روح الإسلام » . وهذا القول له قيمته وجلالته ، ويجب أن نطيل فيه التفكر والتدبر لنتعظ به وننتفع منه ، فلقد ظلت فرنسا تحتل الجزائر أكثر من مئة وثلاثين عاماً ، بقوة الحديد والنار ، وجبروت الطغيان والظلم ، ومع ذلك لم تخضع الجزائر ولم تخنع ، وأرادت فرنسابكل ما استطاعت أن تجعل الجزائر قطعة منها ، فباءت بالفشل والخيبة ، وظلت الجزائر عربيةمسلمة ، تجاهد وتناضل حتى استقلت واستقبلت عهداً لا يليق به إلا أن تزدهر فيه الصبغة العربية الإسلامية ، ولقد استمرت الثورة الجزائرية

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٩ جمادى الأولى سنة ١٣٨٣ هـ الموافق ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٦٣ م .

سبع سنوات ذهب فيها مليون ونصف مليون من الشهداء ، بحيث نستطيع أن نقول إن تربة الجزائر قد ارتوت ارتواء رهيباً من دماء هؤلاء الشهداء ، وصار من واجب كل جزائرى أن يغار على هذه التربة ، وأن يدافع عنها بكل ما يستطيع ، فقد امتزج ترابها بالدماء الزكية التى سالت من إخوة له سبقوا إلى رحاب الخلد باستشهادهم فى سبيل العقيدة والحمى ، وبقى من خلفهم رجال يجب أن يسيروا على الدرب ، وأن يكونوا خير عنوان للتضحية والوفاء ، ليصدق فيهم كما صدق فى أسلافهم الأماجد قول الحق جل جلاله : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » .

ولقد كانت المعركة بين الجزائر وفرنسة معركة دينية ، أرادت بها أمة الخنا والفجور فرنسة أن تقضى على الإسلام فى الجزائر ، ولكن الله أراد لها الخزى والعار : « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » ، وكانت البلاغات الحربية الفرنسية تقول فى فى كل مرة : قتلنا كذا من المسلمين فى الجزائر . وهى تريد بذلك أن تؤلب الغرب المسيحى على الإسلام والمسلمين فى الجزائر ، ولكن هذا الإسلام كان الحافز الإلهى القوى الذى يدعو إلى الجهاد والنضال لتحقيق الحرية والعـزة والكرامة ، وهو الذى أخذ يقرع أسماع المسلمين فى الجزائر بقول القرآن : « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » . وقوله : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ؛ وقوله : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » . وهذا وزير مسئول ويزن ما يقول يؤكد أن الإسلام كان عاملا قوياً فى دفع أشقائنا الأعزاء من أبناء الجزائر إلى مواطن التضحية والفداء ، وهذا الإسلام الذى

قاد فى المعركة ، وحرض على الشهادة ، هو نفسه الذى يهدى فى مراحل البناء والتعمير ، وأوقات السلام والأمان : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم » ، « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا » .

ولقد ذكر الوزير الجزائرى أنه تقرر فى دستور الجزائر أن الإسلام هو دين الدولة الرسمى ، وأن اللغة العربية هى اللغة الرسمية ، وهذان قراران جليلان من ناحية الفكرة والمبدأ ، وخير القول ما صاحبه العمل ، وأقوى المبادئ تأثيراً ما اقترن التعبير فيها بالتطبيق ، ولذلك نرتجى من الأمة المؤمنة حين تجمع على أن دين دولتها هو الإسلام أن تستضئ بهدى هذا الإسلام فى مجالات الحياة المختلفة ، حتى يقودهم إلى الصراط المستقيم ، لأن الإسلام ليس نصوصاً تتلى أو كلاماً يردد فحسب ، إذ لو كان الأمر كذلك لما احتاج النبى عليه الصلاة والسلام إلى ثلاثة وعشرين عاماً مليئة بالكفاح الموصول ، والنضال الثقيل ، والنوم المفزع ، والهجرة العازمة ، لما احتاج إلى إنشاء مجتمع إسلامى جديد يقوم على دعائم الفضيلة والعدالة والتقوى ، وحينما قال القرآن : « إن الدين عند الله الإسلام » وقال : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه » وقال : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » لم يرد أن يكون الدين ترتيلا وعبادة فقط ، ولكنه أراده إيماناً وعملا ، وعبادة ومعاملة ، ونظاماً للدنيا والآخرة ، ومنهاجاً للفرد وللأسرة وللدولة وللانسانية الراشدة كلها : « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله ، وعمل صالحاً ، وقال إننى من المسلمين » .

ولقد ذكر الوزير أن زاعمين قد زعموا أن الجزائر لن تستطيع تطبيق العدالة الاجتماعية ، ولا إشاعة الروح الاشتراكية ، لأنها تدين بالإسلام ،

والإسلام فى عمهم يعرقل التقدم الاجتماعى والإصلاح الاقتصادى ، وكذبوا على الإسلام وعلى التاريخ ، الإسلام هو دين العدالة الاجتماعية ، واشتراكية الإسلام الفاضلة العادلة أسمى من أى نظام بشرى فى الوجود ، والإسلام هو أول من أقام مجتمعاً دعائمه التكامل والتعاون والعدالة والشورى ، وهو أول من خاض معركة لانتزاع حقوق الفقراء من الأغنياء فى حروب الردة على عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ورسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام هو أكرم من وقف بجانب المستضعفين يرد عنهم كيد المتجبرين ، حتى قال فيه القائل :

انصفت أهل الفقر من أهل الغنى فالكل فى حق الحياة سواء !

وإذا كانت أصابع الشيوعية قد حاولت — كما ذكر الوزير الجزائرى — أن تبذر بذورها المسمومة فى الأرض الطيبة بالجزائر وفشلت فى محاولتها ، فإن من الواجب أن نتنبه لها كل التنبيه ، فقد تعاود محاولتها ، وقد تغير طريقها فإن أصحابها على مستوى خطير من المكر والمخادعة . وقد يستخدمون القلم والكتاب والصحيفة والمجلة والمسرحية وغيرها لبث نزعاتهم الخبيثة من وراء جدر وأستار ، وبطرق غير مباشرة ، وقد يتظاهرون حيناً بالتأييد لوجهة شعبية سليمة ، ثم يظلون يدسون السم فى العسل ، ويخلطون الخبيث بالطيب ، ويعتبرون ذلك مرحلة انتقال أو انتظار ، حتى تلوح لهم الفرصة المواتية فيفصحوا عن مرادهم الخبيث واتجاههم اللئيم : « والله من ورائهم محيط » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : من بين إسراف المسرفين ، وجمود الجامدين ، ينبثق نور الإسلام على الدوام بالخطة المثلى والهدى الرشيد ،

فلا إسراف ولا اعتساف ، بل توسط واعتدال : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » ، « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين » . فليس أمامنا كى نرشد ونسعد إلا أن نفىء إلى الله ، ونهتدى بهديه : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل .

عـائد من الباكستان(١)

الحمد لله ، يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولو الألباب . نشهد أن لا إله إلا أنت ، الخير كله منك ، والأمر أجمعه إليك ، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ؛ ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، إمام إمام الأنبياء ، سيد الأتقياء ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله ، وصحبه ورجاله ، الذين أخلصوا لله دينهم ودنياهم « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إنى عائد إليكم من الباكستان ، فهل تأذنون لى أن أحدثكم قليلا عن هذه الدولة المسلمة الناشئة ، التى تتطلع إليها أبصاركم ، وتتعلق بها قلوبكم ، وترجون لها من الله تجارة لن تبور ، حتى تكون مثلا يحتذى فى نهضة المسلمين وعزة الإسلام ، وأمة محمد مهما تعددت دولها ، وتباعدت مواطنها ، أمة واحدة : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

إن أول ما يستهوى الفؤاد فى أمر الباكستان أنها دولة أقامت دعائمها الأولى على أساس الدين ، ونادت فى العالمين حكومة وشعباً أنها ارتضت الإسلام عقيدة ودستوراً ، وليس هذا غريباً أو عجيباً ، فالقوم هناك متدينون أشداء الغيرة على دينهم ، وإنك لتلمس شواهد ذلك فى كلامهم وتصرفاتهم وعباداتهم ، وتعرف أسبابه وبواعثه فى تاريخهم الطويل ، حينما تقبلوا الإسلام

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٦ رمضان سنة ١٣٧١ هـ الموافق ٣٠ مايو سنة ١٩٥٢ م .

فى الصدر الأول بقبول حسن ، واحتملوا صابرين ما لاقوه من عنت المجوس وظلم الهندوس ، وبذلوا صادقين ما بذلوا من تضحيات فى سبيل الله والإسلام ولو أن مثل هذا اليقين العميق سرى فى نفوس المسلمين جميعاً اليوم ، واستقام على طريقته ، فنجا من ظلمة الجمود وحمق التطرف ، لتأذن ربكم بالفتح المبين والنصر القريب ، وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون إن الله لا يخلف الميعاد . . .

ومما يستلفت الأبصار فى الباكستان هذه السهولة فى اللباس والمظاهر وأمور الحياة ، فأنت ترى القوم لا يتكلفون ، ولا يشتطون فى ترف أو إسراف بل بساطة وتواضع واقتصاد ، لا تكاد تفرق بين رئيسهم والفرد المتوسط منهم ، ولقد تدخل دار الحاكم ، أو الرئيس ، فلا تهولك كثرة حراس ، ولا ازدحام حاشية ، ولا تتابع أستار وحواجز ، ومع هذا فالهيبة متوافرة ، والطاعة ظاهرة ، والثقة باهرة ، وكأنهم بهذا يصلون أسبابهم بالحاكم الديمقراطى الإسلامى الأشهر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حين كان يلبس المرقع من الثياب ، ويفترس المتناثر من التراب ، ثم ترهبه القياصرة ، وتذل له الأكاسرة ، وحين كان يهدى للخطة التى هى أقوم ، فيقول كما جاء فى الأثر : « اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم » . وليت هذا الاقتصاد يعم سائر البلاد الإسلامية فإن الإسراف فى الترف هو سر ضياع الأمم « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » .

ومن مظاهر الروعة فى الباكستان الناشئة التى تحاول الوقوف على قدميها لتبنى كيانها من جديد باسم الله ، هذه الثقة العميقة بالنصر والبلوغ . . . إن القوم هنالك يصارحونك بأنهم لا يملكون كل شىء ، وأنهم يحتاجون إلى كثير من الوسائل والأسباب ، ومع ذلك هم يقولون مؤمنين إننا سنصنع كل شىء ،

وسننجح فى محاولتنا ، وسنصل إلى غايتنا ، لأننا ولدنا فى مهد الإسلام ، والإسلام هو شرعة الديان ، وهو على كل شئ قدير ، ومنه نستمد الحول والطول ، وفى ذلك مقنع وكفاية : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » . . .
وقد يكون فى الأمة الناشئة بعض العيوب أو المآخذ ، وقد يستتر خلف الوجه الصافى بعض الغيوم أو الهموم ، وقد يشعر بها أهلوها أو غير أهليها ، ولكن ذلك لا يوبئسهم ، فالجسم الحى يقتدر على هزيمة الداء إذا وجد الداء ، ومن المستحيل أن تتطلب الكمال من أول شوط ، فى أمة غضة لا تزال وليدة تحبو فى رحاب الوجود . . . والباكستان أمانة فى أيدى المسلمين إن لم يصونوها ويرعوها حق رعايتها صارت الفرصة غصة وتتابعت منها الآلام على أن هناك فى الباكستان مشكلة تتطلب تضافر الجهود حتى تحل على خير الوجوه . : .
تلك هى مشكلة اللغة ، فإن أغلب القوم هناك يتكلمون اللغة الأردية ويكتبون بها ، ولا يمكن لأمة أن تشيد بناءها على أساس إسلامى صحيح إلا إذا كانت اللغة العربية هى لغتها الأصلية ، أو على الأقل أن تكون اللغة العربية لغة شائعة مفهومة بينها ، لا لأن اللغة العربية لغة العرب ، بل لأنها لغة القرآن ، ولغة محمد عليه الصلاة والسلام ، ولغة التاريخ الإسلامى فى أغلب نواحيه ، ولا يمكن لإنسان أن يستكمل تفقه الإسلام على الوجه الصحيح بغير معرفته للغة العربية ، ولقد أكثرنا من تحريضنا القوم هناك على تعلم العربية ، وهم والحمد لله مؤمنون بذلك راغبون فيه حريصون عليه ، يتطلبون فيه المعاونين والمرشدين ، وهنا يبرز واجب مصر واضحاً جلياً مصر زعيمة العرب والمسلمين ، وحصن الأزهر المعمور ، وأكاد أقرر أن نشر العربية فى الباكستان من أوجب الواجبات على مصر ، وهو لا يقل مكانة عن الجهاد العملى فى سبيل الله والإسلام . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

لسنا نقول هذا تفضيلا لأمة على أمة ، فلا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، ولا نقوله فتحاً لباب المشاحنة والتفاخر ، فالكبرياء رداء الله وحده ، ولكننا نقوله تنشيطاً للهمم وإثارة للعزائم « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » . . وإن مصر الإسلامية لتستطيع أن تنهض وتسبق وتستبقى لواء الزعامة الدينية فى يدها بالعمل المشكور والسعى المبرور والجهاد المأثور ، وجميع دول الإسلام بما فيها دولة الباكستان ترحب بذلك وتتمناه . أما أن نظل جامدين راكدين ، قانعين باجترار الذكريات وإثارة العصبيات ، ثم نصد غيرنا عن المسير ، فذلك عين الضلال والخبال ، وليس أضل من الذى لا يعمل ثم يسؤوه أن يعمل الناس ، فرحبوا بالنور المنبثق من الباكستان ، وابعثوا من أنفسكم أمثالا له مضاعفة ، وصونوا نوركم هنا وهناك من سوء الاستغلال ووهدة الضلال ، واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

عائد من ســوريا[1]

الحمد لله عز وجل ، هو ولى التوفيق ، والهادى إلى أقوم طريق : « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، بيده الفوز والنصر : « والله يؤيد بنصره من يشاء ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، تلقى شريعته ، وأدى أمانته ، وأعز دعوته : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضواناً » . فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه ، الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إنى عائد إليكم من سوريا العربية المسلمة ، أو من الإقليم الشمالى فى الجمهورية العربية المتحدة ، وقد جعلنا فى أنحاء هذا الإقليم السورى ، فزرنا دمشق واللاذقية وحلب ومعرة النعمان وحماة وحمص وغيرها من البلاد ، وسعدت بالحديث والخطابة فى كل بلد من هذه البلاد مرة أو مرات ، أنا أحمل إليكم تحيات أشقائكم هناك الذين يبادلونكم حباً بحب ، وعاطفة بعاطفة ، فى يوم الاستفتاء — وهو يوم الجمعة الماضى — خطبت فى الجامع الأموى بدمشق شبيه الجامع الأزهر فى القاهرة ، ودارت الخطبة حول الوحدة وكلمة الإسلام فيها ، وحول الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز ، وذلك لأن عمر بن عبد العزيز مثل تاريخى قديم للوحدة بين مصر وسوريا ، فهو مصرى ولد فى حلوان ، ونشأ فى مصر ، واستظل بسمائها ، وتنفس فى هوائها ، وارتوى من مائها ،

---

(١) الجمعة ٩ شعبان سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٨ م

ثم كان خليفة بعد ذلك فى دمشق ، وكانت خلافته تضم مصر والشام وغيرهما من بلاد العروبة والإسلام ، فدعوه الإيمان قد حققت منذ مئات الأعوام هذه الوحدة بين أبناء التوحيد واليقين ، ولأن عمر بن عبد العزيز كان مثال الخليفة الراشد الزاهد الذى نرجو أن يسطع على الناس عهد كعهده ، وسعد كسعده ومجد كمجده ، والله أكرم مسئول ، وأفضل مأمول . . .

لقد كان عمر بن عبد العزيز رجلا اجتمعت عليه كلمة الناس ، فقد كان قبله نزاع بين الأمويين وخصومهم ، وبين السنة والشيعة ، وبين الشيعة والخوارج ، وبين العرب والعجم ، وبين الولاة والأمة ، فلما أقبل عهد عمر اجتمع على حبه الناس ، فرضيت به الأموية والسنة والشيعة والخوارج والعرب والعجم ، لأنه عدل بين الجميع ، وكان عهده تنفساً كريماً للزمان بعد طول جدب وحرمان . . .

وكان عمر خير من أحس بواجبه كحاكم وقائد ، فقد تربى فى بيوت السلاطين وقصور الخلفاء ، ونشأ أولا فى الترف والتنعيم ، وكان يلبس قبل الخلافة الثوب الحريرى الرقيق فلا يكتفى به ويقول : ما أخشنه ! . لأنه كان غير مسئول عن سواه ، فلما تولى الخلافة وحمل أمانة الناس أحس بالتبعة فلزمه الورع والزهد ، وخصص جهوده كلها لخدمة الأمة ، وانصرف عن الحرير إلى الصوف ، وعن ألوان الطعام الشهية إلى العدس والزيت ، وعن اللهو إلى التقى ، وعن الغناء إلى التعبد ، وعن الشعر إلى القرآن ، وعن الشعراء إلى العلماء والفقهاء ، وعن حب الشهوات إلى رعاية مصالح الناس ، وصار يلبس الثوب الخشن من الصوف فلا يقنع بخشونته بل يقول : ما أرقه ! . وكان يردد : « لقد وليت أمر هذه الأمة أسودها وأحمرها ، فذكرت الغريب الضائع ، والفقير المحتاج ، والأسير المقهور ، وأشباههم فى أطراف الأرض ، فعلمت أن الله تعالى سائلى عنهم ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم حجيجى

فيهم ، فخشيت ألا يثبت لى عند الله عذر ، وألا تقوم لى مع محمد حجة ، فخفت على نفسى » ! . . . وكان عمر لا يفرغ لأهله ، ولا يجد وقتاً يستريح فيه أو يقضيه هادئاً سالماً من الشواغل ، وكان إذا جاءه بعض أولاده ليسأله : متى تفرغ لنا يا أبى ؟ . يقول : سأفرغ لكم يا بنى يوم أفرغ من أمور الناس وما أرى ذلك سيكون ، ثم يقول :

قد جاء شغل شاغل   وعدلت عن طرق السلامة

ذهب الفراغ ، فلا فرا   غ لنا إلى يوم القيامة !!

وتحدثت يومئذ عن عمر لأنه حارب الإسراف والتزيد فى النفقة بلاموجب حتى منع استعمال أوراق تكون أكبر من حجم المكتوب فيها ، ومنع التوسع فى ماء الوضوء ، ولما قيل له إن كسوة الكعبة لا بد من تجديدها فى كل عام قال : « تكفيها كسوتها ، وإنى رأيت أن أجعل ثمن هذه الكسوة فى أكباد جائعة من المسلمين ، فإنهم أولى بذلك من تجديد كسوة البيت فى كل عام » . فهو لا يجدد الكسوة إلا إذا قدمت ! ! . . .

ومع هذا كان عمر يؤدى لكل ذى حق حقه كاملا غير منقوص ، وكان يصلح هنا وهناك بهمة وجد ونشاط ، وكان يلتزم العدالة المطلقة والاستقامة المثالية فى حكمه ومعاملته ، وهو القائل فى أول خطبة له بعد الخلافة : « وإنى والله لا أعطى أحداً باطلا ، ولا أمنع أحداً حقاً . أيها الناس ، من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم » بسبب هذا الدستور الإسلامى القويم الذى نهض به عمر وحرص عليه قال العلماء إنه المجدد الأول فى الإسلام مصداقاً لقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « إن الله يبعث على رأس كل مئة عام من يجدد لهذه الأمة دينها » .

ولقد قدمت وأنا فى دمشق إلى الرئيسين جمال عبد الناصر وشكرى القوتلى كتابى « الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز » راجياً أن يكون العهد المشرق بأنوار الوحدة مهتدياً فى كل الأمور بالهدى الذى سار عليه عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه ، فتقبلاه بقبول حسن ، ولقد هتفت من فوق منبر الجامع الأموى قائلا : ما أشوقنا إلى عهد كعهد عمر بن عبد العزيز ، وزهد كزهد عمر بن عبد العزيز ، ومساواة بين الجميع كمساواة عمر بن عبد العزيز ! . . . ونحن نريد أن نضع سيرة عمر بن عبد العزيز أمام كل مسئول فينا وأمام كل وال من ولاتنا ، ونريد أن نعلمها لأبنائنا وطلابنا ومثقفينا ، حتى يشهدوا صورة رائعة من صور الحكم الإسلامى النزيه العادل ، الذى لا يفرق بين إنسان وإنسان ، ولا يحابى إنساناً على حساب إنسان : « وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الله عز وجل حين يقيم بيننا صرح الوحدة يمن علينا بأعظم منه ، ويكرمنا بأفضل نعمة ، وهو القائل لنبيه صلوات الله وسلامه عليه : « فإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » . وواجبنا أن نقدر هذه النعمة حق قدرها ، وأن نشكر هذه المنة بأفضل شكرها ، وأن نقبل على الله نحمده ونمجده ونتقيه ونعبده ونذكره ونشكره ، ونستزيده من توفيقه ورعايته : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

الباكستان(١)

الحمد لله عز وجل ، هو الواصل لما انقطع ، والمقيم لما انصدع ، وهو على كل شىء قدير ، أشهد أن لا إله إلا الله ، يعقب العسر باليسر ، ويقرن الابتلاء بالخير ، إن الله بالناس لرءوف رحيم ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أيد عوامل التوحيد والتوفيق ،وقاوم نزعات الخلاف والتفريق ، فكان رحمة الله للعالمين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه أحبابه ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

تعالوا بنا أيها الإخوة الأحبة نواصل جولتنا فى أنحاء العالمين العربى والإسلامى ، لنلتقى هذه المرة دولة إسلامية نائية المكان ضخمة السكان واسعة الرقعة وهى الباكستان التى وقفت إلى جوارنا فى محنتنا خلال اجتماعات هيئة الأمم « المختلفة » لا المتحدة ، بعد جفوة بيننا وبينها استمرت أمداً طويلا ، ولقد أعلنت الباكستان تأييدها المطلق للأمة العربية حتى قبل العدوان ، فاستنكرت استفزاز الصهيونية للعرب ، وأيدت سحب قوات الطوارئ من الأرض العربية ، وقال رئيس الباكستان إن ما حدث من عدوان إسرائيلى استعمارى هو مأساة لنا جميعاً ، وطالب بعودة جميع الفلسطينيين العرب إلى وطنهم السليب ، وقال من تكلم باسم الباكستان فى الاجتماعات الدولية إن على العالم أن لا ينسى أن هناك رابطة قوية عميقة باقية تربط الباكستان بالعرب وهى رابطة الإسلام ، ولعل هناك من يعجب حين يسمع أن أهل الباكستان

---

(١) الجمعة ٢ من جمادى الأولى سنة ١٣٨٧ هـ الموافق اول سبتمبر سنة ١٩٦٧ م .

لا يكادون يفرقون بين العرب والمسلم ، إذ يغلب على تصورهم وظنهم أن كل غربى هو مسلم ، والعربى عندهم له هيبته ومكانته ، يفرحون بلقائه ، ويظهرون توقيره ، وقد يقبلون يده ولو لم يكن من علماء الإسلام ، فكيف لو كان عالماً ، لأنهم يفهمون أن هذا العربى يتكلم بلغة القرآن ، وأنه قادم من بلاد خير الرسل محمد عليه الصلاة والسلام ، وأنه يذكرهم بالأخوة فى الله والمشاركة فى الإسلام ، وقد رأيت هذا رأى العين حينما زرت الباكستان منذ سنوات .

و « الباكستان » كلمة معناها الأرض الطاهرة ، وفى هذه الدولة ما يزيد على مئة مليون مسلم ، وقد أنشئت منذ عشرين عاماً سنة ١٩٤٧ ، على أثر تقسيم الهند ، بضم المناطق المزدحمة بالسكان المسلمين ، وقد كان إنشاؤها أملا حلواً يراود أذهان المسلمين فى الهند منذ أمد بعيد ، وقد تألق هذا الأمل وتضخم بوجه خاص فى ذهن شاعر الإسلام وشاعر الباكستان المرحوم محمد اقبال الذى تغنى بعزة الإسلام ومجد الإسلام ، وقال على لسان أجدادنا الذين جاهدوا فى الله حق جهاده :

كنا نقدم للسيوف صدورنا   لم نخش يوماً غاشماً جباراً
وروءسنا يارب فوق أكفنا   نرجوا ثوابك مغنماً وجواراً

ولقد نادى إقبال بإنشاء الباكستان ليتخلص المسلمون فى شبه القارة الهندية من الاضطهادات الدينية والعصبيات المذهبية ، إذا لم يكن من المعقول ولا من المحتمل أن يعيش فى مجتمع واحد فريقان : أحدهما يذبح البقرة ويأكلها كما شرع الله عز وجل ، والآخر يعبدها ويقدس حتى بولها وروثها ، وكذلك كان الهدف من وراء إنشاء الباكستان أن يقيم فيها المسلمون — كما تمنى إقبال — مجتمعاً إسلامياً يحاولون قدر طاقتهم أن يهتدوا فيه بالمجتمع الإسلامى الأول

الذى نشأ على محمد وازدهر فى عهد عمر ، ولذلك أخذ الشاعر الإسلامى محمد إقبال يصوغ القصيد بعد القصيد ، محركاً الروح الإسلامية فى الأرض الهندية ، ويفجر ينابيع الشوق والحنين إلى مجتمع المصحف ودولة الإيمان وعزة الإسلام ووحدة القبلة ، وحارب التصوف الأعجمى السلبى الانعزالى المميت للطاقات والمواهب ، المخدر للأفراد والشعوب ، ونادى بالتصوف الإسلامى العملى الإيجابى الذى يدعو إلى الطهارة والصفاء ، وإلى رقابة الدين ومحاسبة النفس ، وإلى السعى والجهاد والكرامة والاعتزاز بعزة الله وحده ، ولذلك عد إقبال سيدنا رسول الله محمداً عليه الصلاة والسلام أعظم صوفى فى الوجود بهذا المفهوم البصير ، وأخذ يؤكد فى العقول والقلوب أن الحياة الفاضلة لابد وأن يكون عمادها الدين والإيمان والوحدة ، فردد قوله :

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحى دينا
ومن رضى الحياة بغير دين فقد جعل الفناء لها قرينا
وفى التوحيد للهمم اتحاد ولن تبنوا العلا متفرقينا

هذا كلام جميل رأيناه مكتوباً فأعجبنا ، وسمعناه لحناً فأطربنا ، ورددناه بألسنتنا فأثارنا ، وافتقدناه فى دنيا المسلمين فلم نجد له صدى عملياً ، ولا ثمراً تطبيقياً ، سوى أشباح باهتة ، تتراءى خافتة ، وسط طوفان من الإغفال والإهمال ، وكأنه لم ينزل علينا قول ربنا جل جلاله : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

وإذا كانت الباكستان قد أبدت تأييدها لنا قبل العدوان وبعده ، وسعى إلينا رجالها ليوثقوا علاقتهم بنا بدافع من روح الإسلام ، فإنه ينبغى لنا أن نتذكر أنه قد ضاعت منا فرص كثيرة بالنسبة إلى الباكستان ، ضاعت

منا فرصة جعل اللغة العربية لغة رسمية أولى لها ، وقد كان هذا ممكناً عند إنشاء الباكستان ، فقد كان هناك اتجاه قوى من رجالها إلى هذا العمل ، وكان يناصر هذه الفكرة الرجل المسلم عبد الوهاب عزام طيب الله ثراه ، ولو تحقق هذا لصارت الباكستان عربية اللسان كما هى اسلامية العقيدة وفى ذلك فوز كبير ، وضاعت منا فرصة توثيق العلاقات الإسلامية العميقة بيننا وبين الباكستان ، مع أن اتجاهها الإسلامى القوى عند إنشائها كان يعاون على هذا ، ونحن لا ننسى أن فكرة المؤتمر الإسلامى العالمى ظهرت فى الباكستان قبل غيرها من البلدان ، وعلى الرغم من الفرص التى تفلتت من أيدينا بالأمس ، لا تزال أمامنا فرص يمكن أن نحسن استغلالها والانتفاع بها ، ويمكن أن ننتهز التجاوب العاطفى الذى بادرت إليه الباكستان فى أثناء المحنة لكى نستعيد روح التعاون والتضامن بيننا وبين إخوة لنا فى الإسلام يعمرون جوانب الباكستان .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إذا كنا ننظر إلى الهند الكبيرة كصديقة ، فينبغى أن ننظر إلى الباكستان كصديقة وشقيقة فى العقيدة ، وإنه من صالحنا ديناً ودنيا أن نطمئن إلى سلامة الروابط وعمقها بين بلادنا وهذه الدولة الإسلامية الواسعة الرابضة فى الشرق الأقصى حتى تكون ركيزة من ركائز التعاون فى محيط العالم الإسلامى ، والله يقول الحق يهدى السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

زلزال المغرب (١)

الحمد لله عز وجل ، جلت قدرته وسمت حكمته : « وهو الحكيم العليم » أشهد أن لا إله إلا الله ، يثيب بالنعمة ، ويؤدب بالمحنة : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أعطاه فشكر ، وابتلاه فصبر ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد وضع العالم الإسلامى يده المرتعشة على قلبه الحزين الذى خفق خفقة الأسى والألم منذ قليل ، لأن بلدة عزيزة من بلاد الإسلام والعروبة فى أرض المغرب قد طاف بها طائف الزلزال ، فأحال الأمن خوفاً ، والحياة موتاً ، والعامر خراباً ، وجعل المدينة الناضرة شبيهة بالمقبرة :

خسفت ، ثم أغرقت ، ثم بادت   قضى الأمر كله فى ثوان !!

وفى مثل طرفة العين وانتباهتها ، غير الله من حال إلى حال ، فإذا ألوف من القتلى ، وألوف من الجرحى ، وألوف من المنكوبين والمشردين ، وإذا مسه من ابتلاء الله تكفى لهذا كله ، وإذا الذعر يستبد بالجموع حتى يخيل إليها أن القيامة قد قامت ، فهؤلاء أمهات فقدن الأبناء ولا يجدن إليهم السبيل ، وهؤلاء أبناء ينادون أمهاتهم فلا يجدون الجواب ولا شك وأشد من هذا وأكبر سيكون يوم تقوم الساعة : « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ

---

(١) الجمعة ٧ رمضان سنة ١٣٧٩ هـ ٤ مارس سنة ١٩٦٠ م .

عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد » .

ولقد اتفق جميع المؤمنين على أن أفعال الله جل جلاله لا تخلو من حكمة ، وإن غابت عن عقولنا المحدودة هذه الحكمة فى بعض الأحيان ، لأن أفعال العاقل تصان عن العبث ، فكيف بأفعال الله تعالى الذى أبدع كل عقل ، وأوجد كل عاقل . . . ولقد كان هذا الزلزال المبلبل الشاغل كصورة مصغرة ليوم القيــامة الموعود : « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل أمرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » . وكأن هذا تحذير عام أو إنذار شامل يذكر كل فرد من البشر أن حياته رهن بمشيئة الأقدار ، وأن أجله محجوب خلف ستار الغيب ، وأنه عرضة فى كل لحظة للقاء المنتقم الجبار ، وأنه لا يدرى متى تأتيه منيته ، أو يحتن حينه : « « وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير » . ولا شك أن تذكر المرء لهذا حق التذكر يجعله دائم الخوف موصول الاستعداد لتلك اللحظة الرهيبة التى تنقله من دار الفناء إلى عالم البقاء ، ليستقبل حيــاة أخرى جديدة طويلة ، فيها النعيم الخالد إن أحسن ، والشقاء السرمدى إن شاء والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غششت الناس جميعاً ما غششتكم ، والله الذى لا إله إلا هو لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن على ما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً ، وإنها لجنة أبداً ، أو لنار أبداً » . . .

والله جل جلاله حينما حدثنا عن الزلزلة الكبرى التى لا تعدلها زلزلة ،

وهى زلزلة يوم القيامة ، لفت أبصارنا وبصائرنا إلى وجه العظة والعبرة فى هذا الحديث ، وهو أن يستعد المرء بالعمل الصالح النافع قبل أن يفوت الأوان ، لأنه سيلاقى كل ما عملت يداه ويجازى به إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، « إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الإنسان ما لها ، يومئذ تحدث أخبارها ، بأن ربك أوحى لها ، يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

وهناك فى هذا الزلزال المؤلم حادثة صغيرة فى مظهرها ، ولكنها دقيقة فى مغزاها ومخبرها ، وفيها عبرة للانسان الذى يغتر بعلمه وطاقته ، ويخيل إليه أنه قد عرف كل شئ ، وقدر على الكثير ، فقد ذكرت الأنبـاء أن الذين أصيبوا بالزلزال لم يشعروا به ولم يحسوا بقدومه إلا حين فاجأهم بنكبته ، ولكن الخيول والحيوانات الأخرى كانت قد أحست بالزلزال قبل قدومه بعشر دقائق ، فأخذت تصيح بأصواتها ، وتقفز من أماكنها ، وكأنها وهى العجماوات التى لم تدرس قد أحست بما لم يحس به الإنسان الناطق الدارس المعتز بثقافته وطاقته ، « « وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة » . . .

ولا شك أن الشدائد هى التى تميز بين الأصدقاء والأعداء ، وهى الميزان الذى توزن به روح المودة والتعاون ، ومن شأن المسلمين أنهم يتقاسمون حمل الضراء ، كما يتشاركون فى التمتع بالسراء لأن الأمة المؤمنة كتلة واحدة ، تشعر بشعور واحد ، وتخفق بخفقات قلب واحد ، والرسول صلوات الله عليه وسلامه هو الذى يقول : « المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً »

ويقول : « مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » ويقول : من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » ولقد أدركت الجمهورية العربية المتحدة هذا المعنى ، وعرفت واجبها فى هذا السبيل ، فسارعت بنجدة عاجلة قوامها خمسون ألفاً من الجنيهات ، وأرسلت بعثة طبية مع مقادير من الأدوية والأغذية والأكسية والأدوات الأخرى ، وهذا تصرف حميد توجبه القومية والعقيدة ، ولابد إلى جواره من فتح باب التبرع من الشعب للمنكوبين والمجروحين والمشردين ، لابد من المسح بيد الرحمة والشفقة والمواساة على هذه الصدور الحزينة التى رأت الهول وذاقت الملل وتشردت فى الأرض ، ولابد من مشاركة المسلمين فى إعادة بناء « أجادير » البلدة التى أصابها الطوفان ، حتى تعود أجمل مما كانت ، ليدلك المسلمون على أنهم يتعاطفون برحم الإسلام ووشجة الإيمان ، وليدلل العرب على أنهم سلالة القوم الذين علموا الدنيا كيف تكون المشاركة والمعاونة والمواساة ، وسيد العرب ورسول الإسلام محمد هو الذى يقول : « الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » ، ونحن الآن فى شهر رمضان ، شهر التطوع والتبرع والمعاونة ، ولقد كان نبيكم صلوات الله عليه كريماً جواداً فى حياته كلها ، ولكنه كان فى رمضان أسرع بالجود والعطاء من الريح المرسلة ، فليكن لنا منه قدوة حسنة فى هذا المجال ، فتمتد أيدينا بما تستطيع لتخفف آثار هذا المصاب .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن مثل هذه النكبة لا تنفرد بعلاجها وتحمل مشقتها الدولة التى أصيبت بها ، وإنما جرى العرف الإنسانى على أن تهب الدول الأخرى للنجدة والمواساة

والذى بيننا وبين المغرب العربى المسلم ليس رابطة الإنسانية فقط ، بل هناك وشائج القربى وروابط الأخوة ، هناك رابطة الشرق والعروبة والاسلام ، وكلنا فى الهم شرق ، والعروبة صلة نعتز بها ونفاخر ، والإسلام رحم ورحمة « إنما المؤمنون إخوة » ، « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » فلنثبت هنـــا أننا شرق عرف منذ أقدم عصوره معانى النجدة والإغاثة ، ولنثبت أننا عرب ألفوا المواساة والشهامة ، ولنثبت أننـــا مسلمون نعيش كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ..» واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ..»

فهرس